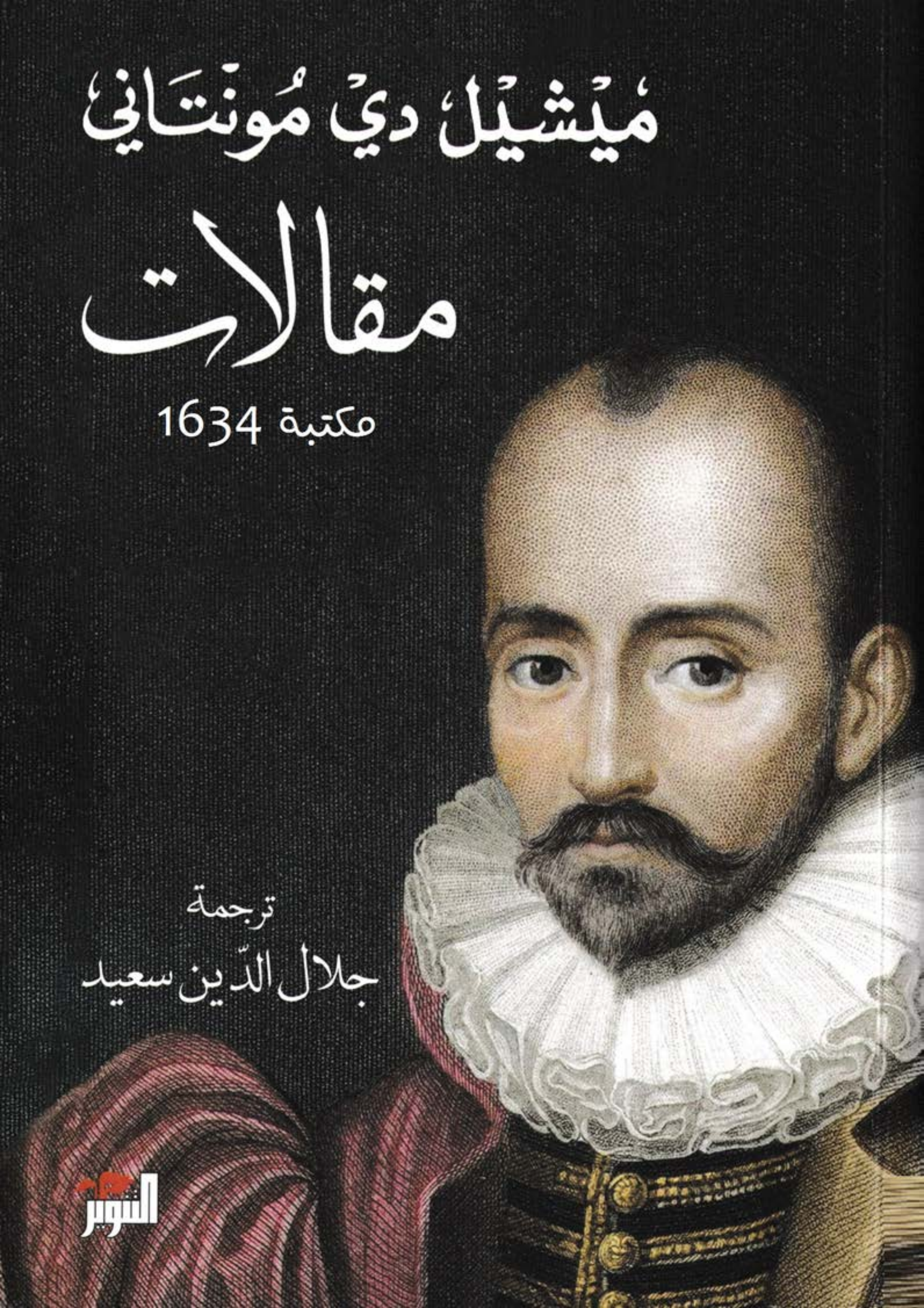

مُيشيل دي مُونتَاني
مقالات
مكتبة 1634
ترجمة
جلال الدّين سعيد
التنوير

ميشيل دي مونتاني

مقالات

مكتبة | 1634

الكتاب: مقالات

تأليف: ميشيل دي مونتاني

ترجمة: جلال الدّين سعيد

عدد الصفحات: 368 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-941-51-7

رقم الناشر: 156-344/ 21

الطبعة الأولى: 2021

هذه ترجمة للكتاب الأول من «مقالات» ميشيل دي مونتاني:

Michel de Montaigne
ESSAIS

مع ملحق يتضمن 19 مقالة مختارة من الجزأين 2 و3

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

ميشيل دي مونتاني

مقالات

الجزء الأول من كتاب «مقالات»

مع ملحق يتضمن 19 مقالة مختارة من الجزأين 2 و3

ترجمة

جلال الدّين سعيد



المحتويات

مقدمة



توطئة:

يُعتبر مونتاني من أهمّ المؤلّفين الفرنسيين في القرن السادس عشر، ويحتلّ كتابه الرئيسي «مقالات» منزلة عظيمة في الساحة الأدبية والفكرية العالمية، منذ أن نُشر إلى يومنا هذا. كان له تأثير كبير في أجيال متلاحقة من المفكّرين والفلاسفة، ويبقى كتابه مرجعا رئيسيا لكلّ من يبحث عن فكرة معبّرة عميقة تختزل في بعض الكلمات سلوكا إنسانيّا منفتحا على الآخر متسامحا معه، أو موقفًا جريئا من الفتوحات التبشيرية المسيحية، أو تصوّرا حداثيّا للتربية والتعليم، فضلا عمّا قد يجد فيه القارئ من أفكار نيّرة وجُمل طريفة (أضحت متواترة خالدة) تتناول مجالات متنوّعة من حياة الإنسان وأخلاقياته.

عاش مونتاني في مرحلة حاسمة من تاريخ فرنسا، لعلّها شبيهة جدّا بالمرحلة التي نعيشها اليوم؛ لقد كان شاهدا على الحروب الدّينية في عصره، فلم يتوان عن الدّعوة إلى التّسامح والتآخي بين أفراد الإنسانية جمعاء، مؤكّدا على نسبية أحوال الإنسان وهشاشة آرائه ومعتقداته وتفاهة وجوده.

على الرغم من شهرة مونتاني، ومن الإجماع على قيمة كتاب «مقالات»، فالغريب في الأمر هو أنّه لم يُنقل إلى العربية حتّى الآن، باستثناء بعض الفقرات أو الصفحات. ويبدو أنّ السبب أنّه كُتب بفرنسية القرن السادس عشر، وهي فرنسية مستغلقة، لا فقط على المترجم العربي، وإنّما أيضا على القرّاء الفرنسيين الذين انتظروا طويلا أن يقع نقل هذا الكتاب إلى الفرنسية الحديثة. هذا فضلا عن أسلوب مونتاني العويص، وكثرة المعلومات التي يعرضها، وتشعّب القضايا التي يتطرّق إليها، وما إلى ذلك من العوامل المحبطة، ولكنّها لم تحبطنا عندما فكّرنا في ترجمة هذا الأديب الفيلسوف، هديّةً للقارئ العربي وإثراء لمكتبته.

حياة مونتاني:

اسمه الكامل: «ميشيل أيكم دي مونتاني» Michel Eyquem De Montaigne

لا تحتاج سيرته الذاتية إلى سرد طويل، لأنّها موجودة كلّها في هذا الكتاب الذي

حقّق له الشهرة والمجد؛ فلو لم يؤلّف كتابه هذا، لعاش ومات كعامّة النّاس دون أن تخلّد ذكراه.

هو أديب وفيلسوف وأخلاقيّ فرنسيّ، ولد في 28 فيفري (فبراير) 1533 في قصر آل مونتاني وتوفّي فيه في 13 سبتمبر من سنة 1592. نشأ في عائلة من التجّار الأثرياء بمدينة «بوردو» (Bordeaux) في فرنسا. وكان والده من أعيان المدينة، حيث اضطلع برئاسة بلديتها. تلقّى تربية صارمة وناعمة معًا: تربية صارمة، إذ كُلّف مدرّسٌ بتلقينه اللّغة اللّاتينية على أساس صحيح، وذلك بمخاطبته بها دون سواها، ممّا جعله يتقنها أكثر من الفرنسية نفسها منذ السادسة من عمره، وهو ما فتح عينيه على الآداب الكلاسيكية، فضلا عن الآداب القديمة، التي يزخر كِتابه هذا بذكر أبرز أعلامها؛ وتربية ناعمة، إذ أراد والده ألّا يقع إيقاظه كلّ صباح إلّا على أنغام الموسيقى الهادئة.

درَس القانون، ولمّا بلغ الثانية والعشرين من عمره ناب أباه مستشارًا في محكمة المساعدات[1] بمدينة «بيريغو» (Périgueux)، ثم في برلمان مدينة «بوردو». وفي سياق المهامّ التي أوكلت بعهدته، فُتحت له أبواب البلاط (مع الملك هنري الثاني والملك شارل التاسع)، ورغم أنّه كان بإمكانه أن يتدرّج هكذا في السلّم الاجتماعي إلّا أنّه لم يرغب في الانتساب إلى الحاشية والعيش على منوالها وآثر أن يبقى حرّا طليقا فكرًا وعملاً.

وفي الخامسة والعشرين من عمره، تعرّف على إتيان دي لا بويَسي (Etienne De La Boétie)، الذي كان مستشارا هو الآخر في برلمان «بوردو». كان لا بويَسي قد أنهى تأليف جملة من الكتب، أشهرها كتابه عن «العبودية الطوعية»[2]. نشأت بينهما صداقة ومودّة ومحبّة، وصفها مونتاني وعلّلها بعبارته الشهيرة: «لأنّه كان هو، ولأنّني كنتُ أنا»[3].

إلّا أنّهما لم ينعما بصداقتهما طويلا، إذ توفّي لا بويَسي بعد أربع سنوات فقط بمرض الطاعون، في الثالثة والثلاثين من عمره (عام 1563).

---

(1) تأسّست محاكم المساعدات (Les Cours des aides) لمعالجة الخصومات المالية العادية المتعلقة بالأملاك العمومية، والخصومات المالية الخارقة للعادة، أي التي هي من طبيعة مالية بحتة وتتعلق بالخزينة العامّة.

(2) إيتيان دو لا بويسي، **مقالة في العبودية الطوعية**، ترجمة عبود كاسوحة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ديسمبر 2008
(Etienne de La Boétie, *Discours de la servitude volontaire*)

(3) «**مقالات**»، الجزء الأوّل، الفصل 27 («عن الصداقة»)، الفقرة 15 (Parce que c'était lui, parce» «que c'était moi).

تزوّج مونتاني سنة 1565 من ابنة أحد زملائه، وأنجب منها ستّ بنات توفّين في الأسابيع الأولى من ولادتهنّ ما عدا واحدة، وكان لهذا الأمر وقعٌ في نفسه زاد اشتدادًا على إثر موت والده سنة 1568، ما جعله يستقيل من مهامّه ويعتكف منذ العام 1571 في أراضيه. بيد أنّه لم يدّخر جهدا كي يلعب دور المفاوض والموفّق بين الطوائف كلّما طلب منه الملك ذلك.

ومع بداية سنة 1580، أخذ في التّرحال عبر أوروبا، فتنقّل إلى سويسرا وألمانيا ثمّ استقرّ حوالي خمسة أشهر في إيطاليا، بين مدينتي البندقية وروما، لأغراض فكريّة وأدبيّة دون شكّ، لكن في الأصل لأغراض طبّية تعود إلى معاناته من مرض الحصى (حصوات المسالك البولية). وكانت هذه الرحلة مناسبة لتدوين مذكّراته. ولمّا بلغه أنّ بلديّة بوردو قد انتخبته رئيسا لها، كان عليه أن يقبل الاضطلاع بهذه المهمّة، سيّما أنّ الملك نفسه قد ألحّ عليه بها، فأوقف رحلته وعاد ليشتغل في مسقط رأسه، حيث دأب على التوفيق بين مختلف الأحزاب والطوائف المتنازعة، ويبدو أنّه نجح في ذلك كثيرا إذ تمّ انتخابه بعد ذلك ثانية.

اضطرّ سنة 1586 إلى الهرب أمام زحف الطاعون، فغادر قصره بمعيّة أسرته، وعندما عاد إليه وجده خرابا، فكرّس جهده لترميمه وإدارة ممتلكاته، وفكّر بالمناسبة في إعداد مكتبة خاصّة في أحد أبراج القصر. في هذا البرج غدا يقضي معظم أوقاته، قارئًا طورا، مسجّلا أفكاره أطوارًا، عاكفًا باستمرار على مواصلة تأليف الكتاب الذي سيجلب له الشهرة، كتاب «مقالات» الذي سينهيه قُبيل مماته عام 1592.

عاش مونتاني في مرحلة حاسمة من تاريخ فرنسا؛ لقد قضى شبابه في أجمل فترة من فترات عصر النهضة، وعاصر فرنسوا الأوّل وهنري الثاني العظيمَيْن، لكنّه كان شاهدا أيضا على الحروب الدّينية، ولا سيّما على مجزرة «سان بارتيليمي»[1] وشناعات «العصبة»[2]، كما على اغتيال شخصيات مرموقة مختلفة أتى على ذكرها في كتابه هذا. وفي خضمّ الحروب الدّينية حامية الوطيس، عبّر مونتاني عن قرفه من الصراعات المقيتة

---

(1) «سان بارتيليمي» (La Saint Barthélémy): مذبحة، «سان بارتيليمي» اندلعت في باريس ليلة 24 أوت 1572، جرّاء الأزمة السياسية والدّينية المشتدّة منذ عشر سنوات بين الكاثوليك والبروتستانت، وامتدّت من العاصمة إلى عدد من الولايات طوال أسابيع، ذهب ضحيّتها آلاف من البروتستانت. فترة غامضة من تاريخ فرنسا، ويبدو أنّ الملك هو المحرّض الحقيقي على ما حصل من أحداث.

(2) «العصبة» (La Ligue): «العصبة الكاثوليكية»، أو كما يطلق عليها أيضا «العصبة المقدّسة»، طائفة ظهرت أثناء الحروب الدّينية في فرنسا، غايتها الذّود عن الكاثوليكية ضدّ البروتستانتية.

بين الإخوة الأعداء، بين الكاثوليك والبروتستانت، ولم ينفكّ يدعو إلى التّسامح، باعتبار أنّ تعقّد الأوضاع والمواقف لا يمكن حلّه بمجرّد الوقوف على طرفَيّ نقيض وباستماتة كلّ طرف في الدّفاع عن نفسه، كما لو كان لا بدّ للحقّ أن يكون حليف أحد الطرفين المتنازعَيْن ولا وجود لحلّ وسط. لقد رفض كلّ الدغمائيات، أكان مأتاها دينيّا أو فلسفيّا، ولكنّه مع ذلك لم يقع في وحل النزعة الشكّية العقيمة، ولم يجد راحته على وسادة الشكّ الناعمة كما يُقال، لأنّه لمّا رفض وجود يقينيات مطلقة فهو قد رفض أيضا أن يُبنى الشكّ على يقين مطلق.

وعموما فإنّ مونتاني لم يخُض المعارك الأدبية الفكرية ولا الاجتماعية السياسية، لأنّ ذلك لم يكن من طبعه؛ فهو كما كان يردِّد، لا يسعى إلى المجد ولا يلهث وراء المناصب، ويرنو إلى الرّاحة والتكاسل، ويحبّ العيش الهانئ البطيء الذي لا يتخلّله ما قد يفسد صفاءه؛ لم يتّبع أحدًا ولم يخاصم أحدًا، بل عاش لأجل نفسه، مصوِّبًا نظره إلى ذاته، بضرب من الأنانية اللّطيفة، أو بالأحرى بضرب من حبّ الذات الذي، عوض أن يجلب له الحقد والكره، جلب له محبّة معاصريه وإعجابهم، بل وحتى إعجاب الأجيال اللّاحقة. قضى عقدين من الزمن في تأليف «المقالات»، فكان هو مادّة هذا الكتاب، ومبدأه وغايته.

كتابه العمدة: مقالات *Essais*

حالما نشرع في قراءة مقدمة كتاب «مقالات»، ندرك أنّ غاية مونتاني ليست أن يقدّم مذهبا منسَّقا لمجمل أفكاره، بقدر ما هي أن يسوق لنا عددا من الخواطر والأفكار التي راودته في أثناء حياته التي، وإن لم تكن حافلة بالمغامرات والقلاقل والاضطرابات، إلّا أنّها كانت غنيّة بما ألهمت أديبنا الفيلسوف من تأمّلات عميقة تسبر أغوار النّفس البشرية، وذلك بفضل قدرة نادرة على الملاحظة والتّمييز والفهم، كما بفضل روح عالية وشيَم نادرة قلّما تتوفّر عند الشخص نفسه معا، كالشهامة والأريحية والإيثار وحبّ الجار، والصّداقة والودّ، والتسامح والانفتاح على الآخر، وما إلى ذلك من المشاعر النبيلة التي ترفع من شأن المرء وتحقّق إنسانية الإنسان. هذا ما جعل فيلسوفًا مثل نيتشه، الكاره للأنساق المتحجّرة والعادات المتكلسّة والقيم الجامدة، يصدح بأنّ فرحة الحياة قد ازدادت في الدّنيا يوم ألّف مونتاني كتاب «المقالات». قال نيتشه: «هناك مؤلّف واحد أضعه في مرتبة شوبنهاور من حيث النزاهة، بل أضعه حتى في مرتبة أرقى منه، هو كتاب مونتاني. إنّ فرحة الحياة قد ازدادت في الدّنيا يوم شرع هذا الرجل في التأليف والكتابة. إنّ ما أردت دائما قوله عن مونتاني، منذ أن تعرّفت على عنفوان فكره المتحرّر، هو عين ما

قاله مونتاني عن بلوتارخوس: «ما إن ألقيتُ عليه نظرة حتّى شعرت كأنّ فخذا أو جناحا قد نبت من بين ضلوعي». فإلى جانبه سأبقى وأقاوم، إن كُتب لي التأقلم في هذه الحياة»[1].

ألّف مونتاني «المقالات» في سنّ النضج، بُعَيْد عودته من رحلة طويلة عبر أوروبّا. وضمّن كتابه هذا تحليلا لشخصه طورًا، ولشخوص آخرين أطوارًا، ليس لغاية الإبانة والبرهنة والإثبات، وإنّما فقط لغاية متعة الفهم، وهذا ما كشف له رويدا رويدا تناقضات طبيعته الشخصية، وتضارب القيم التي تلقّنها منذ نعومة أظفاره، ونسبيّة العادات والتقاليد التي اطّلع عليها من خلال زيارته للبلدان الأجنبية. وفي النهاية انتابه الشكّ، وراودته الظنون، وصاغ سؤاله الشهير: «ماذا أعرف؟» (Que Sais-Je?)

لم يقع مونتاني في القنوط واليأس مثلما يُشاع، أو مثلما يقال عن غيره من الشكّاك، بقدر ما قادته سعة اطّلاعه على أمور الدّنيا وشؤون البشر إلى الالتزام بالأريحية التامّة في فهم الآخرين وقبول تناقضاتهم واختلافاتهم وضعفهم وزلّاتهم، وفي الرأفة بهم والصفح عنهم في جميع الحالات.

ويبدو أنّ مونتاني قد نجح في رسم صورة عن ذاته، ومن خلالها عن الوضع الإنساني بوجه عام. لم تكن هذه غايته في الأصل، وإنّما بدأ بعرض آراءٍ واعتبارات تؤيّدها أمثلة تاريخية وحِكَم ونماذج أخلاقية واقتباسات من كبار المؤلّفين اللّاتينيين، وهو نوع أدبيّ إنسانيّ (Humaniste) كان شائعاً في القرن السادس عشر، قبل أن يشرع في رسم صورة عن ذاته، فاتحاً الطريق، في العالم الغربي على الأقل، وبعد «اعترافات» القدّيس أوغسطين، لأدب السيرة الذاتية (L'autobiographie). لقد نبّه، منذ الجملة الأولى من مقدّمة كتابه، مخاطبا القارئ، إلى كونه لا يرغب من وراء تأليفه هذا في الشهرة والمجد، وإنّما غايته هي أن يقدّم لأقاربه وأصدقائه صورة عن نفسه، «حتّى إذا فقدوني... تعرّفوا من خلاله على خصالي وأعمالي، واستطاعوا بفضله تخليد ذكراي بصورة أكمل وأشدّ... ولو كنتُ عشتُ في أحضان تلك الشعوب التي يُقال إنّها لا تزال تنعم بالحرّية في ظلّ القوانين الطبيعية الأولى، لما تردّدت في رسم نفسي عاريًا تمام العراء... إنّ مادّة كتابي هي أنا نفسي»[2].

---

(1) نيتشه، *اعتبارات في غير أوانها*، III. «شوبنهاور مربّيًا»، 2.

(Nietzsche, *Considérations inactuelles, III. Schopenhauer éducateur*, 2).

(2) «ينظر كلّ واحد أمامه؛ وأنا أنظر إلى داخلي. همّي الوحيد هو نفسي. إنّي أجيل النظر إلى نفسي، وأراقب نفسي، وأتذوّق نفسي... إنّي ألتفّ حول نفسي» («مقالات»، الجزء الثاني، الفصل 27).

– «إنّي لا أقدّم وصفا لأعمالي، بل أصف ذاتي، أصف ماهيتي» («مقالات»، الجزء الثاني، الفصل السادس).

لكن ما الفائدة من رسم مونتاني لنفسه؟ فعلى الرغم ممّا رآه بعضهم (باسكال مثلا) في مثل هذا المشروع من زهو وكبرياء، لعلّ الأقرب إلى الصواب هو ما جاء على لسان فولتير عندما قال: «يا له من مشروع رائع، كونه فكّر في رسم نفسه بسذاجة، لأنّه من خلال رسمه لنفسه، إنّما هو قدّم رسما للطبيعة الإنسانية»[1]. ذلك لأنّ «كلّ إنسان يحمل في ذاته الصورة الكاملة للوضع الإنساني»، مثلما صدح بذلك مونتاني نفسه[2].

من جهة أخرى، وكما يدلّ على ذلك عنوان الكتاب («مقالات»)، فإنّ مونتاني لم يحرّره بصورة مسترسلة وعلى وتيرة واحدة. إنّ ما يُفهم من عنوان «مقالات» هو أنّ هذا الكتاب لم يُكتب دفعة واحدة ولم تُسطّر له غاية مسبقة ولم تكن لصاحبه رؤية واضحة المعالم منذ البداية ولا مقاصد منشودة، بقدر ما إنّه «تألّف» رويدا رويدا، بتحسّس وتردّد، وذهاب وإيّاب، وعود على بدء، وترقيع وتنميق.

إنّ مونتاني لا يميل إلى التحذلق لا في الكلام ولا في الكتابة[3]. وهو كالفراشة ينتقل من خاطرة إلى أخرى، تحدوه أحداث الساعة أو فضوله الفكري، دونما التزام بتخطيط وتصميم، وقد تأتي بعض الفصول مخالفة في فحواها للعنوان الذي وضعه لها: «أحبّ الأسلوب الشعري وقفزاته المرحة (...). إنّ أفكاري تتتابع، لكن أحيانا من بُعد؛ وتتماسك، لكن بإمالة (...). وقد لا تتطابق عناوين فصولي مع فحواها (...) إنّ أسلوبي وعقلي يتُوهان معًا. يجب أن يكون لك لمسة من الجنون حتّى لا تقع في الهراء»[4].

وفي الأخير، يحقّ لنا أن نسأل: ما هو مذهب مونتاني في هذا الكتاب؟

فلئن كتب أحدهم وقال: «لا بدّ لكلّ رجل في وقتنا الحاضر أن يكون إمّا رواقيا وإمّا أبيقوريا وإمّا ريبيّا»[5]، فإنّ مونتاني، على غرار ديكارت أو سبينوزا أو غيرهما لاحقًا، قد جمع بين هذه التوجّهات الثلاثة. فكان رواقيّا في حياته، ووقف برباطة جأش وبحزم لا ينثني أمام نوائب الدهر وتقلّباته؛ وكان أبيقوريّاً، فعاش وفق ما تمليه عليه الطبيعة وما تطلبه نفسه ويرغبه جسده؛ وكان ريبيّاً بامتياز، لأنّ الوجود متحرّك متموّج في نظره، ولأنّ الإنسان عاجز عن إدراك الحقيقة، فلا العلم ولا الفلسفة يستطيعان

---

(1) فولتير، «*رسائل فلسفية*»، الرسالة الخامسة والعشرون حول خواطر باسكال، ترجمة عادل زعيتر، دار التنوير، 2014.

(2) «مقالات»، الجزء الثالث، الفصل الثاني.

(3) «اللّغة التي أحبّها هي اللّغة الطبيعية البسيطة، أكانت مكتوبة أم منطوقة» («مقالات»، الجزء الأول، الفصل 25، الفقرة 100).

(4) «مقالات»، الجزء الثالث، الفصل التاسع، الفقرة 154.

(5) يذكره عثمان أمين في كتابه عن «الفلسفة الرواقية»، القاهرة 1971، صص. 25-26.

قيادته، ولا حتّى الدّين ينجح دائما في خلاصه. إنّه ابن عوائده، وأسير أحكامه المسبقة، وعبدُ مصالحه، ورهينة تعصّبه. وإن تناثرت عناصر محاكمة الإنسان في كامل كتاب «المقالات»، فإنّها ليست ككلّ المحاكمات، لأنّها تتّسم باللّطف والشهامة والأريحيّة وتدعو إلى التعاطف والتسامح وقبول الآخر مختلفًا. إنّ من يقرأ مونتاني عن كثب، يدرك أنّه ليس إزاء عقل محبَط مرتاب يتلذّذ بهدم كلّ يقين ويسخر من غباء الإنسان وضعفه، شأن فولتير على سبيل المثال، وإنّما يتعرّف على فكرِ نبيه متّزن معتدل، في عصر كان فيه كلّ واحد يصدح قائلا: «أنا أعرف!»، ويتّهم الآخرين ويكفّرهم ويفرض عليهم حقيقته، بينما يهمس مونتاني متسائلا: «ماذا أعرف!».

في نظر الكثيرين، مونتاني هو مؤلّف كتاب واحد ليس أكثر، هو كتاب «مقالات»؛ صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 1580، وقد بلغ صاحبه السابعة والأربعين من العمر. إلّا أنّه سبق لـمونتاني أن نشر منذ سنة 1569، استجابة لوصيّة أبيه، ترجمة من اللّاتينية إلى الفرنسية لكتاب ريمون سيبون، «اللّاهوت الطبيعي»[1]. وكتب مونتاني أيضا مقالا حول وفاة السيّد دي لا بويَسي[2] تمّ نشره عام 1571 ضمن أعمال هذا الصديق الفقيد، ثمّ عام 1774 ضمن «يوميّات رحلة ميشيل دي مونتاني إلى إيطاليا عبر سويسرا وألمانيا عامي 1580 و1581»[3]. ويبدو أنّ مونتاني لم يولِ هذه اليوميّات اهتماماً كبيراً، إذ لم يسهر على تحريرها دائما بقلمه (لقد أملى جزءاً منها على خادمه)، كما أنّه حرّر أكبر جزء منها (وهو المتعلّق بإقامته بإيطاليا) باللّغة الإيطالية، فضلا عن حشوه لجزئيات مقلقة قد لا تهمّ إلّا المرضى والصيادلة، إذ تتعلّق بالأدوية ووسائل العلاج التي من أجلها جاب مونتاني عددا من بلدان أورَوبا.

مؤلفات مونتاني:

- ترجمة كتاب ريمون سيبون، «اللّاهوت الطبيعي» (1569).
- «مقال حول وفاة السيّد دي لا بويَسي» (1571 و1574).
- «يوميّات رحلة ميشيل دي مونتاني إلى إيطاليا عبر سويسرا وألمانيا عامي 1580 و1581» (1774).
- «مقالات» (1580).

---

(1) Raymond Sebond, *Théologie naturelle*, 1436, traduit par Montaigne en 1669.

(2) Discours sur la mort du seigneur de la Boétie par M. de Montaigne.

(3) Journal de voyage de Michel de Montaigne en Italie par la Suisse et l'Allemagne en 1580 et 1581.

اعتمدنا في ترجمة هذا الكتاب على النسخة الأصلية المحرّرة بفرنسيّة القرن السادس عشر، الموسومة بنسخة «بوردو» (1588)، والتي سهر على نشرها «موريس رات»[1]، وعُدنا أيضا إلى نسخة 1595 التي حقّقها وأعدّها للنشر كلّ من ب. فيلاي وف.ل. سولنيي[2]، وميزتها أنّها تتضمّن إضافات وتصحيحات عديدة خطّها المؤلّف نفسه في الهوامش قبل مماته. كما استأنسنا بالترجمة الفرنسية الحديثة التي أعدّها «كلود بنغانو»[3]، وكذلك خاصة بالترجمة الفرنسية الحديثة التي أنجزها «غي دي برنون»[4]، وقد نسجنا على منواله في تقسيم النصّ إلى فقرات، مع ترقيمها، حتى يسهل الرجوع إليها.

(1) Montaigne, *Essais*, Edition de Maurice Rat, d'après l'exemplaire de Bordeaux, Garnier Frères, Paris 1962.

(2) Texte établi par P. Villey et V. L. Saulnier, P. U. F., 1965.

(3) Montaigne, *Essais*, mis en français moderne et présentés par Claude Pinganaud, d'après l'exemplaire de Bordeaux, Paris, Arléa, 2002.

(4) Michel de Montaigne, *Essais*, traduction en français moderne par Guy de Pernon d'après le texte de l'édition de 1595, Edition du groupe «Ebooks libres et gratuits ».

أيّها القارئ

أقدّم لك هذا الكتاب بنيّة صادقة؛ حيث أنبّهك منذ البداية إلى أنّ الغاية من إعداده هي مجرّد غاية خاصّة وشخصيّة؛ فأنا لم أضعه كي أساعدك ولا طلبًا للمجد: إنّ قوايَ لا تكفي لمثل هذا الغرض.

ألّفتُ هذا الكتاب لأقاربي وأصدقائي، حتّى إذا فقدوني (وهو ما قد يحدث قريبا)، تعرّفوا من خلاله على خِصالي وأعمالي، واستطاعوا بفضله تخليد ذكراي بصورة أكمل وأشدّ.

فلو كنت أرغب في نيل حظوة النّاس، لزيّنت نفسي بأبهى الحلل؛ لكنّي أريد، على العكس، أن يعاينوا بساطتي وطبعي وسلوكي العادي، دونما تحذلق ولا زيف، لكوني أرغب في رسم صورة ذاتي. من خلال هذا الكتاب، ستبرز عيوبي ونقائصي، التي سمحت بها لنفسي في حدود احترامي للجمهور. ولو كنتُ عشتُ في أحضان تلك الشعوب التي يقال إنّها لا تزال تنعم بالحرّية في ظلّ القوانين الطبيعية الأولى، لما تردّدت في رسم نفسي عاريا تمام العراء.

وهكذا، أيّها القارئ الكريم، فإنّ مادّة كتابي هي أنا نفسي: ولذلك فمن العبث أن تملأ فراغك بموضوع تافه وعديم الفائدة كهذا.

فالوداع إذن.

مونتاني، فاتح شهر مارس، 1580.



الفصل الأوّل

قد نصل بطرق مختلفة إلى نتيجة واحدة

1. إنّ الطريقة المألوفة التي نستدرّ بها شفقة من أسأنا إليهم، عندما نصبح تحت رحمتهم ويستعدّون للثأر منّا، هي أن نعبّر لهم عن خضوعنا ونولّد في نفوسهم الشفقة والرحمة. بيد أنّ الجرأة ورباطة الجأش والعزيمة قد يكون لها أحيانا المفعول نفسه.

2. إنّ إدوارد، أمير ويلز، الذي حكم طويلا مقاطعة غيانا (Guyenne)، والذي لا تخلو حياته ولا يخلو قدَره من المآثر، قد أهين جدّا من قِبل اللّموزينيين (Limousins)، فلمّا غزا مدينتهم، لم يرقّ قلبه أمام صراخ الجمهور والنسوة والأطفال الذين وقعوا تحت رحمته وكانوا يقبّلون أقدامه ويطلبون منه الرحمة. لكن لمّا دخل المدينة، جلب نظره ثلاثة نبلاء فرنسيين استبسلوا بمفردهم، بطريقة لا تصدّق، في التصدّي لهجوم جيشه المنتصر، ما جعله يشعر نحوهم بالاعتبار والاحترام، ما لطّف من غضبه. وبعدما أشفق على هؤلاء الثلاثة، شملت رحمته كافة سكّان المدينة.

3. كان إسكندربرك (Scanderberch)، أمير إيبيروس(Epire)، بصدد مطاردة أحد جنوده لقتله، وكان هذا الأخير يحاول تهدئته بالرجاء والخنوع قبل أن يعزم في نهاية الأمر على مبارزته بحدّ السّيف، فتوقّف غيض سيّده الذي عفا عنه لِما شهده عنده من سلوك مشرّف. لكن لا شكّ أنّ الذين لا علم لهم بشجاعة هذا الأمير وقدرته العظيمة قد يجدون تفسيرا آخر لموقفه هذا.

4. إنّ الإمبراطور كونراد الثالث (Conrad III)، بعد أن حاصر دوق بافاريا الغلفي[1]، لم يقبل أن يهوّن عليه رغم تنازلاته المُذلّة والجبانة، ولم يسمح إلّا بخروج النساء، على أن يخرجن سيرا على الأقدام، بما يحملن، ومن دون المساس بأعراضهنّ. إلّا أنّهنّ تصرّفن بشهامة، إذ حملن على أكتافهنّ أزواجهنّ وأبناءهنّ، وحتّى الدّوق نفسه، وهو ما أثّر في الإمبراطور لدرجة أنّه بكى من فرط الرضا وخفّ شعوره بالعداوة اللّدودة تجاه الدّوق، وأصبح يعامله منذ تلك اللحظة معاملة إنسانية، هو وأتباعه.

---

(1) الغلفي (le guelfe): نسبة إلى الغلفيين، طائفة إيطالية في العصر الوسيط (القرون 12- 13- 14)، وقفت في صفّ البابا ضدّ سلطة الملك.

5. أمّا أنا، فقد أنقاد إلى هذا الموقف أو ذاك، إلّا أنّني أميل أكثر إلى الحِلم والرحمة، حتّى أنّك تراني أشفق أكثر ممّا أُعجَب. ومع هذا فإنّ الشفقة، في نظر الرّواقيين، إنّما هي عاطفة سيّئة: إنّهم يرون من الواجب أن نساعد المنكوبين، لكن يجب ألّا نتأثّر إلى حدّ أن نتقاسم معهم عذاباتهم.

6. تبدو الأمثلة المذكورة مقنعة، لأنّها تعرض لطبائع في مواجهة موقفين اثنين، فتقاوم أحدهما وترضخ للآخر. ويمكن القول إنّ الإشفاق هو تساهل وطيبة مفرطة وضعف: وهذه من سمات أضعف الطبائع، أي من سمات النساء والأطفال وعامّة النّاس. أمّا عدم الاكتراث بالشهيق والدموع، ثمّ التأثّر بموقف شجاع، فهذه من سمات طبع صلبٍ قويٍّ يميل إلى رباطة الجأش ويمجّد الفحولة.

7. ومع هذا فقد يكون للدهشة والإعجاب الوقع نفسه في نفوس أقلّ أريحيّة. ولدينا شهادة على ذلك في ما حصل للشعب التيباني (Thébain): فبعدما حَكم بالإعدام على قادته، إذ اتّهمهم بالاستمرار في ممارسة مهامّهم رغم انقضاء المدّة الموكولة لهم، عفا بصعوبة عن بيلوبيداس (Pélopidas) الذي قهرته التّهم الموجّهة إليه ولم يدافع عن نفسه إلّا توسّلا والتماسا. أمّا في حالة إبامينُنداس (Epaminondas)، فهو على العكس، قد انبرى، بتكبّرٍ وصلفٍ، يروي مآثره حتى أخجل بها الجمهور، فلم يرغب أحد في التصويت، وتفرّقَ الجميع مع الثناء على شجاعة المتّهم المأثورة.

8. احتلّ دنيس الأكبر (Denys L'ancien) مدينة ريجه (Rege) بعدما حاصرها مدّة طويلة وبعناء شديد، فأراد أن يجعل من القبطان فيتون (Phyton)، وهو رجل يستحق التقدير لما بذله من جهد في الدفاع عن مدينته، أراد أن يجعل منه عبرة لمن يعتبر وأن ينتقم منه شرّ انتقام. أعلمه أوّلا كيف أغرق ابنه وكافّة أفراد عائلته يوم أمس؛ فأجابه فيتون ببساطة أنّهم الآن في مقام أسعد منه. فنزع عنه ثيابه وقدّمه للجلّادين الذين قاموا بجرّه عبر المدينة وجلدوه جلدا مبرحا ونعتوه بأبشع النعوت؛ ومع هذا لم يتخلّ المسكين عن كرامته وبأسه.

9. كان، على العكس، يشير برباطة جأش إلى الموت المجيد والشريف الذي ينتظره، إذ كان يجاهد ضدّ وقوع بلده بين أيدي طاغية، ويهدّد هذا الطاغية بعقاب إلهيّ قريب. وعوض أن يستاء الجنود من غطرسة هذا العدوّ المهزوم ومن احتقاره لقائدهم، أُعجب بمثل هذه الفضيلة النادرة وفكّر في التمرّد وحتّى في تخليص فيتون من أيدي جلّاديه. فلمّا قرأ دنيس ذلك في عيون جنوده، أمر بالكفّ عن تعذيبه، ثمّ أغرقه في البحر خلسة.

10. بالتأكيد، إنّ الإنسان موضوع تافه ومتشعب ومتبدّل بامتياز: فقد يصعب أن نكوّن عنه حُكما نهائيا ثابتا. فهذا بونبي (Pompée) الذي غفر لكامل مدينة المامرتين

(Mamertins)، بعدما كان مغتاظا منها أشدّ اغتياظ، غفر لها تقديرا لفضيلة المواطن زينون (Zénon) وشهامته، إذ أخذ على عاتقه ذنوب الجميع وأبى إلّا أن يتحمّل القصاص بمفرده. بينما لم تفلح مساعي ضيف سيلّا (Sylla) عندما تحلّى بنفس الشجاعة في مدينة بيروز (Pérouse)، ولم يغنم شيئا لنفسه ولا للآخرين.

11. وعلى خلاف هذه الأمثلة الأولى، هذا مثال الإسكندر (Alexandre)، أكثر النّاس جسارة، ومع ذلك أشدّهم رحمة للمهزومين: فبعد صعوبة احتلاله لمدينة غزّة (Gaza)، وجد قائدَها بيتيس (Bétis) الذي أبدى شجاعة كبيرة وحقّق مآثر عظيمة عندما كانت مدينته محاصرة، وكان وقتها وحيدا بعدما هرب أنصاره ودُمّر سلاحه، وجده خائرا في دمائه لا يزال يقاوم المقدونيين الذين يناوشونه من كلّ جهة.

12. لأن انتصاره لم يكن سهلا، وجُرح في المواجهة مرّتين، قال له الإسكندر غاضبًا: «لن تكون نهايتك مثلما تريد، يا بيتيس، بل ستتكبّد كلّ أنواع التعذيب التي يمكن تسليطها على أسير».

13. لم يتأثّر بيتيس، وواجهه بازدراء وتكبّر، دون أن ينبس ببنت شفة. فقال الإسكندر بينه وبين نفسه، أمام صمت خصمه العنيد: «ألا يركع؟ ألا يتضرّع؟ سأكسر شوكته، وإذا لم أنتزع منه بعض الكلام، سأقتلع على الأقلّ بعض النحيب». وتحوّل غضبه إلى حنق، فأمر بخَرم قدميه وتمزيقه وتقطيع أوصاله وبجرّه هكذا حيًّا وراء عربة.

14. فهل معنى ذلك أنّ الشجاعة في نظره أمرٌ عاديّ وطبيعيّ لا يثير الإعجاب حقّا، ولا يستحقّ بالتالي احتراما كبيرا؟ أم أنّه كان يظنّها من سماته الشخصية ولا يتحمّل رؤيتها عند غيره، دون أن يشعر بالغيظ والحسد؟ أم أنّ طبعه الغضوب يجعله لا يطيق أن يقف ضدّه أحد؟

15. في الحقيقة، لو كان بوسعه أن يتحكّم في غضبه، لتحكّم فيه أثناء غزوة طيبة (Thèbes)، حيث قضى بحدّ السيف على الكثير من الشجعان الذين فقدوا كلّ وسائل الدفاع عن أنفسهم؛ إذ قتل منهم ستة آلاف، ولا أحد فكّر في الهرب أو في طلب الرحمة. بل بالعكس، حاولوا هنا وهناك، عبر الأنهج، أن يواجهوا العدوّ المنتصر، بل قاموا باستفزازه طمعا في موت شريف. وفي لحظاتهم الأخيرة، لم يتردد أحدا منهم في طلب الثأر، وبعد اليأس، في تعزية نفسه بالقضاء على بعض الأعداء. ورغم شجاعتهم اليائسة لم يشفق عليهم الإسكندر مطلقا، ولم يكفه يوم كامل ليشفي غليله: استمرّت المذبحة، وأراق دماءهم حتى آخر قطرة، ولم يعفُ إلّا عن غير الذين لم يمتشقوا السلاح، وعن العجائز والنساء والأطفال، وأسَرَ منهم ثلاثين ألف عبد.

الفصل الثاني

عن الحزن

1. لا أعرف عن هذا الشعور شيئا؛ فأنا لا أحبّه ولا أثمّنه، رغم المنزلة الخاصة التي يحتلّها عند النّاس، كما لو تعلّق الأمر بعملية مربحة مسبقا. إنّهم يزيّنون به الحكمة، وكذلك الفضيلة والضمير. يا لها من زينة غبيّة قبيحة! لقد وفّق الإيطاليون لمّا أطلقوه على الخُبث واللّؤم، لأنّ في وجوده ضرر دائم وخَبَل مستمرّ. أمّا الرواقيون، فقد منعوه عن تلاميذهم، باعتباره جُبنا مُزريا.

2. لكن يُروى أنّ بسامنيت (Psammenite)، ملك مصر، بعدما هزمه وأسره قمبيز (Cambyse)، ملك فارس، شهد ابنته الأسيرة ترتدي لباس خادم في طريقها لجلب الماء، وبينما كان أصدقاؤه يبكون وينتحبون من حواليه، ظلّ صامتا مطأطئا رأسه. ولم يغيّر من سلوكه شيئا عندما رأى ابنه يُقتاد للتعذيب. لكن لمّا لمح أحد خدمه من بين الأسرى، لطم رأسه وعبّر عن ألمه الشديد.

3. وتجوز المقارنة هنا بما حدث أخيرا لأحد أمرائنا، حيث كان موجودا بمدينة ترانت (Trente) ووصله نبأ وفاة أخيه الأكبر الذي كان عمدة لشرف العائلة، ثم بعد مدّة قصيرة بلغه خبر وفاة أخيه الأصغر، فتحمّل هاتين المحنتين بجلَد لا مثيل له؛ إلّا أنّه، بعد أيّام قليلة، إذ توفّي أحد أتباعه، انهار تماما وفقد عزيمته واستسلم للعذاب والأسف الشديد، حتّى قال بعضهم إنّه لم يتأثّر إلّا بهذه المصيبة الأخيرة؛ وفي الواقع فإنّ الحزن ملأ قلبه وأصبحت أقلّ مصيبة جديدة سببا في انهياره.

4. وقد تجوز المقارنة بين هذه الرواية والرواية السابقة، ما عدا أنّ فيها إضافة أمر ما: إنّ قمبيز سأل بسامنيت عن سبب عدم تأثّره بمصير ابنته وابنه، بينما لم يقدر على تحمّل ما حصل لأصدقائه؛ أجابه: «فقط هذا الحزن الأخير يمكن أن تعبّر عنه الدموع، أمّا الأوّلان فيتجاوزان كلّ وسائل التعبير».

وفي هذا السياق، يمكن التذكير بما أبدعه ذلك الرسّام القديم، الذي أراد أن يرسم الشعور بالألم الذي ألمّ بالحاضرين في حفل تقديم إيفجيني (Iphigénie) قربانًا، بالنظر إلى تفاعل كلّ واحد مع موت هذه الفتاة الشابة الجميلة: فبعد أن استوفى آخر

منابع فنّه وبقي له أن يرسم أب الفتاة، صوّره مستور الوجه، كما لو أنّه لا يوجد تعبير قادر أن يعكس شدّة ألمه ودرجة حزنه.

5. لهذا تصوّر الشعراء أنّ المسكينة نيوبي (Niobé)، إذ فقدت في الأوّل أبناءها السبعة ثمّ العدد نفسه من بناتها، أصبحت عاجزة عن تحمّل مثل هذه المصيبة، فتحوّلت إلى صخرة،

«وتحجّرت من فرط الألم»

[Ovide, *Métamorphoses*, VI, 304]

هكذا تصوّروها للتعبير عن تلك البلاهة الخرساء الصمّاء القابضة للصدر، التي تتملّكنا عندما تقهرنا مصائب أشدّ ممّا نطيق.

6. وفي الحقيقة فإنّ الألم، عندما يبلغ أقصاه، يغمر النّفس كلّها ويمنعها من حرّية التصرّف. قد يحدث، عندما نعلم بخبر سيّء جدّا، أن نصاب بالذهول والشلل وبالعجز عن القيام بأقلّ حركة؛ ثمّ تستسلم النّفس للدموع والأنين، فتنعتق وتتحرّر وتنبسط وترتاح:

«وفي الآخر ترك الوجع فسحةً لعبور الصوت»

[Virgile, *Énéide*, XI, 151]

7. في الحرب التي خاضها الملك فرديناند (Ferdinand) ضدّ أرملة يوحنّا المجرّي (Jean De Hongrie)، لاحظ كلّ النّاس، أثناء شجارٍ كبير حدث قرب مدينة بودا (Buda)، ما أبداه أحد المحاربين من سلوك مثير للإعجاب، ورغم مدح الجميع له وتأسّفهم على موته، إلّا أنّهم كانوا يجهلون هويّته، ولا سيّما السيّد الألماني ريشاش (Reichach) الذي انبهر بسلوك هذا الرجل. دفعه الفضول إلى التعرّف عليه فجاؤوا بجثّته ونزعوا درعه وخوذته، فإذا به ابنه. تأثّر الحاضرون شديد التأثّر، أمّا هو فقد صمت وتجمّد ووقف متأمّلا بحزن الجسم الذي أمامه، حتى أصبح ألمه لا يُطاق وخرّ ميّتا على الأرض.

8. يقول العاشقون الذين يريدون التعبير عن هيامهم الذي لا يطاق:

«إنّ من يستطيع التعبير عن حماسته، لن يشعر منها سوى بالقليل»

[Pétrarque, *Sonnets*, CXXXVII]

«يا لتعاستي،
إذ فقدتُ كلّ حواسّي! لأنّني حالما رأيتك

يا لسبي، فقدت عقلي، ولم أعد قادرا على الكلام.
شُلّ لساني والتهبت أطرافي،
وطنّت أُذناي وعميت عيناي».

[Catulle, LI, 5]

9. وعليه فعندما نكون على درجة شديدة من الانفعال والتأثر، لا يكون الظرف مناسبا للتعبير عن أشجاننا والإقناع بما نريد: إذ تكون النّفس حينها مثقلة بأفكار عميقة ويكون الجسم منهارا وأضناه العشق.

10. وهكذا قد يطرأ على العاشقين خلل مفاجئ: جمودٌ يصيبهم، إبّان المتعة نفسها، بسبب حماس فيّاض. ويظلّ التلذّذ بالهوى وتذوّقه دون المطلوب،

- *«فإنّ الأشجان صغيرها يهذر، وكبيرها يُخرِس».*

[Sénèque, *Hyppolite*, A II, Sc. 3,607]

وكذلك قد نهتزّ كثيرا بفعل متعة مفاجئة لا ننتظرها،

«حالما رأتني ورأت سلاح طروادة،
فقدتْ صوابها وهذتْ،
ثبتت نظرها وغاض دمها وعلى الأرض هـوَتْ،
وما عاد صوتها إلّا بعد مدّة طويلة».

[Virgile, *Énéide*, III, 306 Sq.]

11. ويمكن أن نذكر تلك المرأة الرومانية التي ماتت من شدّة التأثّر عندما شاهدت ابنها يعود بعد كارثة كان (Cannes)؛ كما نذكر سوفوكل (Sophocle) ودنيس الطاغية (Denys Le Tyran)، اللّذين توفّيا من شدّة الفرح؛ وطالفا (Talva) الذي وافاه الأجل في كورسيكا لمّا علم بالأمجاد التي منحه إيّاها مجلس المستشارين في روما. وحتى في عصرنا، نذكر البابا ليون العاشر (Léon X)، إذ بلغه نبأ احتلال ميلانو، وهو ما كان يتمنّاه بكلّ جوارحه، فرح فرحًا شديدا فأصابته الحمّى ومات. وهناك شهادة عجيبة أخرى عن حُمق الإنسان، إذ يذكر القدامى ديودور المنطقي (Diodore Le Dialecticien) الذي مات فجأة بسبب ما انتابه من شعور بالخجل والعار بعدما عجز، في مدرسته وبحضور الجمهور، عن دحض اعتراض وُجّه إليه.

12. لستُ عرضة لمثل هذه الانفعالات الشديدة. فأنا بطبعي قليل التأثّر، وأسعى باستمرار كلّ يوم إلى تعزيز درعي بفضل استعمال عقلي.

الفصل الثالث

إنّ انفعالاتنا تبقى من بعدنا

1. إنّ الذين يلومون النّاس على لهاثهم المستمر وراء المستقبل ويحثّون على التمتع بالحاضر والمكوث فيه، إذ لا سلطة لنا على ما سيحدث، ولا من باب أولى على ما مضى وانتهى، إنّما هم يقترفون أكثر الأخطاء شيوعا بين النّاس؛ ذلك لأنّهم يكذّبون ما تدعو إليه الطبيعة نفسها من أجل تخليد أعمالها، ويريدون إقناعنا بفكرة باطلة من بين أفكار أخرى كثيرة، فكرة يشغلها ما نفعله أكثر ممّا يشغلها ما نعلمه.

2. إنّنا لا نمكث عند أنفسنا أبدا، بل نتجاوز ذواتنا دائما. قد تدفعنا الخشية والأمل والرغبة إلى التفكير في المستقبل، وقد تمنعنا من الإحساس بما هو موجود، وتطيّب خاطرنا بما سيصبح موجودا، حتّى لو لم يكتب لنا البقاء في الوجود.

«*يا لشقاء الفكر المهووس بالمستقبل*».

[Sénèque, *Épîtres À Lucilius*, 98]

وغالبا ما نجد عند أفلاطون هذا المبدأ العظيم: «*قُم بواجبك، واعرف نفسك*». هذا المبدأ، يشمل كلّ ما علينا فعله، كما يشمل الآخر في نفس الوقت.

3. قد يرى من يشغله واجبه أنّ القاعدة الأولى تتمثّل في معرفة ما يخصّه وما يكونه. وإنّ الذي يعلم ما يكون، لن يعتقد أنّ ما لا يملكه هو ملكه: إنّه يحبّ نفسه ويهتمّ بحاله أوّلا، ويرفض المشاغل التافهة والأفكار والآراء غير المُجدية. وإذا كان المجنون لا يرضى بما يقدَّم له ممّا يطلبه، فإنّ الحكيم يرضى بما لديه ولا يخيب انتظاره أبدا.

«*في رأي أبيقور، لا يشغل الحكيم نفسه بالمستقبل ولا يتحسّب له*»[1].

4. من بين القوانين التي تهمّ الأموات، إنّما أفضلها هو ذلك الذي يدعو إلى محاسبة الأمراء على أعمالهم بعد وفاتهم. فإذا لم يكونوا هم الأسياد، فعلى الأقل كانوا هم أرباب القوانين: وإذا لم تطلهم يدُ العدالة، فإنّها تطال سمعتهم وتركاتهم، وهي أشياء غالبا ما نفضّلها على الحياة نفسها. هذا التقليد مناسب جدّا عند الأمم التي تعمل به، ويرغب فيه

---

(1) يذكره شيشرون في Tusculanes, III,16

الأمراء الأخيار الذين يستاؤون من الخلط بين ذكراهم وذكرى الأشرار. ولئن كان من واجبنا أن نخضع لكافّة الملوك سواسية وألّا نشقّ لهم عصا الطاعة، باعتبار المهامّ التي يضطلعون بها، فإنّ قيمتهم الذاتية هي التي ينبغي أن تكون موضوع عطفنا وتقديرنا.

5. وإذا كان من مقتضيات السياسة أن نتحمّلهم بصبر رغم أنّهم لا يستحقّون، وأن نتستّر على رذائلهم ونساند أعمالهم الدنيئة طالما كانت سلطتهم بحاجة إلى المساندة، فليكن! لكن عندما تنتهي علاقتنا بهم، لا يبقى أيّ مبرّر لمنع العدالة ومنع حرّيتنا من التعبير بصدق، ولا أيّ مبرّر، خاصّة، لمنع أنفسنا من تمجيد أولئك الذين خدموا أسيادهم باحترام وإخلاص رغم علمهم بعيوبهم، وإلّا حرمنا الأجيال اللاحقة من مثال جدُّ مفيد.

6. إنّ الذين بدافع عرفان الجميل، يمجّدون، عن غير حقّ، ذكرى أمير سيّء الذكر، إنّما هم يمرّرون مصلحتهم الخاصة قبل المصلحة العامّة. ولقد صدق تيتوس ليفوس (Tite–Live) عندما قال إنّ لغة أولئك الذين نشأوا في ظلّ النظام الملكي تغلب عليها دائما المباهاة الواهية والشهادات الباطلة، لأنّ كلّ واحد يمنح مولاه، مهما كان، أقصى ما يمكن أن يُمنح لصاحب السموّ من العظمة والقيمة.

7. قد يستنكر بعضهم ما أبداه ذانك الجنديّان من رباطة جأش، إذ تجرّآ وصدعا أمام نيرون (Néron) بعيوبه: فالأوّل، إذ سأله لماذا يضمر له الشرّ، أجاب: «أحببتك لمّا كنتَ جديرا بالحبّ، لكن منذ اغتلتَ والدك وأشعلت الحرائق وأصبحت مهرّجا وسائق عربات، كرهتك بقدر ما تستحق»[1].

8. وأجابه الثاني، إذ سأله لماذا يريد قتله: «لأنّني لم أجد علاجًا آخر لسيّئاتك التي لا تقف عند حدّ».

إنّ الشهادات التي قدّمها عامّة النّاس بعد موته ولم يتراجعوا فيها، والتي فيها إجماع على دناءته وطغيانه، أيُّ رجل سليم العقل سيرفضها؟

9. وإنّي أستقبح تلك الاحتفالات الزائفة التي كانت تقام في حكومة راقية مثل حكومة إسبرطة (Sparte)، حيث كان أفراد كلّ الشعوب المتحالفة والمتجاورة، وكان كلّ الرقيق، رجالا ونساء مختلطين، إذا مات الملك، يشطبون جبينهم شهادةً على حِدادهم. كما كانوا يزعمون، في صياحهم ونواحهم، أنّ المرحوم، مهما كان في الحقيقة، إنّما كان أفضل الملوك جميعا. وهكذا كانوا يمدحون صاحب الرتبة في المجتمع أكثر من صاحب الاستحقاق، ويتركون الاستحقاق في أدنى الدرجات.

---

(1) المصدر الذي عاد إليه مونتاني هنا هو: Tacite, Annales, XV, 67

10. أرسطو، الذي لا يفوته أن يتساءل عن كلّ شيء، يتساءل حول قول سولون (Solon) إنّه لا يُقال عن أحد سعيدا قبل أن تدركه المنيّة؛ إنّه يتساءل ما إذا كان يمكن أن يقال سعيدا عن الذي عاش ومات على نحو مألوف، إذا كانت سمعته سيّئة وسلالته بائسة.

11. طالما نكون أحياء، يقذفنا فكرنا حيثما نريد. لكن بعد الموت، لا يبقى لنا أيّ اتّصال بما هو موجود. أليس من الأجدى إذّاك أن نقول لسولون إنّ الإنسان لا يكون سعيدا أبدا، إذ لا يتسنّى ذلك إلّا بعد أن ينتهي وجوده؟

«*لا يتخلّص المرء من الحياة تماما*
لكنّه دون أن يشعر يفترض
أنّه يترك من بعده شيئا من ذاته
ولا يميّز بينها وبين الجثمان المسجّى هناك»

[Lucrèce, *De Natura Rerum*, III, 890 Sq.]

12. مات برتران دي غوسلان (Bertrand Du Guesclin) في حصار قصر رندون، قرب دي بوي، في أوفرنيا. وبعدما استسلم المحاصَرون، أُرغموا على حمل مفاتيح المدينة فوق جثة المتوفّى. وفي حرب برسيا (Brescia)، مات برتيليمي دالفيان (Barthélémy D'alviane)، جنرال في جيش البندقية، فتمّ نقل جثمانه إلى هذه المدينة، عبر بلاد فيرونا، موطن العدوّ. كان من رأي كلّ الجنود أن يطلبوا من أهالي فيرونا ترخيصًا بالعبور، إلّا أنّ ثيودور تريفولس (Théodore Trivolce) كان له رأي مختلف، إذ فضّل المخاطرة والعبور بقوّة، إذ لا يليق في اعتقاده بمن لم يَخَف من أعدائه أبدا، أن يخافهم بعد موته.

13. وفي الحقيقة، في موضوع قريب من هذا وحسب ما تنصّ عليه القوانين اليونانية، كان من يَطلب من العدوّ استرجاع جثمانٍ لغاية دفنه يتنازل عن النصر ولا يمكنه تشييد معلم للذكرى: كان مثل هذا الطلب إقرارا بانتصار العدوّ. هكذا فرّط نيسياس (Nicias) فيما فاز به من تفوّق واضح على الكورنثيين (Corinthiens)، بينما على العكس وطّد أجيسيلاس (Agésilas) ما حازه من تقدّم على البيوثيين (Béotiens).

14. قد تبدو هذه الأمور غريبة لو لم نتعوّد منذ قديم، لا فقط على العناية بأنفسنا حتى بعد مغادرة الحياة، بل أيضا على الاعتقاد أنّه غالبا ما ترافقنا العناية الإلهية وتشمل بقايانا حتى في القبر. هناك العديد من الأمثلة القديمة على ذلك، فضلا عن الأمثلة المعاصرة، حتى أنّه لا فائدة من ذكرها هنا.

15. لاحظ ملك إنجلترا، إدوارد الأوّل (Edouard 1er)، كَمْ كان حضوره مفيدًا في الحروب الطويلة التي اندلعت بينه وبين روبرت (Robert)، ملك اسكتلندا، ونسب نصره دائما إلى كونه ما انفكّ يمسك بزمام الأمور شخصيّا. وعندما قربت المنيّة، طلب من ابنه أن يقسم ويلتزم بأن يغلي جسمه بعد موته ويفصل بين العظام واللّحم، فيدفن اللّحم ويحتفظ بالعظام كي يحملها معه، مع جيشه، كلّما شنّ حربا ضدّ الأسكتلنديين: كما لو قُدِّر لأطرافه أن تشهد النّصر حتمًا[1].

16. أوصى جان زيشا (Jean Zischa)، الذي أوقد الاضطرابات في بوهيميا مساندةً لأفكار وايكليف (Wycliffe) الباطلة، بأن يقع سلخه بعد موته ويُصنع من جلده طبلا يستعمل في الحرب ضدّ العدو: كان يظنّ أنّ ذلك سيساهم في تعزيز الانتصارات التي حقّقها ضدّ أعدائه لمّا كان يقود الحرب بنفسه. كما كان بعض الهنود الحمر يرفعون، في حربهم على الإسبان، عظام أحد قادتهم ممّن حالفهم الحظّ في الحرب عندما كانوا على قيد الحياة. وهناك في هذا العالم شعوب أخرى كثيرة تحمل معها إلى الحرب جثامين الأبطال الذين ماتوا في ساحة الوغى، ظنّا منهم أنّها ستؤازرهم وتنفخ فيهم الشجاعة.

17. الأمثلة المتقدّمة الأولى تربط فقط بين الموت وبين الشهرة التي حازها بعض الأفراد بفضل ما أقدموا عليه من أعمال؛ لكنّ الأمثلة الأخيرة تريد أن تضيف إليه أيضا رباطة الجأش والاقتدار. ولدينا في سلوك القبطان بايار (Capitaine Bayard) أحسن مثال: إذ لمّا أصابته قريبنة إصابة قاتلة، ونُصح بالخروج من معمعة القتال، أجاب أنّه الآن وقد أوشك على النهاية لن يغيّر من سلوكه ويفرّ. ثمّ بعد أن واصل القتال بقدر ما بقي له من جهد، وبعد أن خارت قواه وكاد أن يسقط من فرسه، أمرَ كبير خدمه بأن يُرقِده تحت شجرة، لكن بطريقة تجعله يلتفت بوجهه صوب العدوّ، وهذا ما حصل فعلا.

18. يجب أن أضيف مثالا آخر، لا يقلّ شأنا في نظري عن أيّ واحد من الأمثلة الأخرى. كان الإمبراطور ماكسيمليان (Maximilien)، وهو والد جدّ الملك فيليب (Philippe) الذي يحكم الآن، يتمتع بخصال عظيمة، ومن بينها أنّه كان رائع الجمال. ومن خصائص طبعه أنّه كان يملك خاصّية مخالفة تماما لما اختصّ به الأمراء، إذ كانوا، عندما يقدمون على معالجة مسائل خطيرة، يجعلون من كراسيهم المثقوبة[2] عروشًا،

---

(1) توفّي إدوارد الأوّل في 1307؛ ولا نعرف من أيّ مصدر استمدّ مونتاني هذه الرواية.
(2) يُستعمل الكرسيّ المثقوب لقضاء الحاجة.

بينما كان هو يرفض تماما أن يراه حتى أقرب خدمه في صُوان بيته[1]. كان يتبوّل خفية، محتشما كالآنسة، لا يكشف لا للطبيب ولا لأيّ كان الأعضاء التي نسترها عادة.

19. ولئن كنت أتحدث هكذا بلا خجل، فإنّني بطبعي رجل خجول. فأنا لا أكشف لأيٍّ كان عن الأعضاء وعن الأعمال التي تأمرنا التقاليد بإخفائها. إنّي أشعر بضغوطات أشدّ ممّا يشعر به الإنسان عادة، ولا سيّما الإنسان الذي يحترف مهنتي.

20. لكن لنعُد إلى إمبراطورنا، إذ بلغ به الهوس درجة جعلته يأمر في وصيّته بأن يسجَّى بعد موته بسراويله الداخلية. كان عليه أن يضيف ملحوظة ينبّه فيها إلى وجوب أن يكون مكفِّنه معصوب العينين !

21. لقد أوصى سايروس (Cyrus) أبناءه بأن لا يرى أحد جثمانه أو يلمسه، وهذا يعود في رأيي إلى ورعه الخاص. ذلك لأنّ من خصاله الحميدة، هو ومؤرّخه[2]، ما أبدياه في حياتهما من مراعاة للدّين واحترام شديد له.

22. لقد غاظني ما رواه لي بعض الأعيان عن أحد أقاربي وهو رجل معروف في زمن السلم كما في زمن الحرب. كان طاعنا في السنّ، يحتضر، بسبب مغص كلويّ، في عذاب أليم؛ وكان يشغل ساعاته الأخيرة، بعناية كبيرة، في توضيب مراسم دفنه. ففرض على كلّ الأشراف الذين جاؤوا لزيارته أن يقسموا له على الحضور في جنازته؛ بل طلب راجيا من الأمير الذي واكب أنفاسه الأخيرة أن يُلزم أهل بيته بالسّير وراء الجنازة، وسرد له مختلف الأمثلة والحجج التي تعلّل وجوب تمجيده بهذا السلوك. ويبدو أنّه مات سعيدا بما لقيه من وعود، إذ تسنّى له ترتيب مواكب دفنه كما أراد. نادرا ما رأيت غرورًا شديدا كهذا!

23. يوجد سلوك آخر شبيه بهذا، وأذكر أمثلة لبعض أقاربي الذين أولوا عناية خاصة بمراسم جنازتهم، وتحمّسوا في آخر لحظة لترتيبها بتقتيرٍ شديدٍ حتى لا يحضرها أكثر من خادم واحد حاملا لفانوس واحد. هناك من يمجّد هذا السلوك، وكذلك سلوك ماركوس أميليوس لبيدوس (Marcus Emilius Lepidus) الذي منع ورثاءه من تنظيم المراسم المعتادة في جنازته.

24. فهل من الاعتدال وشظف العيش أن نتجنّب النفقات والملذّات التي يبقى إدراكها واستعمالها في غير مستطاعنا؟ قد يكون الأمر سهلا ولا يكلّف الكثير. ولو كان لا بدّ من الحسم في الأمر، لكان من رأيي، في مثل هذه الأوضاع كما في كلّ مقتضيات

(1) كان الكرسيّ المثقوب يوضع في صوان البيت حيث تحفظ الملابس.
(2) المقصود هيرودوت.

الحياة، أن يتبنّى كلّ امرئ قاعدة للسلوك تكون مناسبة للوضع الذي هو فيه. هكذا طلب الفيلسوف ليكون (Lycon)، بحكمة، من أصدقائه أن يواروا جثمانه التراب في المكان الذي يرونه الأفضل، وأن يقيموا مراسم الدّفن بلا فخر وتباه، وبلا تفاهة وخِسّة.

25. سأترك مراسم الجنازة تجري ببساطة وفق العُرف والعادة، وسأترك الأمر لتقدير من سيتكفّلون بي.

«فعندما يتعلّق الأمر بأنفسنا، نترفّع عنه تماما، وعندما يتعلّق بغيرنا، نوليه كامل العناية».

[Cicéron, *Tusculanes*, I, 45]

وكما قال القدّيس:

«إنّ العناية بمراسم الدّفن، واختيار القبر، وموكب الجنازة، إنّما كلّ هذا يفيد في عزاء الأحياء أكثر منه في إعانة الأموات».

[Saint Augustin, *La Cité De Dieu*, I, 12.]

سأل كريتون (Criton) سقراط، في آخر لحظاته، كيف يرغب أن يُدفن، فأجابه: «مثلما يحلو لك».

26. لو كان لا بدّ لي أن أهتمّ بالأمر، لوجدت أكثر أناقة في النسج على منوال أولئك الذين يريدون، مذ يكونون أحياء، أن يُدفنوا في قبر يليق بمقامهم، ويجدون متعة في تسجيل موتهم على الرّخام. سعيدٌ من يجلب البهجة والمتعة لحواسّه بفضل اللّاإحساس، ذلك من يحيا بموته !

27. أكاد أشعر بكره شديد تجاه ما يملكه الشعب من نفوذ، رغم أنّ هذا النفوذ يبدو هوالأقرب إلى الطبيعة والعدل؛ أكاد أشعر بذلك عندما أتذكّر ظلم الشعب الأثيني لجنرالاته البواسل، إذ حكم عليهم بالإعدام ورفض العفو عنهم ولا حتّى أن يدافعوا عن أنفسهم. وذلك رغم أنّهم انتصروا على اللاقيديمونيين (Lacédémoniens) في المعركة البحرية لجزر الأرجينوس (Les Îles Arginuses)، وهي لعمري أشدّ المعارك التي خاضها اليونانيون في البحر بعتادهم الخاص.

و كلّ ما في الأمر هو أنّ هؤلاء القادة، بعدما انتصروا، اغتنموا الفرص التي يتيحها قانون الحرب، عوض أن يجمعوا أمواتهم ويدفنوهم. وإنّ ما زاد الإعدام فظاعة، هي حالة ديومِدون (Diomédon).

28. كان ديومِدون من بين المُدانين، وكان عسكريًا وسياسيًا عظيمًا. فبعد أن سمع

الحكم الذي يدينه وظفر وقتها فقط بمهلة كي يعبّر عمّا يريد، تقدّم، وعوض أن يغتنم الفرصة ليدافع عن نفسه ويبيّن قسوة القرار الذي اتُّخذ ضدّه جورًا، عبّر فقط عن قلقه على الذين حاكموه، راجيا من الآلهة أن تضيف حكمهم الذي أصدروه إلى حسناتهم. ثمّ كشف عمّا وعد به الآلهة، هو وأصحابه، اعترافا بمنحها لهم حظًا غير عادي أثناء الحرب، حتى لا يتكبّدوا غضبها بعدما أصبحوا عاجزين عن الإيفاء بالوعد. ودون أن ينبس ببنت شفة، استسلم لمصيره بكلّ رباطة جأش.

29. وبعد مُضيّ سنوات، ردَّ القدَر كيدَ الأثينيين في نحورهم. ذلك لأنّ أمير بحريّتهم شابرياس (Chabrias)، بعد أن تغلّب، في جزيرة ناكزوس (Naxos)، على بوليس (Pollis)، أمير بحريّة إسبرطة، خسر الحرب دفعة واحدة بعدما كاد يربحها، خشية منه أن يُدان كما في المثال المذكور أعلاه. فحتّى لا تضيع بعض أجسام أصدقائه التي بقيت تطفو فوق الماء، ترك عددا كبيرا من الأعداء يفلتون سالمين معافين، فما كان منهم إلّا أن جعلوه يدفع الثمن باهظا بسبب معتقده الباطل.

«*أتريد أن تعلم أين ستوجد بعد الموت؟*
وأين توجد الكائنات التي لا تزال ستولد»

[Sénèque, *Les Troyennes*, II, 30]

هنا، يُمنح الشعور بالراحة لجسم هو رغم ذلك بلا روح:

«*كونه لا يملك قبرا ليتقبّله*
ولا مرسى لتفريغ جسمه من ثقل الحياة
وتركه يستسلم للراحة بعيدا عن الشرور».

[Cicéron, *Tusculanes*, I, 44]

30. إلّا أنّ الطبيعة تثبت، لا محالة، أنّ بعض الأشياء الميّتة لا تزال لها علاقة خفيّة بالحياة: فالنبيذ يتحوّل، وهو داخل القبو، وفقا للفصول التي تؤثّر في الكروم التي أنتجته. وإنّ لحم الطرائد يتغيّر شكله وطعمه بالتمليح، وفق قوانين اللحم الحيّ، حسب ما يُقال.

الفصل الرابع

كيف نُلقي اللّوم على أسباب واهية، عندما تغيب عنّا الأسباب الحقيقية

1. كان أحد رجالنا النبلاء يعاني من داء النقرس، وأراد أطبّاؤه أن يمنعوا عنه تناول اللحوم المملّحة تماما، فأجابهم مازحا إنّه يريد أن يعلم أيّ شيء سيلوم على ما تكبَّده من عذاب أليم. فكان تارة يتّهم السجق ويلعنه، وطورا يوجّه اللّعنة للسان البقر، وهكذا كان يشعر ببعض الراحة. وبالفعل، فكما أنّنا نشعر بالألم عندما نرفع ذراعنا لنضرب به فلا يقع على شيء ويضرب الفراغ، وكما أنّ المشهد يكون جيّدا عندما لا يترك بصرنا يتوه بعيدا ويتلاشى، بل يقدّم له ركيزة تبقيه على مسافة معقولة،

«وكما أنّ الرياح تتبدّد في الخلاء إذا لم تعترضها غابات كثيفة».

[Lucain, *La Pharsale*, VI, V, 20]

فكذلك يكون الفكر حائرا مرتجًّا وفي حالة ضياع ما لم يجد دعما وركيزة ينطلق منها في نشاطه.

2. يقول بلوتارخوس (Plutarque) في سياق حديثه عن أولئك الذين يتعلّقون بنسناس أو ببعض الجراء، إنّ الجزء العاشق فينا، إذا لم يجد موضوعا مشروعا لينطبق عليه وبقي معطّلا، فهو سيختلق موضوعا آخر، تافها وغير لائق.

وإنّ ما نلاحظه أيضا هو أنّ الأهواء قد تجعل الفكر يخدع نفسه عندما يتصوّر أشياء خيالية عجيبة، قد تكون مخالفة حتى لمعتقداته الشخصية، بدلا من عدم مجابهة أيّ شيء.

3. هكذا يغتاظ الحيوان ويتهجّم على الحجر أو الحديد الذي جرحه، وينهش نفسه انتقاما من الألم الذي يشعر به.

«وتزداد دبّة بانونيا شراسة عندما يرميها
اللّيبي برمحه ذي الحزام الرقيق
فتلتفّ حول جرحها وتسعى حانقة

إلى عضّ السّهم الذي أصابها،
وإلى مهاجمة الحديد الذي يدور معها».

[Lucain, *La Pharsale*, VI, V, 220]

4. يا لها من أسباب نخترعها لتفسير المصائب التي تنزل بنا! يا لها من أشياء نلقي عليها اللّوم، عن حقّ أو غير حقّ، حتى يوجد ما نحاربه! إنّ ما أفقدك أخاك العزيز ورماه بالرصاص القاتل ليس تلك الضفائر الشقراء التي تقتلعها، ولا ذلك الصدر الأبيض الذي، من فرط حزنك، تضربه بكلّ عنف: لا ينبغي أن تُلقي اللّوم على هذه الأشياء!

5. قال تيتوس ليفوس، متحدّثا عن الجيش الإسباني، إذ خسر أخوين إثنين من كبار قادته:

«فإذا بهم جميعا ينتحبون، ورؤوسهم يلطمون»

[Tite-Live, XXV, 37].

كان ذلك تقليدا جاريا.

كان الفيلسوف بيون يقول، مازحًا، عن الملك الذي كان ينتف شعره تعبيرا عن حداده وحزنه: *«أيظنّ أنّ الثعلبة ستخفّف من حزنه؟»*.

من لم يشاهد لاعبًا يمضغ أوراقه ويبلعها، أو يبلع حزمة النّرد انتقاما منها بسبب ما تكبّده من خسائر؟

6. لقد أشبع كزركساس (Xerxès) البحر ضربا بالسّوط، وكتب رسالة يتحدّى فيها جبل آتوس (Mont Athos). وكلّف سايروس جيشا كاملا، مدّة أيّام عديدة، للثأر من نهر جندوس (Gyndus) لما سبّبه له من الخوف عند عبوره. وقام كاليغولا (Caligula) بهدم منزل جميل جدّا بسبب ما وجدته فيه أمّه من متعة.

7. لمّا كنت شابّا، كان يُروى أنّ ملكًا من جيراننا عاقبه الله فأقسم بأن ينتقم منه: فمنع الصّلاة مدّة عشر سنوات، ومنع الحديث عنه وحتّى الإيمان به. لم يكن المقصود بهذه الرواية الإشارة إلى الحمق وإنّما إلى الكبرياء.

تكون هذه العيوب متلازمة دائما؛ إلّا أنّ مثل هذه المواقف تنمّ، في الحقيقة، عن الوقاحة أكثر منها عن الحماقة.

8. عندما تعرّض القيصر أوغيست (César Auguste) لعاصفة بحرية، أخذ في تحدّي الإله نبتون (Neptune)، فعمد في أثناء افتتاحية ألعاب السيرك إلى حذف صورته من بين صور الآلهة، انتقامًا منه. قد لا يُغفَر له ذلك، أكثر حتّى من الذين تقدّم ذكرهم، سيّما بعد المعركة التي خسرها بألمانيا ضدّ كَنتليوس فاروس (Quintilius

Varus)، حيث أخذ يلطم رأسه على الجدار من فرط اليأس والغضب وهو يصيح: «أيا فاروس، أعِد إليّ جنودي!». ذلك لأنّ الذين يؤاخذون الربّ نفسه، أو يؤاخذون القدر، كما لو كان يملك آذانا صاغية لشكواهم، ليسوا مجرّد مجانين، بل هم كافرون.

9. هكذا كان يفعل أهالي تراسيا (Les Thraces)، إذ تراهم، عندما يقصف الرعد أو يومض البرق، يرمون سهامهم نحو السماء، لثني ربّهم عمّا يفعل، انتقاما منه انتقام الجبابرة.

وكما قال شاعر قديم، يذكره بلوتارخوس:

«يجب ألّا نغضب على الأحداث،
فهي لا تبالي بغضبنا».

أمّا الغضب على عقولنا المختلّة، فمهما فعلنا لن يكفي أبدًا.

الفصل الخامس

هل ينبغي على القائد المحاصَر أن يخرج للتفاوض؟

1. أراد لوسيوس مارسيوس (Lucius Marcius)، ممثّل الرومانيين في الحرب على برسي (Persée)، ملك مقدونيا، أن يربح الوقت كي يسترجع جيشه أنفاسه، فقدّم عرضا للتوافق، فانطلت الحيلة على الملك إذ منحه مهلة بضعة أيّام، ما خلق له فرصة للتسلّح وتسبّب في خسارة الملك.

2. وعندما أتى أعضاء مجلس الشيوخ على ذكر سلوك آبائهم، استنكروا ممارساتهم المخالفة للتقاليد، التي كانت تتمثّل في الاستبسال في المعركة، لا في الخدعة والمراوغة أو في نصب كمائن في اللّيل، ولا في التظاهر بالفرّ قبل الكرّ على حين غرّة، كما كانت تتمثل في إعلان الحرب وتحديد مكانها وزمانها قبل شنّها.

3. هكذا سلّموا لبيروس (Pyrrhus) طبيبه الخائن[1]، وسلّموا للفالسكيين[2] مدير مدرستهم الغادر. وهكذا كان يسلك الرومانيون الحقيقيون، على عكس الداهية اليوناني أو الماكر البونيقي اللّذَين يريان أنّ الانتصار بالقوّة لا يجلب المجد بقدر الانتصار بالخديعة.

4. قد يكون الخداع مفيدا في الحال. لكن لا يعترف بالهزيمة إلّا من يعلم أنّه لم يُهزم غدراً، أو بسبب سوء الحظّ، وإنّما بعد حرب شريفة قانونية بين وحدات عسكرية باسلة. نرى جيّدا، من خلال ما يصدع به هؤلاء الذين يستحقون التقدير، أنّهم يرفضون قول الشاعر:

«في مواجهة العدوّ، لا يهمّ أن تكون ماكرًا أو شجاعًا».

[Virgile *Énéide*, II, V. 390.]

5. كان الآخيون (Achéens)، حسب بوليب (Polybe)، يكرهون الغدر في الحرب، ولا يعتبرون أنفسهم منتصرين إلّا إذا لم يبق للعدوّ رغبة في العراك.

---

(1) كان قد وعد العدوّ بدسّ السّم لبيروس.

(2) الفالسكيون (Falisques) شعب إيطالي قديم، من مدينة فاليري Faleries القريبة من روما.

«اعلم أيّها الرجل الجليل الحكيم أنّ النّصر الحقيقي إنّما هو الذي تحقّقه دونما إخلال بالاستقامة والشرف».
[Juste Lipse, *Politiques*, V, 17.]

وقال آخر:

«إذا كان العرش من نصيبي أو نصيبك، فليكن القول الفصل للشجاعة».
[Ennius, Cité Par Cicéron In *Des Devoirs*, I, 12]

6. لقد جرت العادة، في مملكة ترنات، وكذلك عند بعض الشعوب التي غالبًا ما نتسرّع في نعتها بالهمجيّة والتوحّش، أن لا يقع شنّ حربٍ قبل الإعلان عنها؛ بل كان لا بدّ من الإعلان بكلّ دقّة عن الوسائل التي يُنوى استخدامها: عدد المحاربين، والذخائر، ترسانة الهجوم وترسانة الدفاع. وبعد ذلك إذا لم يستسلم العدوّ ولم يوافق على حلٍّ، يصبح من حقّ كلّ طرف أن يسلك بأبشع الطرق دون أن يخشى لائمة لائم على غدره أو مكره أو على أيّ عمل قد يساعده على الانتصار.

7. كان الفلورنسيون لا يفكّرون أبدا في مهاجمة أعدائهم على حين غرّة، حتّى إنّهم كانوا ينبّهونهم شهرًا قبل أن يضعوا جيشهم في حالة تأهّب، فكانوا لا يتوقّفون عن دقّ جرس يطلقون عليه اسم «مارتنلّا».

8. أمّا نحن، إذ لا نكترث كثيرا ونمنح أمجاد الحرب لمن يربحها، وإذ نقول، بعد ليزندر (Lysandre)، إذا لم يكن جِلد الأسد كافيا فيجب أن نضيف إليه من جلد الثعلب، ففي رأينا أنّ هذه الأوضاع تفتح الباب للمفاجآت، فنقول إنّ القائد لا ينبغي أن تغمض له عين وينبغي أن يبقى متيقّظا أثناء المحادثات والمعاهدات. ولهذا السبب، كما يؤكّد كلّ رجال الحرب في عصرنا، يجب ألّا يخرج والي المدينة المحاصَرة للتفاوض أبدا.

9. هذا ما عابه بعضهم، في زمن آبائنا، على نبلاء مُنمورت(Monmort) وآسنيي(Assigny)، إذ كانوا يدافعون عن موسون (Mousson) ضدّ الكونت دي ناسو (Comte De Nassau). لكن في مثل هذه الحالة لا يؤاخَذ من يكون الأمان والتفوّق لصالحه. هذا ما حصل في مدينة ريج (Rege) للكونت غي دي رانغون (Comte Guy De Rangon) (على حدّ قول دي بلّاي (Du Bellay)، لأنّ غيشردان (Guichardin) قال إنّه كان هو نفسه)، عندما اقترب منه سيّد الإسكوت (Seigneur De L'escut) للتفاوض: فبعد أن ابتعد قليلا عن الحصن وشرع في التفاوض، حصلت مناوشة جعلت سيّد الإسكوت ومن صاحبه من الجند في وضع ضعفٍ، وحيث قُتل إسكندر

دي تريفولس (Alexandre De Trivulce)، فاضطرّ سيّد الإسكوت، حفاظا على نفسه، أن يتبع الكونت ويثق به ويتحصّن داخل المدينة.

10. كان أومان (Eumène) محاصَرًا في مدينة نورا (Nora) من طرف أنتيغونوس (Antigonos). ألحّ عليه هذا الأخير كي يخرج لمحادثته، باعتبار أنّه هو، أنتيغونوس، الأقوى والأعظم. أجابه أومان بنبل وشرف: «طالما أنّ سيفي بيدي، لا أعتبر أحدًا أعظم منّي». ولم يقبل بالأمر إلّا بعد أن رضي أنتيغونوس بأن يقدّم له ابن أخيه بطليموس (Ptolémée) رهينةً.

11. بيد أنّ هناك من وجد خلاصه في الخروج بعد أن حصل على وعدٍ من مهاجمه: مثلا هنري دي فو (Henry De Vaux)، فارس شامبنوا، عندما حاصره الإنجليز في قصر كومرسي؛ حيث هدم قائد الحصار، بارثيليمي دي بون (Barthélémy De Bonnes)، الجزء الخارجي الأعظم من القصر ولم يبق إلّا أن يشعل النّار لردم المحاصرين تحت الأنقاض، فأمر المسمّى هنري بالخروج للتفاوض في صالحه، فاستجاب وخرج مع ثلاثة آخرين. ولمّا شاهد بأمّ عينه المصير الذي كان ينتظره، شعر بالعِرفان تجاه عدوّه وسلّم نفسه له، هو وجنوده. وبعد ذلك أُضرمت النّيران وهوت الدعائم الخشبية وانهار القصر برمّته.

12. قد أثق بسهولة في كلام غيري. لكن قد أثق فيه على مضض لو كان ذلك بدافع اليأس، أو الجبن، لا بدافع الحرّية والثقة في نزاهته.

الفصل السادس

لا تخلو ساعة المفاوضات من الخطر

1. شاهدت حديثا، في جِواري بموسيدان (Mussidan)، أناسا أخرجهم الجيش من ديارهم بالقوّة، فكانوا يتصايحون مع ذويهم مندّدين بالغدر، لأنّهم بينما كانوا يتفاوضون وبينما كانت المعاهدة سارية المفعول، تمّت مفاجأتهم وقهرهم. ففي زمن آخر، كان من الممكن أن تكون احتجاجاتهم في ظاهرها معقولة؛ لكن، كما قلت أعلاه، لقد أصبحت تصرّفاتنا اليوم غريبة عن القواعد التي يذكرونها، ولم يعُد مقبولا أن نثق بأيٍّ كان قبل أن يقع وضع الختم النهائي؛ بل حتى بعد ذلك يبقى الحذر واجبا.

2. وفي جميع الأحوال، ليس من الحكمة أن تضع المدينة المغلوبة ثقتها في الجيش الغالب وأن تستسلم وتتراخى وتفتح أبوابها للجنود، بينما لا يزال الوضع ساخنا.

لقد عقد المقرض الروماني أميليوس رجلّوس (Aemilius Regillus) معاهدة مع سكّان مدينة فوسي (Phocée) إذ احتلّها بالقوّة بعد مقاومة أهلها الرائعة، فوعدهم بأن يصبحوا أصدقاء للشعب الروماني متى فتحوا له الطريق إلى ديارهم وجعلوا مدينتهم حليفة له، دون أن يخشوا على أنفسهم من شيء. إلّا أنّه عندما أدخل جيوشه للتباهي، لم يعُد قادرا، رغم كلّ محاولاته، على التحكّم فيها، فكان شاهدًا على خراب جزء كبير من المدينة: إنّ الجشع وحبّ الثأر قد انتهكا سلطته وأفسدا الانضباط العسكري.

3. كان كليومان (Cléomène) يزعم أنّه مهما كان الشرّ الذي قد نلحقه بالأعداء في الحرب، فهو لا يتعلّق بالعدل الإلهي أو العدل الإنساني، وإنّما هو يفوقهما. فبعدما اتّفق على هدنة بسبعة أيّام مع الأرجيين(Argiens)، هاجمهم أثناء النّوم في اللّيلة الثالثة، زاعما أنّه ليس في الهدنة إشارة إلى كونها تشمل اللّيل...! لكن عاقبته الآلهة على مكره وغدره.

4. لمّا كان سكّان كزيلينوم (Casilinum) يتفاوضون ويتناقشون حول ما يريدونه من ضمانات، غُزيَت مدينتهم. حدث ذلك أيّام كان القادة الرومانيون في قمّة العدل وفنّهم العسكري في منتهى الكمال. ذلك لأنّه لا شيء يمنع، في بعض الظروف، أن نغتنم غباوة أعدائنا مثلما نغتنم جبنهم. ولا شكّ أنّه يوجد في الحرب امتيازات «معقولة» كثيرة مخالفة للعقل نفسه. هنا لا تصلح القاعدة التي تقول: «*لا أحد يجوز له أن يستغلّ جهل غيره*». [Cicéron, *De Officiis*, III, 17]

5. عندما حاصر السيد دوبني (D'Aubigny) مدينة كابو (Capoue)، وبعد أن أعدّ العدّة، شرع قائد المدينة السيّد فابريس كولون (Fabrice Colonne) في التفاوض من أعلى الحصن، فتراخى جنوده عن الحراسة، واغتنم جنودنا الفرصة واستولوا على المدينة وخرّبوها تماما.

وفي فترة ليست بعيدة، في إيفوا (Yvoy)، جازف السيّد جوليان روميرو (Jullian Romero) بالخروج للتفاوض مع السيّد القائد العام، فلمّا عاد وجد مدينته محتلّة.

6. وإليكم ما حصل للمركيز دي بسكير (Marquis De Pesquaire) إذ كان يحاصر مدينة جنوة، حيث كان يحكم الدوق أوكتافيان فريغوز (Duc Octavian Fregose): فبعد أن كاد يحصل اتّفاق بينهما، ولحظة إبرامه، تسرّب الإسبانيون إلى ساحة المدينة وتصرّفوا كما لو كانوا غزاة. وهذا ما حصل أيضا في لينيي-أن- باروا (Ligny-En-Barrois)، حيث كان يحكم الكونت دي بريان (Comte De Brienne)، حيث قدِمَ الإمبراطور نفسه لمحاصرته، فلمّا خرج مساعد الكونت للتفاوض، سقطت المدينة في ذلك الوقت بالذات. وكما قيل،

«النصر دائما يستحقّ الثناء،
سواء تمّ عن طريق الحظّ أم بفضل المهارة».

[Arioste, *Roland Furieux*, XVI, 1]

7. لكن ليس هذا رأي الفيلسوف كريزيبوس (Chrysippe)، ولا هو رأيي؛ إذ كان يقول إنّ الذين يتسابقون في العدو يحقّ لهم أن يبذلوا كلّ جهدهم كي يُسرعوا، لكن لا يحقّ لهم أن يمسكوا منافسيهم لإيقافهم أو أن يعرقلوا أرجلهم كي يتعثّروا.

ولقد كان الإسكندر العظيم شهما جدّا، عندما نصحه بوليبركون (Polypercon) بأن يستغلّ ظلام اللّيل كي يهاجم داريوس (Darius)، إذ كان جوابه: «كلّا، لست من يراوغ للفوز بالنّصر» - «فأن أبكي على حظّي أفضل عندي من أن أخجل من نصري».

[Quinte-Curce, IV, 13]

«أَنِفَ من أن يضرب أُرود من الخلف،
وأن يصيبه من حيث لا يراه يأتي،
جرى نحوه وهاجمه ببسالة، وجها لوجه،
أراد أن يكون هو الأفضل، بقوّة الساعد وليس بالغدر».

[Virgile, *Énéide*, X, 732]

الفصل السابع

إنّما الأعمال بالنّيات

1. يقال إنّ الموت يعفينا من كلّ التزاماتنا؛ لكن قد يرى بعضهم عكس ذلك. لقد اتّفق ملك إنجلترا، هنري السابع (Henri VII)، مع دوم فيليب (Dom Philippe)، ابن الإمبراطور مكسيمليان (Maximilien) (أو، إن شئنا المدح، أب الإمبراطور شارلكان Charles-Quint)، على ما يلي: يسلّمُ دوم فيليب للملك عدوّه دوق سوفلك (Duc De Suffolk) الذي هرب لاجئا إلى هولندا، شريطة أن يلتزم بعدم قتله. فلمّا شعر الملك بقرب المنيّة، أمر ابنه بألّا يترك الدوق حيّا من بعده.

2. وفي المأساة الأخيرة التي حدثت في بروكسِل مع دوق آلب (Duc D'Albe)، بشأن الكونت دي هورن (Comte De Horn) والكونت دي إغمون (Comte D'Egmont)، حصلت أمور جديرة بالنظر؛ حيث سلّم الكونت دي هورن نفسه إلى دوق آلب بضمانة الكونت دي إغمون، فطلب هذا الأخير بأن يُقتل هو أوّلا كي يتحرّر من العهد الذي بينه وبين الكونت دي هورن.

ويبدو، من خلال هذين المثالين، أنّ الموت لم يحرّر ملك إنجلترا ممّا وعد به، وأنّ الكونت دي إغمون كان بإمكانه أن يعفي نفسه من وعده دون أن يُقبل على الموت.

3. لا يمكن للوعد أن يلزمنا أكثر من طاقتنا وأكثر ممّا نقدر عليه، والسبب، ببساطة، هو أنّ الأحداث والأفعال لا تتوقف علينا، وأنّ كلّ ما نقدر عليه حقّا هو ما يدخل في نطاق إرادتنا: فعليها تتأسّس وتقوم بالضرورة كلّ القواعد المتعلقة بواجبات الإنسان.

وعليه فإنّ الكونت دي إغمون، إذ كان بعقله وإرادته شديد الالتزام بوعده، مع أنّه كان غير قادر على تحقيقه، إنّما كان بالتأكيد في حِلٍّ من وعده حتى لو عاش بعد الكونت دي هورن. أمّا ملك إنجلترا، فقد نكث عهده بمحض إرادته، ولا يمكن أن يُعذر على تأجيل تنفيذ خطّته الخسيسة إلى ما بعد موته؛ شأنه شأن «البنّاء» الذي تحدّث عنه هيرودوت والذي بقي شريفا طوال حياته كاتما سرّ كنوز سيّده، ملك مصر، إلّا أنّه كشفه لأبنائه لحظة موته.

4. شاهدت في حياتي الكثير ممّن استحوذوا على أملاك غيرهم، فلمّا أنّبهم ضميرهم

أرادوا الصّلح وكتبوا وصيّة لما بعد موتهم. إنّهم هكذا لم يكونوا من الصالحين، إذ أجّلوا أمرا لا يحتمل التأجيل، وإذ رغبوا في رفع ضرر لم يندموا عليه كثيرا ولم يكلّفهم رفعه شيئا. كان عليهم أن يؤمنوا بما يقومون به، وكلّما كان جبرهم للضرر قاسيا مضجرا، كانوا أهلا للرضا ويستحقّونه. إنّ التوبة تفترض عبئا نحمله.

5. وقد يسلك آخرون بفظاعة أشد، إذ ينتظرون آخر رمق في حياتهم كي يعترفوا لأحد أقربائهم بكرههم له بعد أن كتموه طوال حياتهم. إنّهم هكذا لا يعبأون بشرفهم ويولّدون لدى من يكرهون موقفا سلبيّا من ذكراهم؛ بل إنّهم لا يعبأون حتى بضميرهم إذ لا يحترمون الموت نفسه، وعوض أن يتركوا أحقادهم تموت معهم، يجعلونها تمتدّ بعد مماتهم.

6. سوف أعمل، قدر المستطاع، كي لا يكون لي بعد موتي قولٌ لم أقُله في حياتي علنًا.

الفصل الثامن

عن الفراغ

1. إنّ الأراضي البور، عندما تكون طينيّة وخصبة، قد تزخر بالأعشاب البرّية الزائدة، ولكي تبقى في حالة جيّدة ونستغلّها، لا بدّ من حرثها وزرعها. وإنّ النساء اللائي يُنتجن من لدنهنّ أجزاء وأكداسا من اللّحم البشع يحتجن، إذا أردن تحسين نسلهنّ، إلى الحمل من بذر خارجي.

2. وكذا شأن عقولنا: فإذا لم نُشْغِلها بما يُرغمها ويشدّ لجامها، فهي ستركض هنا وهناك في أراضي الخيال القاحلة.

«كما في مزهريّة نحاسيّة، يعكس سطح الماء
المرتعش أشعّة الشمس أو القمر،
يحلّق النّور في كلّ مكان مرتفعا
في الهواء ساطعا في تلبيسة السقف».

[Virgile, *Énéide*, VIII, 22-26]

فلا جنون ولا هذيان إلّا وكانا من نتاج هذه العقول.

«إنّها تصنع الأوهام،
بل تصنع أحلاما مريضة».

[Horace, *Art Poétique*, 7]

«العقل الذي ليس له هدف قد يتشتّت،
إنّ الوجود في كلّ مكان هو عدم الوجود في أيّ مكان».

[Martial, VII, 3]

3. انعزلتُ في الفترة الأخيرة في منزلي[1]، وعزمت قدر الإمكان على الكفّ عن كلّ

(1) في بداية 1571 قرّر مونتاني الاعتزال في قصره.

شيء، وعلى الانزواء للراحة ما تبقّى لي من قليل العمر. وبدا لي أنّ أفضل ما قد أمنّ به على عقلي هو أن أتركه في فراغ تامّ، معتنيا بنفسه، متوقّفًا عاكفًا في خُلْوَته. وتمنّيت أن يسهل عليه ذلك بعدما أصبح بمرور الزمن أشدّ رجاحة وأكثر نضجا.

4. لكن اكتشفت أنّ

«الفراغ يشتّت الفكر دائما في كلّ الاتجاهات».

[Lucain, *La Pharsale*, IV, 704]

وأنّه، كالحصان الذي يكسر قيده ويفلت، يسيء هكذا إلى نفسه أكثر ممّا كان يلحَق به من الآخرين. إنّه يبتكر لي من الخيامر Chimère والوحوش الهائلة ويكدّسها بلا نظام ولا ترتيب. ما يجعلني، كي أتبيّن تفاهتها وغرابتها على راحتي، أشرع في تحرير ذلك كتابيا، راجيا، مع مرور الزمن، أن أجعله يخجل من ذلك بنفسه.

الفصل التاسع

عن الكذّابين

1. أنا أقلّ مَنْ يليق به الحديث عن الذاكرة: فأنا أكاد لا أجد لها أثرا في نفسي، ولا أظنّ أنّه يوجد في العالم ذاكرة بمثل ضعف ذاكرتي. إنّ ملكاتي الأخرى كلّها متوسطة وعادية، أمّا هذه فهي استثنائية ونادرة وتجعلني أشهر من نار على علم...

2. فضلا عمّا يسبّبه لي ذلك من إحباط – إذ كان أفلاطون على حقّ لمّا نظر إليها على أنّها ضرورية واعتبرها ربّة عظيمة جبّارة– فإنّ النّاس في بلدي، متى أرادوا أن يجرّدوا أحدا من كلّ منطق، قالوا إنّه فاقد لكلّ ذاكرة. وإذا تذمّرت من نقص ذاكرتي، آخذوني ورفضوا تصديقي، كما لو كنت أتّهم نفسي بالحمق: إنّهم لا يرون فارقا بين الذاكرة والذكاء.

3. لعلّهم هكذا يضرّونني ويزيدون وضعي تأزّما، لأنّ ما تثبته التجربة، على العكس، هو أنّ الذاكرة الممتازة إنّما توجد عادة عند بسطاء العقول. زد على ذلك، والحال أنّني لا أتقن شيئا مثلما أتقن الصداقة، أنّ بعضهم يستعملون نفس المفردات للإشارة إلى عيبي ولاتّهامي بنكران الجميل! إنّهم يلومون شعوري، وإذّاك يلومون ذاكرتي؛ ويجعلون من عيب قائم في طبيعتي عيبا قائما في ضميري... يقولون: لقد نسي أن يصلّي، وغفل عن وعده، ولا يتذكر أصدقاءه، وغفل عن قول هذا عنّي، أو عن فعله، أو عن السكوت عنه.

4. لا شكّ أنّني أنسى بسهولة؛ لكن لا أنسى ما كلّفني به صديق. فارضوا بعاهتي، ولا تنتظروا منها سوءًا! سوءًا غريبا عن طبعي ومزاجي... ومع هذا أواسي نفسي قليلا وأقول إنّ عيبي قد أعانني خاصة على إصلاح عيب أعظم منه كان بالإمكان أن يجتاحني: ألا وهو الطموح. ذلك أنّ عيبي يبقى عائقا لكلّ من يرغب في الانخراط في العلاقات العامة.

5. ومثلما تبيّن أمثلة كثيرة من نفس النوع، حيث تنجز الطبيعة ما عليها، فإنّه بقدر ما تضعف قوّة الذاكرة تتعزّز القوى الأخرى: فلو كانت الذاكرة تقدّم لي أفكارا جديدة وآراء غيري من النّاس، لتركت عقلي يتكاسل وينعم بالراحة مثلما يفعل الآخرون، ولما درّبته على التفكير. ولكان خطابي أكثر توازنا، لأنّ زاد الحافظة عموما يكون أعظم من

زاد الاختراع. فلو وقفتْ الذاكرة لمساعدتي، لدوّختُ كلّ أصدقائي بثرثرتي، ولوجدتُ من المواضيع ما يستثير قدرتي ويستحثّني على الكلام فيها.

6. هذا أمر مقرف؛ والدليل هو ما أراه عند عدد من أعزّ أصدقائي: بما أنّ ذاكرتهم تقدّم لهم الأمور كاملة جاهزة، فإنّك تراهم يعودون برواياتهم إلى الوراء بعيدا ويشحنوها بالتفاصيل الزائدة، فإذا كانت الرواية جيّدة فقدتْ من جودتها، وإذا كانت رديئة لعنتَ ذاكرتهم أو قدرتهم الضعيفة على الحكم.

7. إنّه لمن الصعوبة بمكان أن نضع حدّا للعرض الذي نقدّمه، وأن نتوقّف بعدما انطلقنا فيه. وإنّ أكثر ما يعرّفنا بجودة الفرس هو عندما نوقفه دفعة واحدة. وحتى الذين يكون حديثهم في محلّه، أرى بينهم من يودّون التوقّف عن الكلام، إلّا أنّهم لا يستطيعون. وفي انتظار ما يجعلهم يكفّون عنه، لا يقفون عن الكذب والهراء، يجرّون أذيال الضعف والوهن. وأخطرهم خاصّة أولئك العجائز: إنّهم يتذكّرون الأشياء الماضية، لكن ينسون ما قالوه للتوّ. لقد أصغيتُ إلى روايات شيّقة، لكنّها أصبحتْ بعد ذلك مملّة جدّا، سيّما بعد أن رواها شخصٌ عظيم وكرّرها مائة مرّة!

8. مزيّة أخرى من مزايا ضعف ذاكرتي: إنّي لا ألبث أن أنسى الإهانات التي توجَّه لي. وكما قال مؤلّف قديم: لا بدّ لي من مذكّرة، مثلما كان لداريوس (Darius) الذي، حتى لا يغفل عن إهانات الأثينيين له، أمر أن يأتيه حاجب، كلّما جلس على مائدة الطعام، ليهمس في أذنه: «مولاي، تذكّر الأثينيين!». وكذا شأني، فإنّ الأماكن والكتب التي أراها مجدّدا تظهر لي دائما بألوان الجدّة البهيجة.

9. من كانت ذاكرته ضعيفة، عليه ألّا يكذب أبدا. أعلمُ جيّدا أنّ النّحويين يميّزون بين «كذبة» و«كَذَبَ»: يقولون إنّ الكذبة أمر باطل أُخذ على أنّه صادق، وأنّ تعريف فعل «كذب» باللاتينية، وهي مصدر لغتنا الفرنسية، يعني «سلك ضدّ ضميره»؛ وهذا لا يتعلّق إلّا بأولئك الذين يقولون ما يعلمون أنّه باطل، وهم بالتأكيد من أتحدّث عنهم بالذات. أولئك يصنعون شيئا من لا شيء، أو يخفون ويزيّفون ما كان في الأصل أمرا صادقا.

10. إذا دعوناهم إلى تكرار الرواية نفسها، إذ نشكّ في كونهم يُخفون ويزيّفون، فإنّهم سرعان ما يفضحون أنفسهم، لأنّ ما يروونه قد سبق أن انطبع في ذاكرتهم وتمّ تسجيله بالإدراك والمعرفة، فإذا به يُداهم خيالهم بقوّة ويطرد الرواية الباطلة التي لا تكون بالطبع راسخة مثله. فإذا عادت الرواية الأصلية إلى الذهن بحيثياتها فجأة، فُقدت ذكرى الرواية المركّبة الباطلة والمزيّفة.

11. عندما تكون الرواية من إبداعهم الشخصي ولا يوجد ما قد يكذّبهم، فإنّهم لا يخشون من الوقوع في التناقض. لكن لمّا كان ما يختلقونه غير متماسك، فقد يفلت من

ذاكرتهم. لقد اختبرتُ ذلك كثيرا وتمتّعت به على حساب أولئك الذين يزعمون أنّهم لا يولون خطابهم سوى الشكل الضروري الذي تتطلبه المعاملات والذي يحلو لمن يخاطبون من العظماء. ذلك لأنّ الظروف التي تُلزمهم وتُلزم ضمائرهم قابلة للتغيّر، وبالتالي لا بدّ أن تتغيّر أقوالهم أيضا في كلّ مرّة.

12. وعلى ذلك تراهم يقولون، عن الشيء نفسه، تارة إنّه أبيض، وطورا إنّه أسود؛ يقولونه لشخص ما بطريقة ما، ولشخص آخر بطريقة أخرى. فلو شاءت الصدفة أن يلتقي الشخصان وأن يتحادثا في ما رُويَ لهما بأشكال جدّ متناقضة، فماذا عسى أن يكون موقفهما آنذاك؟ هذا زيادة على كونهما غالبا ما سيقاطع أحدهما الآخر؛ إذ من الذي ستكون له من سعة الذاكرة ما يجعله يتذكّر مختلف الصّور التي أضفيت على الموضوع نفسه؟ عرفتُ في شبابي الكثير ممّن كانوا يُحسَدون على ما نالوه من شهرة بفضل هذه المهارة؛ غير أنّ الشهرة قد تقترن بعدم النجاعة.

13. إنّما الكذب عيب مشين، لأنّنا بشر ولأنّ ما يربط بيننا هو الكلام. فلو كنّا ندري مدى بشاعته ومدى وطأته، لجازيناه بالنّار، أكثر حتّى من الجرائم الأخرى. وأرى أنّنا غالبا ما نضيع وقتنا في معاقبة الأطفال على أخطاء بريئة اقترفوها ونكدّر حياتهم على أعمال رعناء لا تترك أثرا يُذكر. أمّا الكذب، والعناد بدرجة أقلّ، فإنّه ينبغي محاربة ظهورهما وتطوّرهما: فهذان العيبان ينموان مع الأطفال. وإذا تعوّد اللّسان على الكذب، قد يصعب جدّا التخلّص من هذه العادة. لذلك نرى أناسا شرفاء لا يستطيعون الامتناع عن الكذب. أعرف خيّاطا وديعا، إلّا أنّني لم أسمعه يوما قال حقيقة واحدة، ولو كانت قد تفيده.

14. لو كان للكذب وجه واحد، شأن الحقيقة، لكان الوضع أفضل، إذ يكفي أن نعتقد في عكس ما يصدح به الكذّاب. إلّا أنّ للكذب مائة ألف وجه، ويتّسع مجاله بلا نهاية.

وبالنسبة إلى الفيثاغوريين، يكون الخير ثابتا محدَّدا، ويكون الشرّ لا محدودًا وغير محدَّد. ألف رمية قد تُخطئ الهدف، ورمية واحدة قد تصيبه. بالتأكيد، إنّي لا أزعم أنّه بوسعي الامتناع عن التفوّه بكذبة ضخمة مهيبة قصد الإفلات من خطر محدق شديد... قال أحد الآباء القدامى[1] إنّنا نكون بحالة أفضل صحبة كلب نعرفه، ممّا نكون صحبة إنسان نجهل لغته.

«ليس الإنسان الغريب، في نظرنا، إنسانا».

[Pline L'ancien, *Histoire Naturelle*, VII, 1]

(1) هو القدّيس أوغسطين، مدينة الله، XIX 7.

لكَم يكون الكلام الكاذب أقلّ أُنسا من الصّمت!

15. كان الملك فرنسوا الأول (François 1er) يفتخر بأنّه فضح تناقض فرانشيسك تافرنا (Francisque Taverna)، سفير فرنسوا سفورزا (François Sforza)، دوق ميلانو، وهو رجل معروف جدّا بلباقته. وقد أرسله سيّده للاعتذار إلى الملك بمناسبة حدث هامّ للغاية هو الآتي: كانت رغبة الملك، بعد أن طُرد من إيطاليا، أن يُبقي فيها بعض المتواطئين، ولا سيّما في دوقية ميلانو، ففكّر أن يضع مع الدوق رجلا نبيلا من أتباعه، يكون له سفيرا غير رسميّ ويظهر كما لو كان هناك في زيارة خاصة ولقضاء شؤون شخصيّة. وذلك لأنّ الدوق، إذ كان يخضع أكثر للإمبراطور، لم يكن بوسعه أن يُظهر للعلن ما لديه من علاقات ومحادثات معنا دون أن يشكّل ذلك خطرا عليه، خاصة وأنّه كان بصدد ترتيب زواجه من ابنة أخ الإمبراطور هي ابنة ملك الدانمارك، وهي حاليا أرملةٌ وارثة الصداق باللّورين(Lorraine). ولهذه الغاية عُيّن رجل مناسب من ميلانو، كان مروّضا لجياد الملك، اسمه ميرفاي (Merveille).

16. ذهب هذا الأخير حاملا رسائل اعتماد سرّية، ومعه تعليمات بصفة سفير، ومعه كذلك رسائل توصية للدوق بشأن أموره الشخصية، وذلك للتنكّر والتمويه، وبقي إلى جوار الدوق مدّة طويلة حتّى إنّ الإمبراطور ساوره الشكّ وحرّض، حسب علمي، على ما يلي: حرّض الدوق على قطع رأس صاحبنا تحت جنح اللّيل بتعلّة جريمة اقترفها، بعد محاكمة عاجلة لم تتجاوز يومين.

17. وسرعان ما أقبل السيّد فرانشيسك ومعه رواية مزوَّرة طويلة لهذه الحادثة، لأنّ الملك استفسر عن الأمر لدى كلّ أمراء المسيحية ولدى الدوق نفسه. تمّ سماعه في جلسة صباحية ودافع عن موقفه بتقديم روايات جميلة كثيرة عن الحادثة.

18. زعم أنّ سيّده لم يتعامل مع الرجل المسكين إلّا بصفته فردا من أفراد الرعيّة جاء إلى ميلانو لقضاء شؤون خاصة، ولم يمكث بها تحت عنوان آخر. كما أنكر سيّده علمه بانتماء هذا الرجل إلى بلاط الملك، بل أنكر حتّى معرفته به ولم يستقبله بالتالي سفيرًا.

فتكلّم الملك بدوره وأمطره بالأسئلة والاعتراضات وهاجمه من كلّ الجهات حتّى أوقفه على مسألة الإعدام الذي حصل تحت جنح اللّيل، كما لو كان في السرّ. فأجاب المسكين بحرج، متعلّلا بالتقاليد المعمول بها، أنّ الدوق لم يجرؤ على تطبيق الإعدام في وضح النهار، احتراما لمولاه الإمبراطور...

بعد أن خدع نفسه بمثل هذه الفظاظة، يمكن أن نتصوّر إجابة ملك فطن مثل االملك فرنسوا الأوّل.

19. أرسل البابا يوليوس الثاني (Jules II) سفيرًا إلى ملك إنجلترا لغاية تأليبه على

ملك فرنسا. سأل ملك إنجلترا السفيرَ عن المهمّة التي جاء من أجلها، ثمّ وقف على الصعوبات التي قد يلقاها في إعداد العدّة لخوض حرب ضدّ ملك فرنسا القويّ، وذكر بعض الأسباب، فأجابه السفير جوابا سيّئا إذ قال إنّه تفكّر بنفسه في هذه الأسباب وشرحها جيّدا للبابا. من منطلق هذا الكلام البعيد كلّ البعد عمّا جاء يعرضه عليه وعن تحريضه له على شنّ الحرب دون مهلة، رأى ملك إنجلترا في ذلك علامة أولى لما اتّضح له حقّا فيما بعد، ألا وهو أنّ هذا السفير له ميل خاص إلى فرنسا. فأعلم سيّده، وانتُزعت ممتلكاته، وكاد أن يفقد حياته أيضًا.

الفصل العاشر

عن الردّ السريع والردّ البطيء

«لم تُمنح كلّ النِّعَم لجميع النّاس أبدا»[1].

1. وفيما يتعلّق بالفصاحة، يبدو أنّ لبعضهم من حضور البديهة والقدرة على الردّ السريع ما يجعلهم على استعداد لذلك في كلّ أمر. أمّا الآخرون، إذ يكونون أبطأ، فهم لا يقولون شيئا إلّا بعد الفحص والتأمّل. إنّنا ننصح النّساء بممارسة الألعاب والتمارين البدنية التي تخدم أجمل ما عندهنّ. وقياسا على هذا، فلو كان عليّ أن أقدّم رأيي حول المزيّتين المختلفتين للفصاحة اللّتَيْن أصبحتا في عصرنا مقترنتَيْن بمهنتَيْ الوعظ والمحاماة، لرأيتُ في البطيء واعظًا، وفي سريع البديهة محاميًا.

2. ذلك أنّ وظيفة الأوّل تمنحه من الفراغ ما يحلو له كي يعدّ نفسه قبل أن يعرض كلامه دفعة واحدة باطّراد منتظم، بينما يجد المحامي نفسه أمام أوضاع ترغمه على الدخول في خصومة كلّ ساعة، وإزاء أجوبة مربِكة لم يتوقّعها من خصومه، ما يضطرّه في الإبّان إلى توخّي مخطّط جديد.

3. لكن إليكم، على العكس، ما حدث أثناء لقاء البابا كليمانت (Clément) والملك فرنسوا في مدينة مرسيليا[2]: لقد تمّ تكليف السيّد بوايي (Poyet)، وهو رجل قانون شهير جدّا قضى حياته في ممارسة المحاماة، بإلقاء الخطاب الموجّه إلى البابا، فأعدّه مدّة طويلة قبل الموعد، حتّى إنّه، فيما يقال، أتى به جاهزا من باريس.

4. وفي اليوم الذي كان سيلقي فيه خطابه، خشي البابا أن يشحنه صاحبه بعبارات قد تكون فيها إساءة لسفراء الأمراء الذين اصطحبهم، فأعلم الملك بموضوع الخطاب الذي يرغبه ويراه مناسبا للظرف، لكن للأسف كان هذا الموضوع مختلفا تماما عن الذي أرهق السيّد بوايي نفسه في إعداده. بحيث فقدت خطبته جدواها وأصبح لا بدّ له من إعداد خطبة أخرى... ولمّا عجز عن ذلك، نابه الكردنال دو بلّاي (Du Bellay).

(1) اقتطف هذا البيت من شعر لَابُويسيه (La Boétie)

(2) تمّ لقاء البابا كليمانت والملك فرنسوا الأوّل في سنة 1533.

5. المحاماة أصعب من الوعظ. ومع هذا نجد من المحامين المتواضعين أكثر ممّا نجد من الوعّاظ - على الأقل في فرنسا.

6. ويبدو أنّ ميزة الفكر هي الردّ المفاجئ السريع، وميزة الحكم هي الردّ الحصيف البطيء. أمّا ذلك الذي يخرس تماما عندما لا يجد وقتا لإعداد خطابه، وذلك الذي يجد الوقت لكن رغم هذا لا يحسن الكلام، فكلاهما أمرهما غريب. قيل عن سيفيروس كاسيوس (Severus Cassius) إنّه يكون أكثر فصاحة عندما لا يتروّى في ما سيقول، وأنّ حليفه الحظّ أكثر من الموهبة، وأنّه يُفلِح أكثر عندما يُعترَض على كلامه، وأنّ معارضيه يخشون استفزازه، كي لا تتضاعف فصاحته عندما يشتدّ غضبه.

7. أعرف بالتجربة هذا المزاج الذي لا يطيق التفكير الكادح والمنظَّم: إنّه لا يجدي نفعا ما لم يكن نشاطه مرِحًا حرًّا. قد نقول عن بعض الكتب إنّها ترشح عرَقا، بسبب ما تتطلّبه من جهدٍ قاس شديد. ومع هذا فإنّ دأب المرء على النجاح، وتوتّر فكره وشدّة تعلّقه بمسعاه، كلّ هذا يزعجه ويحطّمه، كالماء الذي لا يجد مسربًا كافيًا لشدّة تدفّقه وعنفه، رغم وجود فوَّهة.

8. المزاج الذي أتحدّث عنه لا يستحقّ أن تنخسه انفعالات عنيفة، كغضب كاسيوس، لأنّ ذلك قد يكون موجِعاً له؛ بل يجب أن تستحثه وتوقظه أسباب خارجية مباشرة وطارئة. فلو تُرِكَ لنفسه، لبقي تائها وأصابه الضّنى: إنّ الحركية هي حياته وسحره.

9. لا أتحكّم في نفسي جيّداً: إذ تلعب الصّدفة دورًا أعظم من الدور الذي ألعبه أنا بالذات؛ فالمناسبة المتوفّرة، وأصحابي الذين يحيطون بي، وجرَس صوتي، كلّهم يستفيدون من عقلي وفكري أكثر ممّا أستفيد عندما أتقصّاه وأستغلّه بنفسي. وبالتالي فإنّ ما أقوله أفضل ممّا أكتبه، إذا كان لا بدّ من الاختيار بين أمرين لا قيمة لهما.

10. قد يحدث لي أيضا أن لا أجد نفسي حيث أبحث عنها، فإذا وجدتها كان ذلك بمحض الصدفة، لا برجاحة عقلي. لنفترض أنّني أكتب فكرة في غاية الدقّة (قد يراها بعضهم تافهة، بينما أراها أنا جذّابة - لكن دَعْنا من هذه الترّهات، إذ يتحدث كلّ امرئ كما يستطيع). فما إن أكتب هذه الفكرة حتّى يغيب عنّي ما كنتُ أريد بها أن أقول! وقد يكتشف معناها شخص آخر قبلي...

فلو كنت أستخدم المقصّ كلّما حدث لي ذلك، لحذفت كلّ ما كتبت! سوف تلعب الصدفة دورها مرّة أخرى وتوضّح الأمر وضوح النّهار، وسوف أستغرب آنذاك من تردّداتي الماضية.

الفصل الحادي عشر

عن النبوءات

1. وبشأن النبوءات، يبدو أنّها أخذت تسقط في القِدم، حتّى قبل مجيء المسيح نفسه؛ وقد تساءل شيشرون عن سبب أفول هذه الظاهرة. هذه كلماته بالذات:

«ما سرّ غياب النبوءات في دلفي في أيّامنا هذه، بل منذ زمن بعيد، بحيث لم يعد شيء يُحتقر مثلها؟.»

[Cicéron, *De Divinatione*, II, 157]

2. سواء تعلّق الأمر بالتنبّؤات من خلال تشريح الأضاحي (هذه التنبّؤات قد حدّدت جزئيا، حسب أفلاطون، التوافق الطبيعي للأعضاء الباطنية)، أو من خلال دَعس الدجاج، وتحليق الطيور (نعتقد أنّ بعض الطيور وُجدت خدمة لفنّ العرافة)، أو كذلك من خلال الصّواعق، والدوّامات التي تحدث في الأنهار، فإنّ العرّافين يرون أشياء كثيرة، والمتنبّئين بالغيب يتوقّعون أشياء كثيرة؛ كثيرة هي الأحداث التي ينبئ بها الكاهن والعرّاف، وتنبئ بها الأحلام والخوارق وأنواع أخرى من التنبّؤات التي كان القدامى يبنون عليها معظم مشاريعهم، عمومية كانت أو خاصة - وأمّا ديننا فقد ألغاها.

3. ومع هذا فقد بقيت لدينا بعض الوسائل للتنبّؤ، بفضل الأجرام السماوية والأرواح وأشكال الأجسام والأحلام وغير ذلك، ممّا يقدّم صورة جيّدة عن الفضول الجنوني لطبيعتنا التي تفني جهدها في الانشغال بأمور المستقبل، كما لو كان الحاضر لا يكفيها شغلًا!

«لماذا أردتَ، يا ربّ الأولمب،
أن تضيف إلى البشر ألما على ألم،
فيتكهّنوا بقسوة مصائبهم القادمة؟
أيا ليت قَدَرك يتحقّق على حين غفلة!
ويا ليت نفوسهم تعمى عن مصيرهم!
يا ليت الأمل يتوسّط مخاوفهم!».

[Lucain, *La Pharsale*, II, 4,5, 6,14 Et 19]

«لا فائدة من معرفة المستقبل،
ومن البؤس أن نتعذّب بلا فائدة».

[Cicéron, *De Natura Deorum*, XII, 6]

لكن يبدو أنّ العرافة قد أضحت اليوم أقلّ وطأة.

4. لذلك يبدو لي مثال فرنسوا مركيز دي سالوس (François Marquis De Saluces) لافتًا للنظر. كان ملازمًا أوّل للملك فرنسوا الأوّل في جيشه بإيطاليا، وكان في بلاطنا محظوظا، كما كان مدينا للملك إذ منحه المركيزية بعدما انتزعها من أخيه دونما داع إلى ذلك ورغم عطفه عليه؛ أصيب صاحبنا بهلع شديد (وهذا ثابت) بسبب التنبّؤات المنتشرة في كلّ مكان في صالح الإمبراطور شارل كنت وفي خسارتنا ومضرّتنا (حتّى أنّ في إيطاليا، حيث وَجدت هذه التنبّؤات الجنونية صدى واسعا، رُصد مبلغ مالي كبير للصّرف توقّعا لإفلاسنا المزعوم). إذن أصابه الفزع، وبعد أن اشتكى مرارًا وتكرارًا إلى أقاربه من الفواجع التي كان يراها قادمة لا محالة إلى مملكة فرنسا وإلى أصدقائه فيها، ارتدّ وغيّر انحيازه. لكن لم يكن ذلك في صالحه، مهما قالت نجوم السماء...

5. إلّا أنّه تصرّف متمزّقا بين أهواء متضاربة؛ إذ كان يتحكّم في مُدن وجيوش، وكان الجيش العدوّ قاب قوسين منه تحت قيادة أنطوان دي ليف (Antoine De Leve)، ولم نكن نشكّ بالمرّة في ارتداده، وكان بالإمكان أن يلحق بنا الضرر أكثر ممّا فعل. غير أنّ خيانته لم تتسبّب لنا في خسارة أيّ رجل وأيّ مدينة عدا فوسانو (Fossano)، وحتّى هذه فقد خسرناها بعد أن صمدت طويلًا.

«يتستّر الربّ عن المستقبل حيطةً،
ويسخر من ذلك الذي يُجنّ جنونه؛
فمن قال عشتُ يومي» كان سيّد نفسه،
ولا يهمّ ما إذا أمطرت السماء يوم غد،
أم أشرقت الشمس بكلّ صفائها».

[Horace, *Odes*, III, XXIX, 29-32 Et 40-44]

«إنّما الفكر إذا رضي بحاضره،
لن يبقى له ما يخشى من مستقبله».

[Horace, *Odes*, II, XVI, 25]

6. وإنّ الذين يصدّقون بما يلي، ليسوا على حقّ:
هكذا يبرهنون: إذا كانت هناك عرافة، فثمّة آلهة، وإذا كان ثمّة آلهة، فهناك عرافة.
ولقد كتب باكوفيوس (Pacuvius)، متحلّيا بأكثر حكمة:

«لأنّ الذين يفهمون لغة الطيور
ويستشيرون الكَبِد أكثر من عقولهم
من الأفضل أن نسمعهم وألّا نصدّقهم».

7. إليكم كيف نشأ فنّ العرافة هذا الذي ذاع صيته لدى التوسكانيين (Toscans): أحدث فلّاح شقّا عميقا في أرضه، فخرج منه طاجس (Tagès)، نصف إلهٍ له وجه صبيّ وحكمة عجوز. هرع إليه الجميع... وحُفظ كلامه وعلمه الشاملَيْن لمبادئ هذا الفنّ وطرائقه طوال قرون.
هذه النشأة إنّما هي على شكل ما ترتّب عليها...
8. أفضّل أن أتدبّر أموري باستخدام لعبة النّرد وألّا آخذ بهذه الترّهات. لا شكّ أنّ في كلّ الدّول لعبت الصدفة دورا هامًّا. فأفلاطون، في المنظومة السياسية التي تخيّلها كما شاء، قد منحها دور القرار في شتّى المجالات الهامّة: أراد، من جملة ما أراد، أن يتمّ الزواج بالقرعة فيما بين «الطيّبين». ولقد كان هذا الاختيار بالقرعة بالغ الأهمّية في نظره حتّى إنّه قال ببقاء الأبناء المولودين بفضلها داخل الوطن، وبأن يتمّ إقصاء غيرهم خارجه. لكن لو شاءت الأقدار أن يبرهن أحد الأطفال المنفيين أنّه أصبح، عند الكبر، قادرا على الإفادة، فإنّه يجوز إرجاعه. وفي المقابل، فإنّه يجوز إقصاء من تمّ اختياره ثمّ لمّا أصبح مراهقا خابت الآمال التي عُلّقت عليه.
9. أرى بعضهم يطّلعون على روزنامتهم الفلكية ويستشهدون بها في كلّ الأحداث. وإذ تراهم يبالغون في استعمالها في أحوال كثيرة، فما من شكّ أنّ بعضها قد يصدق وبعضها الآخر قد يكون كاذبا...

«فمن ذا الذي يرمي سهامه طوال يومه من دون أن يصيب هدفه أحيانا؟».
[Cicéron, *De Divinatione*, II, 59]

إنّ تقديري لهم لا يعظم وإن صدقت توقّعاتهم أحيانا.
10. لو كانت قاعدتهم أن يكذبوا باستمرار، لكانت أقوالهم أكثر رسوخا؛ سيّما أنّه لا أحد يدوّن أخطاءهم، لكونها أخطاء عادية لا معدودة. ومع هذا فهناك من يؤكّد على تكهّناتهم، نظرا إلى ندرتها وغرابتها وصعوبة التصديق بها. كان دياغوراس

(Diagoras)، المكنّى بالمُلحد، يزور معبد جزيرة ساموتراس، فقال له مرشده بعد أن أراه كمًّا من الرسوم والنُّذُر لأولئك الذين نجوا من الغرق: «طيّب ! أنت تعتقد أنّ الآلهة لا تعبأ بشؤون البشر، فما قولك في هذا العدد من النّاس الذين أغاثتهم؟» فأجاب دياغوراس: «لكنّ الذين ماتوا غرَقا لم يقع رسمهم، وعددهم أكبر».

11. قال شيشرون إنّ كزينوفان الكولوفوني (Xénophane De Collophon) هو وحده الذي حاول، من بين كلّ الفلاسفة الذين سلّموا بوجود الآلهة، اجتثاث كلّ أنواع العرافة. فلا عجب إذن أن نرى بعض أمرائنا يصدّقون بهذه الحماقات، وأن يكون ذلك في غير صالحهم.

12. ليتني رأيت بأمّ عيني الرائعتين التاليتين: الأولى هي كتاب يُواكيم (Joachim)، قسّ كالابريا (Calabre)، الذي يتنبّأ بكلّ بابوات المستقبل، بأسمائهم وخصالهم. والثانية هي كتاب ليون الإمبراطور (Léon L'empereur)، الذي كان يتنبّأ بأباطرة وبطاركة اليونان. لكن ما رأيته بأمّ عيني، على العكس، هو ما يحدث للنّاس، عندما يمرّ مجتمعهم بفترة من الاضطرابات، فتصيبهم الحيرة ويبحثون في السماء، على نحو ما تعلّمه الخرافات، عن أسباب بؤسهم وعلاماته المسبقة.

13. والغريب في الأمر أنّهم ينجحون في ذلك جيّدا، في أيّامنا هذه، حتّى إنّهم أقنعوني بوجود لعبة يفهمها أصحاب العقول البارعة والمتفرّغة، وإنّ الذين يتعوّدون على هذا الفنّ المتمثّل في معالجة معاني النصوص وكشفها تصبح لهم القدرة في نهاية الأمر على العثور على ما يبحثون عنه في أيٍّ منها. لكن هيهات، لأنّ لغة هذه النصوص المتنبّئة تبقى غامضة ومبهَمة وغريبة، ولأنّ مؤلّفيها لا يمنحونها معنى صريحا واضحا، كي يبقى بمستطاع الأجيال اللّاحقة أن تمنحها المعنى المناسب الذي تريد.

14. ولعلّ شيطان سقراط إنّما كان نوعا من اندفاع الإرادة، يحصل عنده دون معونة الكلام. بالنسبة إلى عقل مهذّب كعقله، ومهيّأ لممارسة الحكمة والفضيلة باستمرار، تبدو تنبيهاته، رغم غموضها وكونها سابقة لأوانها، نظرا إلى أهمّيتها، جديرة بالاعتبار. فكلّ واحد منّا قد أحسّ بهذا النوع من الانفعالات المترتبة عن فكرة تتخلّله بطريقة طارئة عنيفة. عَليَّ إذن أن أمنحها بعض السلطة، أنا الذي يمنح للحكمة قليلها فحسب.

15. لقد أحسست بحركات مماثلة، ضعيفة البرهان، إلّا أنّها ترنو إلى الإقناع أو إلى الرّدع العنيف، وهي حركات قيل إنّها كانت متواترة عند سقراط، جعلتني أنساق وراءها بطريقة جدّ نافعة وناجحة لدرجة أنّه يجوز اعتبارها من قبيل الوحي الربّاني.

الفصل الثاني عشر

عن الجَلَد

1. إنّ قاعدة الحزم والجلَد لا تقتضي منّا ألّا نحمي أنفسنا قدر الإمكان من الشرور والتهديدات التي تتعقّبنا، وألّا نخاف بالتالي من أن نتفاجأ بها؛ بل على العكس، تكون كلّ الطرق الشريفة للاحتماء من الشرور طرقاً جائزة، بل طرقاً محمودة. ويتمثل الجلَد عموما في تحمّل النكبات التي لا يمكن تجنّبها، بشجاعة ورباطة جأش. ولا ينبغي أن نعتبر حركة الجسم البهلوانيّة ولا تمرير السلاح من قبيل الأعمال القبيحة طالما أنّها قد تجنّبنا الضربات الموجَّهة إلينا.

2. هناك شعوب مولَعة جدّاً بالقتال، قد تتعمّد الفرار في الحرب كطريقة حاسمة للنّصر، فإذا أولوا ظهورهم لأعدائهم كانوا أكثر خطرا من مقابلتهم وجهاً لوجه. هكذا كان الأتراك.

في كتاب أفلاطون، يسخر سقراط من لاكيس (Lachès) الذي عرّف الشجاعة كما يلي: أن تمكث في مكانك بحزم ضدّ العدوّ. «كيف؟ هل من الجبن أن يُهزَم العدوّ بترك المكان له؟». وهنا يذكّر سقراط بهوميروس في مدحه لفنّ الفرار عند إيني (Enée).

3. تراجع لاكيس في رأيه واعترف بمثل هذا السلوك عند السيثيين(Scythes)، بل لدى كلّ الفرسان، وقدّم مثال الجنود المشاة في إسبرطة (وهي من بين الأمم الأشدّ مراسا لفنّ الحرب)، إذ تعذّر عليهم، في معركة بلاتيه (Platées)، اختراق كتيبة الفُرس، فساروا إلى الوراء مِفرًّا وأوهموهم بهروبهم، ما مكّنهم من تشتيتهم وخلخلتهم عندما طاردوهم، وهكذا فازوا بالنّصر.

4. وممّا يروى عن السكوثيين أنّ داريوس، لمّا ذهب لإخضاعهم، عاب على ملكهم تراجعه دائما إلى الوراء وتجنّبه المعمعة. فأجابه إنداثيرسيز (Indathyrsez) أنّه لم يكن يخشاه، كما لا يخشى من الأحياء أحدا، وإنّما هي طريقته وطريقة قومه إذ لا يملكون لا مزارع ولا مدنًا ولا ديارًا لكي يدافعوا عنها، ولا شيء ممّا قد يستغلّه العدوّ، وإذا كان يرغب في مبارزته، ليتقدّم قليلا من مقابرهم وهناك سيجد من يكون في انتظاره.

5. لكن عندما تستهدفنا المدافع، مثلما يحدث في الحرب عموما، ينبغي ألّا نتحرّك

خوفًا من الإصابة، إذ لا يمكن الإفلات منها، لشدّتها وسرعتها؛ وقد أثار أكثر من واحد سخرية رفاقه إذ رفع يده أو خفض رأسه.

6. أثناء الحملة التي قام بها ضدّنا الإمبراطور شارلكان في البروفانس، تقدّم الماركيز دي غاست (Marquis De Guast) لدخول مدينة آرل (Arles)، وبعدما اقترب متخفّيا وراء طاحونة هوائية، تعرّى فرآه السيّد دي بونفال (De Bonneval) والقهرمان دي لاجني (De L'Agenais) إذ كانا يتجوّلان في ساحة الوغى، فنبّها إليه السيّد دي فيليي (De Villiers) مسؤول المدفعية، فصوّب نحوه المدفع وبدأ بإشعاله، ولو لم يشاهده الماركيز لحظتها ولم يرتم جانبا، لأصابته الطلقة بالتأكيد.

7. وقبل سنوات، بينما كان لوران دي ميديسيس (Laurent De Médicis)، دوق أوربان ووالد الملكة الأمّ، بصدد محاصرة مدينة موندلفو بإيطاليا، في الأراضي المسمّاة أسقفيّة، إذا به يرى مدفعًا مصوَّبًا نحوه، فغطس كالبطّ، ولو لم يفعل لأصابته الطلقة في صدره عوضًا عن شعر رأسه.

8. في الحقيقة، لا أظنّ أنّ هذه الحركات تحصل عن رويّة... إذ كيف يمكنك أن تقدّر مدى دقّة التصويب عندما يكون الأمر مفاجئًا؟ الأرجح أنّ الحظّ هو الذي استجاب لجزعهم، وأنّهم في مناسبة أخرى قد يصابون عوض أن يفلتوا من الإصابة.

9. لا يمكنني أن أمتنع عن الارتعاش عندما تُطلق النّار قرب أذني في ظرف لا أتوقّعه. ولقد شاهدت نفس الشيء عند الكثيرين ممّن هم أفضل منّي.

10. الرّواقيون أنفسهم لا يطلبون من الحكيم أن يبقى صامدا أمام الرؤى والخيالات الأولى التي تَعرض له؛ إذ من الطبيعي في رأيهم أن ينفعل بسبب دويّ الرعد أو سقوط عمارة، وأن يصبح شاحب اللّون ويضيق نفسه. وكذا شأن الانفعالات الأخرى عنده، شرط أن يظلّ رأيه قويمًا وحجّته سليمة، وألّا يكترث بما أصابه من خوف وعذاب. أمّا غير الحكيم، فأمره لا يختلف بالنسبة إلى الجزء الأول من هذه القاعدة، ويختلف بالنسبة إلى الجزء الثاني. ذلك لأنّ تأثير الانفعالات لا يبقى سطحيّا عنده، وإنّما تلج فيه حتى تبلغ مقرّ عقله فتعفّنه وتفسده، فيخضع لها ويحكم على مقتضاها. شاهدوا هنا بوضوح تامّ الحالة التي يكون عليها الحكيم الرواقي:

«يبقى فكره صامدًا حازمًا، وتسيل دموعه سُدى».

[Virgile, *Énéide*, IV, 449]

إنّ الحكيم المشّائي لا ينجو من هذه الاضطرابات بقدر ما يعدّلها.

الفصل الثالث عشر

الاحتفالية الخاصة بمقابلة الملوك

1. ما من موضوع، مهما كان بسيطا، إلّا ويستحقّ أن يجد مكانه في هذا المؤلَّف. حسب العرف الجاري، ليس من اللّياقة والأدب، إذا جاء لزيارتك أحد، أكان ندّا لك أم كان بالأحرى شخصا مرموقًا، ألّا تبقى في منزلك إذا أبلغك أنّه سيأتي. وكانت ملكة نافار (Navarre) ترى أنّه من الفظاظة أن يغادر الرجل النبيل منزله، كما يحدث عمومًا، لاستقبال من جاء لزيارته، مهما كان زائره عظيمًا؛ وأنّه من باب الاحترام والأدب انتظاره لاستقباله، خوفا حتّى من تفويت الطريق إليه؛ ويكفي أن يصاحبه عند المغادرة.

2. أمّا أنا فغالبا ما أغفل عن هذين الواجبين التافهَيْن، كما أتجنّب قدر الإمكان كلّ احتفالية في بيتي. قد يرى بعضهم في ذلك إهانة؟ فما العمل؟ أفضّل إهانته ذات مرّة، وألّا أهين نفسي كلّ يوم! وإلّا أصبحتُ في حالة من التبعيّة المستمرّة. لِمَ الهروب من عبودية البلاط إن كان للخضوع لها حتّى في البيت؟

3. هناك قاعدة عامّة في كلّ المجالس والمحافل، وهي أن يحضر الأشخاص الأقلّ شأنا في الموعد المحدَّد، بينما يحقّ للأشخاص الأعظم شأنا أن يتأخّروا. إلّا أنّه، في اللّقاء الذي نُظّم في مدينة مرسيليا بين البابا كليمانت الخامس والملك فرانسوا الأوّل[1]، أعطى الملك تعليماته للاستعداد للقاء، ثمّ غادر المدينة وأمهل البابا يومين أو ثلاثة كي يدخلها ويأخذ قسطًا من الراحة، قبل أن يعود ويُقبل عليه. وكذلك، عندما وصل البابا والإمبراطور إلى مدينة بولونيا (Boulogne)، أجاز الإمبراطور للبابا دخولها هو الأوّل، ثمّ لحق به هناك.

4. في المجالس والمحافل العادية التي تجمع بين الأمراء، يحضر أعظمهم شأنا قبل الآخرين، بل يحضر حتّى قبل صاحب المكان الذي يُقام فيه المجلس؛ وذلك حتّى يبان أنّ الأعظم شأنا هو الذي يقصده الأقلّ منه شأنا، وأنّ القاصدين إليه هم المحتاجون، وليس العكس.

---

(1) كان ذلك في سنة 1533.

5. لكلّ بلد طريقته في الاحتفال، بل لكلّ مدينة وحيّ وكلّ صناعة ومهنة. لقد تربّيتُ على ذلك جيّدا منذ نعومة أظفاري، وعاشرت من الأكابر ما جعلني مُلمّا بقواعد الأدب والكياسة الفرنسية، وإنّي لقادر حتّى على تلقينها. أحبُّ أن أراعيها، لكن من دون أن أظلّ خائفا مرتعدًا في أسرها. قد تكون في بعض جوانبها قاسية؛ لكن لو أهملناها قصدًا، لا خطأً، لما فقدنا من تميُّزنا. غالبا ما شاهدت أناسا أفظاظا من فرط الكياسة، ومضجِرين من فرط المجاملة والأدب.

6. تبقى اللّباقة في جميع الأحول مفيدة للغاية. إنّها تعزّز، شأنها شأن الظُّرَف والجمال، بوادر التواصل الودّي في المجتمع وتشجّع على الأُلفة. وبالتّالي فهي تجعلنا نأخذ العبرة من غيرنا، كما تجعلنا قُدوة لهم إذا كان لدينا ما نقدّمه لهم من العلم.



الفصل الرابع عشر

في كوننا ننال جزاء إصرارنا اللاّمعقول على الدّفاع عن موقعٍ محصَّن

1. للبسالة حدود، شأنها شأن الفضائل الأخرى؛ فإذا تجاوزناها، وجدنا أنفسنا إلى جانب الرذيلة؛ وإذا بقينا مع البسالة، أَلِفنا الإقدامِ، والعناد، والجنون، سيّما إذا لم تكن لدينا معرفة واضحة بحدود هذه الثلاث، وهي لَعمري حدود يصعب رسمها. ولهذا جرت العادة في الحرب على معاقبة، بل على إعدام من يصرّ على الدفاع عن موضع محصّن غير قادر، حسب النواميس العسكرية، على مقاومة الحصار الذي يخضع له. فلولا ذلك، وفي غياب الخوف من العقاب، لأصبح في كلّ بقعة، مهما تكن ضعيفة، محاولة للتصدّي لجيش العدوّ.

2. عندما كُلِّف السيّد القائد العام لمقاطعة مونتمورنسي (Montmorency)، في محاصرة بافي (Pavie)، بعبور التيسان (Tessin) والإقامة في ضواحي سان أنطوان (Saint-Antoine)، منعه من ذلك برج في آخر القنطرة أصرَّ على المقاومة إلى آخر رمق، فأعدم شنقا كلّ من وجدهم فيه.

3. وهكذا فعل أيضا، وللسبب نفسه، عند مرافقته للسيّد لي دوفان (Le Dauphin) إلى إيطاليا ومحاصرته لقصر فيلان (Villane)، حيث قتَل جنوده كلّ من عثروا عليه شرّ قتلة، باستثناء القبطان والملازم، إذ خنقهما وأعدمهما شنقا. وكذا فعل القبطان مارتان دو بلّاي (Martin Du Bellay)، لمّا كان واليا في نفس البلد على مدينة طورينو، بالقبطان الحاكم في سان بوني، بعد أن ذُبح كلّ رجاله خلال غزو المكان.

4. لكن لمّا كان تقدير حصانة المكان، أو ضعفه، يقوم على تقدير القوى التي تهاجمه (إذ من المعقول أن نتصدّى لمدفعَيْن اثنين، لكن من الجنون أن نحارب ثلاثين مدفعا) كما يأخذ في الاعتبار مكانة الأمير الغازي وشهرته وما يستحقّه من الاحترام، فقد نجعل الميزان يميل قليلا في هذا الاتجاه.

5. لهذه الأسباب يكون بعضهم مخدوعاً بنفسه مغرورا بقدراته حتّى إنّه لا يتصوّر وجود من يستطيع الصمود أمامه، فيحمل السلاح أينما وَجد مقاومة، طالما حالفه

الحظ: هذا ما نتبيَّنه من خلال إعلانات التحدّي والإنذار التي يرسلها أمراء الشرق وخلفاؤهم بعضهم إلى بعض بفخر وكبرياء وعجرفة.

6. وفي الجهة التي هاجمها البرتغاليون من الهند الشرقية، وجدوا دولاً تسلك بموجب قانون كلّي لا يمكن خرقه، وهو أنّ كلّ عدوّ يهزمه الملك نفسه، أو ملازمه الأوّل، لا يجوز العفو عنه أو طلب فدية له. ولهذا وجب الاحتياط دائما، قدر الإمكان، من الوقوع في أسر حاكم عدوّ منتصر ومدجّج بالسلاح.

الفصل الخامس عشر

عن جزاء الجُبن

1. سمعت ذات مرّة أميرًا، وكان قائدًا عظيمًا، يصرّح أنّه لا ينبغي الحكم بالإعدام على جنديّ بتهمة الجبن. كان ذلك بمناسبة ما رُوي له، وهو على المائدة، عن محاكمة السيّد دي فرفانس (De Vervins) الذي أُعدِم لأنّه سلّم مدينة بولونيا.

وفي الحقيقة لا بدّ من التمييز جيّدا بين الأخطاء الناتجة عن ضعفنا والأخطاء المترتبة على مكرنا.

2. ذلك لأنّنا، في هذه الأخيرة، نكون قد سلكنا عمدا بما يخالف قواعد العقل التي وضعتها فينا الطبيعة، بينما في الأولى نكون قد استجبنا إلى الطبيعة نفسها إذ حكمت علينا بحالة النقص والفشل التي نحن عليها. لذلك رأى الكثيرون أنّه لا يجوز لومنا إلّا على ما نقترفه ضدّ ضميرنا: على الأساس يقوم جزئيّا رأي الذين يستنكرون الحكم بالإعدام على الكفّار والهراطقة، ورأي الذين يرفضون اتّهام المحامي والقاضي اللّذين فشلا في مهمّتهما بسبب الجهل.

3. أمّا عن الجبن، فالشائع أنّ عقابه هو الخزي والعار. قيل إنّ هذه القاعدة قد أملاها المشرّع شارنداس (Charondas)، بعدما كانت القوانين اليونانية من قبله تحكم بالموت على الذين يهربون من المعركة؛ أمّا هو فقد أمر فقط بعرضهم طيلة ثلاثة أيّام في الساحة العامة، بلباس أنثوي، فلعلّهم بهذه المعاملة المخزية يستعيدون شجاعتهم وينفعون من جديد.

> «*فكّر في أن تجعل دم الرجل يجري في وجهه خجلا عوض أن تسفكه على الأرض*».

[Tertullien, *Apologétique*]

4. يبدو أيضا أنّ القوانين الرومانية كانت في القديم تعاقب الهارب بالموت، إذ قال آميان مرسلّان (Ammien Marcellin) إنّ الإمبراطور جوليان (Julien) حكم بالحطّ من الرتبة على عشرة جنود انسحبوا من الهجوم على البارتيين (Parthes)، ثمّ أمر

بإعدامهم وفقا للقوانين القديمة. ومع ذلك فقد حكم على بعضهم، في مناسبة أخرى ولنفس الخطإ، بالمكوث مع المساجين وأن يُعَدّوا بينهم كمجرّد أمتعة.

5. إنّ الحُكم القاسي الذي أصدره الشعب الروماني على الجنود الذين فرّوا من معركة كان (Cannes)، وفي ذات الحرب، على أولئك الذين صاحبوا فولفيوس (Fulvius) في هزيمته، لم يصل إلى حدّ الحكم بالإعدام. لكن قد يُخشى أن يصيبهم اليأس بسبب ما لحقهم من العار، وأن يجعلهم ذلك لا يكترثون بشيء، بل أن يجعل منهم أعداء.

6. في زمن آبائنا، وبعدما كان السيّد فرانجي (De Franget) ملازما في فرقة الماريشال دي شاستيون (De Chastillon)، عُيّن بأمر من الماريشال دي شابان (De Chabannes)، واليًا على فُنتارابي(Fontarabie) عوضًا عن السيّد دي لود (Du Lude)، فلمّا استسلم للإسبان، جُرّد من النبالة هو وخلَفه، وعُدَّ من العامّة وأُجبر على دفع الضريبة كما مُنع من حمل السلاح. ونُفّذ هذا الحكم القاسي بمدينة ليون (Lyon).

7. منذ ذلك الزمان، طُبّقت العقوبة نفسها على كلّ النبلاء الذين كانوا في مدينة غيز (Guise) عندما دخلها الكونت دي ناسو (Comte De Nassau) وآخرون مثله. بيْد أنّه في حالة الجهل أو الجبن الواضح المذِلّ، يكون من العدل أن نعتبر ذلك دليلا على السّوء والشرّ، وأن نقابله بالجزاء الذي يستحق.

الفصل السادس عشر

عن بعض السفراء

1. خلال أسفاري، ولكي أتعلّم دائما بعض الشيء من محادثتي للنّاس (وهم لعمري أفضل مدرسة نتعلّم منها)، تعوّدتُ على دفعهم دائما إلى الحديث في المواضيع التي يعرفونها أكثر.

«ليتحدّث القبطان عن الرياح،
والحارث عن الثيران،
والمحارب عن جروحه،
والراعي عن القطعان».

[Properce, II, 1,43]

2. إذ غالبا ما يحدث، على العكس، أن نتحدّث عن صناعة غير صناعتنا، طمعًا في شهرة جديدة مستحدثة. وهذا مغزى ما عابه أرشيداموس (Archidamos) على برياندر (Périandre) عندما قال إنّه تخلّى عن سمعته كطبيب ماهر من أجل سمعة شاعر فاشل.

3. انظروا كم يقضي قيصر من الوقت في عرض إبداعاته في صناعة القناطر والآلات الحربية، وكم يبقى كتوماً، على العكس، عندما يتحدث عن مهامّه الخاصة، أي عن بسالته وعن قيادته للجيش. فمآثره تدلّ على أنّه قائد ماهر؛ إلّا أنّه يريد أن يُعترَف به مهندسًا متميّزًا، وهذا بالتأكيد أمر مختلف!

4. كان دنيس لانسيان قائد حرب عظيم، وهو ما كان مناسبا لرتبته؛ غير أنّه كان يبذل قصارى جهده كي يُعترف به شاعرًا، مع أنّه كان جاهلا لفنّ الشعر.

دُعي منذ مدّة رجل قانون لزيارة مكتب مزوَّد بمختلف أنواع المؤلفات المتعلّقة باختصاصه وباختصاصات أخرى، فلم يجد أيّ تعليق عليها. لكنّه توقّف طويلا، كما لو كان من ذوي المهنة، لتوجيه النقد الشديد لعمود الدرابزين الذي يشدّ درج المكتب، والذي كان على مرأى مائة قائد وجنديّ كلّ يوم من دون أن ينتبهوا إليه أو يُضجرهم أمره.

«يتوق الثور إلى السرج، ويتوق الفرس إلى الحراثة».

[Horace, *Épîtres*, I, 14]

إنّ مثل هذا السلوك لا ينجح في تحقيق أيّ هدف.

5. وعلى ذلك، لا بدّ من السعي دائما إلى إعادة كلّ واحد إلى مجال اختصاصه، المهندس المعماري والرسّام والإسكافي وغيرهم. ولقد تعوّدتُ، في هذا المضمار، بمناسبة قراءة كتب التاريخ التي يؤلّفها كلّ من هبّ ودبّ، أن أسعى إلى معرفة أصحابها. فإذا كانوا ممّن ينشطون في مجال الأدب، تعلّمتُ منهم اللّغة والأسلوب؛ وإذا كانوا أطبّاء، جارَيتهم فيما يقولون عن طبيعة الهواء، وعن صحّة الأمراء وأمزجتهم، وعن الأمراض والجروح؛ وإذا كانوا من فقهاء القانون، فلا بدّ أن نتعلّم عنهم المطارحات الفقهية، والقوانين، والتنظيم السياسي، وما شابه ذلك؛ وإذا كانوا لاهوتيين، أدركنا شؤون الكنيسة، وقوانين الرقابة فيها، وشرائعها، وتدابير الزواج؛ وإذا كانوا من حاشية الملك، تعلّمنا الآداب والمراسيم؛ وإذا كانوا من رجال الحرب، اطّلعنا على كفاءتهم وعلى المآثر التي ساهموا فيها بأنفسهم؛ وإذا كانوا من السفراء، حدّثونا عن مشاريعهم وأسرارهم، وعن أعمالهم وسبل تحقيقها.

6. لاحظت ذلك في تاريخ السيّد دي لانجي (De Langey)، وهو خبير بهذه المسائل وإلّا لما توقّفت لقراءته، حيث كتب ما يلي:

في المجلس الكنسي الذي انعقد في روما بحضور أسقف ماكون (Mâcon) والسيّد دي فيللي (Du Velly)، لام الإمبراطور شارلكان سفراءنا لوما شديد اللّهجة، وقال كلاما نابيًا، وزعم أنّه لو لم يكن قادته وجنوده أكثر إخلاصا وأوسع خبرة في المجال العسكري من جنود الملك وقادته، لربط في عنقه حبلًا وقصده لطلب الرحمة؛ (ويبدو أنّه كان على اقتناع، لأنّه ردّد ذلك مرّتين أو ثلاث مرّات في حياته)؛ بل بلغ به الأمر أن يتحدّى الملك ويدعوه للمبارزة، على متن سفينة، بالسّيف والخنجر مرتديًا مجرّد قميص.

7. وأضاف دي لانجي أنّ السفراء أفادوا الملك بما جرى، لكن أخفوا عنه جزءا كبيرا وسكتوا حتّى عن النقطتين الأخيرتين. إلّا أنّي أستغرب من إقدام بعض السفراء على اختيار ما سينقلون إلى سيّدهم من كلام وما سيخفونه عنه، سيّما إذا كان ما سيخفونه بالغ الخطورة باعتبار قائله وباعتبار المجلس الكبير الذي قيل فيه.

8. وفي اعتقادي أنّ وظيفة الخادم ينبغي أن تقتصر على نقل الوقائع كاملة على نحو ما حدثت، حتى تبقى للسيّد حرّية الحكم والتدبير والاختيار. ذلك لأنّ تشويه الحقيقة

أو السكوت عنها خشيةَ أن يُساء فهمها ويُساء العمل والتصرّف، هذا من مشمولات من يُصدر القوانين، لا من مشمولات من يتقبّلها، ومن مشمولات وليّ الأمر ومدير المدرسة، لا من مشمولات من يكون أدنى درجة من جهة السلطة والحِكمة وحسن التدبير. مهما كان الأمر، فأنا لا أرغب أن أعامَل هكذا في شخصي المتواضع.

9. قد نختلق الأعذار للتملّص من الطاعة، وقد نستأثر بجزء من سلطة السيّد: كلّ واحد يرغب بطبعه في الحرّية وفي السلطة، ولا شيء ينفع المخدوم أكثر من إطاعة خادمه له بكلّ بساطة.

10. قد يفسد دور القيادة عندما تقوم الطاعة على العقل، لا على القسر. أمَر ب. كراسوس (P. Crassus) (ذلك مَنْ اعتبره الرومانيون سعيدا خمس مرّات لمّا كان قنصلا في آسيا) مهندسا يونانيا بأن يجلب له أعظم واحد من صواري السفينة التي رآها في أثينا كي يصنع بذلك بعض المعدّات المدفعية، إلّا أنّ المهندس، بناء على معرفته وعلمه، سمح لنفسه باختيار الصّاري الأصغر لأنّه المناسب والأفضل في تقديره. فبعد أن أنصت كراسوس إلى تبريراته بصبر، أمر بجَلده، باعتبار أنّ الاحترام والطاعة في نظره أهمّ من العمل المنجز.

11. إلّا أنّنا نرى، من جهة أخرى، أنّ الطاعة المطلقة لا تتعلّق إلّا بالأوامر الدقيقة والمنصوص عليها مسبقا؛ ذلك لأنّ السفراء يملكون حرّية أكبر في عدّة مسائل تتوقّف على تقديرهم الشخصي: فهم لا يقتصرون على التنفيذ وإنّما يبدون رأيهم أيضا ويوجّهون إرادة سيّدهم. لقد سبق أن شاهدت أناسا كُلّفوا بمهامّ ثمّ تعرَّضوا للّوم لكونهم أطاعوا حرفيّا أوامر الملك عوض أن يتصرّفوا بحسب الأوضاع الراهنة.

12. إنّ الذين يتّسمون برجاحة العقل يعيبون على ملوك بلاد فارس إعطائهم أوامر في منتهى الدقّة لعملائهم وملازميهم حتّى إنّ هؤلاء كانوا يعودون ليسترشدوا بهذه الأوامر في أبسط الأمور. ففي إمبراطورية شاسعة كبلاد فارس، قد تكون المهلة المطلوبة للتواصل وخيمة العاقبة. ألَمْ يبدو كراسوس، عندما كتب إلى رجل محترف وأخبره بما ينوي استعمال الصّاري، كما لو كان يطلب منه رأيه ويحثّه على أخذ موقف شخصيّ؟

الفصل السابع عشر

عن الخوف

«بقيت مذهولا، واقشعرَّ شعري، وتوقّف صوتي في حنجرتي».
[Virgile, *Énéide,* II]

1. لست بارعًا في علم الطبيعة وليس لي أدنى معرفة بما يفعله الخوف بنا؛ لكن مهما كان، فهو انفعال غريب، ولا يوجد حسب الأطبّاء انفعال يضيّع رشدنا أكثر منه. وبالتأكيد فقد شاهدت من أصيب بالجنون من شدّة الخوف: وحتى عند أكثر النّاس اتّزانا، قد يولّد الخوف أوهامًا رهيبة. إنّي لا أتحدّث عن عامّة النّاس، الذين يجعلهم الخوف تارة يتوهّمون أجدادهم وقد خرجوا من قبورهم ملتحفين أكفانهم، وطورًا يتخيّلون وجود مستذئبين ووحوش وعفاريت؛ بل أتحدّث عن الجنود أنفسهم، إذ من المفروض ألّا يكون للخوف وقعٌ كبير في أنفسهم، إلّا أنّه غالبًا ما يجعلهم يتوهّمون فَيْلقا من الجنود المدرَّعين بينما هو قطيع من الغنم، ويرون عسكرًا ورمّاحين بينما هو قصب وخيزران، ولا يميّزون بين أصدقائهم وأعدائهم، ويخلطون بين الصليب الأبيض والصليب الأحمر.

2. عندما فتح السيّد دي بوربون (De Bourbon) مدينة روما، كان يوجد رجل يحمل لافتة، وكان مكلّفا بحراسة بورغ سان بيار، فأصابه الذّعر مع أوّل إنذار بالخطر، حتّى إنّه خرج من ثقب في الجدار حاملا اللّافتة مهرولًا في اتّجاه العدوّ وهو يظنّ أنّه يختبئ في الداخل. فعندما شاهد فرقة السيّد دي بوربون تستعدّ لمواجهته، ظنّ في الأوّل أنّها فرقة خرجت من المدينة قبل أن يدرك خطأه، فعاد بسرعة من حيث أتى بعدما قطع أكثر من ثلاث مائة قدم على المكشوف.

3. أمّا حامل لافتة القبطان جول (Julle)، فإنّ الحظّ لم يكن حليفه عندما غزا الكونت دي بور (Comte De Bure) والسيّد دي رو (Du Reu) سان بول (Saint-Pol) [1]. وذلك لأنّه، من فرط الجزع، تسرّب من خلال كُوّة إلى خارج المدينة، فمزّقه

(1) احتلّ شارل كنت هذه المدينة وأتى فيها على الأخضر واليابس سنة 1537.

المهاجمون إربا إربا. وخلال الحصار نفسه، حصل لأحد النبلاء أن أصابه الذعر وقبض قلبه بشدّة حتّى وقع ميتًا على الأرض قرب فتحة من الفتحات من دون أن يتعرض إلى إصابة.

4. مثل هذا الجنون قد يصيب أحيانا حشدًا كاملا من النّاس. ففي معركة جرمانيكوس (Germanicus) ضدّ الألمان، أصاب الهلع فَيْلقين كبيرين، فذهبا في اتّجاهين متقابلين، هاربين من نفس المكان.

5. قد يجعلنا الخوف أحيانا نفرّ بعيدًا لا نلوي على شيء، مثلما في الحالتين الأوليين، وقد يجعلنا أحيانا أخرى، على العكس، نتسمّر في مكاننا مثلما يروى عن الإمبراطور تيوفيل (Théophile): ففي أثناء معركة خسرها ضدّ الأغارانس (Agarènes)، أصابه الجزع وسمّره في مكانه لدرجة أنّه أصبح عاجزا عن الهرب («من فرط ما يجعلك الخوف تخاف حتى من النجدة»)، إلى أن جاءه مانويل (Manuel)، أحد كبار قادته، فمسكه ورجّه كما لو كان يوقظه من سبات عميق وقال له: «إذا لم تتبعني، سأقتلك؛ لأنّ خسارة حياتك أهون من خسارة الإمبراطورية لو تمّ أسرك».

6. وقد يبلغ الخوف أشدّه عندما يجعلنا نستعيد الشجاعة التي انتُزعت من شرفنا وواجبنا. ففي المعركة الحقيقية الأولى التي خسرها الرومان بقيادة القنصل سمبرونيوس (Sempronius) ضدّ حنَّبعل (Hannibal)، أصاب الهلع فرقة لا يقلّ عددها عن عشرة آلاف من المشاة، فلم تجد مخرجًا لجُبنها إلّا أن ارتمت في معمعة القتال وداهمت الجيش القرطاجي ونحرته نحراً: كانت تسدّد هروبها المخجِل بنفس الثمن الذي يُدفع للنّصر المُبين. إنّما الخوف هو أشدّ ما أخافُه!

ذلك لأنّه يفوق كلّ المصائب بلاء.

7. أيّ انفعال يفوق شدّة ما أحسّ به أصحاب بومبي لمّا وقفوا من فوق سفينته وشاهدوا تلك المذبحة الفظيعة؟

8. إلّا أنّ الخوف أخمد انفعالهم لمّا شاهدوا اقتراب المراكب المصرية منهم، فلم يعنيهم آنذاك سوى حثّ البحّارة على التجديف بقوّة والإسراع في الهروب، حتّى وصلوا إلى مدينة صور حيث غادرهم الخوف وشعروا بالخسارة التي حلّت بهم وبدأوا في الانتحاب والعويل بعدما كتم الخوف في البداية أنفاسهم.

«وإذّاك انتزع الخوف من قلبي كلّ ضرب من ضروب الحكمة».

[Ennius, In Cicéron, *Tusculanes*, IV, VII]

9. إنّ الذين يصَابون في الحرب يُقتادون لاحقاً إلى ساحة الوغى، رغم جروحهم

ودمائهم السائلة. أمّا الذين يصابون بالذعر أمام العدوّ، فإنّهم يُحرَمون حتّى من التحديق إليهم. وإنّ الذين يرهبون من فقدان أملاكهم ومن الوقوع في العبودية أو المنفى، يعيشون في قلق مستمرّ ويفقدون شهية الأكل والشرب ولا ينامون، بينما يعيش الفقراء والأقنان والمنفيون في سعادة مثل غيرهم. ويُبيّن مثال أولئك الذين لا يتحمّلون طعنة الخوف فينتحرون شنقًا أو غرقا أو يخرّون على الأرض. إنّ بلاء الخوف أعظم حتّى من بلاء الموت.

10. ولقد صنّف اليونانيون نوعا آخر من الخوف، لا ينتج عن سوء تقدير ولا عن سبب واضح، وإنّما عن وازع إلهيّ. إنّه قد يجتاح شعوبا بأسرها وجيوشا برمّتها. هذا ما حدث في قرطاج حيث تسبّب في الخراب التام. كان لا يُسمع سوى صيحات الفزع، وكان السكّان يغادرون منازلهم، كما لو كان لحمل السلاح والتعبئة، ينقضّون على بعضهم بعضا ويتقاتلون، كما لو كان العدوّ قد حلّ بينهم للسّطو على المدينة. عمّت الفوضى وكثر الشغب إلى أن هدأت الآلهة وسكن غضبها بفضل الصّلوات والقرابين. هذا ما كان يُطلق عليه: «الرعب والهلع».

الفصل الثامن عشر

يجب أن تقدَّر سعادتنا فقط بعد موتنا

«يجب أن ننتظر دائما ساعة الإنسان الأخيرة
ولا يمكن أن نقول عن أحد لقد كان سعيدا
قبل أن تجيئه المنيّة ويُشيّع جثمانه».

[Ovide, *Métamorphoses,* III, 135]

1. يعرف الأطفال قصّة الملك كريزوس (Crésus)؛ إذ قبض عليه قوروش (Cyrus) وحكم عليه بالموت، فلمّا كان على وشك الإعدام صاح: «*صولون، أيا صولون!*». وعندما أُخبر قوروش بذلك سأل عن الأمر، شرح له كريزوس أنّه كان بصدد التحقّق، الآن وعلى حسابه الخاص، من إشعار صولون (Solon) له قديما بأنّ النّاس، مهما أسعدهم الحظ، لا يمكنهم أن يدّعوا السعادة قبل مرور آخر يوم في حياتهم، نظرًا إلى هشاشة الأوضاع الإنسانية وتنوّعها، لدرجة أنّ مجرّد تحوّل بسيط قد يجعلهم ينتقلون من حالة إلى أخرى عكسها تماما.

2. لكن إليكم ما أجاب به أجيزيلاس (Agésilas) شخصا كان يقول إنّ ملك الفرس سعيد ببلوغه أسمى المراتب وهو لا يزال يافعا؛ أجابه: «*بلى، لكنّ بريام* (*Priam*)، *في مثل عمره، لم يكن شقيّا أيضا*». نجد من بين ملوك مقدونيا الذين خلفوا إسكندر العظيم من أصبح نجّاراً أو حاجباً في روما، ومن أصبح طاغية في صقلّية، ومن أصبح صاحب مدرسة في كورنثيا. لقد أصبح أحد الغزاة، بعد أن فتح نصف العالم وقاد ما قاد من الجيوش، يتضرّع ساجدًا أمام أقدام بسطاء خَدَم ملك مصر: هذا ما سمح لبومبي (Pompée) تمديد حياته خمسة أو ستة أشهر...[1]

3. وفي زمن آبائنا، كان لووفيك سفورزا، وهو الدوق العاشر لمدينة ميلانو الذي ما انقطع يحرّض إيطاليا ضدّنا، أنهى حياته سجينا في مدينة لوشس (Loches)، ولكنّ

(1) بعد معركة فارسال، لجأ بومبي إلى ملك مصر بطليموس الرابع عشر طمعا في حمايته، لكنّه قتله وحمل رأسه إلى قيصر.

الأسوأ من ذلك هو أنّه سبق أن قضّى فيها عشر سنوات. ألم يكن مصير أجمل ملكة[1]، أرملة أعظم ملك في المسيحية، أن تُقتل بيَد جلّاد؟ يا لها من قسوة جائرة متوحّشة! يمكن أن نذكر ألف مثال من هذا القبيل. ذلك لأنّه، كما تنكسر العواصف والزوابع أمام سفننا الشامخة، هناك أيضا في السماء أرواح تحسدنا على مآثرنا في الأرض: «*إذ لا شكّ في وجود قوّة خفيّة تنتصر على قوّة الإنسان، وترفس تحت الأقدام كبرياء الحُزَم Faisceaux والفؤوس القاسية، وتجعل منها موضوع سخرية*».

4. يبدو أنّ القدر يتربّص بنا إلى آخر يوم في حياتنا، لكي يُثبت قدرته على قلب ما بناه طيلة سنوات في لحظة واحدة ويجعلنا نصرخ على غرار لابريوس (Laberius):

«*أجل، هذا اليوم زائد في حياتي*».

[Macrobe, *Saturnales*, II, VII]

5. هكذا ينبغي أن يُفهم تنويه صولون. لكن بما أنّه فيلسوف، وبما أنّ تقلّبات الدّهر لا تُسعِد الفلاسفة ولا تُحزِنهم، كما أنّ العظمة والقدرة عَرَضان لا قيمة لهما تُذكر، يبدو لي أنّه كان يملك بُعد نظر وكان يقصد ما يلي: إنّ سعادة الحياة، إذ تقوم على راحة البال وعلى رضا فكر كريم النّسب، كما على الحزم ورباطة الجأش، لا ينبغي أن يوصف بها إنسان قبل أن نشاهده في آخر مقطع من مسرحيته، وهو لعَمري أصعب مقطع.

6. لأنّه فيما عدا ذلك، قد تكون المظاهر خدّاعة: إمّا أن تعبّر خطاباتنا الفلسفية الجميلة عن مجرّد موقف، أو أنّ نوائب الدّهر لا تؤثّر فينا، وفي كلتا الحالتين يمكننا أن نحافظ على هدوئنا. لكن عندما تدقّ ساعة الموت، لا يبقى مجال للتظاهر والتصنّع، وينبغي أن نتحدّث فرنسية فصيحة[2]؛ يجب أن نُظهر الطيبة والصفاء اللذين في أعماقنا.

«*حينها فقط يخرج الكلام الصريح من أعماق القلب، ويسقط القناع، وتبقى الحقيقة*».

[Lucrèce, III, V. 57]

7. لذلك تكون هذه اللّحظة اختبارًا لكلّ الأعمال الأخرى في حياتنا. إنّه اليوم الأخير، اليوم الذي يحكم على كلّ الأيّام الأخرى؛ وكما قال مؤلّف قديم، «*إنّه اليوم الذي يجب أن يحكم على كلّ السنوات التي مضت*». إنّي أسلّم للموت نسخة من ثمرة دراساتي. آنذاك سنرى ما إذا كان كلامي الجميل يصدر من فمي أم من أعماقي.

---

(1) هي ماري ستيوارت (Marie Stuart)، وقُطع رأسها في الأول من فيفري من سنة 1587.

(2) يعني يجب الكلام بصراحة وصدق.

8. شاهدت الكثيرين ممّن بموتهم أعطوا لحياتهم سمعة طيّبة أو سمعة سيّئة. فهذا سكيبيو (Scipion)، حمو بومبي، إذ مات موتا جيّدا، قد عدّل من سمعته السيّئة في حياته. وهذا إبامينونداس (Epaminondas) سُئل عمّن يحظى بتقديره الأكثر من بين هؤلاء الثلاثة، شابرياس (Chabrias)، أم إيفيكراتس (Iphicrates)، أم هو نفسه، فأجاب: «*يجب أن تشاهدونا نموت حتّى يتسنّى الحكم*». وفعلا، قد نظلم كثيرا من نحكم عليه دونما اعتبار لشرف نهايته وعظمتها.

9. تلك مشيئة الله؛ لكنّ أبغضَ ثلاثة أشخاص عرفتهم في شبابي، نظرا إلى حياتهم الفاحشة والمقيتة إلى أقصى حدّ، كان موتهم منظّما ومرتّبا في كلّ مراحله حتّى الكمال.

10. هناك ميتات سعيدة جميلة؛ فقد رأيت الموت يقطع مجرى حياة موعودة بمستقبل جميل؛ رأيته يوقف فجأة حياة إنسان في أوج ازدهاره، ويُنهيها نهاية رائعة حتّى إنّه يجوز القول، في رأيي، إنّ مشاريع هذا الإنسان الشجاعة الطموحة لم تحقّق له أفضل ممّا حقّقه الموت؛ لقد بلغ ما يتمنّى، دونما حاجة إلى السعي إليه، بأكثر نبل وأكثر مجد ممّا كان يرغب ويتمنّى؛ إنّه بنهايته سبق إلى المنزلة والنفوذ اللّذين كان يطمح إليهما بعمله[1].

11. كي أحكم على حياة غيري، أنظرُ دائما إلى نهايتها. وأكثر ما يشغلني في حياتي هو أن أعبُرها جيّدا، يعني هانئًا وبلا صخب.

(1) لا ريب أنّ المقصود بهذا الكلام هو لابويسي (La Boétie)، صديق مونتاني الحميم.

الفصل التاسع عشر

التفلسف هو التدرّب على الموت

1. يقول شيشرون إنّ التفلسف هو الاستعداد للموت. فعلا، يجرّ التأمّل أرواحنا إلى خارجنا ويشغلها باستقلالٍ عن أجسامنا، وفي ذلك نوع من التدرّب على الموت وتشبُّه به. وتتمثّل الحكمة كلّها فيما يلي: أن نتدرّب على عدم الخوف من الموت.

2. وفي الحقيقة، فإمّا أنّ العقل يسخر منّا، وإمّا أنّ غايته أن يُسعدنا، وشغله الشاغل أن يحقّق لنا جودة العيش وهناءة البال مثلما يقول الكتاب المقدَّس. وتصدح كلّ تصوّرات العالم بما يلي: إنّما اللّذة هي غايتنا، وإن تعدّدت السّبل؛ إذ مَنْ سينصت إلى من يضع الألم والغمّ هدفا لنا؟

3. لا يعدو تضارب الفلاسفة في هذا الموضوع إلّا أن يكون لفظيّا بحتًا.

«*لنتجاوز بسرعة هذه التفاهات المتمحّكة*»

[Sénèque, *Épîtres*, 117]

يوجد من العناد والإزعاج أكثر ممّا يليق في مثل هذه المهنة الشريفة. لكن مهما كان الدّور الذي يسعى الإنسان إلى أن يلعبه، فهو يلعب معه أيضا، باستمرار، دورَ ذاته. ومهما كان قولهم، فإنّ غايتنا القصوى، في كنف الفضيلة نفسها، إنّما هي المتعة الحسّية. أحبُّ أن أردّد على مسامعهم هذه الكلمة التي تغيظهم: فإذا كانت تعني اللّذةَ القصوى والانشراحَ المفرط،، كان نَيْلها بواسطة الفضيلة أيسَر منه بأيّ وسيلة أخرى.

4. فإذا كانت هذه المتعة الحسّية أشدّ بأسًا وعصبيّة وضلاعة وفحولة، كانت بالتأكيد أكثر امتاعًا. وكان علينا أن نطلق عليها «اللّذة»، وهو لفظ مناسب وطبيعي وأكثر عذوبة، بدلًا من استعمال لفظ يفيد القوّة والنشاط الفضيلة، مثلما فعلنا.

5. فلو كانت هذه المتعة الحسّية تستحقّ اسم اللّذة الجميل، لما كان ذلك بسبب امتيازها وإنّما بسبب منافستها للّذة. ذلك لأنّني أجد فيها عيوبا وصعوبات أكبر ممّا في الفضيلة. فعلاوة على أنّ طعمها خاطف عابرٌ هشّ، فإنّ لها سهرها وحرمانها وأشغالها، وتفترض العَرَق والدّم. دون أن ننسى الآلام الحادّة المتنوّعة، فضلا عن الشبع الثقيل الذي قد يجعلها بمثابة التّوبة.

6. قد نخطئ خطأ جسيمًا لو اعتقدنا أنّ إزعاجات اللّذة تصلح مهمازا لاستثارتها وتوابل تحسّن من طعمها، على نحو ما نرى في الطبيعة حيث ينشط الضدّ بضدّه، وعلى نحو قولنا، بشأن الفضيلة، إنّ ما ينتج عنها من المشقّات تقهرها وتجعلها قاسية وبعيدة عن متناولنا. ذلك لأنّ هذه المشقّات تساهم، في الفضيلة أكثر ممّا في المتعة الحسّية، في الرفع من اللّذة الإلهية الكاملة التي تمنحنا إيّاها الفضيلة.

7. إنّ من يضع في الميزان ما تكلّفنا إيّاه الفضيلة وما نغنمه منها إنّما هو ليس جديرا بها: فهو لا يعرف سحرها ولا يحسن استعمالها. وإنّ الذين يحدّثونكم عن مشقّة طلبها وعن بهجة الاستمتاع بها إنّما كلّ ما يثبتونه في الحقيقة هو أنّها تكون دائما مزعجة. فهل ثمّة طريقة لنَيْلها والاستمتاع بها؟ لعلّ أكثر النّاس كمالا قد اقتصروا على طلبها، وعلى الاقتراب منها دون الفوز بها...

8. كلّا! إنّهم مخطئون! لأنّ من جملة اللّذات التي نعرفها، يكون السعي إلى اللّذة هو ذاته أمرا ممتعًا. وإنّ جودة العمل لا تنفصل عن جودة الموضوع الذي يتمّ إنجازه: تمثّل جودة العمل جزءا كبيرا من الأثر المطلوب تحقيقه، فهي من نفس طبيعته. وتملأ السعادة والغبطة المتألّقتين في الفضيلة كلّ ملحقاتها وكلّ الشوارع التي تقود إليها، من بابها الأوّل إلى بابها الأخير. بيْد أنّه من محاسن الفضيلة الرئيسية أنّها تعلّمنا احتقار الموت، وهذا يملأ حياتنا سكينة ويجعلنا نستمتع بطعمها الصافي الجذّاب؛ دون ذلك، تبقى كلّ متعة حسّية بلا طعم.

9. وعلى ذلك تلتقي كلّ قواعد الأخلاق وتتّفق في احتقار الموت. ورغم أنّها تقودنا كلّها أيضا إلى احتقار الألم والفقر ومساوئ أخرى تعرض لنا في الحياة، إلّا أنّ الأمر هنا مختلف؛ فهذه المساوئ ليست حتميّة، بل يقضي الكثير من النّاس حياتهم دون أن يشملهم الفقر، أو دون أن يصيبهم الألم والمرض أبدا، شأن كزينوفيل الموسيقار (Xénophile Le Musicien) الذي عاش مائة وستّ سنوات وهو في صحّة جيّدة.

«نمضي كلّنا في اتجاه المكان نفسه
مصيرنا يتحدّد في صندوقة الاقتراع
آجلا أم عاجلا سيبرز ويدعونا للسّفر
مع كارون[1]، في مركب الموت الأبدي»

[Horace, *Odes*, II, 3,25]

---

(1) في الأساطير اليونانية واللاتينية، كارون (Caron) هو «المراكبيّ» الذي يقود القارب إلى الآخرة وإلى جهنّم.

10. وبالتالي فإنّ الموت إذ يخيفنا لا ينفكّ ينكّد عيشنا ويكدّره، ولا سبيل إلى التخفيف من وطأته، بل لا مفرّ منه. إنّنا نلتفت باستمرار في اتجاه أو آخر كما لو كنّا في بلد مشبوه: «*إنّه الصخرة المعلّقة دائما فوق رأس تانتالوس*[1]».

11. غالبا ما يُحكَم على المجرمين بالعودة إلى موقع الجريمة حيث سيُعدَمون. اجعلوهم أثناء رحلتهم هذه يجوبون الشوارع حيث المنازل الجميلة، دعوهم ينعمون بالأكل والشرب كما يحلو لهم،

«*لن يكون لوجبات صقلّية الشهيّة أيّ طعم عنده*
ولن يعود له النّوم لا بأناشيد العصافير ولا بالقيثارة»

[Horace, *Odes*, III, 1,18]

12. أتظنّون أنّهم هكذا سيتمتّعون، وأنّ الهدف الأخير من رحلتهم، موضوعًا باستمرار نصب أعينهم، لن يُفسد طعم المباهج التي تُعرَض عليهم؟

«*يسأل عن الطريق، ويعدُّ الأيّام،*
ويقيس حياته بطول المسافة،
تعذّبه فكرة الموت الذي بانتظاره»

[Claudien, *In Rufinum*, II, 137]

13. الموت نهاية الطريق؛ إنّه القدَر المحتوم؛ فإذا كان يخيفنا، كيف سنخطو إلى الأمام خطوة دون أن نصاب بالحُمّى؟ العلاج الذي وجده العامّي هو أن يقصيه من تفكيره. لكن أيُّ غباء فظّ هذا الذي أعماه بهذ الصورة؟ كأن نلجم الحمار ونربطه من ذيله!

«*ذلك من عزم على السّير إلى الأمام القهقرى*»

[Lucrèce, IV, 472]

14. لا عجب إذّاك أن يقع (العامّي) غالبا في الفخّ. ويكفي أن يُذكر الموت حتى يصاب النّاس بالفزع، فيرسمون علامة الصليب كما لو ذُكر اسم الشيطان. وبما أنّه لا مندوحة عن ذكره في الوصيّة، فإنّهم لا يجرؤون على كتابتها قبل أن يعلمهم الطبيب

---

(1) تانتالوس Tantale شخصية أسطورية يونانية؛ باح بأسرار الأولمب إلى البشر، فسُلّطت عليه عذابات الجحيم: سواء بوضعه تحت صخرة تكاد تسحقه، أو بغطسه في الماء حتى العنق من دون أن يقدر على الشرب منه، أو بمنعه من قطف الثمار المتدلّية من الغصن كلّما سعى إلى سدّ رمقه. وبناء على هذه الأسطورة جاءت عبارة «عذاب تانتالوس».

بقرب الأجَل. الربّ وحده يعلم آنذاك، إذ يتضوّرون وجعًا ورعبًا، ماذا عسى أن تكون نظرتهم إليه.

15. ولمّا كانت حروف هذه الكلمة المزعجة تجرح مسامعنا بشدّة، تعوَّد الرومانيون على تلطيفها والتلميح إليها، وعوض أن يقولوا «*لقد مات*»، يقولون «*انتهت حياته*»، أو «*لقد عاش*»؛ ويكفيهم أن يستعملوا لفظ «*الحياة*»، وإن كانت الحياة قد ولّت، حتى يشعروا بالاطمئنان. ولسبب كهذا جاء قولنا: «*المرحوم فلان*».

16. لكن لعلّ ذلك في صالحنا. فأنا قد وُلدت بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف النهار، في آخر يوم من شهر فيفري سنة ألف وخمسمائة وثلاثة وثلاثين (مثلما أصبحنا نحسب الآن، إذ نبدأ السنة بشهر جانفي). ولقد تجاوزت التاسعة والثلاثين من عمري منذ خمسة عشر يوما فقط. وربّما بقي منه ما يعادل هذه المدّة... فمن الجنون أن أنغّص حياتي من الآن بالتفكير في أمور بعيدة كلّ هذا البعد. ماذا! إنّ الشبّان والشيوخ يغادرون الحياة بنفس الطريقة. كلّنا نغادر الحياة كما لو وُلدنا الساعة. وما من أحد، مهما كان عجوزًا، إلّا ويعتقد أنّه لا يزال أمامه عشرون سنة، طالما أنّه لم يبلغ عمر مَتُوشالَم (Mathusalem). وأنت، أيا مجنون، من حدّد نهاية مشوارك في الحياة؟ أتصدّق ما يقوله الأطبّاء؟ بل تأمّل الواقع وانظر إلى التجربة! إنّما الأشياء تكون على ما هي عليه، وأنت سعيد الحظّ ببقائك على قيد الحياة.

17. لقد تجاوزت أجَلَك في الحياة! ما الدليل على ذلك؟ انظر إلى من حواليك، فكم منهم وافاهم الأجل قبل أن يبلغوا عمرك؟ إنّ عددهم يفوق عدد من تجاوزوه. ومن بين الذين أطبقت شهرتهم الآفاق، أراهنك أنّ عدد الذين ماتوا قبل سنّ الخامسة والثلاثين يتجاوز عدد الذين ماتوا بعد هذه السنّ. إنّه من الحكمة والوَرَع أن نقتدي بإنسانية المسيح: مع أنّ حياته قد انتهت في سنّ الثالثة والثلاثين. ولقد مات الإسكندر، مع أنّه أعظم النّاس،، لكنّه مجرّد بشر، في مثل هذه السنّ أيضا.

18. بكم من الوجوه يفاجئنا الموت؟

> «*أمام الخطر الذي يتهدّدنا،*
> *لن نحترس كفاية مهما فعلنا*»

[Horace, *Odes,* II, XIII, 13]

لن أذكر أمراض الحمّى وذات الجنب. لكن من كان يظنّ أن دوقًا من بريطانيا[1]

(1) هو يوحنّا الثاني Jean II.

سيختنق وسط حشد من النّاس عند قدوم جاري، البابا كليمانت[1]، إلى مدينة ليون؟ ألم يحدث لأحد ملوكنا أن مات بسبب مشاركته في لعبة[2]؟ ألم يمت أحد أجداده بدفعة من خنزير[3]؟ ومهما فعل إسخيلوس (Eschyle) لاتّقاء سقوط المنزل عليه، إلّا أنّه بعد أن خرج منه صرعه درعُ سلحفاة سقط من قدمَيْ نسرٍ. ومات آخر بسبب حبّة عنب[4]. ولقي إمبراطور حتفه بسبب خدش أصابه بينما كان يمشط شعره. وهذا إميليوس لُبيدوس (Emilius Lepidus) لقي مصرعه بعدما تعثّر بعتبة منزله، وأوفيديوس (Aufidius) بعدما اصطدم بباب غرفة المجلس.

19. أمّا الذين توفّوا بين أفخاذ امرأة، فمن بينهم نذكر: كرنيليوس غالوس (Cornelius Gallus)، وتيجينلّوس(Tiginillus)، قائد برج المراقبة بروما، ولودوفيك (Ludovic)، ابن غي دي غنزاغي (Guy De Gonzague)، مركيز مانتو (Mantoue). بل نخصّ بالذكر أيضا: الفيلسوف الأفلاطوني سبوزيبوس (Speusippe)، وكذلك أحد الباباوات[5]. أمّا القاضي المسكين ببيوس، فقد أعطى مهلة بسبعة أيّام لرجل جاء يشتكي إليه، إلّا أنّه مات ولم تمهله الحياة ما أمهله للمشتكي. وكان كايوس يوليوس (Caius Julius) يعالج عينَيْ مريض، فإذا بالموت يغمض عينيه.

20. وإذا كان لا بدّ من الإضافة، أقول: كان أحد إخوتي، القبطان سان مارتان (Saint-Martin)، عمره ثلاثة وعشرون سنة، وهو ذو قدر عظيم، يلعب لعبة الكفّ[6]، فأصابَته الكرة فوق أذنه اليمنى بقليل دون أن تُحدث له كدمة أو جرحا، فاستهان بالأمر ولم يتوقف لأخذ بعض الراحة. إلّا أنّه أصيب جرّاء ذلك بسكتة دماغية ووافته المنيّة بعد خمس أو ستّ ساعات. فهل يمكن، بعد هذه الحالات المألوفة والمتكررة أمام أعيننا، ألّا نفكّر في الموت وهو كأنّه يأخذ بتلابيبنا في كلّ لحظة؟

21. قد يكون جوابكم: لا تهمّ الطريقة التي بها سيحدث، طالما لم نكترث به. هذا الرأي رأيي؛ ومهما كانت طريقة الهروب من ضرباته، ولو كان ذلك بتقمّص صورة

---

(1) هو كليمانت الخامس (Clément V)، وُلد في بلدة فيلاندروت (Villandraut) القريبة من قصر مونتاني، وهو ما خوّل له بأن يعتبره من جيرانه.

(2) هو الملك هنري الثاني، الذي أصيب، في لعبة مبارزة، برمحٍ في عينه فمات (كان ذلك في 10 جويلية من سنة 1559).

(3) هو فيليب، ابن ملك فرنسا لويس السادس.

(4) هو الشاعر الإغريقي أناكريون (Anacréon 550 ق.م. - 464 ق.م.)

(5) هو يوحنّا الثاني والعشرون Jean XXII

(6) لعبة الكفّ (Le Jeu de Paume) هي لعبة شبيهة بلعبة كرة المضرب اليوم، وكان يستعمل فيها كفّ اليد لردّ الكرة من فوق شبكة.

عِجل، فإنّي لن أتخلّف؛ إذ يكفيني أن أمضي حياتي في راحة بال، وأن ألعب دوري على أفضل وجه، مهما بدوت لكم قليل الهمّة والمجد.

«أفضّل أن تروني عاجزا مجنونا
إذا كانت عيوبي تروق لي أو تخدعني،
وألّا أكون حكيمًا -حانقًا مغتاظًا».

[Horace, *Épîtres*, II, 2,126]

22. لكن هيهات! يسير النّاس ذهابا إيّابا، ويهرولون، ويرقصون، وبالموت لا يعبأون. كلّ هذا جميل. لكن عندما يزورهم الموت أو يزور نساءهم وأطفالهم وأصدقاءهم ويفاجئهم على حين غرّة، كم يضطربون! كم يصرخون! كم يحنقون ويسخطون! كم ييأسون! هل شاهدتم أبدا إنسانا يتحوّل هكذا وينخذل ويضطرب؟ يجب أن تعدّوا أنفسكم إلى ذلك باكرا. لأنّ اللّامبالاة، وهي من خصائص الحيوان، لو اجتاحت إنسانا سليم العقل، وهو ما يبدو لي مُحالا، قد تكون عواقبها جدُّ وخيمة.

23. لو كان عدوّا نقدر على التملّص من قبضته، لنصحتك باستعمال أدوات الجُبن. إلّا أنّ ذلك محال، لأنّه سيقبض عليك أكنت جبانا أو صاحب شرف وعزّة.

«يطارِد الجبانَ الذي يفرّ،
ولا يفلت منه الشابّ الفاقد للشجاعة،
فلمّا كانت الصدرة الحديدية لا تحميه،
لا ينفع تستّره تحت الفولاذ والبرونز،
لأنّ الموت سيكشف رأسه مهما اختفى»

[Properce, IV, 18]

24. لنتدرّب على الصمود أمام هذا العدوّ ولنقاومه بحزم! وبدايةً، لنتخلّص من تفوّقه علينا، ولنغيّر من سلوكنا المعتاد: لنجرّده من طابعه الغريب، لنعاشره ونتعوّد عليه، لنفكّر فيه أكثر من كلّ شيء، لنتخيّله في كلّ لحظة ولنرسم معالمه على كلّ الوجوه. عندما تزلّ قدم الفرَس، وعندما تسقط قرميدة من السطح، وعند الإصابة بوخز إبرة، لنردّد: «طيّب! فلو كان هو الموت نفسه؟»؛ وإذّاك لنتماسك ونتحكّم في أنفسنا!

25. وعندما نحتفل ونتمتّع، لنمسك عن المتعة، ولنتذكّر وضعنا، بل لنتذكّر أوجه اختلاط الطرب والحبور بالموت الذي لا ينفكّ يتهدّدنا. هكذا كان يفعل المصريّون أثناء مآدبهم وولائمهم الفاخرة، إذ كانوا يُحضِرون هيكلا عظميّا آدميّا حتّى يكون إنذارا للضيوف:

«تخيّل أنّ كلّ يوم هو آخر يوم في حياتك،
وستسعد بكلّ ساعة لم تكن تأمَلها».

[Horace, *Épîtres*, I, 4]

26. بما أنّنا لا نعلم أين ينتظرنا الموت، لننتظره في كلّ مكان. أن تواجه الموت هو أن تكون حرّا. وإنّ من يتدرّب على الموت إنّما هو يتحرّر من العبودية. ولا يوجد شرّ في الحياة في نظر من يدرك أنّ فقدانها ليس شرّا. إنّ تعلّم الموت يحرّرنا من كلّ تبعيّة وكلّ قهر. أجاب بول إميل (Paul-Emile) مبعوث أسيره البائس ملك مقدونيا، إذ جاء يرجوه ألّا يعرضه في موكب نصره:

«ليطلب ذلك من نفسه»!

[Plutarque, *Vie dePaul-Émile*, XVIII]

27. في الحقيقة، إذا لم تلعب الطبيعة دورها في كلّ شيء، فإنّه يصعب على الفنّ والمهارة أن يتقدّما كثيرا. أنا لست سوداويّا، لكنّني صاحب أوهام. وليس يوجد ما اعتنقته أكثر من فكرة الموت، حتّى في أكثر فترات حياتي طيشًا:

«لمّا كانت زهرة حياتي
تنعم بالربيع»

[Catulle, LXVIII, 16]

كنت بين النّساء الحسناوات وموائد اللّعب، وكان يُظنّ أنّي مشغول بتجرّع بعض الحسد أو بعض الأمل الموهوم، والحال أنّني كنت أفكّر في أحدهم، باغتَته منذ أيّام حمّى شديدة وأنهت حياته بينما كان يغادر حفلا شبيهًا بهذا الحفل، شارد الذهن عاشقا محبورا بالوقت السعيد الذي أمضاه، مثلي أنا تماما، وكنت أشعر أنّني مهدّد مثله أيضا.

«قريبا يصبح الحاضر ماضيا،
ولن نقدر على استعادته أبدا»

[Lucrèce, III, V. 915]

28. لا يتجعّد جبيني بمثل هذا التفكير أكثر من تفكير آخر. ولئن كان من المحال ألّا نشعر عندها بوخز تلك الأفكار، فإنّ تكرارها واجترارها قد يجعلنا، مع طول المدّة، نروّضها ونستأنسها. وإلّا أصبحت، فيما يخصّني، دائم الاضطراب والفزع: لأنّ أحدا لم يأخذ حذره من الحياة مثلي، أحدا لم تغرّه ديمومته مثلي؛ إنّ الصحّة الجيّدة التي أنعم بها حتّى الآن لا تضيف إليها، كما أنّ الأمراض لا تنقص منها؛ أشعر بالانهيار في

كلّ لحظة؛ وأقول لنفسي باستمرار إنّ كلّ ما يمكن فعله في يوم آخر إنّما يمكن فعله هذا اليوم. وفي الواقع، إنّ الصّدف والمخاطر لا تقرّبنا من نهايتّنا إلّا قليلا، أو قد لا تقرّبنا بالمرّة. وإذا فكّرنا لحظة في ملايين المخاطر المعلّقة فوق رؤوسنا، فضلا عن الخطر الذي يحدق بنا الأكثر، وجدنا الموت على مقربة منّا، أكنّا في تمام الصّحة أم محمومين، نشقّ البحار أم نمكث في ديارنا، نخوض معركة أم ننعم بالسّلم.

«لا أحد يكون ضعيفا أكثر من جاره، لا أحد يكون واثقا من غده أكثر من غيره»
[Sénèque, *Épîtres*, XCI]

29. لكي أنهي ما ينبغي عليّ فعله قبل أن يوافيني الأجل، يبدو لي الوقت دائما قصيرا، ولو بساعة واحدة. لمّا كان أحدهم يتصفّح أوراقي، عثر على ملحوظة كتبتها بشأن ما كنت أريد أن يُنجز بعد موتي. قلت له – وكنت صادقا – إنّني كتبتها على عجل وأنا على مسافة فَرسخ من منزلي، بصحّة وعافية، خشية أن لا أصل إل حيث أسكن. أنا مسكون بأفكاري، وأمسك بها في نفسي. ولذا تراني مستعدّا أيّما استعداد في كلّ لحظة، فإذا فاجأني الموت فهو لن يعلّمني أكثر ممّا أعلم.

30 يجب أن يكون حذاؤك دائما في قدمَيْك، وأن تكون على أهبة السفر، ويجب خاصة ألّا تشغلك في تلك اللحظة سوى نفسك.

«ما الذي يجعلنا بلا كلل،
في حياة جدُّ قصيرة،
نصنع مشاريع بهذا الكَمّ»

[Horace, *Odes*, II, 16,17]

تزخر حياتنا بالمشاغل، ولسنا بحاجة إلى الإضافة. فهذا يتذمّر من حرمانه من نصر مبين أكثر من تذمّره من الموت؛ وذاك من كونه سيغادر الحياة قبل أن يزوّج ابنته أو يسهر على تربية أطفاله؛ بعضهم يحزن على فقدان زوجته، والآخر على فقدان ابنه، باعتبارهما بهجة الحياة.

31. أنا الآن في حالة تسمح لي، حمدا للربّ، بمغادرة الحياة دون أن أندم على أيّ شيء. لقد فككت كلّ ما يربطني، وودّعت الجميع، ما عدا نفسي. لا أحد استعدّ أكثر منّي، كلّيا وببساطة، لمغادرة الحياة، ولا أحد زهد فيها تماما مثلما فعلت. الميتات الرضيّة إنّما هي أفضل الميتات.

«شقيّ، كم أنا شقيّ،

يوم واحد ينتزع منّي أملاكي،
ومفاتن الحياة كلّها».

[Lucrèce, III, V. 898]

ويصدح البنّاء:

«تبقى أعمالي غير منجزة،
جدران عظيمة تنذر بالسقوط».

[Virgile, *Énéide*, IX, 88]

32. يجب ألّا نضع مشاريع طويلة النّفَس أو أن نتحمّس لها لدرجة أن نتألّم لعدم تحقيقها. نحن وُلدنا للعمل:

«فإذا متُّ، فليباغتني الموت إبّان العمل»

[Ovide, *Amours*, II, 10,36]

أريد أن أعمل، وأن تمتدّ مهامّ الحياة قدر الإمكان؛ أريد أن يزورني الموت وأنا بصدد زرع كُرنبي، فلا أبالي به ولا حتّى بحديقتي غير المكتملة. لقد شاهدت بعضهم ينتحب دون توقّف في الرّمق الأخير من حياته، من كون مصيره سيقطع خيط التاريخ الذي أعدّه حول الخامس عشر أو السادس عشر من ملوكنا:

«لكنّ ندمك على كلّ هذه الخيرات
لن يتبعك ولن يبقى عالقا ببقاياك»

[Lucrèce, III, 90]

33. يجب أن نتجرّد من هذه الأفكار الضارّة والسوقية؛ وذلك على منوال من وضعوا المقابر إلى جوار الكنائس وإلى جانب أكثر الأماكن تقبّلا للزائرين، حتّى يتعوّد الرّجال والنّساء والأطفال، كما قال ليكورغوس (Lycurgue)، على عدم الفزع من رؤية إنسان ميّت، وحتّى نتذكّر وضعنا باستمرار بمشاهدة الجنازات والعظام واللّحود.

«بل جرت العادة قديما على بعث البهجة في المحافل
بالاغتيالات وبالعروض الوحشيّة
للمصارعين المتناحرين الذين يسقطون
على الأكواب ويغمرون الموائد بدمائهم»

[Silius Italicus, XI, 51]

34. كان المصريون يقدّمون لضيوفهم، بعد الوليمة، صورة مثلى عن الموت، إذ كان أحدهم يصرخ بأعلى صوته: «*اشرب، تمتّع، وانظر كيف ستصبح بعد الموت*». ولذا تعوّدت أن أجعل الموت حاضرا باستمرار في مخيّلتي، بل على لساني أيضا. وإنّي لا أجد حرَجًا في الاستعلام عن موت العباد: بأيّ كلام تفوّهوا، كيف كانت ملامحهم وهيأتهم؛ كما أنّي أركّز في قصص التاريخ على المقاطع المتعلّقة بهذا الموضوع، وترون جيّدا، من خلال الأمثلة التي أحشو بها نصّي، مدى ميلي إليه. لو كنتُ من صنّاع الكتب، لخصّصت ديوانا أشرح فيه الميتات بكلّ أنواعها. إنّ من يعلّم النّاس الموت، يعلّمهم الحياة.

لقد ألّف ديكاييرشوس (Dicéarque) كتابًا من هذا النوع، لكن كان ذلك لغاية أخرى أقلّ نفعًا.

35. قد يقول بعضهم إنّ حقيقة الموت تتجاوز الخيال، حتّى إنّ كلّ عراك بالسيف معه، متى جاء الأجل، تبقى مجرّد مهزلة. لكن دَعوهم يتكلّمون: فالتفكّر فيه قبل الأوان له دون شكّ مزايا كبيرة. ثمّ: ألا يُستحسن أن نبلغ هذه المرحلة دونما عثرة أو ارتباك؟ بل أكثر: إنّ الطبيعة نفسها تمدّ إلينا يدها وتشجّعنا؛ فإذا كان الموت سريعا وعنيفا، لا يوجد وقت للخوف منه؛ وإذا كان الأمر على خلاف ذلك، فإنّني بقدر ما أغور في المرض، أزداد بطبعي في كره الحياة؛ فالموت يبدو لي أكثر فظاعة عندما أكون في صحّة جيّدة، منه عندما يحلّ بي المرض. وبما أنّني لم أعُد أهتمّ كثيرا بمرافق الحياة إذ بدأت أفقد استخدامها ولم أعُد أستمتع بها، فإنّي أجد الموت أقلّ إثارة للرّعب.

36. إنّي آمل، بقدر ما أبتعد عن تلك وأقترب من هذا، أن أوفّق أكثر في الاستعاضة عن أحدهما بالآخر. كما أنّي اختبرت في مناسبات عديدة ما قاله قيصر، من أنّ الأشياء غالبًا ما تبدو عن بُعد أعظم منها عن قُرب: هكذا لاحظت أنّني عندما أكون في صحّة جيّدة أشعر بفظاعة المرض أكثر ممّا لو كنت مريضًا. إنّ ما أنعم به من بهجة ومتعة وقوّة، كلّ هذا يجعلني لا أرى وجهًا للتناسب بين الحالة الأخرى وحالتي هذه، ما يجعلني أتصوّرها مزعجة أكثر ممّا هي في الواقع، وأكثر وجَعًا وإيلامًا ممّا عندما تصيبني. آمل ألّا يختلف الأمر عندي ساعة الموت.

37. انظروا كيف تخفي عنّا الطبيعة، بما تحدثه فينا من تحوّلات الهرم والشيخوخة العادية، حتفنا وهلاكنا. فماذا بقي للعجوز من عنفوان الشباب ومن حياته الماضية؟

«*وا حسرتاه! أيّ نصيب من الحياة بقي للعجائز؟*»

[Pseudo-Gallus, I, 16]

38. تقدَّم أحد جنود قيصر المكلّفين بحمايته، مرهقا خائر القوى، وطلب الترخيص له بوضع حدّ لحياته، فأجابه: «*أو تظنّ أنّك حيّ؟*». فلو كان الهرم يصيبنا دفعة واحدة، لما استطعنا تحمّله. إلّا أنّ الطبيعة تأخذ بيدنا، وتنحدر بنا رويدا رويدا، درجة درجة، ومن دون أن نشعر تلفُّنا في تلك الحالة البائسة وتعوِّدنا عليها. إنّنا لا نحسّ بأيّة رجّة عندما يموت الشباب فينا، ويكون هذا الموت أشدّ قسوة من الموت الذي يضع حدّا لحياة الشيخوخة الواهنة؛ ذلك لأنّ الانتقال من حالة التوعّك إلى حالة العدم أهون من الانتقال من حالة اليُنع والازدهار إلى حالة مؤلمة موجعة.

39. لا يبقى لأجسامنا المقوّسه والمنثنية ما يكفي من القوّة لحمل الأعباء: وكذا شأن أنفسنا أيضا. يجب أن تنهض في وجه ذلك العدوّ وأن تقاومه، لأنّه إذا امتنع عليها أن تنعم بالرّاحة بينما هو يهدّدها، فهي على العكس، إذا تجلّدت، كفاها فخرًا (وهذا يتجاوز وضعنا الإنساني) أن تتخلّص من الضّيق والقلق والخوف، بل من كلّ ما يكون لها مصدر إزعاج.

«*لا شيء يحلحل حزمه،*
لا وجه الطاغية الذي يتهدّده
ولا هيجان أوستر في البحر الأدرياتيكي
ولا جوبيتر حاملًا الصّاعقة في يديه»

[Horace, *Odes*, III, III, 3-6]

40. هكذا تصبح النّفس سيّدة أهوائها ورغائبها، متحكّمة في حوائجها، كما في الفاقة والعار وكلّ مظالم الدّهر الأخرى. لنغتنم هذا الوضع المتفوّق إن استطعنا: إنّها الحرّية الحقّ، الحرّية المثلى، التي تجعلنا نتحدّى القوّة ونقف في وجه الظّلم ونستخفّ بالسّلاسل والسّجون.

«*مكبّل اليدين والساقَين بالحديد*
سأضعك تحت مراقبة سجّان شرس
– سيعتقني أحد الآلهة
– بل قلْ: سأموت؛ إذ في الموت تكون النهاية»

[Horace, *Épîtres*, I, XVI, 76-78]

41. لا تقوم ديانتنا على قاعدة أشدّ من قاعدة احتقار الحياة. وإنّ العقل نفسه يقرّ بذلك: فلماذا نخشى أن نفقد شيئا، والحال أنّنا إذا فقدناه لم يعُد بالإمكان أن نأسف

عليه؟ وبما أنّنا نعيش تحت تهديد أنواع مختلفة من الموت، أليس من الأفضل أن نواجه نوعا واحدا من الموت عوض أن نخشى كلّ الأنواع؟ ماذا ستضيفه لنا معرفة زمن حدوثه، طالما أنّه لا مفرّ منه؟ قال أحدهم لسقراط يُخبره: «*لقد حَكم عليك الثلاثون طاغية بالموت*»، فأجابه: «*هُم، إنهم الطبيعة*».

42. كم من الغباء أن تعذّب نفسك بسبب لحظة ستعفى فيها من كلّ عذاب! فالأشياء كلّها وُلدت معك، وستموت معك. وإنّ انتحابك لكونك لن تعيش بعد مائة سنة، لا يقلّ جنونا عن انتحابك لكونك لم تعش قبل مائة سنة. الموت مصدر حياة أخرى؛ وقد كلّفنا ما كلّفنا ولوج هذه الحياة وبكينا كثيرا؛ إذ كان علينا أن ننزع حجابنا القديم قبل الولوج.

43. لا شيء يكون مزعجا حقّا إذا كان لا يحدث إلّا مرّة واحدة. فهل من داع إلى الخوف طويلا من أمر يدوم قليلا؟ أن تعيش مدّة طويلة أو قصيرة، فالأمران سيّان أمام الموت. ذلك لأنّ الطويل والقصير لا ينطبقان على الأشياء التي لم تعُد موجودة. قال أرسطو إنّه توجد في نهر هيبانيس (Hypanis) حيوانات صغيرة لا تعيش أكثر من يوم واحد. فالتي تموت في الثامنة صباحا تكون ماتت في مرحلة شبابها، والتي تموت في الخامسة مساء تكون ماتت هرمةً عجوزةً. وإذّاك ألن نسخر ممّن يظنّ أنّ مدّة قصيرة كهذه قد يتخلّلها الشّقاء أو السّعادة؟ وإذا قارنّا هذه المدّة بالأزل، وبديمومة الجبال والنّجوم والأشجار وحتى بعض الحيوانات، ألن تُعتبر إضافة مدّة قصيرة إليها أو إنقاصها أمرًا تافهًا؟

44. بل إنّ الطبيعة ترغمنا وتقول: اخرجوا من هذه الدّنيا مثلما دخلتم. فما دام عبوركم من الموت إلى الحياة قد تحقّق بلا خوف ولا عذاب، فاعبروا هكذا من الحياة إلى الموت. موتكم جزء من معمار الكون وعنصر من حياة العالم.

«*إنّ البشر إذ يتناقلون الحياة فيما بينهم،*
كمثل العدّائين الذين يتناقلون المشعل»

[Lucrèce, II, 76-79]

45. لماذا سأغيّر من أجلكم هذا الترتيب الجميل للأشياء؟ فالموت هو شرط وجودكم، وهو جزء منكم، فإذا نفرتم منه نفرتم من أنفسكم. وهذا الوجود الذي به تتمتّعون، إنّما هو ينتمي بالتساوي إلى الحياة والموت. إنّ يوم ميلادكم هو الخطوة الأولى في الطريق الذي يقودكم في اتّجاه الحياة كما في اتّجاه الموت.

«*الساعة الأولى تمنح الحياة، بل هي الشروع في الحياة*»

[Sénèque, *Hercule Furieux*, III, 874]

«عندما نولد، نموت؛ تأتي النهاية من البداية»

[Manilius, *Astronomiques*, IV, 16]

46. كلّ ما تعيشونه إنّما أنتم تختلسونه من الحياة، على حساب الحياة. والبناء المستمرّ لحياتكم إنّما هو بناء للموت. تكونون أمواتا بينما تكونون على قيد الحياة، لأنّكم متى فقدتم الحياة أصبحتم في حالة ما بعد الموت. أو، إن شئتم، أقول هكذا: تصبحون أمواتا بعد الحياة، لكن في أثناء الحياة تكونون في حالة احتضار؛ ويكون الموت أشدّ وطأة على الذي يحتضر، منه على الميت. إذا كنتم قد استمتعتم بالحياة، فلا شكّ أنّكم قضيتم منها وطركم وشبعتم، فاذهبوا في سبيل حالكم.

«لماذا لا تغادر الحياة ضيفًا شبعانًا؟»

[Lucrèce, III, 938]

47. إن كنتَ لم تحسن الاستفادة منها، وكانت لم تنفعك، فما ضرّك لو فقدتها؟ لمَ ترغب فيها إذن؟

«لماذا تسعى إذن إلى تمديد زمن
ستفقده لا محالة من دون أن تغنم منه ثمرا»

[Lucrèce, II, 941-42]

ليست الحياة في جوهرها خيرا ولا شرّا، وإنّما الخير والشرّ يتموقعان فيها حسب إرادتك. فلو عشت يوما واحدًا، فأنت قد اطّلعت على كلّ شيء: يوم واحد يساوي كلّ الأيّام. لا يوجد نور آخر، ولا ليل آخر. هذه الشّمس، وهذا القمر، وهذه النّجوم، ونظام الكون هذا، إنّ أجدادك قد تمتّعوا بكلّ هذا بالذات، وأحفادك أيضا سيتمتّعون.

«آباؤكم لم يروا غير هذا، وأبناؤكم لن يروا غير هذا أيضا»

[Manilius, I, 522-523]

48. وعلى أيّة حال، فإنّ توزيع الفصول المتنوّعة لكوميديا حياتي يتمّ على سنة واحدة. ألم تلاحظوا أنّ نشاطي في الفصول الأربعة يعانق طفولة العالم وشبابه وكهولته وشيخوخته؟ وعندما ينتهي من دورته، لا يسعه إلّا أن يعيد الكرّة. ولن يتغيّر الأمر أبدا.

«إنّا نحوم في دائرة لا نغادرها أبدا»

[Lucrèce, III, 1080]

«وتجري الأيام على مدار السنة، وتعود على خطواتها»

[Virgile, *Géorgiques*, II, 402]

ليس من رأيي أن أختلق لكم أنواعا جديدة من التسلية.

«لم يعُد لديّ ما أخترعه لك،
ولن تكون الملذّات الجديدة إلّا هي نفسها»

[Lucrèce, III, 944-45]

49. افسحوا المجال لغيركم، مثلما فعل غيركم لكم. المساواة هي أساس الإنصاف والعدل. من منكم سيشتكي من إدراجه ضمن مجموعة يندرج ضمنها الجميع؟ مهما طال عمركم، فهذا لن ينقص من مدّة موتكم: إذ لا وجه للمقارنة بين مدّته ومدّة عيشكم، وسوف تبقون طويلا في حالته التي تخيفكم كما لو كان موتكم منذ المهد:

«عش في الدّنيا ما يحلو لك من السّنين،
فالموت لن يزداد إلّا أبديّة»

[Lucrèce, III, 1090-91]

سأضعكم في موقف لن تروا فيه أيّ إزعاج:

«هل تعلم أنّ الموت لن يتركك أنت بالذات، حيًّا ترزق، لتنتحب على مماتك؟»
[Lucrèce, III, 885-887]

50. ولن ترغبوا حتّى في الحياة التي تندمون عليها هذا النّدم:

«فلا أحد يفكّر في حياته وذاته،
ولا أحد يحزن على نفسه ويأسف»

[Lucrèce, III, 919 Et 922]

ينبغي أن نخشى الموت أقلّ من صفر – إن وُجد شيء أقلّ من صفر. إنّه لا يعنينا، أكنّا أمواتا أم أحياء: لا يعنينا ونحن أحياء، إذ نكون قيد الوجود، ولا يعنينا ونحن أموات إذ لم نعُد قيد الوجود. لا أحد يموت قبل أجله. الزّمن الذي تغادر وتتركه ليس ملك يديك، كما الزّمن الذي تقدَّم على ولادتك: فكلاهما لا علاقة لهما بك.

«هي لا شيء حقّا عندنا،
تلك اللحظات الملغاة في الأزل».

[Lucrèce, III, 972-73]

51. مهما كانت اللّحظة التي تنتهي فيها حياتك، فهي تتضمّن حياتك كلّها. ولا تكمن قيمة الحياة في مدّتها، وإنّما فيما فعلناه بها. فـهذا زيْد قد طال عمره إلّا أنّه عاش

قليلا. فامنحوها كامل انتباهكم أثناء وجودها فيكم. إنّ مدّة حياتكم تكون كافية متى شئتم، لا متى عمّرتم. أتظنّون أنّكم لن تصلوا أبدا إلى حيث ذهبتم دائما؟ لا وجود لطريق مغلقة. وإذا كانت الصّحبة قد تساعدك، فهلّا تسير أشياء العالم بنفس سرعتك؟

«سوف تتبعكم الأشياء كلّها في الموت»

[Lucrèce, III, 968]

52. ألا يتحرّك كلّ شيء بنفس حركتك؟ وهل من شيء لا يهرم معك في نفس الوقت؟ ألف إنسان، وألف حيوان، وألف مخلوق آخر يموتون في نفس اللّحظة التي تموت أنت.

«لم يعقب اللّيل النّهار، ولا النّهار اللّيل،
إلّا واختلط استهلال المواليد
بحشرجة الأموات ونحيب جنازاتهم».

[Lucrèce, II, 578 Sq.]

53. ما الفائدة من التراجع أمام الموت إذا كنتَ غير قادر على الإفلات منه؟ لا شكّ أنّك شاهدت من النّاس من أسعده الموت إذ أعفاه من بؤس شديد. لكن هل شاهدت من لم يقض من الموت وطره؟ إنّه لمن الحمق حقّا أن تشجب شيئا لم تختبره لا بنفسك ولا بواسطة غيرك. لماذا تشتكي منّي[1] ومن مصيرك؟ مَن آذاك؟ من يحكم الآخر، أنت أم نحن؟ حتّى إن لم يصل عمرك إلى نهايته، فإنّ حياتك قد انتهت. الرّجل القصير رجلٌ كاملٌ، كالرّجل الطويل.

54. لا توجد أدوات لقيس النّاس وحيواتهم. لقد رفض شيرون الخلود لمّا علم بالشروط التي وضعها والده ساتورن، إله الزمان والديمومة. تصوّر كم قد يصعب على الإنسان أن يتحمّل الخلود، وكم تكون حياته شاقة بالمقارنة مع الحياة التي منحتُها إيّاه. لو لم يكن الموت في متناولك، لكنت لعنتني باستمرار إذ حرمتك منه. لقد مزجته بقليل من المرارة حتّى تنفر منه ولا تستسهله ولا تقدم عليه دون رويّة. ولكي تحافظَ على اعتدالك فلا تهرب من الحياة ولا تتراجع أمام الموت، فقد قمتُ بتتبيلهما بين حلاوة وحموضة.

55. لقد علّمتُ طاليس، أوّل حكمائكم، أنّ الحياة والموت سيّان. عندما سأله بعضهم لماذا لا يموت، كان جوابه مليئا بالحكمة إذ قال: «*لأنّ ذلك لا معنى له*». الماء

---

(1) لا ريب أنّ الطبيعة هاهنا هي لسان حال مونتاني، مثلما سيتّضح لاحقا.

والتّراب والهواء والنّار والعناصر الأخرى التي تؤلّفني ليست أدوات حياتك أكثر منها أدوات مماتك. لماذا تخشى يومك الأخير؟ فهو لا يجعل لموتك معنى أكثر من الأيّام الأخرى. ليست الخطوة الأخيرة هي التي تسبّب الملل، بل هي التي تكشفه لا أكثر. الأيّام كلّها تقود إلى الموت: اليوم الأخير هو الذي يبلغه.

56. كانت هذه نصائح أمّنا الطبيعة. وإنّي غالبا ما فكّرت فيما يلي: كيف أنّ الموت يبدو، في المعارك والحروب، في نظرنا وفي نظر الآخرين، أقلّ إرهابا ممّا يبدو عليه في ديارنا. فلولا ذلك، لكان الجيش حشدًا من الأطبّاء والمتباكين. تساءلت أيضا، ما دام الموت هو هو، لماذا يتحلّى القرويّون وبسطاء النّاس بأكثر سكينة من غيرهم. ما أعتقده هو أنّ ما يخيفنا أكثر من الموت نفسه هو عبوسنا وتجهّمنا والجنازات المرعبة.

57. إذ يتغيّر نمط السلوك، فيرتفع صياح الأمّهات والنّساء والأطفال، ويدخل الزوّار للتعزية بذهول وارتباك، ويحضر الخدم وقد شحبت وجوههم وأدمعت عيونهم؛ بيتٌ مظلم تضيئه الشموع، أطبّاء وكهنة يحيطون بفراش الميّت، وعموما محيط يتخلّله الهلع والهول. ها قد انتهت عمليّة الكفن والدّفن؛ يخاف الأطفال حتّى من أصدقائهم إذا رأوهم مقنّعين؛ ونحن أيضا، يجب أن نزيل القناع عن الأشياء كما عن الأشخاص؛ وبعد إزالته، لن نجد تحته إلّا ذلك الموت نفسه الذي واجهه مؤخّرا خادم المنزل أو منظّفته دونما خوف.

ما أسعد الموت الذي لا يترك مهلة لمثل هذه الاستعدادات !

الفصل العشرون

عن قوّة الخيال

1. «الخيال القويّ يولّد الحدث»، كما يقول رجال الدّين.
أنا من بين الذين لديهم شعور قويّ بمفعول الخيال. إنّه يؤثّر في كلّ واحد منّا، وقد يصيب بعضنا بالذهول. إنّه يخترقني، وحيلتي الوحيدة هي أن أفلت منه، لأنّي أعجز عن مقاومته. يمكنني أن أنعم بالعيش بمجرّد حضور أناس مرحين ويتمتّعون بصحّة جيّدة؛ لكن التوتّر عند غيري يجعلني أشعر بالضيق: إذ غالبا ما يتولّد شعوري عن شعور غيري. إنّ من يسعل باستمرار يهيّج رئتيّ وحلقي؛ وإنّي أشعر برغبة أقلّ في زيارة المرضى الذين تربطني بهم علاقة، من الرغبة في زيارة الذين لا أرتبط بهم ولا وأهتمّ بشأنهم. فأنا ألتقط الدّاء، أعاينه، ثمّ أستبطنه. لا عجب إذن أن يتسبّب الخيال في الحمّى، بل في الموت، لأولئك الذين يفسحون له المجال ويشجّعونه.

2. كان سيمون طوماس (Simon Thomas) طبيب زمانه. أذكر أنّني التقيته مرّة بمدينة تولوز في بيت عجوز ثريّ مسلول، حيث كان يحدّثه عن طرق علاجه، فقال له إنّ إحدى هذه الطرق تتمثّل في أن يستمتع بالجلوس معي، فإذا ركّز نظره على نعومة وجهي وتأمّل في ريعان شبابي وملأ حواسّه كلّها بنضارتي، قد تتحسّن حاله. لكن يبدو أنّه غفل عن ذكر حالتي التي قد تسوء في نفس الوقت !

3. لقد بذل غالوس فيبيوس (Gallus Vibius) قصارى جهده من أجل أن يفهم حقيقة الجنون وتجلّياته، حتّى إنّه فقد صوابه ولم يسترجعه أبدا: إن من حق هذا الرجل أن يفخر بأنّه جُنّ من فرط الحكمة. وهناك من يجعله الرّعب يستبق حركة الجلاّد؛ بل هناك من سقط ميّتا فوق منصّة الإعدام بعد أن فُكّ قيده وأُخبر بالعفو عنه، وذلك بسبب خياله لا غير. إنّنا نعرق ونرتعد ونصفرّ ونحمرّ تحت هزّات خيالاتنا، فنضطجع على الفراش ونحسّ بانتفاضات جسمنا حتّى نكاد أحيانا نلقى حتفنا.

4. يحترق الشباب شوقا وشبقا أثناء النّوم، ويلبّي رغباته الغرامية في الحلم.

«فنتوهّم أنّنا أتممنا المضاجعة، ويتدفّق المنيّ ويلطّخ ثيابنا»

[Lucrèce, III, V. 1305]

ومع أنّه لا يُستغرب أن يستيقظ إنسان من النّوم بشعور أنّ له قرنين، فإنّ ما حدث لسيبوس (Cyppus)، ملك إيطاليا، بقي راسخا في الذاكرة. فبعد أن شاهد في النّهار مصارعة بين الثيران وأولاها اهتماما كبيرا، رأى في المنام أنّه يحمل قرنين فوق رأسه، فنبت له، من شدّة ما تخيّل، قرنان على جبينه[1]. وهكذا فإنّ الانفعال هو الذي أعطى ابن قارون الصّوت الذي حرمته منه الطبيعة.

5. أمّا أنطيوخوس (Antiochus)، فقد أصيب بالحمّى لشدّة تأثّره بجمال ستراتونيس (Stratonice). وقال بلينيوس (Pline) إنّه شاهد لوسيوس كوستيوس (Lucius Cossitius) وقد تحوّل من امرأة إلى رجل يوم زفافه. وروى بنتانوس (Pontanus) وآخرون غيره أنّ تحوّلات مماثلة حصلت في قديم الزمان في إيطاليا، من ذلك أنّ إيفيس (Iphis)، بدافع رغبته الجامحة ورغبة أمّه،

«وبعد أن أصبح فتى، أوفى الوعود التي قطعها حين كان فتاة».

[Ovide, *Métamorphoses*, IX, 793]

6. كنت مارّا بـمدينة فيتري لي فرانسوا (Vitry-Le-François)، فشاهدت رجلا أطلق عليه أسقف سواسون (Soissons) اسم جِرمان (Germain)، وذلك إثباتا لذكورته، والحال أنّ كلّ الأهالي كانوا يعرفونه ويعتبرونه فتاة اسمها ماري إلى حدود الثانية والعشرين من عمرها. كان وقتها ملتحيا، هرِمًا وأعزب. وعلى حدّ ما رُوي، بذل مرّة جهدًا في القفز، فبرزت أعضاؤه الذكرية. ولَا تزال فتيات القرية تُنشدن أنشودة تُحذّرن فيها أنفسهنّ من القيام بقفزات واسعة خشية أن تَتحوّلن إلى فتيان مثل ماري-جرمان (Marie Germain). ليس من المستغرب أن يحدث ذلك، لأنّ المخيّلة، بعد الاستمرار في الإلحاح عليها بشدّة، وتحاشيا منها لاجترار نفس الأفكار وتحمّل نفس الرغبة الجامحة، تجد حلّا قطعيّا في منح الفتيات عضوًا ذكريّا حقيقيّا.

7. يعزو بعضهم ندوب الملك داغوبير (Dagobert) والقدّيس فرنسوا (Saint-François) إلى قوّة الخيال[2]. وقيل إنّ الخيال يقدر أحيانا على رفع الأجسام. وحدّثنا

---

(1) جاءت هذه الرواية على لسان عدد من المؤرّخين، أمثال كرنيليوس أغريبا (Cornélius Agrippa) وبلينيوس الأكبر (Pline l'Ancien) وغيرهما. ويبدو أنّ مونتاني كان يستسيغ هذا النوع من الروايات. لكن انظر الفقرتين 33 و34 من هذا الفصل، حيث يتنصّل مونتاني من كلّ مسؤولية تتعلّق بمدى صدق هذه الروايات، ويضعها على عاتق الرّواة أنفسهم.

(2) قد يكون الخوف من الغنغرينة (gangrène) هو السبب في ظهور ندبات على وجه الملك داغوبير؛ وتُعلَّل ندبات القدّيس فرنسوا بكونها من علامات صلب المسيح.

سلسيوس (Celse) عن كاهن كان يجعل جسمه في حالة ذهول لدرجة أنّه يبقى طويلا دون أن يتنفّس وفي حالة إغماء. وذكر القدّيس أوغسطين (Saint Augustin) حالة إنسان إذا سمع بكاءً ونحيبًا سقط مغشيًّا عليه ولا ينفع معه أن تناديه وترجّه وتقرصه وتحرقه، إلى أن ينهض وحده ويقول إنّه كان يسمع أصواتًا تأتي من بعيد، ويتفطّن إلى الحروق والرضوض التي حصلت له. والدليل على أنّه لم يكن يتماسك عمدا عن الشعور والإحساس هو أنّه لم يكن له آنذاك لا نبض ولا نفَس.

8. ومن المحتمل جدّا أنّ التصديق بالخوارق والمعجزات والرؤى والسّحر إنّما يعود إلى قوّة الخيال، الذي يؤثّر خاصّة في عقول العامّة الطيّعة؛ يتوهّم عامّة النّاس، من شدّة تأثّرهم، رؤية ما لا يرونه في الواقع.

9. وفي اعتقادي أنّ «سحر الربط»[1]، الذي أصبح موضوع كلام النّاس من فرط ما يولّده من إزعاج، قد يكون مترتّبا عن التخوّف والخشية. أعلم ذلك من خلال ما عاينته بنفسي لدى شخص أثق به ثقة تامّة ولا يمكن أن يُنعت بالضعف أو بأنّه مسحور. لقد سمع ذات مرّة أحد أصدقائه يتحدّث عمّا أصابه من وهَن في لحظة حرجة جدّا، فانطبعت هذه الحكاية المفزعة في خياله بشدّة، حتّى إنّه، لمّا وجد نفسه ذات يوم في نفس الموقف، أصابه نفس الوهن. ومذّاك عاودته الحالة نفسها، لأنّ ذكرى فشله المقرف ظلّت تراوده وتستبدّ به. ثمّ وجد علاجًا لهذا المرض المتخيَّل بفضل الخيال ذاته: إذ شرع في توقّع عجزه والاعتراف به، فارتاح فكره وقلّ حرَجه وتحمّل أمر نفسه. هكذا انبسط فكره وتحرّر، واستعدّ جسمه، ثمّ سنحت الفرصة للمحاولة والاختبار، وباح أخيرا بسرّه لشخص آخر، فإذا به يشفى دفعة واحدة. لن تبقى عاجزا إذا نجحت ذات مرّة، اللّهم إلّا إذا كان عجزك حقيقيا.

10. بيد أنّ هذا البلاء لا يكون موضوع خشية إلّا عندما يجد المرء نفسه ممزّقا بين الشبق والاحترام، ولا سيّما في المناسبات الطارئة والعاجلة. آنذاك لا توجد وسيلة للإفلات من الاضطراب. أعرف من أراد أن يخفّف من توقّد هيجانه، فجاء بعد أن أشبع نصف رغبته، فأضحى بسبب عمره أقلّ عجزا لأنّه أقلّ قدرة. وأعرف كذلك من طمأنه كلام صديقه الذي قال إنّه يعرف رقيات سحرية ستحميه لا محالة. ومن المستحسن هنا أن أقصّ عليكم ما حدث.

11. كان لي صديق حميم ذو حسب ونسب، وكان على أهبة الزّواج من امرأة جميلة، وليلة الزّفاف حضر من بين المدعوّين رجل كان في السابق مواظبا على ملاطفتها. كان

(1) هو السحر الذي يجعل الرّجل عاجزا جنسيًّا.

الوضع مزعجا في نظر أصدقاء العريس، ولا سيّما في نظر امرأة عجوز من أقاربه، كانت هي المشرفة على مراسم العرس الذي يجري في دارها. كانت تخشى من بعض السّحر، فأسرّت لي بذلك.

12. رجوْتها أن تترك الأمر لي. وكنت أملك بالصدفة، من بين أدباشي، قطعة ذهبيّة مسطّحة نُقشت عليها بعض الأشكال السماوية لمقاومة الرّعن (ضربة الشمس) وكذلك أوجاع الرأس عندما توضع بدقّة فوق لأْم الجمجمة؛ ولكي تبقى في وضعها، خيطت في شريط يمكن عقده تحت الذّقن؛ وهذا غباءٌ من النّوع الذي يدور حوله كلامنا. هذه الهديّة الغريبة أعطانيها شخص يُدعى جاك بلوتيي (Jacques Pelletier)، كان يسكن في بيتي. رأيت أن أستعملها لفائدة العريس، فأخبرته بوجود من يتربّص به ويتمنّى أن تبتليه بليّة، لكن طمأنته وطلبت منه أن ينام مرتاح البال، فأنا سأبرهن له عن صداقتي باستخدام قدرة عجيبة أملكها، بشرط أن يعِدني وعد شرف بأن يبقى الأمر سرّا بيننا. يكفيه فقط، عندما يفتح الباب لتناول وجبة السحور، أن يشير لي بأنّ دُخلته قد تعكّرت ولم ينل مرامه... ومن فرط ما سمعه من حكايات أذهلته وأربكت خياله، عُنّ الرجل، فأشار لي بذلك في الموعد المحدود.

13. همستُ إليه بأن ينهض ويطلب منّا أن نغادر، وأن يرتدي، من باب المزاح، لباس البيت الذي كنتُ أحمله (إذ يكاد مقاسنا أن يكون واحدًا)، وأن ينفّذ تعليماتي، وهي: أن يذهب، بعد أن نخرج، للتبوّل، وأن يردّد دعاءً معيّنًا ثلاث مرّات مع القيام بحركات معيّنة، ويربط في كلّ مرّة الشريط الذي أعطيته إيّاه ويضع بكامل الدقّة الميدالية العالقة به على خاصره، بحيث يكون الرمز المنقوش في وجهها في الوضع المطلوب. وبعد ذلك، أن يعيد ربط الشريط جيّدا حتّى يبقى ثابتا في مكانه ولا ينحلّ، ثمّ يعود لممارسة مهمّته، دون أن يغفل عن رمي لباسي فوق الفراش وأن يدّثر به مع عروسه.

14. تلعب هذه الخزعبلات دورا رئيسيا، إذ يجري الاعتقاد أنّ مثل هذه الوسائل الغريبة لا يمكن أن تنتج إلّا عن علم غامض موحى به، بل كلما كانت أكثر غباءً ازدادت وزنًا واحترامًا. وباختصار فقد ثبت أنّ طلاسمي وتعويذاتي لها علاقة بالأحوال الجنسية أكثر منها بضربات الشمس، وأنّها منشّطة، لا محبطة.

لقد سلكت هكذا بدافع الفضول ودون تروٍّ، لأنّني لا أحبّ وسائل الخداع والمكر، بل أكره اللّجوء إليها ولو كان ذلك لمجرّد التسلية، بل ولو كانت تُرجى منها منفعة؛ إذ لئن كانت العملية ذاتها لا عيب فيها، فإنّ الوسيلة المستخدمة تبقى معيبة.

15. تزوّج أمازيس (Amasis)، ملك مصر، من فتاة يونانية في غاية الحسن والجمال تُدعى لاوديس (Laodice). إلّا أنّه، رغم ما كان يظهره من حُسن المعاشرة في كلّ

المناسبات الأخرى، بقي عاجزا عن مضاجعتها، فهدّدها بالقتل، ظنّا منه أنّها سحرته. لكن لمّا كانت القضيّة من نسج الخيال، دعته زوجته للتضرّع إلى الآلهة، فصلّى وابتهل إلى فينوس (Vénus) وقدّم لها العطايا والأضاحي، فاستعاد نشاطة منذ اللّيلة الأولى بنحوٍ رائع.

16. تكون المرأة على تمام الخطأ عندما تستقبل حبيبها بجفاء، مكفهرّة متمنّعة، فتطفئ لهبه بعدما كان مضطرمًا. كانت كنّة فيثاغور تقول إنّه ينبغي على المرأة التي تضاجع رجلا أن تتجرّد من ملابسها ومن حيائها معًا، وألّا تستعيد حياءها إلّا مع ملابسها. إنّ الذي يعاشر امرأة ويتعرّض لإنذارات مختلفة، قد يفقد صوابه. وإنّ الذي يشعر بالخجل ذات مرّة، نتيجة ما يتخيّل (وقد يجعله خياله يشعر بالخجل أثناء العناق الأوّل لما فيه من شوق وعنف، وكذلك لأنّ في المرّة الأولى يخشى كلّ امرئ من الإخفاق)، قد يشعر بالإخفاق والخيبة، وقد يلاحقه هذا الشعور حتّى في المناسبات الموالية.

17. يكون أمام الأزواج متّسع من الوقت كي لا يتسرّعوا إلى المضاجعة إن لم يكونوا على استعداد لذلك. فمن الأفضل أن يُخفق المرء في مباشرة عروسه ليلة الدخلة، بسبب ما يعتريه من إثارة واهتياج، وأن ينتظر فرصة أخرى أكثر هدوءا وحميمية، من أن يصاب بإحباط دائم بسبب ارتباكه ويأسه من أوّل مرّة. عليه قبل الإشباع التامّ أن يقوم بمحاولات متنوّعة في أوقات مختلفة، وأن يتدرّب بلطف، من غير عناد ولا أنانية، حتّى يصبح واثقا من نفسه تماما. أمّا الذين يعلمون أنّ قضيبهم ليّن العريكة بطبعه، يكفيهم أن يتحكّموا في مخاوفهم الوهمية.

18. إلّا أنّ من سمات هذا القضيب عدم الانصياع والطاعة، إذ تراه مزعجًا بحضوره واستعداده عندما لا نكون في حاجة إليه، ومزعجا بغيابه وإخفاقه عندما نكون في أمسّ الحاجة إليه، واقفًا هكذا ضدّ إرادتنا، رافضًا بتعنّت وفخر توسّلات عقولنا وأيدينا.

19. لكن لو كُلّفتُ بالمرافعة والمحاماة عنه ضدّ من يلومونه ويستقبحون عصيانه، لوجّهت التّهمة إلى كيْد الأعضاء الأخرى المرافقة له، إذ تحسده على أهمّيته وعلى متعة استعماله، ما يجعلها تضمر له الشّر وتدسّ له الدسائس لتهيّج النّاس عليه، وتنسب إليه وحده خطأً هي شريكة فيه. فأنا أسألكم: هل يوجد جزء واحد في جسمنا لا يرفض عادة الاستجابة لإرادتنا، بل لا يتوانى في الوقوف ضدّها؟ إذ لكلّ واحد منها انفعالاته الخاصة، توقظه وتُرقده دون مشورتنا. فكم من مرّة كشفت حركات وجهنا اللّاإرادية عن أفكارنا الدفينة وخدعَتنا أمام النّاس؟

إنّ ما ينشّط القضيب هو نفسه ما ينشّط، دون أن نشعر، قلبنا ورِئتينا ونبضنا ورؤيتنا

لشيء ممتع يبعث فينا لهيب الشوق. فهلّا يوجد غير هذه العضلات والأوردة كي تهتزّ وتنخفض دون موافقة إرادتنا، بل دون رضا فكرنا؟

20. نحن لا نأمر شعرنا بأن ينتفش، ولا جلدنا بأن يقشعرّ من شدّة الرغبة أو الخوف. قد تذهب يدنا غالبا إلى حيث لم نرسلها؛ وقد يتجمّد اللّسان ويتوقّف عن الكلام كما يحلو له. وحتّى عندما تنقصنا الموادّ لإعداد طعام مقليّ، فإنّ الجوع والعطش يستثيران، رغما عنّا، الأجزاء الموكولة لهما، تماما كالشهوة التي، زيادة على ذلك، قد تتركنا وتتخلّى عنّا كما يحلو لها.

21. إنّ الأعضاء التي بانتفاخها وانضغاطها تُفرغ البطن لا تعبأ برأينا، بل تقاومه، تماما كالأعضاء التي تُفرغ غددنا. لكن في سبيل إثبات قوّة الإرادة، روى القدّيس أوغسطين مشاهدته لشخص يستطيع أن يتحكّم في مؤخّرته وأن يضرط قدر ما يريد. كما قدّم فيفاس (Vivès) مثال رجل قادر على تنظيم الضرطات وفق نبرة أبيات الشعر الذي يقال. لكن ذلك لا يؤكّد خضوع هذا العضو لإرادتنا تماما.

22. فعلا، هل يوجد عضو أكثر منه فضحا وإزعاجا؟ أعرف واحدا فظّا صاخبا لدرجة أنّه كان يرغم صاحبه، منذ أربعين سنة، على الضرط باستمرار ودون توقّف، حتّى تسبّب له في الموت.

23. أشكر الله على كوني لم أختبر بنفسي، بل علمتُ فقط بفضل ما بلغني من الروايات، كم من مرّة أوصل البطن صاحبه إلى أبواب الموت بسبب ضرطة معكوسة واحدة. كان على الإمبراطور الذي منحنا حرّية الضراط حيثما كنّا، أن يمنحنا أيضا القدرة على الامتناع عنه.

24. لكنّ إرادتنا نفسها، التي من أجلها نصوغ هذا النقد، أليست بدورها تثور وتتمرّد ولا تنصاع ولا تطيع؟ هل هي دائما تريد ما نرغب أن تريد؟ أليست غالبا تريد ما نمنعها من أن تريد، فتُؤذينا؟ أليست تنجرّ وراء ما يقرّره العقل؟ أخيرا وللمرافعة عن موكّلي، أقول إنّه في هذه القضيّة، رغم ارتباط مصلحته ارتباطًا وثيقًا بمصلحة شريك له، إلّا أنّه لا يمكن إلّا محاكمته وحده، بحجج وتُهم لا يمكن أن تنطبق على الشريك.

25. ذلك لأنّ دوره هو أن يدعو ويراود من غير مناسبة أحيانا، وأن يستحثّ بصمت وهدوء، لا أن يرفض أبدا. هذا ما يفسّر حقد الذين يتهمونه ويشتكون منه وعدم شرعيتهم. مهما كان الأمر، فنحن نصدع بأنّ القضاة والمحامين، مهما تنازعوا وأصدروا من الأحكام، لن يوقفوا سير الطبيعة على دربها. وهي لعمري لم تنجز إلّا ما كان موافقا للعقل، إذ منحت هذا العضو امتيازًا خاصًّا، بصفته صاحب الإنجاز الخالد الوحيد بين البشر. لقد أكّد سقراط على الطابع الإلهي لهذا الإنجاز: إنّما الحبّ رغبة في الخلود، بل هو جنٌّ خالدٌ.

26. إليكم مثال الإنسان الذي ظنّ، تحت تأثير الخيال، أنّه شفي من العقدة الخنازيرية التي نقلها صاحبه إلى إسبانيا. المطلوب في مثل هذه الحالات هو أن يكون الفكر «مهيّأ». وإلّا فلماذا يا ترى يسعى الأطبّاء منذ البداية إلى كسب ثقة مرضاهم، حتّى إذا غمروهم بوعود الشفاء الكاذبة، نجحت المخيّلة في ما لم تنجح عقاقيرهم الفاسدة؟ لا شكّ أنّهم اطّلعوا على ما كتبه أحد الأساتذة من أنّ بعض النّاس إذا لمحوا فقط الدواء الموعود تماثلوا للشفاء.

27. وجدتُ تفسيرا لهذا الأمر الغريب في ما رواه لي أحد خدم المرحوم أبي، وهو رجل بسيط من أصل سويسري، أي من قوم اشتُهروا بالنشاط والنزاهة. قال إنّه كان على معرفة، منذ زمن بعيد، بتاجر من مدينة تولوز، مسقامًا ويعاني من مغص كلوي. كان يحتاج باستمرار إلى حقنة شرجية فكان يطلبها من الطبيب تحت أشكال مختلفة باختلاف أعراض مرضه. وعندما يتسلّمها، كان يتثبّت من أصلها وما إذا كانت ساخنة جدّا. فيستلقي على الفراش في الوضع المطلوب وتُعدّ له العدّة، غير أنّ الحقنة لم تكن تقدَّم له أبدا. وبعد مغادرة الصيدلاني، كان يعود إلى وضعه المعتاد وهو يشعر كما لو أنّه تناول الحقنة. وإذا كان العلاج غير كاف، كان الطبيب يضاعف فيه مرّتين أو ثلاث بنفس الطريقة. ويقسم شاهدي أنّ زوجة المريض حاولت ذات مرّة، من باب التقشّف والادّخار(إذ كان يدفع مقابل الحُقن وإن لم يتناولها)، أن تضع في الحقنة ماء دافئا لا غير، إلّا أنّ مفعوله كشف عن الخدعة، فكان لا بدّ من الرجوع إلى الطريقة الأولى.

28. ظنّت امرأة أنّها ابتلعت إبرة مع قطعة الخبز، فشرعت تصرخ وتستغيث من فرط الألم في حلقها حيث كانت تتخيّلها منغرزة. لكن لمّا كان لا يظهر انتفاخ ولا انخماج، أدرك رجل ماهر أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد وهم، سببه قطعة خبز وخزتها أثناء البلع، فطلب منها أن تتقيّأ ورمى، في غفلة منها، إبرة ملتوية ضمن ما قذفته معدتها. ضنّت المرأة أنّها تقيّأت الإبرة، فأحسّت بالرّاحة فورا.

29. رُوي لي أنّ أحد النبلاء استضاف مجموعة من الأصحاب لتناول العشاء، ثمّ ادّعى بعد ثلاثة أو أربعة أيّام، لمجرّد الهزل فقط (لأنّ ذلك لم يحصل)، أنّه أطعمهم قطّة في شكل فطيرة محشوّة. كان من بين الحضور آنسة، فلمّا بلغها الأمر تقزّزت وأصابها توعّك كبير في معدتها مصحوبا بحمّى، وساءت حالها ولم يتسنّ إنقاذها.

وحتّى الحيوانات نفسها تخضع لقوّة الخيال، وليس أدلّ على ذلك من الكلاب إذ تموت حزنا عندما تفقد سيّدها. قد نرى الكلاب تنبح وتهتزّ وهي تحلم، ونرى الأحصنة تصهل وتتخبّط وهي تحلم أيضا.

30. لكن قد يُعزى كلّ ذلك إلى العلاقة الوثيقة بين الرّوح والجسم، إذ يتواصلان. وقد نلاحظ أمرا آخر، وهو أنّ الخيال قد يسلك أحيانا، ليس ضدّ جسمه فحسب، بل كذلك ضدّ جسم الغير؛ كما نلاحظ أنّ الجسم قد ينقل داءه إلى الجسم المجاور، مثلما نرى زمن الطاعون أو الجدري أو أمراض العيون المعدية،

«عندما تنظر إلى العيون المريضة، تمرض عيونك،
أمراض كثيرة تنتقل هكذا من جسم إلى آخر»

[Ovide, « Remède D'amour », 615-16]

31. وقد يرسل الخيال أيضا، إذا ما اهتزّ بعنف، سهاما قادرة على التأثير في جسم خارجي. من ذلك أنّ بعض النّساء «السيتيات» كنّ في القديم، إذا غضبن وثُرن على شخص ما، قتلنه بنظرة واحدة. ومن ذلك أيضا أنّ السلحفاة والنعامة تحضنان بيضهما بمجرّد النظر إليه، ما يدلّ على أنّ لعينيهما قدرة على القذف المنوي. أمّا عن السّحرة، فيقال إنّ أعينهم ضارّة خطيرة.

«لا أدري أيّ عين تسحر خرفاني الطريّة»

[Virgile, Églogues, II, 615]

32. في اعتقادي أنّ ما يعرضه علينا السّحرة ليس مضمونا. إلّا أنّ التجربة تثبت أنّ بعض النّساء يرسمن على أجسام أطفالهنّ علامات لما يدور بخيالهنّ: شأن التي أنجبت طفلا أسود. كما حدث أن استقبل شارل، ملك بوهيميا، فتاة من منطقة بيزا، كثّة الشعر شعثاء؛ وادّعت أمّها أنّها وُلدت هكذا بسبب صورة القدّيس يوحنا المعمدان التي كانت معلّقة فوق فراشها.

33. وكذا شأن الحيوانات، بشهادة خرفان يعقوب، والحجل الطائر والأرانب البرّية التي تعيش في الجبال وتبيضّ بفعل الثلوج. وقد شاهدتُ في الأيّام الماضية، في منزلي، قطّا يتربّص بعصفور رابض فوق شجرة، فتقاطع نظرهما برهة من الزمن، فهوى العصفور وسقط ميّتا بين أقدام القطّ، بسبب الاضطراب الذي ألحقه به خياله أو بسبب قوّة جاذبة لدى القطّ. ولا شكّ أنّ المولعين بتربية الصقور قد سمعوا عن مربّي البأز الذي، إذا رأى حَدَأة في السّماء، حدّق إليها وراهن أنّ باستطاعته أن يجلبها إلى الأرض بمجرّد قوّة بصره؛ وقيل إنّه كان ينجح في ذلك.

34. تعود المسؤولية عن الرّوايات التي أنقلها إلى الرّواة أنفسهم. وتقوم الأفكار التي هي من لدُني على حجج عقليّة، لا على التجربة. ويبقى بوسع كلّ واحد أن يضيف

إليها من الأمثلة التي يملكها؛ أمّا الذي لا يملك أمثلة، فليعلم أنّها موجودة، نظرا إلى كثرة الأحداث وتنوّعها.

35. إن كنت لا أشرح جيّدا، يمكن أن ينوب عنّي شخص آخر. ففي الموضوع الذي أعالجه وأتطرّق فيه لطبائعنا وانفعالاتنا، أستعمل الشهادات التي أستمدّها من الحكايات والخرافات كما لو كانت صادقة، لكن بشرط أن تكون جائزة. أحَدث ذلك أم لم يحدث، في روما أم في باريس، لجان أم لبيار، فإنّ ما حدث يبقى مثالا لما يمكن أن يحدث للنّاس، وهو مثال أستفيد منه كثيرا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ومن بين الروايات المتباينة للأحداث التي تصلني، أختار أقلّها رواجا وأشدّها رسوخا في الذاكرة. قد تكون غاية بعض المؤلّفين هي سرد الأحداث. أمّا غايتي أنا، إن كنت بلغتُها، فهي أن أقول ماذا عسى أن يحدث...

36. يجوز، في إطار المدرسة والتعليم، أن نفترض وجود أوجه للتشابه في حين أنّها غير موجودة. أمّا أنا فلا أفعل، بل إنّ دقّتي وأمانتي التاريخية تفوقان كلّ أمانة ودقّة. وإنّي في الأمثلة التي انتقيتها هنا ممّا قرأتُ أو سمعت أو فعلت أو قُلت، لم أجرؤ أبدا على تغيير أيّ ظرف من الظروف وإن كان تافها ولا يعني شيئا. إنّ ضميري لا يسمح لي بالتزوير قيد أنملة؛ أمّا معرفتي، فلا أدري.

37. وفي هذا الصّدد، سألت نفسي أحيانا ما إذا كانت كتابة التاريخ تناسب رجل اللّاهوت أو الفيلسوف، هذان من يتّسمان بصرامة الضمير والحكمة. إذ كيف يمكن أن يرهنا كلامهما بكلام عامّة النّاس؟ كيف يتعهّدان بأفكار أناس غرباء وكيف يسلّمان بافتراضاتهم دون تأكُّد؟ لا شكّ أنّهما سيرفضان أن يشهدا أمام القاضي، تحت القَسم، على أعمال متعدّدة حُشرا فيها حشرا. ولا يوجد من هو قريب منهما لدرجة أنّهما يتعهّدان بصدق نواياه تماما. إنّي أجد أقلّ مجازفة في الكتابة عن الأحداث الماضية ممّا عن الراهنة: إذ أكون ملتزما فقط بحقائق آخذُها من غيري وأستعيرها.

38. طلب منّي بعضهم أن أكتب عن الأحداث الراهنة، لكوني أراها بعين صادقة أكثر من غيري، فضلا عن كوني أعاينها من قرب، باعتبار العلاقات التي شاءت الصّدف أن أربطها مع رؤساء الأحزاب المختلفة. إلّا أنّ ما غاب عنهم هو أنّني، حتى لو نِلت بذلك ما ناله سالوست (Salluste) من مجدٍ، لن أفعل ولن أرهق نفسي، لأنّني عدوٌّ لدودٌ للالتزام والمواظبة والمثابرة. فأسلوبي غريب تماما عن السّرد مهما كان طوله: إذ غالبا ما أنقطع لانقطاع نفَسي، ولا أجيد التحرير ولا التحليل، وجهلي يفوق جهل الأطفال للكلمات والجمل التي تُستعمل في الأوضاع المألوفة.

39 وعلى هذا اقتصرت على قول ما أحسن قوله، وطوّعت الموضوع قدر ما

استطعت. فلو اخترتُ موضوعا ليقودني، لجاز أن يكون مقياسي غير ملائم لمقياسه؛ وبما أنّني متشبّث بحرّيتي، روّجتُ بمحض إرادتي أحكاما يراها الآخرون غير مشروعة وتستحقّ العقاب. قد يقول بلوتارخوس عمّا أنجزه إنّه من إنجاز شخص آخر إذا كانت الأمثلة الواردة فيه دائما صادقة، لكن قد يقول إنّه من إنجازه الشخصي إذا نظرنا إلى ما في هذه الأمثلة من إفادة للأجيال القادمة وإذا تمّ عرضها بما يفتح على الفضيلة.

أن تكون أحداث الرواية القديمة صادقة أو كاذبة، فهذا لا يشكّل خطرا كخطر العقاقير الطبّية.

الفصل الحادي والعشرون

ما ينفع بعضهم قد يضرّ ببعضهم الآخر

1. أدان ديماديس (Démadès) الأثيني أحد رجال مدينته لأنّه احترف بيع ضروريات الجنازة والدّفن، بحجّة أنّه كان يجني من ذلك فائدة كبيرة، وأنّ هذه الفائدة إنّما تأتيه على حساب موت الكثير من النّاس. يبدو هذا الحكم مجحفا، لأنّ كلّ فائدة إنّما تتحقّق على حساب الغير؛ وإلّا فيجب إدانة كلّ أنواع الفائدة والربح.

2. يحقّق التاجر صفقات مربحة بفضل فجور الشباب، والفلّاح بفضل أسعار القمح المرتفعة، والمهندس المعماري بفضل تداعي المنازل وانهيارها، وضبّاط العدالة بفضل المحاكمات والنزاعات بين النّاس. وحتّى رتبة الأساقفة ووظيفتهم إنّما تُبنى على أمواتنا ورذائلنا. وكما قال مؤلّف هزليّ يوناني قديم، لا يسعد طبيب برؤية النّاس في صحّة جيّدة، ولو كانوا من أصدقائه؛ ولا يسعد جنديّ برؤية السّلم مستتبًّا؛ وهكذا دواليك.

3. أسوأ من ذلك: تأمّلوا في أنفسكم وسترون أنّ أمنياتكم العميقة إنّما تنشأ وتنمو على حساب الآخرين. لمّا فكّرتُ في الأمر مليّا، بان لي بوضوح أنّ الطبيعة لا تتخلّف عن قانونها العام، إذ يرى علماؤها أنّ ولادة كلّ شيء ونموّه وتطوّره إنّما يصحبه دائما فساد شيء آخر وانحلاله.

«فكلّما تحوّل شيء وخرج عن حدوده،
على الفور يفنى الشيء السابق على وجوده»

[Lucrèce, II, 753 ; III, 519]

الفصل الثاني والعشرون

عن العادات، وفي كوننا لا نغيّر بسهولة قانونا تمّ إقراره

1. يبدو لي أنّ الذي اختلق الحكاية التي سأرويها[1] قد أدرك جيّدا معنى قوّة العادة، إذ جاء فيها أنّ قرويّة تعوّدت على ملامسة عجل وحمله بين يديها منذ ولادته، وأنّها نجحت بالعادة والتعوّد في الإبقاء على هذا السلوك حتّى بعد أن كبر. ذلك لأنّ العادة إنّما هي في الحقيقة مدرّسة عنيفة غدّارة. فهي تسرّب فينا نفوذها رويدا رويدا دون أن نشعر، وبعد هذه البداية الناعمة والمتواضعة، تعزّز هذا النفوذ وتبلوره مع مرور الزمن، ثمّ تكشّف عن وجهها الساخط المستبدّ الذي لم تعُد لنا حتّى حرّية التحديق فيه؛ وهكذا فهي في جميع الحالات تخرق قوانين الطبيعة:

«إنّما العادة هي الحاكم الأعظم في الأشياء جميعا»

[Pline L'ancien, *Hist. Natur.*, XXV, 2.]

2. هاهنا أدرك ما قاله أفلاطون عن «الكهف» في محاورة الجمهورية[2]، كما أفهم الأطبّاء الذين غالبا ما يتخلّون عن طرائق فنّهم لصالح ما يملكه هذا الفنّ من سلطان وسيادة. فهذا ملكٌ عاش على مبادئه الخاصة وعوّد معدته على تناول السّم. وذاك ألبير الكبير يحكي عن فتاة تعوّدت أن تعيش بأكل العنكبوت. ويُروى أنّ شعوبا كبيرة تعيش في الهند الجديدة[3]، في مناخات متنوّعة، تقتات العنكبوت وتجعل منه مؤونتها، بل تقوم بتربيته مثلما تفعل أيضا بالجراد والنّمل والعظاية والخفّاش. وبيعَ ضفدعٌ بستّة ريالات في زمن المجاعة. إنّهم يطبخون كلّ ذلك ويعدّونه مع مرق من مختلف الأنواع. كما عُثر على شعوب تأكل لحومًا وأطعمة سامّة قاتلة لنا.

«كم يكون مفعول العادة عظيما! إذ يمضي الصيّادون لياليهم بين الثلوج؛ وتحت شمس الجبال يحترقون؛ والمصارعون تجرحم الكفوف الجلديّة ولا يتبرّمون حتّى»

[Cicéron, *Tusculanes*, II, 17]

(1) هو بلينيوس الأكبر، التاريخ الطبيعي، XXV, 2

(2) راجع الباب السابع من محاورة الجمهورية.

(3) المقصود هنا بالهند الجديدة هي أمريكا.



3. ولئن تعلقت هذه الأمثلة بالغرباء عنّا، أنّها ليست أمثلة غريبة، سيّما إذا اعتبرنا كم نصبر ونتحمّل أحيانا، وكم يؤثّر فينا التعوّد. لسنا بحاجة إلى أن نسمع عن المتساكنين بجوار شلّالات نهر النّيل، ولا عمّا يقوله الفلاسفة عن الموسيقى السّماوية. بشأن هذه الأخيرة، نعلم أنّ الأجسام الصّلبة المصقولة، التي تحوم في مدارات، عندما يمسّ بعضها بعضا وتحتكّ، تخلق انسجامًا رائعًا تحكم موازينه وإيقاعاته حركات الأفلاك الراقصة. كما نعلم أنّ آذان مخلوقات هذا العالم تكون عمومًا في حالة نعاس، كآذان المصريين، بسبب استمرار هذا النّغم، فتعجز عن إدراكه مهما علا.

4. لو كان الحدّاد والطحّان وصانع الأسلحة يدركون الأصوات مثلنا، لما تحمّلوها. وصدرتي المعطّرة تفوح في أنفي، لكن لو حملتها ثلاثة أيّام متتالية، ما بقيت تفوح إلّا في أنوف الحاضرين. والأغرب من ذلك هو أنّه، رغم الفواصل وفترات الانقطاع، تطبع العادة أثرها في حواسّنا، مثلما يعلم ذلك مجاورو برج الأجراس. إنّي أقيم في برج، حيث يدقّ ناقوس «تحيّة جبرائيل للعذراء»، فجر كلّ يوم وساعة الغروب. هذا الضجيج يهزّ البرج هزّا، وكنت أجده في الأوّل مزعجا للغاية. لكن بعد مدّة قصيرة تعوّدت عليه حتّى أصبحت أسمعه دون انتباه، بل في الغالب دون أن يوقظني من نومي.

5. أنّب أفلاطون طفلا كان يلعب بالنّرد، فأجابه: «أنت تلومني على أمر تافه»، فردّ أفلاطون: «التعوّد ليس أمرا تافهًا يستهان به»[1].

أعتقد أنّ أكبر رذائلنا تنشأ فينا منذ نعومة أَظْفَارِنا، وأنّ تكوين مزاجنا يتمّ بين أحضان مربّياتنا. قد تتسلّى الأمّ بمشاهدة ابنها يلوي عنق دجاجة أو يعذّب كلبًا أو قطّا. والأب الذي يشاهد ابنه يضرب فلّاحًا أو خادمًا على غير حقّ ويعتبر ذلك إيذانًا برباطة الجأش، أو يرى علامة فِطنة في غدره لصديقه وافترائه عليه، إنّما هو أب أحمق.

6. تلك هي البذور الحقيقية لقسوة القلب وللطغيان والغدر: تنبت هناك، وتنمو وتترعرع، ثمّ يقوى عودها بفضل العادة والتعوّد. وليس من تربية أخطر من التي تتسامح مع تلك الاستعدادات المقيتة إذ تعلّلها بصغر السّن وبساطة الأخطاء وتفاهتها. وذلك أوّلا لأنّ الطبيعة هي التي تتحدّث، وصوتها رقيق بسيط بقدر ما هو ضعيف وجديد. وثانيا لأنّ قبح الغدر والخداع لا يتعلّق بموضوعهما، أكان هو المال أم الفاصولياء، بقدر ما هو قائم فيهما بالذات.

7. أرى من الأصلح أن أختم بالقول: «لماذا لا يغشّ في المال، ما دام يغشّ في

---

(1) رواه في الأصل ديوجين اللايرسي (Diogène Laërce)، «*سِيَر مشاهير الفلاسفة، مذاهبهم وأقوالهم*»، *III، 38*.

الفاصولياء؟»، بدل أن أقول مثلهم: «إنّه لا يغشّ إلّا في الفاصولياء، أمّا في المال فلن يغشّ». يجب أن نعلّم الأطفال استهجان الرذائل نفسها وإدراك القبح المتأصّل فيها، حتى لا يكون نفورهم من نتائجها فحسب، وإنّما أيضا لأجل ما في قلوبهم تجاهها. بل يجب أن يستفظعوا حتّى مجرّد التفكير فيها، مهما كان القناع الذي تتزيّن به.

8. كنت دائما أسعى، في أيّام الطفولة، إلى السّير مستقيما في الدروب الواسعة، وكنت دائما أنفر من الغشّ أو المكر في اللّعب. ولمّا كانت ألعاب الأطفال أكثر من مجرّد ألعاب، باعتبارها في نظرهم أعمالا جدّية إلى أقصى حدّ، فإنّك تراني اليوم أشعر بنفور شديد من كلّ غشّ في كلّ ألعاب التّسلية، وهو عندي شعور باطني وميل طبيعي عفوي. قد ألعب لعبة الورق مع زوجتي وابنتي ويكون الرّهان بعض الفلوس، وسواء كنتُ لا أبالي بالخسارة والربح أو تحمّستُ حقّا للّعب، فإنّني أعدّ للرّهان عدّته كما لو تعلّق بريالات. هكذا أنا دائما في كلّ شيء، أتمسّك بواجبي واحترمه أيّما احترام.

9. شاهدت حيث أنزل رجلا قصيرا من مواليد مدينة نانت (Nantes)، وُلد بلا ذراعين وتعوّد على استعمال قدميه بدل يديه، حتّى كاد قدماه أن يغفلا عن وظيفتهما الطبيعية، بل صار يسمّيهما «يداي»: كان بهما يقطع، ويشحن بندقيته ويفرغها، ويخيط بالإبرة، ويكتب، وينزع قبّعته، ويمشط شعره، ويلعب بالورق والنّرد ويحرّكهما بمهارة كأيٍّ إنسان. أعطيته مالاً فأخذه بقدمه مثلما نفعل بأيدينا. وفي صباي، شاهدت شخصا آخر يستعمل سيفا بمقبضين وطَبَرًا مستطيلًا، كان يمسكهما في ثنية عنقه إذ كان فاقدا يديه، يرميهما في الهواء ثمّ يمسكهما، ثمّ يرمي خنجرا ويضرب بالسّوط تماما مثلما يفعل سائق عربة في فرنسا.

10. لكن يمكن أن نتبيّن بصورة أفضل تأثير العادة عندما ننظر إلى ما تتركه من انطباعات غريبة في عقولنا حيث لا تجد مقاومة كبيرة. فما هو تأثيرها في أحكامنا ومعتقداتنا؟ أترك جانبا الأكاذيب الفاحشة لأدياننا، التي ارتوَت بها أممٌ عظيمة وشخصيّات بارزة، لأنّ هذا المجال يخرج عن دائرة العقل وقد نتسامح مع من يتيه في غياهبه إن لم يكن يحظى بنور ربّاني. لكن إذا استثنينا ذلك فهل يوجد رأي، مهما كان غريبا، لم ترسّخه العادة ولم تؤسّسه بفضل القوانين في المناطق التي تريد؟ ولذا صدق من صدح قديما:

«أليس من المخجل بالنّسبة إلى الفيزيائي الذي يتمثّل دوره في ملاحظة الطبيعة وإمعان النظر فيها، أن يطلب من عقول مائلة إلى العادة شهادة على الحقيقة !»

[Cicéron, *De La Nature Des Dieux*, I, XXX]

11. لا شيء يخطر على بال الإنسان من أفكار جنونيّة إلّا ووجدتَ له أمثلة على أرض الواقع، يؤسّس لها العقل ويوجبها. فعند بعض الشعوب، يشيح المرء بوجهه عن الآخر تحيّةً له، ولا ينظر أبدا إلى من يُرجى تكريمه؛ وعند قوم، إذا بصق الملك مدّت إليه أفضل محظيّاته في البلاط يدها؛ وعند قوم آخر، ينحني أعظم أفراد الحاشية إلى الأرض ويلتقطون فضلاته في منديل.

12. أستسمحكم هنا كي أسرد عليكم ما يلي: كان أحد النبلاء يتمخّط دائما بيَده (وهذا مخالف تماما لعاداتنا). وكان إذا أراد أن يبرّر صنيعه يسألني (وكان مشهودًا له بالفكاهة) عمّا تتميّز به هذه الفضلة القذرة حتّى نخصّص لها منديلا ناعما نتلقّفها فيه، بل حتّى نقرطسها ونضمّها إلينا. فهذا مقزّز أكثر من إفراغها في أيّ مكان مثلما نفعل بكلّ فضلاتنا الأخرى. وجدتُ كلامه معقولا؛ إذ جعلتني العادة لا أنتبه إلى مثل هذا الأمر العجيب، والحال أنّنا نستقبح دائما ما نراه عجيبًا في البلدان الأخرى.

13. ليس في الطبيعة معجزات، بل المعجزات تنشأ من جهلنا للطبيعة. إنّ التعوّد يُضعف ملَكة الحكم عندنا. وليس استغرابنا من المتوحّشين أعظم من استغرابهم منّا؛ بل من السذاجة أن نستغرب منهم لو عُدنا فقط إلى ذواتنا وأمعنّا النظر في أنفسنا. إنّ عقل الإنسان هو خلاصة متوازنة لآرائنا وأحكامنا مهما تنوّعت أشكالها؛ فمادّته لا متناهية، وتنوّعه لا محدود.

14. لكن أعود إلى حديثي. هناك شعوب لا يخاطب أفرادها الملك إلّا عن طريق واسطة، باستثناء زوجته وأبنائه. وقد ترى، في نفس الأمّة، العذارى يكشفن عن فروجهنّ، بينما المتزوّجات يتستّرن بكلّ عناية. وفي بلد آخر، تكون العفّة مطلوبة وقت الزفاف لا غير، حيث يمكن للفتاة أن تمنح جسدها بكامل الحرّية، فإذا حملت أمكنها الإجهاض بفضل الأدوية المناسبة وعلى مرأى من الجميع. وإذا كان العريس تاجرًا، فإنّ كلّ التجّار المدعوّين يضاجعون العروس قبله؛ وكلّما زاد عددهم، عظم شرفها وعُرفت بالشدّة والاقتدار. وإذا كان العريس ضابطا، جرى عليه الشيء نفسه. وكذلك الحال إذا كان من النبلاء. وهكذا بالنسبة إلى الجميع، باستثناء الفلّاح أو السوقيّ، إذ في هذه الحالة تكون الأولويّة للسيّد والمولى. ورغم كلّ هذا، يظلّ الإخلاص في الزواج من أشدّ الثوابت...

15. توجد في بعض البلدان مواخير عموميّة للرّجال، وحتّى زواج فيما بينهم؛ وحيث ترى النّساء يذهبنَ إلى الحرب صحبة أزواجهنّ، ليس فقط للمشاركة في المعارك بل أيضا لقيادتها؛ وحيث يعلّق النّاس في أنوفهم خواتم، كما في شفاههم وخدودهم وأصابع أرجلهم، كما يعلّقون أيضا حليًا ثقيلا من الذهب في حلماتهم وفي أردافهم؛ وحيث يمسحون أصابعهم، بعد الأكل، في أفخاذهم وفي خصيتيهم وفي باطن قدميهم؛

وحيث لا يرث الأبناء وإنّما الإخوة وأبناء الإخوة؛ وفي بلد آخر يرث أبناء الإخوة دون سواهم، ما عدا ما يتعلّق بتركة الأمير، إذ يكون تنظيم الأملاك الشائعة على يد كبار القضاة الذين يتكفّلون معا بزراعة الأراضي وتوزيع ثمارها وفق حاجيات الأفراد.

16. وحيث يُبكى على وفاة الأطفال ويُحتفل بوفاة الشيوخ؛ وحيث ينام عشرة رجال أو إثنا عشر في الفراش نفسه مع نسائهم؛ وحيث يجوز للمرأة التي فقدت بعلها في حادث عنيف أن تتزوّج من جديد، أمّا غيرها فلا؛ وحيث يكون وضع المرأة مزريا لدرجة أنّه يتمّ وأد البنات وابتياع النّساء من الشعوب المجاورة عند الحاجة؛ وحيث يجوز للرّجال تطليق زوجاتهم دون سبب، بينما لا يجوز للنّساء مغادرة أزواجهنّ مهما كان السبب؛ وحيث يحقّ للزوج بيع زوجته إذا كانت عاقرا؛ وحيث يطبخ النّاس جسم المتوفّى ويهرسونه حتّى يتحوّل إلى نوع من العصيدة فيخلطونها مع الخمر ويتناولونها؛ وحيث يكون أفضل من الدّفن أن يُقدَّم الميّت طعاما للكلاب والطّيور.

17. وحيث يُعتقد أنّ الأنفس السعيدة تعيش حرّة طليقة في فراديس لذيذة توجد فيها كلّ أنواع المتعة، وأنّها مصدر الأصداء التي تصل إلى مسامعنا؛ وحيث يتصارع الرّجال ويتراشقون بالسّهام وهم يعومون في الماء؛ وحيث تكون علامة التّبعية والخضوع عند الدخول على الملك برفع الكتفين وطأطأة الرّأس ونزع الحذاء؛ وحيث تُقطع أنوف وشفاه الخصيان الذين يحرسون الرّاهبات حتّى لا يقعن في عشقهم؛ وحيث يفقأ الكهنة عيونهم كي يتواصلوا مع الشياطين ويتقبّلوا منهم الوحي؛ وحيث يجعل كلّ واحد إلهًا من الشيء الذي يروق له، كالصيّاد من الثعلب أو الأسد أو السمك، وحيث تصبح كلّ مأثرة من مآثر الإنسان معبودًا من معبوداته؛ وحيث تكون الشمس والقمر والأرض هي الآلهة الرئيسية، فيكون القسَم بلمس الأرض والتحديق إلى الشمس؛ وحيث تؤكل اللّحوم والأسماك نيّئة.

18. شعوب حيث يكون القسَم باسم شخص متوفّى اعترافٌ بسمعته الطيّبة، مع وضع اليَد على قبره؛ وأخرى حيث تكون هدايا العام الجديد التي يرسلها الملك إلى أتباعه الخادمين له هي من النّار، فإذا جيء بها أُطفئت كلّ النيران القديمة وأقبلت الشعوب المجاورة لتناول جمرة من الجديدة وإشعال نار خاصّة بها وإلّا اتُّهمت بالطعن في الذات الملكية؛ أو حيث إذا تخلّى الملك عن مهامّه من أجل الصّلاة والعبادة، وهو ما يحصل غالبا، وجب على خليفته أن يسلك نفس السلوك وأن يترك الحكم لخليفة آخر؛ أو حيث يقع تغيير أشكال الحكم حسب ما تقتضيه الأوضاع: فتقع تنحية الملك إذا اقتضى الأمر، ويتمّ تعويضه بأحد الذين سبقوه على رأس الدولة، أو يقع التنازل عن السلطة لصالح الشعب.

19. وشعوب يقع فيها ختان الذكور والإناث وتعميدهم بنفس الطريقة؛ وحيث يُرفع الجندي إلى مرتبة النبلاء إذا حارب واستطاع أن يقدّم للملك سبعة من رؤوس الأعداء؛ وحيث يعتقد النّاس - وهذا أمر نادر وليس في صالح الحياة الاجتماعية - في فناء النّفوس؛ وحيث تلد المرأة دون أن تفزع أو تشتكي؛ وحيث تحمل في ساقيها واقية من النّحاس، أو حيث إذا لدغتها قملة كان من واجب الشهامة أن تلدغها بدورها؛ وحيث لا تتزوّج قبل أن تهدي عذريتها للملك إذا طاب له ذلك؛ وحيث يحيّي النّاس بعضهم بعضًا بوضع إصبعهم على الأرض ثمّ برفعه نحو السّماء؛ وحيث يضع الرّجال الحمولة فوق رؤوسهم بينما تضعها النّساء على أكتافهنّ؛ وحيث تتبوّل المرأة واقفة ويتبوّل الرّجل جالسا القرفصاء؛ وحيث يرسلون دمهم كعربون صداقة، ويشعلون البخور تمجيدا لبعضهم مثلما يفعلون للآلهة؛ وحيث يُمنع زواج الأقارب، لا فقط حتى الدرجة الرابعة، بل هو محظور تماما؛ وحيث يرضع الأطفال حتى الرابعة من عمرهم، بل غالبًا حتى الثانية عشر، بينما في نفس البلد يعتبر إرضاع الطفل في اليوم الأوّل من حياته أمرًا قاتلا؛ وحيث يتكفّل الآباء بمعاقبة الذكور من أبنائهم، ويُترك أمر الإناث للأمّهات؛ ويتمثل العقاب في تعليقهم من أقدامهم وتدخينهم.

20. شعب تُختن فيه النّساء؛ ويأكل كلّ أنواع الأعشاب باستثناء ما كانت رائحته كريهة؛ شعب يترك كلّ شيء مفتوحا: فالمنازل، مهما كان جمالها وثراؤها، لليس فيها أبوابا ولا نوافذ، ولا صناديق مغلوقة، وحيث يعاقَب اللّصوص ضِعف العقاب المألوف في بلد آخر؛ وحيث يُقتل القمل بالأسنان مثلما تفعل قرود الماكاك ويُستقبح محقها بالأظافر؛ وحيث لا يقع قصّ الشعر والأظافر مدى الحياة، في حين يقع في بلد آخر قصّ أظافر اليد اليُمنى فقط مع الإبقاء على نموّ الأظافر في اليسرى علامةً على النموّ والتميّز؛ وحيث يقع قصّ شعر الرأس من الجهة اليسرى وتركه في الجهة اليمنى؛ وفي المقاطعات المجاورة، بعضها يترك الشعر ينمو من الأمام، وبعضها من الخلف، ويقع حلق الجهة المقابلة. ويوجد شعب حيث يعير الآباء أبناءهم والأزواج نساءهم إلى الضيوف، لكن بمقابل؛ وحيث يجوز للرّجل أن ينجب أطفالا من أمّه، كما يجوز للآباء مضاجعة بناتهم وحتى أبنائهم؛ وحيث تقام المآدب والولائم ويعير الحاضرون أبناءهم بعضهم إلى بعض بغضّ النظر عن مسألة القرابة.

21. هنا يؤكل لحم البشر؛ وهناك يُقتل الأب في عمر معيّن، وهي علامة من علامات التقوى؛ وفي مكان آخر يعيِّن الآباء مَنْ مِن الأبناء يودّون حفظهم وإطعامهم ومن يريدون التخلّي عنهم وقتلهم بينما لا يزالون في بطون أمّهاتهم؛ هنا يَعرض الشيوخ نساءهم على الشباب، وهناك تكون النّساء مشترَكة بين الجميع وليس في ذلك إثم،

بل إنّهنّ في بعض البلدان يحملن على طرف فساتينهنّ، كعلامة شرف، من الشُرّابات والأهداب بقدر عدد الرجال الذين ضاجعوهنّ.

22. ألم تفرض العادة أيضا قيام جمهورية من النّساء؟ ألم تضع بين أيديهنّ سلاحا وترفع منهنّ جيوشا لخوض المعارك؟ أليس ما تعجز الفلسفة عن تلقينه لأكثر النّاس حكمة، قد تلقّنه العادة وتفرضه على أكثر النّاس غِلظة وفظاظة؟

23. هناك شعوب لا تستخفّ بالموت فحسب، بل تقيم له المحافل؛ حيث يتحمّل أطفال في السابعة من العمر الجلد حتّى الموت، دون أن يظهر شيء على ملامحهم؛ وحيث يُحتقَر المال لدرجة أنّ أكثر المواطنين بؤسا يأبى أن ينحني لالتقاط كيس من النقود؛ وبلغَنا أنّه في بعض المناطق الخصبة التي تتوفّر فيها كلّ الخيرات، يبقى مع ذلك أفضل طعام وألذّه هو الخبز والماء وحبّ الرشاد.

24. ألم تكن العادة سببا في معجزة مدينة شييو (Chio) [1]، حيث مرّت مائة سنة دون أن تخلّ فتاة أو امرأة بشرفها؟ على العموم يبدو لي أنّ العادة تقدر على كلّ شيء. ولعلّ بندار (Pindare) كان على حقّ لمّا أطلق عليها: إمبراطورة العالم ومولاته. كان يضرب أباه، فلمّا سئل عن ذلك أجاب بأنّها في عائلته عادةٌ، وأنّ أباه كان يضرب أباه، وجدّه كان بدوره يضرب أباه؛ ثمّ أشار إلى ابنه وقال: «وذاك سيضربني عندما يبلغ عمري».

25. ولكُم مثال الأب الذي كان ابنه يجرّه من تلابيبه ويعامله بقسوة، فطلب منه أن يتوقّف أمام باب معيّن، لأنّه هو الآخر قد جرّ أباه حتى هذا الحدّ الذي ينبغي أن تقف عنده المعاملات الوراثية السيّئة، التي جرت العادة في الأسرة أن يعامِل بها الأبناء آباءهم.

26. وكما لاحظ أرسطو، لقد جرت العادة عند بعض النّساء، مثلما يحدث في حالة المرض، أن ينتشن شعورهنّ، يقضمن أظافرهنّ ويأكلن الفحم والتراب. كما جرت العادة، أكثر ممّا جرت به الطبيعة، أن يعاشر الرّجال بعضهم بعضا.

27. ولا شكّ أنّ قوانين الضمير التي ننسبها إلى الطبيعة، إنّما هي تنشأ من العادات والتقاليد: إذ يقدّس كلّ واحد، في داخله، الآراء والعادات السائدة حواليه، ولا يمكنه أن يتخلّى عنها دون أن يندم، ولا أن يمتثل لها دون أن يستحسنها.

28. كان الكريتيون في العصور القديمة إذا لعنوا شخصًا طلبوا من الآلهة أن تبتليه بعادة قبيحة.

29. أمّا أعظم ما في العادة فهو أنّها تمسك بنا وتضغط علينا لدرجة أنّنا نكاد لا نستطيع أن نتخلّص منها وأن نعود إلى ذواتنا للتأمّل والتفكير في ما تفرضه علينا.

---

(1) شييو أو شيوس (Chio - Chios) جزيرة في بحر إيجه، قرب السواحل التركية.

30. وفعلا، لمّا كنّا نمتصّ العادات مع الحليب منذ الرضاعة، ولمّا كان العالَم يظهر لنا على نحو ما يظهر للوهلة الأولى، فإنّه يبدو أنّنا جُعلنا لرؤية الأشياء على هذا النّحو. وهكذا تبدو لنا الآراء السائدة التي نجدها جاهزة من حوالينا، والتي نفثها آباؤنا في عقولنا مع الحيوانات المنويّة، طبيعيّة وكونيّة.

31. وعلى ذلك يظنّ بعضهم أنّ كلّ ما يكون خارج حدود العادة والتقليد يكون خارج حدود العقل: يعلم الربّ كم أنّ هذه الفكرة رعناء!

لو كان كلّ واحد ينسج على منوالنا نحن، إذ تعلّمنا بعدما درسنا أنفسنا كيف ينبغي أن نسلك، لكان كلّما أصغى إلى فكرة صادقة إلّا وتساءل على الفور فيما تعنيه هو شخصيّا، ولأدرك أنّ هذه الفكرة ليست مجرّد كلمة جيّدة بقدر ما هي صفعة سوط في وجه حُكمه الأخرق. إلّا أنّنا نتقبّل الحقائق على أنّها موجّهة للجميع، ونغفل عن أنّها موجّهة إلينا أيضا. وعوض العمل على مقتضاها، نحشرها في حافظتنا، بحُمق وبلا جدوى. لكن لنعُد مجدّدا إلى سلطة العادة وقدرتها.

32. تنظر الشعوب التي تربّت على الحرّية واعتادت أن تحكم نفسها بنفسها إلى كلّ أنواع الحكم الأخرى على أنّها متوحّشة ومناقضة للطبيعة. ويفكّر الذين تعوّدوا على العيش في ظلّ الحكم الملكي بنفس الطريقة. ومهما واتاهم الحظّ كي يغيّروا أوضاعهم بعد أن جاهدوا في سبيل أن يتحرّروا من سلطة غاشم، فإنّهم سرعان ما ينصّبون حاكما جديدا لا يقلّ عن السابق جورًا.

والسبب هو أنّهم لا يجرؤون على كره السلطة نفسها.

إنّ العادة هي التي تجعل كلّ واحد يرضى بالمكان الذي وضعته فيه الطبيعة: فالمتوحّشون من اسكتلندا لا حاجة لهم بتورين (Touraine)، ولا السيثيون (Scythes) في ثيساليا (Thessalie).

33. سأل داريوس بعض اليونانيين عن الثّمن الذي قد يطلبونه مقابل أن يسلكوا على منوال أهالي الهند الذين يأكلون آباءهم الميّتين (كان ذلك من تقاليدهم، لأنّهم لم يروا أفضل من أن يَقبِروا آباءهم في ذواتهم)؛ فكان جوابهم بالرّفض، مهما كان الثّمن. ولمّا حاول من جهة أخرى أن يقنع الهنود بالتخلّي عن عاداتهم وأن ينسجوا على منوال اليونانيين الذين يحرقون جثث آبائهم، استفظعوا الأمر أكثر. هكذا يكون ردُّ فعلنا جميعا، لأنّ العادة تخفي عنّا الوجه الحقيقي للأشياء.

«لا شيء ممّا يكون عظيما مدهشا في الأوّل،
إلّا وكفّ شيئا فشيئا عن إدهاشنا»

[Lucrèce, II, 1023]

34. كُلّفت ذات مرّة بإرساء بعض التقاليد التي تُعتبر حجّة حتّى خارج دوائرنا، ولمّا كنت لا أرغب في فرضها بالعِبرة وبقوّة القانون مثلما كان يجري به العمل، بحثت في أصولها فتبيّنتُ هشاشتها حتّى كدتُ أتخلّى عنها رغم أنّ مهمّتي كانت أن أعزّز مقامها لدى الآخرين.

35. كانت وصفة أفلاطون الرئيسية من أجل القضاء على الشذوذ الجنسي المنافي للطبيعة هي كالآتي: أن يدينها الرّأي العام ويشجبها الشعراء ويستنكرها كلّ إنسان. فبهذه الطريقة، لن تجلب الحسناوات الجميلات عشق آبائهنّ، ولن يستثير الإخوة الذكور، مهما بلغت وسامتهم، حبّ أخواتهم، وستولّد خرافات ثياست (Thyeste) وأوديب وماكاري(Macarée)، بجمال أبياتها الشعرية، الاشمئزاز في أمخاخ الأطفال الطيّعة.

36. الحياء فضيلة جميلة لا يشكّ أحد في منافعها؛ لكن إذا كان من الصّعب أن نبحث لها عن مصدر في الطبيعة، فإنّه من السهل أن نعلّلها بالتقليد والعادة والقوانين الأخلاقية. لقد وجد أساتذتنا صعوبة جمّة في تقصّي مبادئها الكلّية، ما جعلهم يتصفّحونها بسرعة ولا يجيلون فيها النظر، ويحتمون بحجّة العادة، وهنا ينتفخ ريشهم وينتصرون بسهولة.

37. إنّ الذين لا يريدون أن يتيهوا بعيدا عن المنبع الأصلي، يكون خطأهم أعظم ويضطرّون إلى تبنّي آراء متوحّشة، مثل كريزيبوس (Chrysippe) الذي أعلن في مختلف كتاباته عن قلّة اكتراثه بنكاح المحارم.

كلّ من يريد أن يتجرّد من العادات المشحونة بالأحكام المسبقة يكتشف أنّ العديد من الأمور التي تلقّاها دون أدنى نقاش لا تستند إلى غير اللّحية البيضاء وتجاعيد الوجه؛ فإذا نزع هذا القناع وعادت الأمور إلى شمس الحقيقة ونور العقل، شعر بحصول انقلاب في أحكامه التي تغدو قائمة على أسس صلبة متينة.

38. قد أسأله مثلا إذا كان يوجد شيء أكثر غرابة من شعب يُرغم على الانصياع إلى شرائع لا يفقهها بالمرّة، شعب يخضع في شؤونه المنزلية كما في الأعراس والهبات والوصايا والبيوعات والشراءات، إلى قواعد لا يعلمها لأنّها غير مكتوبة ولا منشورة بلغته، ما يجعله مجبرا على ابتياع تفسيرها وكيفية استعمالها.

39. إنّنا لا نعمل هكذا وفق فكرة إيزوقراطس (Isocrates) الذكيّة التي أشار بها على الملك، إذ دعاه إلى أن يحرّر المعاملات التجارية بين رعاياه وأن يعفيها من الضرائب ويجعلها مربحة، بينما دعاه من جهة أخرى إلى فرض ضرائب ثقيلة على الخصومات والنزاعات المترتبة على هذه المعاملات. بل بالعكس، نعمل هكذا وفق نهج موحش يؤدّي إلى طرح العقل نفسه في قارعة السّوق وإلى تسعير القوانين مثلما تُسعّر البضائع !

شكرًا للقدر الذي جعل، حسب المؤرّخين، أحد نبلاء غاسكونيا (Gascogne) أوّل من عارض سعي شارلمان إلى أن يفرض علينا قوانين لاتينية وإمبراطورية.

40. هل هناك أمّة متوحّشة أكثر من التي تكون فيها المتاجرة بوظيفة القضاء تقليدا مشروعا؟ ويُدفع فيها مقابل الأحكام القضائية نقدًا؟ ولا يُنصف فيها من كان عاجزا عن الدفع؟ ويكون القضاء فيها بضاعة ممتازة، بحيث تنشأ في المجتمع سلطة رابعة تتكوّن من أصحاب المهارة في التقاضي والترافع والمحاكمة، إضافة إلى السُّلطات التقليدية الثلاث: الكنيسة، والنبلاء، والشعب؟ وحيث تكوّن هذه السلطة الرابعة، المكلَّفة بالقوانين وذات السيادة العليا على الأملاك والأرواح، جسدا مستقلّا عن طبقة النبلاء؟

41. يوجد نوعان من القوانين: قوانين الشرف، وقوانين العدالة، وقد تتناقض في مواضع كثيرة. فقوانين الشرف تدين بشدّة السكوت عن الإهانة، وقوانين العدالة تدين بشدّة الثأر لها بالسلاح. في الحالة الأولى، يفقد حامل السلاح، الذي يقبل بالإهانة، شرفه ولا يستحقّ النبالة، وفي الحالة الثانية يتعرّض من يثأر للإهانة إلى الحكم بالإعدام. إنّ الذي يرفع دعوى قانونية ضدّ من أهان شرفه، يفقد شرفه، والذي لا يرفع دعوى يجازى ويعاقَب باسم القانون. هاتان الفئتان المتباينتان، رغم أنّهما تنضويان تحت لواء ملك واحد، تسعى إحداهما إلى السّلم والأخرى إلى الحرب، إحداهما إلى الرّبح والثانية إلى الشرف، إحداهما إلى المعرفة والأخرى إلى البسالة في الحرب، تلك إلى الكلام وهذه إلى العمل، تلك إلى العدل وهذه إلى المروءة، تلك إلى العقل وهذه إلى القوّة، تلك إلى لباس المحاماة وهذه إلى لباس القضاء...

42. أمّا عن الأشياء الأقلّ أهمّية، كالثياب التي قد يحصرها بعضهم في وظيفتها، ألا وهي راحة الجسم، وهو ما يفسّر نعومتها ورفاهتها، فإنّي أقول إنّ أكثرها غرابة هي تلك القلنسوات المربّعة، وذلك الذّيل الطويل من المخمل المطويّ المتدلّي من رؤوس نسائنا مع لواحقه المزركشة، وذلك الثوب عديم الفائدة الذي يُقوْلب عضوًا نستحي من تسميته إلّا أنّنا نعرضه أمام العموم.

43. إلّا أنّ هذه الاعتبارات لا تلهي رجلا حصيفا عن الامتثال للمألوف، بل يبدو لي على العكس أنّ كلّ التصرّفات الغريبة أو الشاذّة إنّما تعود إلى التصنّع أو إلى الخفّة والخطل أكثر منه إلى العقل السليم. فلئن رام الحكيم الانطواء على نفسه، بعيدا عن الجمهور، من أجل أن يحكم على الأشياء بحرّية تامّة، إلّا أنّه ينبغي أن يسلك في الظاهر وفق العادات والتقاليد المألوفة. فالمجتمع لا حاجة له بما نفكّر؛ وإنّما المطلوب هو أن نوفّق ونوائم بين أفعالنا وأعمالنا وأوضاعنا وحياتنا الخاصة، وبين مصلحة المجتمع والآراء الشائعة فيه، مثل ما أقدم عليه سقراط، ذلك الرجل العظيم الطيّب، لمّا رفض أن

ينجو بحياته بعصيان السلطة العامّة وإن كانت غير منصفة وغاشمة (37 ,22 .I). إذ تلك هي قاعدة القواعد، وذاك هو قانون القوانين: فعلى كلّ امرئ أن يمتثل لقوانين المكان الذي فيه يقيم:

«*يجب أن نطيع قوانين بلدنا*»

[Sentences Grecques, Éd. Crispin]

44. إليكم أشياء من تخميرة أخرى.

إنّ تغيير القانون الجاري، مهما كان نوعه، لا ينفع بقدر ما يضرّ. ذلك لأنّ المنظومة السياسية هي بناية تتكوّن من أجزاء مترابطة بحيث يتعذّر تحريك بعضها دون المسّ بسلامة البناية كلّها. لقد أصدر مشرّع الثّورينيين[1] أمرا يُعرَض بمقتضاه، كلّ من تسوّل له نفسه بإلغاء قانون قديم وتعويضه بآخر جديد، أمام النّاس مشدودا بحبل في عنقه، حتّى إذا لم يحظ القانون الجديد بموافقة الجميع، تمّ شنقه فورا. أمّا مشرّع لاقيديمونيا (Lacédémone) [2] فقد قضّى حياته وهو يطلب من مواطنيه وعدًا صادقًا بأن لا يخرقوا أوامره أبدا.

45. لم يعبَأ «الإيفور» [3] الإسبرطي، الذي قطع الوترين اللّذين أضافهما فرينيس (Phrinys) إلى الموسيقى، بما إذا كانت تلك الإضافة قد حسّنت حقّا من الموسيقى واكتملت بها الهرمنة: بل كان يكفيه، لإدانتهما، أن يرى في إضافتهما إفسادا للموسيقى القديمة. وكانت هذه دلالة سيف العدالة الصّدئ بمرسيليا.

46. أشعر بالتقزّز من كلّ جديد، مهما كان، وحُججي على ذلك كثيرة، لأنّني عاينت مضارّه بنفسي. الجديد الذي يقهرنا منذ سنوات[4] ليس هو المسؤول عن كلّ شيء، لكن من المحتمل جدّا أنّه، عرَضًا، أنتج كلّ شيء، حتّى الشرّ والدّمار الحاصلين من دونه، بل الحاصلين ضدّه: فاللّوم إنّما يقع عليه:

---

(1) هم أهالي مدينة ثوريون (Thurion Thourioi Thurium)، التي تقع في يونان القديمة، جنوب منطقة إبيروس (Epire Épeiros)، وهي منقسمة حاليّا بين اليونان وألبانيا؛ المشرّع المقصود هو زالوكوس (Zaleucos).

(2) هو ليكورغوس (Lycurgue).

(3) «الإيفور» Éphores إدارة تتكوّن من خمسة قضاة منتخبين سنويّا في مدينة إسبرطة. وكانت سلطة «الإيفور» موازنة لسلطة الملك ومجلس الشيوخ. نشأت، حسب بلوتارخوس، 130 سنة بعد حكم ليكورغوس، ثمّ ألغيت في سنة 227 ق.م.

(4) يقصد حركة الإصلاح الدّيني (la Réforme).

«وا حسرتاه، إنّ سهامي هي سبب جروحي»

[Ovide, Héroïdes, Épîtres De Phyllis À Démophon]

47. إنّ أوّل من يتضرّر من خراب الدولة هو من تسبّب فيه. وإنّ من يبادر بخلق الفوضى لا يجني منها ربحا: بل إنّه يحرّك الماء ويعكّره لصالح صيّادين آخرين. لقد فسدت وحدة النظام الملكي، خاصة في أيّامه الأخيرة، وتخلخلت بنيته، بسبب ما طرأ من جديد، فظهرت فتحات ومداخل لشتى أنواع الخراب. قد يكون هبوط جلالة الملك من القمّة إلى الوسط عصيّا أكثر من سقوطه من الوسط إلى الأسفل.

48. لكن إذا كان المبدعون أكثر إيذاء، فإنّ المقلّدين أكثر فسادًا، لأنّهم ينسجون على منوالٍ سبق أن استفظعوه وأدانوه. فإذا كان هناك من يستحقّ درجة من المجد والشرف، وإن اقترف الشرّ، فإنّ المجد يعود إلى الذين أبدعوا واستبسلوا قبل غيرهم.

وتجد كلّ الاضطرابات الجديدة مرتعًا لها في ذلك المصدر الخصب الأوّل، كما تستلهم منه الأشكال والنماذج التي تسمح بإحداث الفوضى في المجتمع. وقد نجد حتى في قوانيننا، إذ جُعلت لمعالجة هذا الشرّ الأوّل، المنهج الذي لا بدّ منه والأعذار اللّازمة للسّير وراء شتّى المبادرات الفاسدة. فيحدث نفس ما حدث في الحروب الأهليّة التي أشار إليها توقيديدس (Thucydide) في عصره، حيث كان يُطلَق على الرذائل العمومية، تخفيفًا من قبحها، أسماء جديدة أكثر عذوبة، كما لو كان للبحث عن أعذار لها ولتلطيفها. ويكون ذلك بحجّة إصلاح ضمائرنا ومعتقداتنا. قد تكون الحجّة شريفة (I. 22, 48)، إلا أنّ أفضل حجّة للإبداع والتجديد لا تخلو من الخطر.

«بالتأكيد، لا يستحقّ أيّ تغيير للمؤسّسات العريقة أن يحظى بالمصادقة عليه»

[Tite-Live, XXXIV, 54]

49. يبدو لي، بصراحة، أنّنا من شدّة كبريائنا وغطرستنا، نتمسّك بآرائنا ونسعى إلى نصرتها ولو كان ذلك بقلب النّظام العام وبالتسبّب في شتّى المصائب، كالفساد الأخلاقي الذي يترتّب على الحروب الأهليّة، والتحوّلات الجذرية التي تطرأ على أهمّ الأشياء: وقد يحصل كلّ هذا في بلدنا نحن بالذات. أليس تدبيرًا فاسدًا أن نفسح المجال لمثل هذه الرذائل الواضحة والمؤكَّدة، في سبيل محاربة أخطاء مرفوضة وقابلة للنقاش؟ هل ثمّة رذائل أشدّ فظاعة من التي تصدم ضمائرنا ومشاعرنا الطبيعية؟

50. في الخلاف الذي نشأ بين الشعب ومجلس الشيوخ حول الوظيفة الكهنوتية، قرّر المجلس أنّ هذا الأمر يخصّ الآلهة نفسها، وأنّها ستسهر على سلامة عبادتها. وفي معنى قريب من هذا أجاب الوسيط الرّوحاني أهالي دلفي بخصوص الحرب ضدّ

الميديين (Les Mèdes)، إذ كانوا يخشون الغزو الفارسي فطلبوا من الإله ماذا ينبغي أن يفعلوا بكنوز معبده المقدّسة، أيخفونها أم يحملونها؟ أجابهم بألّا يلمسوا شيئا وأن يعتنوا بأنفسهم فقط، لأنّه يستطيع تدبّر أمره بنفسه.

51. توجد في الدّيانة المسيحية كلّ علامات العدالة القصوى والإفادة القصوى؛ لكن لا توجد علامة أشدّ وضوحًا وبداهة من تلك التي توصي بطاعة السّلطة والمحافظة على النّظام القائم. يا لروعة المثال الذي قدّمته لنا الحكمة الإلهية! إذ لئن كانت غايتها تحقيق الخلاص للنّوع البشري والانتصار المجيد على الموت والخطيئة، إلّا أنّها أبت إلّا أن تسلك طبقًا لمنظومتنا السياسية، فجعلت غايتها النبيلة المحقّقة للخلاص ترضخ أمام عاداتنا وتقاليدنا الغاشمة العمياء؛ تركت الدّماء تسيل، دماء من اصطفتهم وأنعمَت عليهم بحظوتها، وآثرت أن تمضي سنين طويلة في إنضاج تلك الثمرة النفيسة جدًّا: ألا وهي خلاصنا!

52. هناك فرق شاسع بين من يتبع تقاليد بلده وقوانينها، ومن يسعى إلى معالجتها وتغييرها. حجّة الأوّل هي التواضع، والطاعة، والاعتبار بالأقدمين؛ ومهما فعل، لا يمكنه أن يقترف شرًّا، بل أقصى ما قد يقترفه يكون محزنًا لا غير.

«إذ من سيستهتر بأثر قديم أثبتته وحفظته لنا شهادات باهرة؟»

[Cicéron, *De Divinatione*, I, 11]

53. وعلاوة على ذلك، كما قال إيزوقراط (Isocrate)، فإنّه يوجد في الاعتدال من العجز والتقصير أكثر ممّا يوجد من الإفراط. وإنّ من يريد تغيير كلّ شيء قد يجد نفسه في موقف أصعب، لأنّ الذي يدأب على الاختيار والتغيير إنّما هو يضع نفسه موضع الحاكم، ولا بدّ له إذّاك من إثبات قدرته على التمييز بين الشرّ الذي يقصيه والخير الذي يطلبه. وها هو ذا القرار البسيط الذي اتّخذته فعزّز موقفي، بل كبح حماسة الشباب التي تحرّكني: يجب أن لا أثقل كاهلي وآخذ على عاتقي مهمّة الحديث في موضوع خطير، والحال أنّني لا أجرؤ حتّى على الحديث بكلّ أريحية في المواضيع وفي المجالات التي أعلمها جيّدا والتي لا تكون فيها جرأة الحُكم سببا في إيذائي.

54. إذ يبدو لي من المشين جدّا أن نخضع القوانين والتقاليد العمومية الثابتة لنزوة فردية طارئة (لأنّ العقل الفردي لا يملك إلّا قيمة فردية) وأن نتعامل مع القوانين الإلهية بما لا يتحمّله أيّ مجتمع حيال القوانين الإنسانية؛ فحتّى إذا كان تعامل عقل الإنسان مع هذه الأخيرة يفوق تعامله مع الأولى، فإنّها تبقى مع ذلك صاحبة القرار والحكم في من يحكم بها؛ وينبغي أن تفيد معرفتها الدقيقة في شرح استعمالها عُرفا وتقليدا مع توسيع أفق هذا الاستعمال، لا في تحويل اتّجاهها وتعويضها بأخرى.

55. وإذا كانت العناية الإلهية تخرق أحيانا القوانين التي ألزمَتنا بها، فليس معنى ذلك أنّها تعفينا منها؛ بل هي من تدخّلاتها التي ينبغي أن نعجب بها، لا أن نقلّدها؛ إنّما هي أمثلة رائعة تعبّر عن مشيئة الله، كالخوارق التي تشهد على قدرته العظيمة الفائقة جدّا لقدرتنا الخاصة. إنّ تقليدها جنون، بل كفر؛ يجب أن نقتصر على تأمّلها بإعجاب شديد، لا أن نسعى إلى اقتفاء أثرها؛ إنّ آثارها تعود إليها، ليس إلينا.

56. قال كوتا (Cotta) في مقام مناسب لهذا الموضوع: «حجّتي في مجال الدّين هم: ت. كورنكانيوس (T. Coruncanius) وب. سكيبيو (P. Scipion) وب. سيفولا (P. Scevola) وكبار الكهنة، وليس زينون (Zénon) وكليانتس (Cléanthe) أو كريزيبوس (Chrysippe) [1]».

57. يعلم الله: في الخصومة القائمة بيننا حاليا (I. 22, 54)، بشأن إزالة مائة بند من بنود العقيدة وتعويضها، كم هو عدد الذين يزعمون أنّهم فحصوا بكامل الدقّة دواعي هذا الفريق أو ذاك؟ عددهم لا يربكنا بالمرّة. لكن جمهرة الآخرين، ما هو رأيهم؟ وتحت أيّ راية يقفون؟ إنّ العلاج الذي يقدّمونه لا يختلف عن الأدوية الضعيفة السيّئة الاستعمال: فهو يُحمي ويحمّض ويثير ما كان ينبغي أن يطهّره، ويستقرّ في جسدنا؛ ضُعفه يمنعه من أن يطهّرنا، لكنّه يضعفنا؛ بحيث نعجز عن التخلّص منه ولا نجني من تدخّله غير عذابات باطنية مستمرّة.

58. إلّا أنّ القدر، إذ يفوق حُكمه حُكم خطاباتنا، يرغم القوانين على أن تفسح مجالًا للضروري وللأكيد والعاجل؛ وعندما نصمد أمام التجديد الذي يُفرض بالقوّة، قد يضطرّنا تفاوت القوى إلى ملازمة التحفّظ والاحترام إزاء أولئك الذين يتصرّفون بحرّية تامّة، إذ قد يكتب لهم تحقيق أهدافهم، وإذ لا قانون لهم ولا قاعدة سوى مصلحتهم الخاصة.

«أن تثق بماكر خدّاع، كأنّك تمنحه أدوات إيذائك»

[Sénèque, *Œdipe*, III, 686]

59. سيّما وأنّ الدولة المعافاة لا تكترث بتلك العوارض الطارئة: لأنّها تفترض أنّ أعضاء جسدها ووظائفه في حالة استقرار، وأنّه يوجد إجماع على الامتثال لقوانينه وإطاعتها. إنّ السلوك المشروع سلوك هادئ متّزن مقيَّد، وقد لا يستطيع الوقوف بحزم في وجه السلوك المحموم الحرّ.

---

(1) زينون (Zénon) هو مؤسّس المدرسة الرواقية (Stoïcisme)، وكليانتس وكريزيبوس (Cléanthe – Chrysippe) هما أوّل من خلف بيرون (Pyrrhon) على رأس المدرسة الشكّية (Scepticisme).

60. لا يزال يُلام على العظيمين أوكتافيوس وكاتون (Caton) كونهما، في الحروب الأهلية لسيلّا (Sylla) وقيصر، تسبّبا لبلدهما في أخطار كبيرة عوض أن يدأبا على إنقاذه ولو كان على حساب قوانينه، وذلك بتغيير نظام الأشياء. لأنّ في الواقع، عندما يصل الأمر إلى أشدّه، ولا يبقى مجال للمقاومة، يغدو من الحكمة إحناء الرّأس وتحمّل الضربات، أفضل من العناد والتعنّت وفسح المجال هكذا لعفس كلّ شيء تحت الأقدام. قد يكون من الأفضل أن نجعل القوانين تريد ما تستطيعه، عندما لا تستطيع ما تريده. هذا ما فعله ذلك الذي أمر بتعليقها مدّة أربع وعشرين ساعة، وذلك الذي غيّر يوما في التقويم الزمني، وذلك الذي جعل من شهر جوان شهر ماي مكرَّرا.

61. اللّوقيديمونيون_(Lacédémoniens) أنفسهم، رغم احترامهم الشّديد لقوانين بلدهم، انزعجوا من القانون الذي يمنع انتخاب نفس الشخص أميرالًا مرّتين على التوالي، والحال أنّ أوضاعهم تقتضي بالضرورة أن يتقدّم ليزاندر (Lysandre) مجدّدا لهذه المهمّة، فما كان عليهم إلّا أن عيّنوا فيها شخصا يُدعى أراكوس (Aracus)، لكن عيّنوا معه ليزاندر مراقبًا للبحرية. كما أنّهم توخّوا حيلة مماثلة لمّا أرسلوا سفيرهم إلى الأثينيين في طلب تغيير بعض القوانين، حيث زعم بريكلاس (Périclès) أنّه من الممنوع إزالة لوحة كتب عليها القانون، فأشار إليه السفير بأن يديرها فقط، إذ ليس هذا ممنوعا.

وقال بلوتارخوس في مدح فيلوبيمان (Philopoemen) إنّه وُلد لكي يحكم، إلّا أنّه لم يقتصر على الحكم بمقتضى القوانين، بل كان يحكم في القوانين ذاتها كلّما اقتضت المصلحة العامّة.

الفصل الثالث والعشرون

نتائج متباينة للمشروع نفسه

1. روى لي جاك آميو (Jacques Amyot)، مرشد ملك فرنسا، ما جرى لأحد أمرائنا (كان منّا ولنا، وإن كان من أصل أجنبيّ). فإبّان الحصار الصّعب لمدينة روان (Rouen)، أشعرت والدة الملك هذا الأمير بوجود من يتربّص به الدوائر، كما أعلمته في رسائلها بهويّة من عُيّن لاغتياله (هو نبيل أصيل مدينة آنجو (Anjou) أو مانس (Mans)، تَقرّب منه لهذه الغاية). كتم الأمير الأمر، لكن بينما كان يتجوّل في اليوم التالي في جبل سانت كاترين، حيث تُطلق مدافعنا في اتجاه روان التي كنّا نحاصرها، وإذ كان مصحوبا بآميو وقسّ آخر، شاهد الرّجل الذي عُيّن لاغتياله، فناداه.

2. لمّا حضر إليه، رآه ممتقع الوجه مرتعدًا مضطربًا، فقال له: «سيّدي، لا شكّ أنّك فهمت لماذا ناديتك، فملامحك تدلّ على ذلك. ليس بوسعك أن تخفي عنّي أيّ شيء، لأنّني على علم بقضيّتك وإذا حاولت الإنكار لن تفلح إلّا في فضح نفسك أكثر. تعلمْ أنّ... وتعلم كذلك أنّ... (مداخل المؤامرة ومخارجها الأكثر سرّية). عليك إذن أن تعترف بالحقيقة كاملة».

3. لمّا أدرك المسكين أنّه وقع في الفخّ ولا مفرّ له (لأنّ أحد المتواطئين معه كشف كلّ شيء للملكة)، جمع يديه وطلب العفو والرّحمة من الأمير. أراد أن يركع أمامه، لكنّ الأمير (اسمه غيز Guise) أوقفه وقال: «أجبني: هل آذيتك يوما؟ هل أظهرتُ يوما كرهًا خاصّا لأحد أقربائك؟ عرفتك منذ ثلاثة أسابيع ليس أكثر، فما الذي جعلك ترغب في موتي؟». أجاب الرّجل بصوت مرتعش بأنّه لا يوجد أيّ دافع آخر لما كان سيقترفه سوى المصلحة العامّة لحزبه، إذ تمّ إقناعه بأنّ الإيمان والتّقوى يفرضان عليه القضاء بأيّ طريقة كانت على عدوّ عظيم لديانتهم مثله.

4. استطرد الأمير: «سأثبت لك الآن مدى لطف الدّيانة التي أعتنقها بالمقارنة مع ديانتكم. فديانتكم أشارت لكم باغتيالي دون الإصغاء إليّ، رغم أنّي لم أتعدَّ على أحدكم أبدا؛ أمّا ديانتي فتأمرني بالصّفح عنكم إذ اردتم قتلي دون سبب. غُر من وجهي، وارحل بعيدا، لم أعد أرغب في رؤيتك هنا؛ كن عاقلا في المستقبل ولا تأخذ بنصائح أمثال الذين نصحوك».

5. كان الإمبراطور أوغست في بلاد الغال لمّا تمّ إعلامه بوجود مكيدة تُدبّر ضدّه من طرف ل. سينا (L. Cinna)، فقرّر أن ينتقم منه. في اليوم التالي، جلس مع أصدقائه، بعد ليلة قضّاها على أحرّ من جمر اللّظى، إذ كان يفكّر في قتل شابّ في مقتبل العمر، من نسب طيّب وابن أخ بومبي العظيم. كان يقول منتحِبًا: «كيف هذا! هل كتب لي أن أعيش خائفًا مرتابًا، بينما يتجوّل قاتلي على راحته؟ هل سأتركه طليقا مُعفى بعد أن هاجمني، أنا الذي نجوت من الحروب الأهليّة ومن المعارك برّا وبحرا؟ أنا الذي فرضت السّلم في العالم، فهل سأعفو عمّن عزم على قتلي، بل على أن يجعلني قُربانًا؟» (إذ فعلًا كان في مخطّط المؤامرة أن يقع اغتياله أثناء تقديمه للقرابين).

6. لازم الصمت برهة من الزمن، ثمّ أعاد الكرّة بصوت مرتفع راميا اللّوم على نفسه: «لماذا تحيا، إذا كان أناس بهذا العدد يرغبون في موتك؟ أما من نهاية لانتقامك وقسوتك؟ هل تستحقّ حياتك أن تحفظها مقابل كلّ هذا الشّر؟». أحسّت زوجته ليفيا (Livia) بضيقه وقلقه فقالت له: «أتسمع رأي امرأة؟ افعل ما يفعله الطبيب عندما لا يجدي الدّواء المألوف نفعًا: إنّه يجرّب عكسه. فأنت حتى اليوم لم تجن من قسوتك شيئا: لبيوس اتّبع سافدينيوس؛ ومورينا اتّبع ليبيوس؛ وكيبيون، مورينا؛ وإغناتوس، كيبيون. حاول إذن أن تجرّب اللّطف والرّحمة. أمّا سينا فقد أفحمته: فاصفح عنه ولن يؤذيك بعد الآن، بل سيخدمك ويقف معك».

7. سرَّ أوغست لتفهّم زوجته، فشكرها وألغى الاجتماع الذي دعا إليه أصدقاءه، واستدعى سينا للمثول أمامه وجها لوجه. طلب من الجميع مغادرة القاعة وأعطى مقعدا لسينا وقال له: «أطلب منك أوّلا أن تصغي إليّ بهدوء، فلا تقاطعني وسأعطيك الوقت الكافي لتجيبني. أنت تعلم أنّني وجدتك في صفّ أعدائي، لا فقط لكونك نصبت نفسك عدوّا لي وإنّما لكونك نشأت بينهم، فأبقيتك حيّا. استرجعتَ أملاكك وأصبحت تعيش في رفاهة حتّى أنّ الغالبين أنفسهم أصبحوا يحسدون المغلوب على نعيمه. منحتك الكهنوت الذي طلبته، والحال أنّني رفضته لآخرين ممّن وقف آباؤهم إلى جانبي أيّام الحرب. وبعد كلّ هذه الإحظاء ها أنت تخطّط لاغتيالي».

8. صاح سينا وأنكر أنّه فكّر يوما في أمر مشين كهذا، فاستطرد أوغست وقال: «إنّك لا تفي بوعدك، يا سينا؛ لقد وعدتَ بألّا تقاطعني. بلى، فأنت وضعت مخطّطا لاغتيالي في مكان معيّن وفي يوم معيّن، كما في صحبة شخص معيّن وبطريقة معيّنة». أصابه الذهول وأفحمته الدّلائل، وانعقد لسانه عن الكلام، فواصل أوغست: «لمَ قمت بهذا؟ ألأجل أن تصبح إمبراطورًا؟ هناك بالتأكيد خللٌ ما في الدولة إن كان لا يوجد غيري أنا للوقوف ضدّ طمعك في السلطة العليا».

9. «أنت عاجز حتّى عن الدفاع عن بيتك، كما أنّك خسرت مؤخّرا قضيّة ضدّ عبدٍ عتيق. ماذا؟ هل أنت فاقد لكلّ سلطة حتّى ترغب في اغتصاب سلطتي؟ إن كنتُ أنا وحدي أعوق طموحك، فإنّي أتنازل لك عنها. أتظنّ أنّ بول وفابيوس والكوسيين (Cosséens) والسرفيليين (Serviliens) سيدعمونك، ومعهم حشد النبلاء، الذين ليسوا نبلاء فقط بالإسم وإنّما هم أصحاب مروءة وشرف؟». وبعد أن خاطبه هكذا لأكثر من ساعتين، قال له أخيرا: «هيّا، يا سينا، سأتركك تعيش، مع أنّك خائن وأردت قتل وليّ أمرك، مثلما تركتك في الماضي مع أنّك كنت عدوّا لي. ليكن هذا اليوم بداية صداقتنا، ولننظر مَنْ منّا سيثبت حسن نيّته أكثر، أنا الذي تركتك تعيش أم أنت الذي بقيت حيًّا».

10. بعد هذه الكلمات، تفارقا. وبعد مدّة، جعله قنصلا، ولامه على كونه لم يجرؤ على طلب هذه الوظيفة. ثمّ جعل منه صديقا، بل عيّنه وريثا وحيدا له. ومذّاك، أي منذ كان أوغست في سنّ الأربعين، لم يتعرّض لأيّ مؤامرة، جزاء حِلمه ورحمته. إلّا أنّ مصير الأمير كان مختلفا: إذ إنه رغم العطف والإحسان الذي لقيه، ما لبث أن وقع في فخّ الغدر والخيانة. من البيّن إذن أنّ الحكمة الإنسانية تافهة لا قيمة لها؛ إذ رغم ما نخطّط له من مشاريع ورغم تفكّراتنا واحترازاتنا، يظلّ القدر هو سيّد الأحداث.

11. نقول عن الأطبّاء لقد حالفهم الحظّ عندما ينجحون في أعمالهم؛ كما لو كان فنّهم وحده لا يكتفي بذاته، وكما لو كان عاجزًا عن التعويل على قدراته الخاصة بسبب هشاشة قواعده؛ كما لو كان فنّهم وحده يحتاج إلى الحظّ ليحقّق أهدافه.

قد يكون رأيي في الطبّ إيجابيا أو سلبيّا، لكن شكرا لله، لا تربطني به علاقة إطلاقا. فأنا على عكس الآخرين، عادة ما أزدريه، وعندما أكون مريضا، عوض أن أغيّر موقفي منه، أكرهه وأخشاه، وأجيب من يصرّ على أن يناولني الدّواء: «انتظر على الأقلّ أن أستعيد قواي

حتّى أقاوم آثار مشروبكم ومخاطره».

إنّي أترك الطبيعة تعمل؛ أعتقد أنّها تملك أسنانا ومخالب كي تدافع عن نفسها من الهجمات وكي لا تنخلع تركيبتها وتتخلخل... وإنّ أخشى ما أخشاه، عندما تكون بصدد مقاومة المرض فنسعى إلى مساعدتها، هو أنّنا هكذا قد نساعد خصمها ونثقل كاهلها بهموم جديدة.

12. يلعب الحظّ دورا هامّا في فنون كثيرة فضلا عن فنّ الطبّ. فالإلهام الشعري الذي يُلقي بصاحبه في حالة غيبوبة، إنّما هو يرتبط بالحظّ، إذ يعترف الشاعر نفسه بأنّه فائق لإمكاناته وقدراته وأنّها تأتيه من مصدر علويّ. وكذلك يزعم الخطباء أنّهم

لا يتحكّمون في تلك الحركات والاهتزازات الخارقة التي تدفعهم أبعد من أهدافهم. وكذلك في فنّ الرّسم أيضا، إذ تخرج ريشة الرسّام من حُكم يده وتتجاوز أفكاره وتصوّراته، ما يثير دهشته وإعجابه هو نفسه. ويمكن أن نتبيّن بوضوح أكبر نصيب الحظّ في هذه الفنون، بما نجده فيها من أناقة وجمال لم يتوقّعهما الفنّان نفسه، حتّى إنه لم يلحظهما. فقد يكتشف القارئ الذكيّ من الكمالات في كتابات الآخرين ما لم يفكّر أصحابها في وضعها، فيمنحها أشكالا ودلالات أكثر ثراء.

13. وكما يظهر للجميع، فإنّ الحظّ يلعب أيضا دورا كبيرا في الأعمال العسكرية. وفيما يتعلّق بتأمّلاتنا ومداولاتنا الخاصة، لا بدّ من وجود مزيج من الصّدفة والحظّ، لأنّ حكمتنا لا تقدر على كلّ شيء: إذ كلّما كانت ثاقبة وحادّة، كانت تشكو بعض الضّعف وكانت بالتّالي تحترز من نفسها. أنا على رأي سيلا: إذ عندما أمعن النظر في مآثر الحرب المجيدة، ألاحظ أنّ الذين يقودونها لا يفكّرون ولا يتداولون إلّا إرضاء لضميرهم، بينما يبقى القسط الكبير من أعمالهم مربوطا بالحظّ. إنّ ثقتهم به تتجاوز حدود المعقول؛ إذ تراهم يشعرون، بينما هم يتفكّرون، بمرَح طارئ وهيجان غريب يدفعهم في الغالب إلى تبنّي الموقف الأقلّ حصافة، بشجاعة تتجاوز حدود المعقول. لذلك كان يجب على العديد من كبار القادة في القديم، كي يبرّروا قراراتهم الجريئة، أن يوهموا النّاس بأنّه أوحي إليهم بها عن طريق علامات منذرة.

14. ولذا فإنّنا، عندما يتعذّر علينا رؤية ما يلائمنا أكثر واختياره، نقع في الشكّ والارتباك، بسبب الصعوبات المترتّبة عن الظروف والأحداث المختلفة التي تحفّ بكلّ شيء. ويبقى من الأفضل في رأيي، عندما لا نجد ما يقودنا إلى ما يلائمنا، أن نقف في صفّ من يكون أكثر نزاهة وعدلًا؛ وإذا انتابنا الشكّ في الطريق الأقصر، أن نختار دائما الصراط المستقيم. مثلما في ذينك المثالين اللّذين ذكرتهما: إذ لا جرم أنّ الذي تقبّل الإهانة كان أكثر مروءة وشهامة بعفوه ممّا لو تصرّف بطريقة أخرى. وإذا كان الوضع قد تغيّر إلى الأسوإ، بالنّسبة إلى الملك في المثال الأوّل، فإنّه لا ينبغي أن نؤاخذه على نواياه الطيّبة؛ لأنّه لا أحد يعلم ما إذا كان سيفلت من قدَره المحتوم لو أنّه قام بعكس ما اختاره؛ وحتّى لو أفلت، لكان خسر فرصة لإثبات إنسانيته المجيدة.

15. تطلعنا كتب التاريخ على عدّة أشخاص عاشوا في خوف شديد من اغتيالهم. ولقد آثروا في معظمهم أن يواجهوا المؤامرات التي تُحاك ضدّهم، بالانتقام والتعذيب. إلّا أنّ القليل منهم أفادوا من هذا العلاج، مثلما يشهد بذلك مصير العديد من أباطرة الرّومان. إنّ من يعيش تحت هذا النّوع من التهديد لا يمكنه أن يجد ضالّته في قوّته ولا في تيقّظه. إذ كيف سيحمي نفسه من عدوّ يظهر له بمظهر الصّديق الخدوم؟ وكيف

سيتعرّف على رغبات مساعديه ونواياهم الدّفينة. إذ مهما وظّف من المرتزقة لحمايته، ومهما كان عدد المسلّحين المحيطين به، فإنّ من لا يعبأ بحياته الخاصّة سيتحكّم دائما في حياة غيره. إنّ التظنّن، والارتياب المستمرّ، الذي يجعل الأمير لا يثق بأحد إنّما هو العذاب الأليم بعينه.

16. لسبب كهذا، لم يجرؤ ديون (Dion)، لمّا بلغه أنّ كاليب (Callipe) يتربّص به الدوائر، على تقصّي الأمر، زاعما أنّ الموت أهون عليه من العيش في وضع بائس، محترزًا من أصدقائه كاحترازه من أعدائه. ولقد وقف الإسكندر موقفا مماثلا، أكثر حزما وأكثر واقعيّة، لمّا بلغه، عن طريق رسالة من برمنيون (Parmenion)، أنّ طبيبه المفضّل فيليب أُغريَ برشوة من داريوس كي يدسَّ له السمّ. فبينما كان بصدد إطلاع فيليب على فحوى الرسالة، تناول المشروب الذي قُدّم له وشربه جرعة واحدة. هل يوجد بأس أشدّ من هذا للتعبير عن الرّضا بالموت متى كان الخلّان أنفسهم يريدونك أن تموت؟ إنّما الإسكندر هو مثال الحزم والمجازفة، وأظنّ أنّه لم يقم في حياته بعمل أكثر حزمًا ومجازفة وجمالًا ساطعًا من وجوه كثيرة.

17. إنّ الذين يشيرون على الأمراء بأن يتوخّوا الحذر الشديد من كلّ شيء حفاظا على أنفسهم، إنّما هم يحثّونهم على الخزي والدّمار؛ إذ لا يحصل الشرف دون مجازفة. أعرف واحدا، كان جَسورًا مقدامًا، إلّا أنّهم نكّدوا عليه عيشه كلّ يوم وحاولوا إقناعه بالانسحاب والبقاء مع ذويه، وبأن يرفض كلّ صلح مع أعدائه القدامى، وأن يبقى على حدة ولا يستجير بسواعد أقوى منه مهما كانت الوعود ومهما كانت الفائدة. وأعرف واحدا آخر تحسّنت أوضاعه لا لشيء إلّا لكونه اختار العكس.

18. تتجلّى الجرأة، وقت الحاجة، في أرقى درجاتها، أكنتَ ترتدي صدرة أو تحمل السّلاح، أكنت في شقّة أو في معسكر، أكان ذراعك يتدلّى أو كان مرفوعا. أمّا الحذر فهو، بلطفه وتيقّظه، العدوّ اللّدود للمشاريع الكبرى. لقد استطاع سكيبيو [1]، استجابة لرغبة سيفاكس (Syphax)، أن يغادر جيشه ويتخلّى عن إسبانيا التي لا تزال متململة بعد غزوها الحديث، وأن يعبر إلى إفريقيا على متن مركبتين بحريتين عاديتين للولوج في أراض عدوّة يحكمها ملك متوحّش لا أحد يعلم مدى صدقه وشرفه، دونما ضمانات ولا رهائن، معوِّلًا فقط على بَسالته، كما على حظّه وعلى أمل أن تتحقّق طموحاته البعيدة.

---

(1) هو سكيبيو الإفريقي Scipion l'Africain (240ق.م-183ق.م) قنصل وقائد روماني خلال الحرب البونيقية الثانية. اشتهر بانتصاره على حنّبعل في معركة زاما التي حسمت الحرب البونيقية الثانية، ومن هنا اكتسب لقبه «الإفريقي».

«إن الثقة التي نظهرها غالبًا ما تتطلب حسن النية».

[Tite-Live, XXII, 22]

19. لا يكترث من يحرّكه الطموح، على خلاف من يعيش بحذر، بالشّبهات والظّنون، وإنّما يقلّل من شأنهما: إنّ الخوف والاحتراز يحرّضان على الغدر ويستدعيانه. لقد استطاع أحد ملوكنا الأكثر احترازا وارتيابا أن يعيد الأمور إلى نصابها بأن وضع حياته وحرّيته بين أيدي أعدائه: إذ هكذا أثبت ثقته التامّة بهم، حتّى يثقوا فيه بدورهم.

أمّا قيصر، فقد وقف في وجه الفيالق المتمرّدة عليه، حاملًا وقاره وكبرياءه سلاحا وحيدا ضدّهم؛ وكانت ثقته عظيمة في نفسه، حتّى إنّه لم يخش الموازنة بين حظّه وبين جيش ثائر متمرّد.

«انتصبَ مستبسلا فوق ربوة،
لم يخش شيئا فكان مَخشيًّا»

[Lucain, *La Pharsale*, V, 316-318]

20. لكن لا شكّ أنّ هذه الثّقة في النّفس لا يمكن أن يتحلّى بها كاملةً وبشكل طبيعي إلّا من كان لا يهاب الموت ولا تخيفه فكرة الهلاك والنهاية. ذلك لأنّ السعي إلى الصُّلح قد لا يجدي نفعا إذا رافقه ارتعاد وارتجاف وتردّد. بينما على العكس، تكون أفضل طريقة لكسب مودّة الآخر والتأثير فيه هي الاستسلام له ووضع الثّقة فيه، بشرط أن يتمّ ذلك بكامل الحرّية ودون أيّ ضغط، وأن تكون الثقة تامّة، وألّا يرتسم على الجبين أيّ شعور بالحيرة والقلق.

21. شاهدت في طفولتي نبيلا معتمَدًا على مدينة كبيرة، كان في مواجهةٍ مع جمهور هائج متمرّد. أراد أن يطفئ نيران الفتنة، فخرج من المكان المحصّن الذي كان يختبئ فيه ووقف في وجه المتمرّدين، فلقي حتفه وكانت نهايته شنيعة. بيْد أنّ خطأه لا يتمثّل، في رأيي، في الخروج من مخبئه، مثلما يُعاب عليه ذلك عمومًا، بقدر ما يتمثّل في اختياره طريق الاستسلام والميوعة، وفي سعيه إلى تهدئة غيظ المتمرّدين بالركون إليهم لا بقيادتهم، وبالتوسّل لا بالمطالبة. وفي تقديري أنّه كان سيُكتب له النجاح، دون أن يفقد شرفه وكرامته، لو أنّه تحلّى بالوقار ووقف موقف الحاكم العسكريّ الواثق من نفسه، على الوجه الذي يليق برتبته وبالمهامّ المنوطة بعهدته.

22. لا يمكن أن ننتظر من حشد متهيّج كهذا سلوكا يتّسم بالرّفق والإنسانية؛ بل كلّ ما يقدر عليه هو الاحترام والخنوع. وإنّ ما أعيبه على ذلك الرّجل هو أنّه، بعد أن عزم، بنوع من التحدّي أكثر منه بشجاعة، أن يرمي بنفسه مجرّدًا من كلّ سلاح وفي حالة ضعف، في

خضمّ أفراد مضطربين لا يتحكّمون في أنفسهم، لم يبق على موقفه حتّى النهاية. إذ لمّا قرُب من الخطر، صار متواضعا متملّقا، ثمّ اعتراه الخوف وبان الفزع والنّدم في عينيه. حاول أن يفلت ويتخفّى كالأرنب، فزاد ذلك في هيجان المتمرّدين وملاحقتهم له.

23. كان الأمر يتعلّق ذات مرّة بعرض عامّ لمختلف الفرق المسلّحة. ويكون مثل هذا العرض مناسبة لتفجير الضّغائن الدفينة: إذ لا توجد مناسبة أخرى أفضل من هذه. كانت العلامات بيّنة على عدم ارتياح المشرفين على العرض، وكانت الآراء متباينة حول السلوك الذي لا بدّ من توخّيه في مثل هذا الوضع الذي ينبئ بالخطر. كان رأيي أنّه ينبغي أوّلا عدم إظهار أيّ علامة من علامات الخشية، ولا بدّ من البروز ومن الاختلاط بالعارضين، برأس مرفوع ووجه مكشوف، بدل الحذف من مراسم الاحتفال (كما يتمنّى البعض) لا بدّ، على العكس، أن يُطلب من القادة أن يشيروا إلى جنودهم بإطلاق النّار بدفعات قويّة جميلة تحيّة وإكراما للحاضرين، دون تقشّف في البارود. كان ذلك كافيا لرفع معنويات فيالق الجيش ولخلق مناخ من الثقة المتبادلة.

24. ويبدو لي أنّ الطريق الذي انتهجه يوليوس قيصر إنّما هو الأفضل في مثل هذه الأوضاع. كان أوّلا يرحم أعداءه ويصفح عنهم، جلبا لمحبّتهم؛ فإذا بلغه أنّ بعضهم يكيدون له الكيد، اقتصر على القول إنّه على علم بذلك. ولقد عزم على أمرٍ في منتهى النّبل والشّرف، وهو أن ينتظر بلا خوف ولا قلق ماذا عسى أن يحدث له، تاركًا نفسه في حماية الآلهة والقدر. ولا شكّ أنّه هكذا كان يفكّر لحظة اغتياله.

25. ادّعى رجل غريب، ونشر الخبر في كلّ مكان، أنّ بوسعه، مقابل مبلغ محترم، أن يمنح دنيس، طاغية سراقسطا، وسيلة للكشف بكلّ يقين عن المؤامرات التي قد تحاك ضدّه. فلمّا سمع دنيس بالأمر، استقدمه وطلب منه أن يكشف عن هذا الفنّ الضروري لبقائه. فقال له الغريب إنّه يتمثّل بكلّ بساطة في أن يهديه مقدارا من الذّهب وأن يفتخر بعد ذلك بأنّه اطّلع على سرّ رائع... استحسن دنيس هذه الفكرة وأهداه ستمائة ريال. ولمّا كان من غير المحتمَل أن يهدي مبلغا كبيرا كهذا لشخص غريب دون أن يكون قد كسب منه عِلمًا مفيدا، انتشر الخبر وظلّ أعداؤه يخشونه.

26. لسبب كهذا، يدأب الأمراء على ترويج ما يصلهم من أخبار عن المؤامرات التي تحاك ضدّهم، لكي يظنّ الجميع أنّهم على علم بكلّ ما يحدث ولا يفوتهم أمر.

أمّا دوق أثينا، فقد اقترف عدّة حماقات عندما أقام حكما مطلقا على مدينة فلورنسا؛ وأكبر هذه الحماقات ما يلي: لمّا بلغه أنّ الشعب يتآمر عليه، واعترف له بذلك ماتيو دي موروزو (Mattheo Di Morozo) الذي كان من بين المتآمرين، أعدمه حتى لا يتفشّى الخبر ولا يظنّ أحد في المدينة أنّ حكمه قاسٍ لا يُحتمل.

27. أذكر أنّني قرأت يوما قصّة رجل روماني من طبقة عالية، كان فارّا من طغيان الحكومة الثلاثية، فأفلت باستمرار من مطارديه بفضل دهائه ومكره، إلى أن حاصره ذات مرّة عدد من الفرسان المكلّفين بالقبض عليه، فمرّوا إلى جانب غابة كان يختبئ فيها وكادوا أن يكتشفوه. فكّر آنذاك في العذاب والصعوبات التي كان يتكبّدها منذ زمن طويل بسبب ملاحقته، وفي المتع القليلة التّافهة التي قد يأملها في حياة كالتي يحياها، فرأى أن يحسم الأمر هذه المرّة عوض أن يستمرّ في ذعره، فنادى الفرسان وكشف لهم عن مخبئه واستسلم لوحشيّتهم، إعفاء لهم ولنفسه من استمرار عذاب المطاردة.

28. أن نستدعي العدوّ، فهذا لا يخلو من الجرأة؛ لكن أعتقد أنّ ذلك أفضل من أن نعيش في خوف مستمرّ من وقوع ما لا تحمد عقباه. ولمّا كانت الاستعدادات التي يمكن أخذها في هذه الحالة يشملها الارتياب والقلق، فإنّه من الأفضل أن نستعدّ بحزم إلى كلّ ما قد يحدث؛ وأن نواسي أنفسنا بأننا لسنا على يقين من أنّ ذلك سيحدث.

الفصل الرابع والعشرون

عن التحذلق

1. غالبا ما كان ينتابني، في طفولتي، شعور بالغيظ ممّا كنت أشاهده في المسرحيّات الإيطالية، حيث يلعب المعلّم دائما دور الأحمق، ومن كون لقب «ماجستير» لم يكن له عندنا دلالة مشرّفة. وبما أنّني كنت أخضع لوصاية المعلّمين وتحت إشرافهم، كنت شديد الحرص على سمعتهم. كنت أبحث لهم عن الأعذار بإقامة فصل طبيعي بين السّوقة وبين الراسخين في المعرفة والعلم، ما يجعل هؤلاء وأولئك يسيرون في اتّجاهات مختلفة. لكن ما أدهشني حتّى كدتُ لا أفقه شيئا هو أنّ الأشخاص الأكثر تفوّقا وتميّزا هم بالذّات الذين كانوا يحتقرونهم أكثر، مثلما يشهد على ذلك قول صاحبنا دي بلّاي:

«أكره ما أكره العِلم المتحذلق»

[Du Bellay, *Les Regrets*, Sonnet 68.]

2. إنّ هذه العادة قديمة، إذ كانت كلمتا إغريقي وتلميذ، على حدّ قول بلوتارخوس، تعبّران عن الاستخفاف والاحتقار. وبعد أن تقدّمتُ في السنّ، وجدت هذا الرّأي محقّا، وأنّ «أعظم العلماء ليسوا بالضرورة أكثر النّاس حكمة». بيد أنّي لا أزال أتساءل كيف يمكن لعقل يزخر بالمعرفة والعلم ألّا يكون أشدّ يقظة وحيويّة، بينما يمكن لعقل غليظ فظّ أن يستملك مقالات وأحكام أفضل العقول التي شهدها العالم، دون أن يحسّن ذلك من طبعه شيئا. فكما قالت لي فتاة حسناء، هي أولى أميراتنا، متحدّثة عن أحدهم: لقد نهل حتّى شبع من كمّ هائل من العقول القويّة العظيمة، فأصبح لا بدّ لعقله أن ينقبض وينكمش ويتقلّص كي يفسح المجال للآخرين...

3. أقولها دون مواربة: قد يختنق الفكر من فرط البحث وكثرة المعلومات، مثلما يحدث للنّبات من شدّة الرطوبة وللفانوس من فائض الزيت؛ فإذا ازدحمت فيه أشياء متنوّعة كثيرة وأعاقته ولم يقدر على الخلاص منها، ربض منحنيًا تحت ثقلها. لكن لا تجري الأمور دائما هكذا: لأنّ فكرنا يتوسّع بقدر ما يمتلئ. ويشهد التاريخ القديم

بوجود أشخاص لهم قدرة عظيمة على تسيير الشؤون العامة، كانوا من كبار القادة وكبار المستشارين في شؤون الدولة، وكانوا مع ذلك في نفس الوقت من كبار علماء زمانهم.

4. أمّا الفلاسفة، إذ كانوا يعتزلون الحياة العامّة، فقد كانوا أحيانا موضع احتقار المؤلّفين الهزليين، بسبب آرائهم ومواقفهم المثيرة للسّخرية. أتطلبون منهم أن ينظروا في قانونيّة قضيّة أو في شرعيّة الأعمال التي يأتيها بعض النّاس؟ إنّهم مستعدّون تمام الاستعداد! وسينظرون أيضا فيما إذا كانت الحياة موجودة، والحركة موجودة، وما إذا كان الإنسان شيئا آخر إلّا ثورا، وما معنى أن نفعل، وأن نتعذّب، وما إذا كانت القوانين والعدل من نوع البهائم.

5. أيتحدّثون عن قاض أم إليه؟ يفعلون ذلك بكلّ وقاحة وبلا تحضّر. أيستمعون إلى مدح أمير أم ملك؟ فهو ليس في نظرهم أكثر من راع، شأنه أن يجزّ صوف دوابّه، لكن بأكثر وحشيّة! أتقدّرون أكثر من كان يملك ألفي فدّانً من الأرض؟ إنّهم لا يكترثون، لأنّ العالم كلّه على ملكهم. أتتبجّحون بنبالتكم، لكونكم تَعِدّون سبعة أثرياء من بين أجدادكم؟ إنّهم لا يُبالون، لأنّكم لا تنظرون إلى الطبيعة في كلّيتها ولا ترون أنّ كلّ واحد منّا له أسلاف كانوا أثرياء، وفقراء، وملوكًا، وخدمًا، وإغريقيين، وبرابرة[1]. وحتّى لو كنتم في المرتبة الخمسين من سلالة هرقل، لاعتبروكم من الحمقى، إذ تتبجّحون بما حصل صدفة ولا فضل لكم فيه.

6. كان معظم النّاس يزدرونهم لجهلهم للأمور العادية والأساسية، ولغطرستهم وقلّة حيائهم.

إلّا أنّ هذا التقديم للفلاسفة على الطريقة الأفلاطونية لا يناسبهم حقّا. في الواقع، كانوا يُحسَدون على ما هم عليه من سموّ وتفوّق على الجمهور، وعلى ازدرائهم للأنشطة العمومية، كما على عيشهم على نمط خاصّ يتعذّر محاكاته، اقتداء بمبادئ عالية خارجة عن المألوف. أمّا المتحذلقون الذين يوجدون بيننا، فإنّهم على العكس من ذلك محلّ ازدراء واحتقار، لِما هم عليه من خسّة ودناءة ولعجزهم عن تحمّل المسؤوليات وعيشهم، اقتداء بالجمهور، على نمط أخلاق وضيعة قبيحة.

«أكره من كان فيلسوفا في أقواله، جبانًا في أعماله»

[Pacuvius, Cité Par Aulu-Gelle, XIII, VIII]

7. إذا كان الفلاسفة عظماء بعلمهم، فإنّهم بأعمالهم أعظم. يُروى عن مهندس

(1) كان اليونانيون يقصدون بالبرابرة (Barbares) الغرباء والأجانب، وبعد ذلك فقط أصبح يُشار بهذا اللّفظ إلى المتوحّشين وغير المتحضّرين.

سراقسطا[1]، ذلك الذي توقّف عن التأمّل وأراد أن يصنع شيئا يفيد به بلده، أنّه ابتكر آلات رهيبة قادرة على أشياء لا تصدّق، إلّا أنّه كان يحتقر كلّ ما أنتجت يداه، لأنّه حطّ، في تقديره، من مكانة فنّه، ولم يفلح سوى في إنجاز أشغال تطبيقية وفي صناعة ألعاب بسيطة.

8. لمّا وجد الفلاسفة أنفسهم على محكّ العمل، اكتسبوا نظرة مرموقة عالية، واغتنت قلوبهم وأرواحهم وأثْرت بما أدركته من صميم الأشياء. غير أنّ بعضهم ابتعدوا عن السّياسة، لِما رأوه في الرّياسة من متطفّلين غير مؤهّلين. سأل أحدهم قراتاس (Cratès)[2] إلى متى ينبغي أن نتفلسف، فأجاب: «إلى أن يكفّ الحمّارة عن سياقة جيوشنا». ولقد تخلّى هيرقليطس لأخيه عن الحكم، وكان جوابه للإفيزيين (Ephésiens) إذ عابوا عليه قضاء وقته في اللّهو مع الأطفال أمام المعبد: «أليس هذا أفضل من قضائه معكم في الحكم؟».

9. نصب آخرون أنفسهم فوق عوارض الحياة والمجتمع، واحتقروا خسّة المناصب القضائية والعروش الملكيّة نفسها. هكذا رفض أمباذوقليس (Empédocle) السدّة العالية التي عرضها عليه أهالي جِرْجَنْت (Agrigente). أمّا طاليس، فقد كان ينقد أحيانا أولئك الذين لا شغل لهم سوى جمع الثروات وإدارة الأملاك، فاعتُرض عليه بأنّه لا يختلف عن ثعلب الخرافة، لأنّه ينقد ما هو عاجز عن تحقيقه. أراد، على سبيل الهزل، أن يختبر الأمر أمام الجميع، فكرّس عِلمه لغاية الفائدة والربح وأقام تجارة أغدقت عليه من الأرباح، في سنة واحدة، ما قد يعجز عنه أكثر النّاس خبرة في الميدان.

10. قال أرسطو إنّ بعضهم ينعتون طاليس وأناكزاغوراس وأمثالهما بأنهم حكماء ولكنهم متهوّرون، لكونهم يستخفّون بالأشياء التي قد تكون أكثر فائدة لهم. لكن زيادة على كوني لا أرى فرقا بين النّعتين، فإنّ هذا لا يكفي، مهما كان الحال، لتبرير المتحذلقين الذين تحدّثت عنهم آنفا، بل أرى أنّ الفرصة سانحة ههُنا كي ننفي عنهم كلّ حكمة وكلّ تعقّل، نظرا إلى حالة الحاجة والوضاعة التي هم فيها.

11. لكن لنترك جانبًا هذا التفسير الأوّل. أظنّ أنّ ما جعلهم على هذه الشاكلة إنّما هو طريقة تعاطيهم للعلوم؛ إذ لو ألقينا نظرة على الطريقة التي بها نتعلّم، فإنّنا لن نستغرب من عدم تقدّم ذكاء كلٍّ من التلميذ والمعلّم، رغم تقدّمهما في العلم والمعرفة. وفي

---

(1) هو أرخميدس (Archimède).

(2) قراتاس من طيبة (Cratès de Thèbes) هو أحد أتباع الفيلسوف ديوجانس الكلبي (Diogène le cynique).

الحقيقة فإنّ اهتمام آبائنا بتربيتنا والمصاريف التي يتكبّدونها من أجلنا إنّما الغاية من كلّ ذلك هي حشو أدمغتنا بالعلم، مع غضّ النّظر عن ملَكة الحكم أو عن الفضيلة. فإذا قلتَ عن شخص: «يا له من عالم!»، وقلت عن آخر: «يا له من رجل شهم!»، اتّجهت الأنظار إلى الأوّل إجلالًا واحترامًا. كان من الأجدى أن تقول: «يا لضخامة رأسه!». فنحن غالبًا ما نسأل: «هل يعرف الإغريقية أو اللّاتينية؟ هل يكتب شعرًا أم نثرًا؟»؛ بينما الأفضل أن نسأل هل ارتقى وتحسّن، وهل أصبح أكثر فطنة ونباهة. من الأجدى أن نسأل عمّن كان أفضل عِلمًا، لا عمّن كان أكثر علمًا.

12. إنّنا نحشو الذاكرة حشوًا، بينما يبقى الذّكاء والضّمير خاويَيْن. وكما تلتقط الطّيور حبوبًا تحملها كاملة في منقارها إلى صغارها، يلتقط المتحذلقون علومهم في الكتب ويتركونها على طرف شفاههم ثمّ يتجشّؤونها في مهبّ الرّياح.

13. من الغريب أن تجد هذه الحماقة مكانًا عندي. ألستُ كالآخرين فيما أقوم به في هذا الكتاب؟ فأنا أجمع ما في الكتب، هنا وهناك، من أقوال مأثورة تروق لي، ليس لحفظها، إذ لا أملك ذاكرة تتّسع لها، وإنّما لنسخها ههنا حيث لا تكون على ذمّتي أكثر ممّا هي عليه في موضعها الأصلي.

14. ويبدو أنّه لا علم لنا ولا معرفة سوى بالحاضر، ليس بالماضي ولا بالمستقبل. والأسوأ من ذلك أنّ التلاميذ، ثمّ صغارهم، لا يستوعبون هذا العلم بقدر ما يتناقلونه لغاية واحدة، هي إظهاره وعرضه على الآخرين ومسك حسابه كما تُمسك النّقود الفاقدة لكلّ قيمة والتي لا تصلح إلّا كفيشاتٍ للعَدّ.

«لقد تعلّموا الحديث إلى غيرهم، ليس إلى أنفسهم»

[Cicéron, *Tusculanes*, V, XXXVI.]

«ليس الكلام هو المطلوب، وإنّما التّدبير»

[Sénèque, *Épîtres*, CVIII.]

15. لكي تثبت الطبيعة أنّها لا تأتي عملًا متوحّشًا، فهي غالبًا ما تولّد لدى الأمم الأقلّ ميلا إلى الفنّ، أعمالا فكرية منافسة للأعمال التي تخضع لقواعد الفنّ. وتوضيحًا لكلامي، أسوق هذا المثل الغاسكوني (Gascon) الطريف، المقتطع من أغنية خفيفة مصحوبة بالنّاي:

«ابْرُوهَا بْرو ابْرُوهَا، مَاسْ أَ رِمُودَا لُوسْ دِيتس كامْ»
(انفخ، انفخ بشدّة، لكن حرّك أصابعك أيضا)

16. يسهل أن نقول: «قال شيشرون؛ هذه أخلاق أفلاطون؛ إنّها كلمات أرسطو بعينها». لكن نحن أنفسنا، ماذا نقول؟ ماذا نفكّر؟ فحتّى الببّغاء قد يقدر على ما نفعله. هذا يذكّرني برجل رومانيّ ثريّ دفع أموالا طائلة للارتباط بكبار العلماء في مختلف التخصّصات، حتّى إذا وجد نفسه بين أصدقائه وسنحت الفرصة، عوّضوه وساعدوه، هذا بخطاب، وذاك ببيت شعر لهوميروس، كلّ واحد حسب اختصاصه؛ وكان يظنّ أنّ هذا العِلم علمه، لأنّه موجود في عقول رجاله، شأنه شأن أولئك الذين يمكث علمهم في مكتباتهم الفاخرة.

17. أعرف شخصًا، إذا سألته عمّا يعرف، يطلب كتابًا كي يريني فيه ماذا يعرف؛ وقد لا يجرؤ على إعلامي بأنّه يعاني من الجرَب في مؤخّرته من دون أن يعود إلى معجمه للبحث في معنى الجرَب ومعنى المؤخّرة!

18. إنّنا نقتصر على خزن آراء الآخرين وعلمهم، بينما المطلوب هو أن نستوعبها ونجعلها ملكًا لنا. لا فرق بيننا وبين ذلك الذي يحتاج إلى النّار، فيطرق باب جاره ويطلبها منه، لكنّه عندما يرى نار جاره المتّقدة الجميلة، يقترب منها ليتدفّأ وينسى أنّه قدم ليأخذ القليل منها لداره. ما فائدة أن تملأ بطنك باللّحم إن كنت لا تهضمه ولا تحوّله إلى ذاتك؟ وإن كان لا يساعدك على النموّ ولا يقوّي عضلاتك؟ أتظنّ أنّ لوكولوس (Lucullus)، إذ أصبح قائدا عظيما بمجرّد قراءاته ودون مساعدة من التجربة، كان بإمكانه أن يحقّق ذلك لو أنّه درس وتعلّم على منوالنا؟

19. إنّنا نتّكئ على غيرنا إلى أن تخور قوانا. هل أرغب في مقاومة الخوف من الموت؟ مرجعي هو سينيكا. هل أحتاج إلى مواساة نفسي أو غيري؟ آخذ من شيشرون. فلو سبق أن علّمني أحدٌ ودرّبني، لأخذت من عندي. لا أحبّ أن أنهل من مصدر آخر ولا أحبّ التسوّل.

20. لئن أمكن لنا أن نكون علماء بفضل غيرنا، فإنّنا لا نكون حكماء إلّا بفضل أنفسنا.

«لا أحبّ الحكيم الذي لا يكون حكيما لأجل نفسه».

[Euripide, Tiré De Stobée III]

وقال إنيوس: «لا يعرف الحكيم شيئا إذا كان لا يفيد نفسه».

[Cicéron, *De Officiis*, III, 15]

«إذا كان جشعا وتافها، بل إذا كان أكثر جُبنا من خروفة أوغاني».

[Juvénal, VIII, 14]

«إذ لا يكفي أن نكتسب الحكمة، بل يجب أن نستفيد منها».

[Cicéron, *De Finibus*, I, 1]

21. كان دُنيس يسخر من النّحويين إذ يدأبون على معرفة أمراض أوليس (Ulysse) بينما يجهلون أمراضهم الخاصّة؛ ومن الموسيقيين إذ يعدّلون مزاميرهم ولا يعدّلون أخلاقهم؛ ومن الخطباء إذ يتحدّثون عن العدالة ولا يتحدّثون عن كيفية تحقيقها.

22. الأفضل في رأيي، إذا لم يتحسنّ تفكير تلميذي ولم تتطوّر قدرته على الحكم، أن يمضي وقته في لعب الكرة، إذ سيكسب بذلك على الأقلّ بعض اللّياقة البدنية. شاهدوه كيف يعود بعد خمس عشرة أو ست عشرة سنة أمضاها في المدرسة: يكون عاجزا عن كلّ شيء، وكلّ ما تعلّمه من لغة لاتينية ولغة يونانية قد جعله أكثر غباء وغطرسة ممّا كان عليه يوم غادر منزله. كان يُنتظر أن يعود مفعما بالعلم، فعاد منتفخًا متورّمًا.

23. الأساتذة الذين أتحدّث عنهم، شأنهم شأن السفسطائيين عند أفلاطون، إنّما هم أكثر النّاس وعدًا بالإفادة وأقلّهم إيفاء بالوعد، كالنجّار أو البنّاء الذي لا ينجز ما وعد به، بل إنّهم يفسدون حتى ما أنجزوه ويطلبون أجرا على ما أفسدوه.

24. كان بروتاغوراس يقترح على طلّابه أن يدفعوا له المبلغ الذي يطلبه، أو أن يُقسِموا في المعبد على القدر الذي ربحوه من تعليمه ويكافئوه عليه[1]. لو طُبّق هذا القانون وعمل المربّون بهذا القسم، لاستاؤوا من ذلك.

25. يطلق أهالي بيريغورد (Périgord) على هؤلاء العلماء المتحذلقين اسم «هواة الآداب»، والذين ضربتهم مطرقة الآداب. إذ يبدو فعلا، في الغالب، أنّهم سقطوا إلى أدنى من الذّوق العام. فإذا كان الفلّاح والإسكافيّ يتصرَّفان ببساطة ويتحدّثان فيما يعلمان، فإنّ أولئك يتبجّحون بعلم سطحيّ فيقعون في الإرباك والإحراج. قد يصدر عنهم كلام جميل، إلّا أنّ أحدا آخر سيستعمله بدلا منهم؛ وقد تكون لهم معرفة بجالينوس، لكن لا معرفة لهم بالمريض؛ إنّهم يملأون رأسك بالنصوص القانونية، قبل أن يدركوا مربط الفرس؛ ولديهم معرفة بالنّظريات، لكن لا أحد يطبّقها.

26. كان أحد أصدقائي في زيارتي، يتناقش مع أحد أولئك البهلوانيين، وكان يتصنّع خليطا من الأقوال المتقطّعة، ملفّقة تلفيقا وموشّحة بكلمات مؤاتية لذوق العصر. ظلّ هكذا يلهو طوال النّهار مع ذلك الأحمق الذي لم يتوقّف عن محاولة الردّ على الاعتراضات الموجّهة إليه! مع أنّه كان رجلا مثقّفا وذا سمعة كبيرة، بل كان حاملا لباس القضاء الجميل!

---

(1) انظر أفلاطون، محاورة بروتاغوراس، 327B – 328C

«أيا أيّها الشّرفاء النّبلاء، أنتم من لا تكترثون بما يحدث خلفكم،
انتبهوا إلى التكشير وإلى علامات الاستياء من ورائكم»
[Perse, I, 61]

27. من يتأمّل جيّدا في هذا الرّهط من النّاس سيرى أنّهم في الغالب لا يفهمون أنفسهم ولا يفهمون غيرهم، وإذا كانت حافظتهم فائضة فإنّ فهمهم فاسد، اللّهمّ إلّا إذا كانوا يملكون بالسليقة فهمًا آخر خصّيصًا. عاينتُ ذلك عند أدريان تورناب (Adrien Turnèbe)، إذ لم يمارس وظيفة أخرى غير الآداب، حيث عظم شأنه طويلا رغم أنّه لم يكن متحذلقًا ولم يتبجّح سوى بلباس القضاء وببعض العادات التي كانت تبدو غير متحضِّرة على منوال ما يجري في البلاط، وهي أمور تافهة.
28. إنّي أكره أولئك الذين ينزعجون من اللّباس الخرقة أكثر ممّا ينزعجون من الفكر الأخرق، ويحكمون على شخص بالنظر إلى هيئته وحذائه وطريقة انحنائه.
وحتى أعود إلى تورناب، فقد كان في حدّ ذاته صاحب فكر ظريف إلى أقصى حدّ. وغالبًا ما تعمّدتُ جلبه للحديث في مواضيع بعيدة عن اهتماماته، فكان واضحًا سريع البديهة راجح العقل، كما لو كان لم يمتهن غير مهنة الحرب ومهنة السّياسة والحكم. إنّه من تلك الطبائع الجميلة القويّة،

«التي أهداها الجبّار بروميثيوس عقلا صنعه من أفضل غرين وبإحظاء خاصّ من فنّه»
[Juvénal, XVI, 34]

والتي تبقى محفوظة حتّى في أوضاع تربوية فاسدة. لكن ألّا تفسدنا التربية لا يكفي، بل المطلوب هو أن تطوّرنا وتحسّننا.
29. في بعض المجالس والمحاكم العليا، يقع قبول القضاة المترشّحين بعد امتحان معرفتهم فحسب، بينما تضيف محاكم أخرى امتحانا لحسّهم السليم وسداد تفكيرهم، وذلك بعرض حالات كي يحكموا عليها. وتبدو لي الطريقة الثانية أفضل، إذ لئن كانت الطريقتان ضروريتين، فإنّ المطلوب هو استعمال كليهما معا. وعلى أيّة حال، فإنّ المعرفة أقلّ أهمّية من الحُكم، لأنّ سلامة الحكم قد تُغني عن المعرفة، أمّا المعرفة فلا تُغني عن الحكم.
30. ذلك لأنّه، كما يقول هذا البيت اليوناني،

Ὡς οὐδὲν ἡ μάθησις, ἢν μὴ νοῦς παρῇ

[Stobée, *Sermo III*]

(فيم يفيد العلم إن لم يقترن بالذكاء؟)

إنّي أدعو الله لما فيه خير عدالتنا، وأن يكون لهؤلاء النّاس من الضمير والذكاء بقدر ما يكون لهم من المعرفة.

«إنّهم يعلّموننا لأجل الحياة، لا لأجل المدرسة»

[Sénèque, *Épîtres*, XCV]

لكن ليس المطلوب أن نربط المعرفة بالفكر، وإنّما أن ندمجها فيه، ولا أن نرشّه بها، وإنّما أن نشبعه. فإذا لم يتغيّر بهذه المعرفة ولم تتحسّن حاله، يصبح من الأجدى الاستغناء عنها. إنّها سيف خطير، قد يعوق صاحبه وقد يجرحه إذا كانت اليد التي تمسكه ضعيفة ولا تحسن استعماله:

«ولعلّه كان من الأفضل ألّا نتعلّم»

[Cicéron, *Tusculanes*, II, 4]

31. لعلّ هذا ما جعلنا وجعل رجال الدّين لا نشترط في المرأة أن تكون صاحبة معرفة واسعة. ولمّا دار الحديث، مع فرنسوا دوق بريطانيا ونجل يوحنّا الخامس، حول زواجه من إيزابو (Isabeau)، من اسكتلندا، فقيل إنّها تربّت ببساطة ولم تتلقّ تعليما أدبيّا، كان جوابه أنّه هكذا يفضّلها وأنّ المرأة تكون متعلّمة بما فيه الكفاية إذا كانت قادرة على التّمييز بين قميص زوجها وصدرته.

32. وبالتالي فليس من الغريب، مثلما يظنّ بعضهم، إن كان أجدادنا لا يعبأون بالعلم كثيرا، وإن كانت مجالس ملوكنا الكبرى، إلى يومنا هذا، تكاد تكون خالية من العلماء تمامًا. ولولا رغبتنا في إثراء أنفسنا بفضل علم القانون وعلم الطبّ وعلم التربية وعلوم الدّين، وهو ما يجعلنا نكنّ لهذه العلوم كلّ الاحترام والتقدير، لاعتبرناها علوما تافهة على نحو ما كانت عليه دائما. لكن ليتها كانت تعلّمنا جودة التّفكير وحُسن التّدبير !

«منذ أن ظهر العلماء، اختفى الفضلاء»

[Sénèque, *Épîtres*, XCV]

33. تكون كلّ معرفة غير مرحّب بها إذا لم تقترن بمعرفة الخير. أليست الحجّة التي كنت أبحث عنها آنفا هي كون التعليم، في فرنسا، يكاد لا يرمي إلى غاية أخرى غير الفائدة والرّبح؟ إذ يندر حقّا أن يختار الآداب من كان طبعه ميّالا إلى وظائف أنبل من الوظائف المربحة؛ وإلّا كان ذلك لفترة قصيرة فقط، إذ قبل أن يتعلّق بها، ستستهويه وظيفة أخرى لا علاقة لها بالكتب. وهكذا لا يبقى، في نهاية الأمر، من سيكرّس جهده

للدراسة، سوى من كان من أصل وضيع، إذ يبحث عن وسيلة يقيم بها أوده. ولمّا كانت عقول هؤلاء بطبعها سمجة ولم تحظ بالتربية الملائمة في الوسط الذي وُجدت فيه، فإنّه لا يمكن أن ننتظر منها سوى التّافه ممّا قد توفّره المعرفة.

34. ذلك لأنّه يتعذّر على تلك المعرفة أن تمنح النّور لعقل فاقد للنّور، ولا أن تمنح البصر للأعمى. ليست وظيفتها أن تمنحه البصر، وإنّما أن تعلّمه كيف يبصر، وأن ترتّب هيئته، بشرط أن يكون قدماه وتكون ساقاه مستقيمة وقادرة على المشي. المعرفة دواء ناجع دون شكّ، لكن لا يوجد دواء لا يتلف ولا يفسد بسبب عيوب وعائه. قد يكون لبعضهم رؤية واضحة، إلّا أنّها غير مستقيمة؛ وبالتّالي فإنّه قد يرى الخير، لكن لا يفعله؛ وقد يرى بماذا تتمثّل المعرفة، لكن لا يستعملها. كان الشغل الشاغل لأفلاطون في كتاب **الجمهورية** هو توزيع المهامّ على المواطنين وفقا لطبائعهم. فالطبيعة تقدر على كلّ شيء، وتفعل كلّ شيء.

35. العُرجان لا يقدرون على التمارين البدنية، والعقول العرجاء لا تقدر على التمارين الذهنية. أمّا الأدعياء والسّوقيون فإنّهم لا يليقون بالفلسفة. عندما نرى رجلا ينتعل حذاء قبيحًا، نقول لا غرابة في ذلك، لأنّه إسكافيّ. وكذا شأن الطبيب الذي يكون أقلّ عناية بصحّته، واللّاهوتي الذي يكون أقلّ أخلاقًا، والعالم الذي يكون أقلّ كفاءة... من عامّة النّاس!

36. كان أرستون دي شيو (Ariston De Chio) محقًّا عندما قال إنّ الفلاسفة يؤذون الذين ينصتون إليهم: إذ تبقى أغلب العقول عاجزة عن الاستفادة من تعاليمهم التي، إذا لم تكن نتائجها إيجابية، كانت على العكس سلبيّة.

«*يتخرّج من مدرسة أرستيب زنادقة، ويتخرّج من مدرسة زينون متوحّشون*»
[Cicéron, *De Natura Deorum*, III, 31]

37. يتمثل منهج التعليم الذي ينسبه كزينوفون إلى الفُرس في تدريب الأطفال على الفضيلة، مثلما يتدرّبون على الحروف لدى أمم أخرى. قال أفلاطون إنّ تربية الإبن البكر، بما هو وليّ العهد في النّظام الملكيّ، تكون بالطريقة التالية: يقع تسليمه عند الولادة، لا إلى النّسوة وإنّما إلى المخصيّين إذ كانت لهم سلطة عظيمة في بلاط الملك بسبب ما يتحلّون به من فضيلة، فيعتنون بجسده كي يصبح جميلا معافى، ثمّ يعلّمونه، عند بلوغ سنّ السابعة، ركوب الخيل وفنون الصّيد؛ وعند بلوغ الرابعة عشرة، يضعونه على ذمّة أربعة أشخاص: الأكثر حكمة، والأكثر عدلًا، والأكثر اعتدالًا، والأكثر شجاعةً؛ الأوّل ليعلّمه التديّن، والثاني الصّدق، والثالث التحكّم في رغباته، والرابع ألّا يخشى شيئا.

38. وقد يبدو من الغريب أنّ في دستور ليكورغ (Lycurgue) العظيم الممتاز المهووس بتربية الناشئة على كلفة الدولة، كما في مقام ربّات الفنّ نفسها، لا تذكر المذاهب التعليمية إلّا نادرا؛ كما لو كانت هذه الناشئة رفيعة النّسب لا إمام لها سوى الأخلاق ولا تحتاج إلى الأساتذة والعلماء بقدر ما تحتاج إلى من يعلّمها الشجاعة والحكمة والعدل. هذا هو المثال الذي ساقه أفلاطون في كتاب **القوانين**. كان منهجهم في التعليم يتمثّل في طرح أسئلة على الأطفال تتعلّق برأيهم في النّاس وفي أعمالهم: فإذا استحسنوا شخصا أو عملًا أو استهجنوه، كان عليهم أن يبرّروا موقفهم، وهكذا كانوا يصقلون ذكاءهم ويتعلّمون القانون.

39. في كتاب لكزينوفون، يطلب أستياج من سايروس أن يقدّم له درسه الأخير، فقال: «في مدرستنا طفل طويل القامة له سروال قصير، فأعطاه لأحد أصحابه كان قصير القامة وأخذ منه سرواله الطويل. طلب منّي أستاذي أن أحكم في هذه الحالة، فرأيت أن يُترك الأمر على ما هو عليه طالما أنّه مناسب لكليهما. لكن آخذني وقال إنّي أسأت الحكم، لأنّني أخذت في الاعتبار ما هو مناسب فقط، متناسيا ما هو عادل، إذ يقتضي العدل ألّا يُجبَر أحد على التفريط فيما يملكه «. ثمّ أضاف أنّه وقع جَلده لهذا السّبب، مثلما يحدث لنا، في قُرانا، عندما ننسى «الآوريست» Aoriste (الماضي المبهم) للفعل τυπτω.

40. قد يحتاج أستاذي إلى خطبة طويلة «على النّمط الحجاجي» كي يقنعني بأنّ مدرسته لا تقلّ قيمة عن تلك! ذلك لأنّ أولئك أرادوا اختصار الطريق: إذ لمّا كانت كلّ معرفة، وإن بقيت في حدود المعرفة الوجيهة، لا يمكنها إلّا أن تعلّمنا الحكمة والنّزاهة والحزم، فإنّهم أرادوا أن يضعوا أولادهم فورا في وضع الاختبار؛ أرادوا تربيتهم، ليس بالمعرفة السّمعية، وإنّما بالممارسة الفعليّة، وذلك بتكوينهم وتطويعهم بطريقة نشيطة لا تقوم فقط على الوصايا وعلى مجرّد الكلام بقدر ما تقوم على القدوة والأسوة والأعمال، حتّى لا يبقى كلّ ذلك مجرّد علم راسخ في أذهانهم، بل يصبح عندهم نمط سلوك وحياة؛ وحتّى لا يكون مجرّد إضافة، بقدر ما هو استعداد طبيعي.

وفي هذا المضمار، سُئل أجيسيلاس عمّا ينبغي أن يتعلّمه الأطفال فأجاب: «ما ينبغي أن يقوموا به عندما يصبحون كهولا». فلا عجب أن تترتّب على مثل هذه التربية نتائج في منتهى الرّوعة.

41. كان يتمّ استدعاء علماء البيان والرسّامين والموسيقيين من شتّى المدن اليونانية، لكن كان القضاة والمشرّعون والأباطرة يُستقدمون من لقيديمونيا. ففي أثينا، كان النّاس يتعلّمون حُسن الكلام والبيان، وفي لقديمونيا كانوا يتعلّمون حُسن الفعل والعمل؛

كانوا هناك يتعلّمون طريقة التخلّص من حِجاج معقّد، وفضح الدّجل والنّفاق الثاويَيْن وراء الكلمات، وكانوا هنا يتعلّمون التغلّب على إغراءات اللّذة وعلى تهديدات القدر والموت. كانوا يتصارعون هناك بالكلمات، وهنا بالأشياء؛ هناك، كانت الممارسة لغويّة باستمرار، وهنا كانت روحيّة بلا انقطاع.

42. فلا عجب إذن، عندما طالب أنتيباتر (Antipater) من اللّقيديمونيين أن يسلّموا له خمسين طفلا كرهائن، أن أجابوه – على عكس ما قد نفعل – أنّهم يفضّلون تسليم ضعف هذا العدد من الكهول. وهذا يبيّن كم كانوا يقدّرون حجم الخسارة لبلدهم لو فرّطوا في عقول شابّة. ولمّا طلب أجيسيلاس من كزينوفون أن يرسل أبناءه إلى إسبرطة لإتمام تربيتهم هناك، لم يكن المقصود أن يتعلّموا فنّ البلاغة أو فنّ الجدل، وإنّما أن يتعلّموا، كما قال، أفضل علم على الإطلاق، ألا وهو علم الأمر والطاعة.

43. من المضحك جدّا أن نرى سقراط يتهكّم، على طريقته، من هيبياس (Hippias) إذ روى له كيف جنى أرباحا طائلة من وراء امتهانه التعليم في عدد من مدن صقلّية، بينما لم يربح فلسا واحدا في مدينة إسبرطة. صدح هيبياس بأنّ الإسبرطيين أناسٌ جهلة، لا يعرفون لا القياس ولا العدّ، ولا يعبأون بالنّحو ولا بتقطيع الشِّعر، ويقضون معظم أوقاتهم في تأمّل حاشية الملك وقيام الدّول وانحطاطها وترّهات أخرى من نفس القبيل. إلّا أنّ سقراط أقنعه، بالتفصيل، بامتياز نظام حُكمهم، وبسعادتهم ومتعة عيشهم، حتى ثبت عنده في النّهاية ابتذال تلك الفنون التي كان يمتدحها.

44. وهناك أمثلة على أنّ تجربة التعليم في مثل تلك المدينة الحربية قد جعلت القلوب تلين وتتخنّث أكثر ممّا زادتها شدّة وبأسا. إنّ أعظم دولة في العالم هي حاليا دولة الأتراك، ذلك الشعب الذي تقلّد السلاح وبغض الآداب. وفي اعتقادي أنّ روما كانت تتحلّى بالشجاعة قبل العلم؛ وإنّ الشعوب الأكثر ميلا إلى الحرب هي، في أيّامنا هذه، الأكثر فظاظة والأشدّ جهالة. ولكم في ذلك مثال السيثيين والبارثيين وتيمور لنك.

45. عندما غزا القوط بلاد اليونان وعاثوا فيها فسادا، نجت كلّ المكتبات من الحرق، لأنّ أحدهم قال بضرورة حفظها لأهاليها الأعداء، لأنّها ستشغلهم عن التدريبات العسكرية وسيضيعون أوقاتهم في الخمول والتّرف.

46. عندما استولى شارل الثامن على مملكة نابولي دون أن يستلّ سيفه من غمده، عزا أفراد حاشيته السهولة التي تمّت بها العمليّة إلى أنّ الأمراء والنّبلاء في إيطاليا كانوا منشغلين بتطوير علمهم وذكائهم أكثر منهم بإنماء قدرتهم ودُربتهم على الحرب.

الفصل الخامس والعشرون

عن تربية الأطفال

إلى السيّدة دِيان دي فوَا، كونتيس دي غرسون.

1. ما رأيتُ أبدا أبًا لا يعترف بأبوّته، مهما كان ابنه محدودب الظهر أو أقرع الرّأس؛ ليس لكونه لا ينتبه إلى عيبه – اللّهم إلّا إذا أعمى عطفه بصيرته – وإنّما لكونه يظلّ ابنه مهما حصل. وفي ما يخصّني، فإنّي أرى أكثر من أيٍّ كان أنّ كتابي هذا لا يتضمّن أكثر من أضغاث أحلام لرجلٍ لم يذق في طفولته غير قشور العلم ولم يحفظ منها سوى ملخّص عامّ ينقصه الوضوح: قليل من كلّ شيء، ولا شيء بعمق، على النمط الفرنسي؛ لأنّ ما أعلمه عمومًا هو أنّه يوجد طبٌّ، وفقهٌ، وأربعة أقسام في الرياضيات[1]، وما الغاية من كلّ ذلك عموما.

2. كما أعلم أنّ الغاية من العلم هي أن يكون في خدمتنا. أمّا أن أكون تبحّرتُ فيه وقضمتُ أظافري من شدّة التركيز على أرسطو، عاهل العلم الحديث، أو ثابرتُ على البحث في مادّة معيّنة، فهذا ما لم أقم به مطلقًا. وإنّه لا يوجد فنّ واحد أستطيع أن أقدّم له وصفًا ولو لملامحه الأولى. ولا يوجد طفل واحد في الأقسام الإعدادية إلّا وكان أوسع منّي علمًا، إذ أعجز حتّى عن اختباره في أوّل دروسه. وإذا أُرغمت على ذلك، وقعتُ بغباء في بعض الاعتبارات العامّة أمتحن بها قدرته الطبيعية على الحكم، بحيث لا يفقه «العبرة» التي أقصدها، ولا أنا أفقه التي يقصدها.

3. لست متواطئا مع أيّ كتاب هامّ، ما عدا كتابات بلوتارخو وسينيكا، حيث أنهلُ، فأملأ وأسكب بلا انقطاع، مثلما كانت تفعل الدانايد. قد أستخلص منها ما يفيدني فيما أكتب، لكن أكاد لا أجد ما يفيدني أنا بالذات. وفي عالم الكتب، طريدتي هي التاريخ، بل الشّعر أيضا، لأنّي أميل إليه مَيْلا خاصّا: فكما قال كليانتس، مثلما أنّ الصّوت المضغوط في مضيق البوق يخرج بأكثر قوّة وحِدّة، فكذلك يحدث للفكرة، إذ تخضع لعدد «أجزاء» الأبيات الشّعرية، أن تجلو بأكثر شدّة وتهزّني بأكثر عنف.

---

(1) هي «الرباعيّة» (Quadrivium)، كما أُطلق عليها في القرون الوسطى، وتشمل الأرتمطيقا والهندسة والفلك والموسيقى.

4. أمّا ملكاتي الطبيعية، إذ أختبرها الآن، فإنّي أشعر بها تتضعضع تحت الحمل؛ لقد أصبحتْ تصوّراتي وأحكامي لا تتقدّم إلّا بتحسّس وتعثّر وتَرَدّد وزَلل. وحتى عندما واصلتُ إلى أبعد حدّ، لم أكن راضيًا بذلك إطلاقا: لَم أزل أرى أنّه يوجد شيء ما بعد هذا الحدّ، إلّا أنّ بصري كان مضطربا، كما لو كنت في ضباب لا أميّز فيه شيئا. وإذا شرعتُ في الكلام عن كلّ ما يتبادر إلى ذهني دون تمييز، مثلما يحدث لي غالبًا عندما أعثر صدفةً، عند المؤلّفين الأفذاذ، على الأفكار نفسها التي عزمتُ على تأمّلها - على نحو ما قمت به مع بلوتارخوس في عرضه حول قوّة الخيال - إذّاك أقارن نفسي بهم، أنا النّحيل الضعيف، الثقيل المستغرق في النّوم، فأشفق على نفسي، أو أستخفّ بها واحتقرها.

5. أهنّئ نفسي إذن على ما تناله آرائي من شرف الاجتماع بآرائهم، وعلى اقتفائي لأثرهم ولو عن بُعد. ولديّ خصلة لا يشاطرني فيها كلّ النّاس: هي أنّني أعلم الفرق الكبير الذي يميّزهم عنّي؛ ومع ذلك أترك أفكاري البسيطة الضعيفة تسري، على نحو ما عَرضت لي، دون أن أرمّم وأرقّع العيوب التي تفطّنت إليها بعد المقارنة: يجب أن يكون لديك من الاقتدار حتّى تقف في صفّ أولئك الأفذاذ. إنّ المؤلّفين الذين يستسهلون الكتابة وينثرون هنا وهناك مقتطفات كاملة من المؤلّفين القدامى، ظنّا منهم أنّ ذلك سيزيدهم اعتبارا، لا يفلحون في الواقع إلّا في عكس ما يرتقبون؛ ذلك لأنّ الفرق الشاسع بين ما يقدّمون وبين ألق ما به يستشهدون قد يجعل أفكارهم شاحبة باهتة بشعة، فيكلّفهم ذلك خسارة أكثر ممّا يكلّفهم ربحا.

6. إليكم مثال تصوّرَيْن مختلفين تماما: الفيلسوف كريزيبوس (Chrysippe)، إذ كان يمزج مؤلّفاته، لا فقط بمقاطع، بل بكتب كاملة لغيره من المؤلّفين، من بينها مثلا مسرحية ميديا ليوربيدس (قال أبولودور Apollodore إنّه لو حذفنا من مؤلّفاته ما نسخه عن غيره، لما بقي فيها أكثر من صفحة بيضاء)، والفيلسوف أبيقور الذي، على العكس، لم يدرج شاهدة واحدة ضمن الثلاثمائة مجلّد التي تركها لنا.

7. لقد وقعت يوما ما على مقطع من ذلك النوع؛ حيث قرأتُ بفتور ما كُتب بلغة فرنسية منزوفة قاحلة خالية من كلّ مادّة وكلّ معنى حتّى أنّها أصبحت مجرّد كلمات. وبعد أن واصلت القراءة ممتعضًا، عثرت على مقطع غنيّ من طراز رفيع. فلو كنت في منحدر خفيف بصدد الصعود على مدى طويل، لتقبّلت الأمر. إلّا أنّني وجدت نفسي على شفا هوّة عمودية باغتَتني منذ المفردات الأولى، حيث أدركت أنّني بِتّ أحلّق في اتّجاه عالم آخر؛ حينئذ انتبهت إلى المستنقع الذي جئت منه، ومذّاك لم تعد لي رغبة في العودة إليه، لشدة ما هو واطئ وعميق. فلو زيّنتُ بعض خطاباتي بمقطع جميل كهذا، لظهر بوضوح حمق خطاباتي الأخرى.

8. أن ألوم غيري على أخطاء قد أقترفها أنا نفسي، فهذا لا يقلّ تناقضا عن لوم أخطاء غيري التي أعاينها في نفسي. لا بدّ من ملاحقتها في كلّ مكان، وألّا نترك لها أيّ ملجإ. أعلم جيّدا كم ينبغي من الجسارة كي أحاكي المقاطع التي أستعيرها، على أمل أن أخدع قرّائي فيعجزون عن تمييزها. فإذا نجحتُ، كان ذلك بفضل طريقتي في استعمالها أكثر منه ابداعا منّي واقتدارا. ثمّ إنّي لا أجابه أولئك الأبطال وجهًا لوجه، جسمًا لجسم، وإنّما على مراحل متعدّدة وبهجمات قصيرة لا تدوم. ولا أستبسل بقدر ما أجسّ قدرتهم على المقاومة، كما لا أواصل أبدًا حتّى النهاية. فلو كنت قادرًا على مضاهاتهم، لكنت في غاية الحذق والمهارة، لأنّني لا أهاجمهم إلّا من الجهة التي يكونون فيها هم الأقدر.

9. اكتشفتُ أنّ بعضهم يحتمون وراء دروع غيرهم ويخفون حتى أطراف أصابعهم، ويسيّرون أمورهم – مثلما يسهل أن يقوم بذلك من كان عالمًا في مجال عاديّ– بفضل إبداعات قديمة يرقّعونها هنا وهناك. إنّ الذين يخفون هكذا ما يستعيرونه وينسبونه إلى أنفسهم إنّما هم جبناء وظالمون، لأنّهم عاجزون عن الإبداع بأنفسهم ويسعون إلى البروز بإبداعات غيرهم. ثمّ إنّه من الغباء أن يسعى المرء، بفضل الغشّ، إلى نيل إعجاب العامّة، لأنّه هكذا سيجلب لنفسه احتقار الخاصّة واستياءهم من حشوه لعناصر مستعارة، والحال أنّ هؤلاء فقط قد يكون لمديحهم وزن حقيقي. وفيما يتعلّق بي شخصيّا، أرى أنّ مثل هذا السلوك هو آخر ما أرغب فيه، وإنّي لا أفسح المجال لكلام غيري إلّا ليكون كلامي معبّرا أكثر.

ما أقوله هنا لا ينطبق على «التضمين» (Les Centons)، في الشعر أو النثر. ولقد عاينت منه حديثا أمثلة في منتهى البراعة، فضلا عن الأمثلة القديمة؛ ومن بينها تضمينٌ نُشر تحت عنوان كابيلوبوس (Capilupus). إنّه وسيلة من وسائل البروز، مثلما عند جوست ليبس (Juste Lipse)، في حياكته البارعة والكادحة لكتاب **السياسات**.

10. أيّا كان الأمر ومهما دوّنتُ من التفاهات في كتابي **المقالات**، قرّرت ألّا أتستّر عليها، مثلما لا أتستّر على لوحة زيتية أبدو فيها شائبا أصلع الرأس، إذ أبى الرسّام إلّا أن يرسم وجهي أنا، لا وجهًا آخر أكثر منه كمالا. ذلك لأنّني أقدّم ههنا مشاعري وآرائي، وهي تعبّر عمّا أعتقده، لا عمّا ينبغي أن يعتقده غيري. فأنا لا غاية لي إلّا أن أظهر على ما أنا عليه، وقد أُصبح مختلفا يوم غد إن تعلّمت أشياء جديدة وغيّرتني. ليس لي سلطة على غيري حتّى يصدّقني، ولا رغبة لي في ذلك، لأنّني واع بضعف ما تعلّمته فلا يمكن أن أزعم تعليم غيري.

11. زارني بعضهم ذات يوم، بعد أن اطّلع على الفصل السابق، وقال إنّه كان عليّ أن أتوسّع أكثر في الحديث عن تربية الأطفال. لكن، سيّدتي، لو كان لي بعض المعرفة في

هذا الموضوع، لتكرّمت بها على ذلك الشقيّ الصغير الذي تنتظرون قدومه عن قريب (لأنّك من نسَبٍ شريفٍ ولا يمكنك في الأوّل إلّا أن تنجبي ولدًا[1]). فأنا بعدما دُعيت لزفافكما، أصبحت معنيًا به وأملك مصلحة في عظمة وازدهار ما سينتج عنه. هذا فضلًا عمّا تعرفينه منذ مدّة عن إخلاصي، ما يُلزمني دائما بأن أتمنّى لك كلّ العزّة والخير والتفوّق. لكن ما أعلمه حقّا هو هذا فقط: من بين علوم الإنسان، إنّما علم تربية الأطفال هو أهمّها جميعا وأصعبها على الإطلاق.

12. في الفلاحة، تكون العمليّات السّابقة للزرع وعمليّة الزرع نفسها في غاية البساطة والسهولة. لكن حالما ينمو الزرع وتدبّ فيه الحياة، نجد أنفسنا أمام اختيارات متعدّدة وصعوبات كبيرة. وكذا الشأن بالنسبة إلى البشر: إنّ زرعهم لا يتطلّب جهدا كبيرا، لكن حالما يولدون، نجد أنفسنا مرتبكين أمام هموم ومخاوف كثيرة تتعلّق بطريقة تعليمهم وتربيتهم.

13. ذلك لأنّ ميولهم تكاد لا تظهر للعيان في تلك السنّ المبكّرة، والآمال التي نبنيها عليهم غالبا ما تكون ضعيفة خدّاعة، حتّى إنّه يصعب جدّا أن نحكم في الأمر بيقين ثابت. انظروا كيف تطوّرت حياة سيمون (Cimon) وثميستوكل (Thémistocle)، وأشخاص كثيرون مثلهما. تكون الميول الطبيعية لصغار الدّببة والكلاب ظاهرة من البداية؛ أمّا البشر فإنّهم سرعان ما يتعوّدون على أشياء وتصبح لديهم تقاليد وقواعد وآراء، وسرعان إذن ما يتغيّرون ويتنكّرون ويتقنّعون.

14. لكن يبقى من الصعب على الإنسان أن يتحكّم في ميوله الطبيعية؛ ولذا فهو إن لم ينجح في اختيارها، تذهب كلّ مجهوداتنا سدى، ويضيع وقتنا كلّه في تلقين أشياء لن يقدر الأطفال على استيعابها. وأمام هذا الوضع الصعب، يبقى رأيي أنّه يجب توجيههم دائما نحو أفضل الأمور وأكثرها إفادة، كما يجب ألّا نهتمّ كثيرا بتلك التنبّؤات والتوقّعات السطحية التي نكوّنها بناء على سلوك الأطفال. ويبدو لي أنّ أفلاطون، في كتاب **الجمهورية**، قد منحها أهمّية كبيرة.

15. سيّدتي، إنّ العلم منبع لا يجفّ، وأداة نافعة إلى أقصى حدّ، ولا سيّما بالنسبة إلى أناس رفعهم القدر إلى مرتبة عليا كمرتبتك. وهو (أي العلم) لا ينبغي في الحقيقة أن يوضع بين أياد سفلى دنيئة. إنّه قد يكون له من الفخر بما يقدّمه من وسائل لقيادة حرب، وسياسة شعب، وربح صداقة أمير أو أمّة أجنبية، أكثر ممّا يكون له بفضل بناء

(1) انظر الفقرة الأولى من الفصل السادس والعشرين الموالي، حيث تظهر نزعة مونتاني الذّكورية وعجزه عن تجاوز عقليّة عصره، رغم انفتاحه على العالم ورغم أريحيّته المعهودة.

برهان جدليّ، أو استئناف حكم، أو وصف كمّ من الدواء. هكذا يبدو لي سيّدتي، وأنتِ قد نعمتِ به واستمتعت، إذ نشأتِ في عائلة مثقّفة (إذ لا تزال بحوزتنا كتابات أولئك النبلاء العريقين من عائلة دي فوا التي تنحدرين منها أنتِ وزوجك؛ كما لم يتوقّف عمّك فرنسوا دي كَندال عن الإضافة إلى هذه الكتابات كلّ يوم، ما سيزيد في الاعتراف لعائلتك بهذه الميزة على مدى قرون عديدة)،- قلتُ يبدو لي أنّك لن تغفلي عن ذلك في تربية أطفالك، ولهذا سأقدّم لك في هذا الشأن الفكرة الوحيدة التي تخصّني أنا بالذات، وهي مخالفة للمألوف. هذا كلّ ما أستطيع أن أسهم به في هذا الموضوع.

16. تتضمّن المهمّة التي سيضطلع بها المعلّم الذي ستختارينه لابنك - وهي شرط تربيته تربية ناجحة - مهامّ فرعية كثيرة، لكن لن أتطرّق إليها، لأنّ ما قد أقوله لن يجدي نفعا كثيرا. أمّا بشأن ما سأقدّم فيه رأيي، فقد يأخذ به متى بدا له معقولًا.

الطفل الذي ينتمي إلى أسرة جيّدة ويرغب في دراسة الأدب، فلا يطمع في كسب المال ولا في فوائد أخرى خارجية (لأنّ غاية دنيئة كهذه لا تستحقّ أن تنعم بحظوة ربّات الفنّ، فضلا عن أنّها من سلوك الآخرين)، بقدر ما يسعى إلى تحقيق ما ينفعه ويثريه ويزيّنه من الداخل، هذا الطفل الذي أريد أن أجعل منه رجلا ماهرا أكثر منه رجلًا عالمًا، يجب أن نحسن اختيار معلّمه الذي يُستحسن أن يكون صاحب عقل مرتَّب أكثر منه صاحب عقل ممتلئ[1]، كما ينبغي أن تُشترَط فيه هاتان الخصلتان، وأن يُشترط فيه كذلك الذكاء والأخلاق أكثر من العلم والمعرفة، وأن يسلك طريقة جديدة في أداء مهمّته.

17. ونحن في سنّ الطفولة، لا ينفَكّ المدرّسون يصرخون في آذاننا، كما لو كانوا يُصَبّون في قمع، ويطلبون منّا فقط أن نردّد ما يقولونه. ما أريده هو أن يغيّر المدرّس من سلوكه وأن يضع الطفل الذي يتكفّل به، منذ البداية، على الدّرب المستقيم، وأن يعلّمه كيف يقدّر الأشياء ويختارها ويميّزها بنفسه، فيفتح له الطريق حينا، ويتركه يفتحه بنفسه أحيانا. لا أريد أن يبتكر المعلّم وأن يتكلّم بمفرده، بل أريده أن ينصت إلى تلميذه يتكلّم بدوره. كان سقراط، ثمّ كان أرسيزيلاس (Arcésilas) من بعده، يحثّان تلاميذهما على الكلام أوّلا، قبل أن يتكلّما بدورهما.

«غالبا ما تكون سلطة المعلّم مصدر أذى للمتعلّم»

[Cicéron, *De Natura Deorum*, I, 5]

---

(1) كُتب لهذه الجملة أن تصبح شاهدة مأثورة عبر العصور: (*«plutôt la tête bien faite que la tête bien pleine»*)؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ المقصود هو عقل المعلّم، وليس عقل المتعلّم كما وقع فهمه؛ لكن لا ضير، لأنّ مآل عقل التلميذ أن ينسج على منوال عقل معلّمه وأن يصبح مرتّبا مثله.

18. من المفيد أن يجعله يهرول أمامه كي يُمعن في طريقة سيره، وكي يعلم ما هو المستوى الموافق لقدراته، وإلّا بطل كلّ شيء. إنّ تحديد مستوى التلميذ، ثمّ تعديل السلوك على مقتضاه، هذه واحدة من أصعب المهامّ التي أعرفها. ولعلّ سموّ النّفس واقتدارها إنّما يتمثّل في طريقة نزولها إلى مستوى الطفل وفي الأخذ بيده والسير معه خطوة خطوة. ذلك لأنّ السَّير صعودا يكون أكثر وثوقا وثباتا من السير نزولا.

19. وإذا ثابر المعلّم، مثلما يفعل عادة، على توجيه العديد من العقول المتباينة والمتفاوتة في درس واحد بطريقة واحدة، فلا غرابة أن تجد من بين المجموعة بالكاد طفلين أو ثلاثة استوعبوا الدّرس واستثمروه.

20. ليس على المعلّم أن يطلب من تلميذه تكرار الكلمات الواردة في الدرس فحسب، بل ينبغي أن يستفسره أيضا عن جوهرها ومعناها. وعليه أن يقيّم ما استثمره من الدرس بناء على شهادة سلوكه، لا على شهادة ذاكرته. كما عليه أن يستعرضه ما حفظه بمائة طريقة مختلفة، وأن يطلب منه أن يطبّقه على مواضيع مختلفة، حتّى يتبيّن ما إذا استوعبه حقّا أم لا؛ وأن يتقدّم به وفقا لمبادئ أفلاطون البيداغوجية. أن تجترّ الطعام وهو على شكلٍ ما ابتلعته، فهذا دليل على أنّه لم يقع تحويله: معدتك لم تقم بشغلها إذ لم تحوّل شكلاً ومضمونًا ما طلب منها هضمه.

21. لا يهتزّ فكرنا إلّا بالعدوى، بسبب ارتباطه برغبات الآخرين وأفكارهم، وبسبب وقوعه في أسرهم وخضوعه لقدوتهم. لقد تعوّدنا على الدوران بالمِطوَل[1] حتّى فقدنا طريقتنا الخاصة في المشي: لقد ضعفت حيويّتنا وزالت حرّيتنا.

«إنّهم تحت وصاية مستمرّة»

[Sénèque, *Épîtres*, XXXIII]

22. لقد شاهدت بنفسي، في مدينة بيزا، رجلا محترَمًا كان مؤمنا بأرسطو إلى درجة أنّ عقيدته الرئيسية كانت: إنّ قاعدة كلّ حقيقة وحجر الزاوية لكلّ الأفكار الصّلبة هو توافقها مع مذهب أرسطو. فهو قد رأى كلّ شيء وقال كلّ شيء، وما عدا ذلك فهي محض خيالات وترّهات. لقد وضعه رأيه هذا، إذ تمّ تأويله بإسفاف وسوء نيّة، في موقف مربك وفي حرج طويل أمام محكمة التفتيش في روما.

23. عليه أن يمرّر في المصفاة كلّ ما يلقّنه إيّاه، وألّا يعلّمه شيئا بحجّة سلطته عليه أو باستغلال ثقته فيه. ويجب أن لا يقدّم له مبادئ أرسطو ولا مبادئ الرواقيين أو

(1) المطول: هو الحبل الذي يكون على طول محدَّد، نربط به حيوان ليجر مورجَ حصاد، أو يرفع ماء لناعورة.

الأبيقوريين على أنّها عقائد، بل يقدّمها بمختلف أنواعها، فيختار من بينها إن استطاع، وإلّا بقي في الشكّ. لا أحد غير المجنون يكون واثقا من نفسه جازما تمام الجزم.

«*لأنّ متعتي بالمعرفة لا تضاهي متعتي بالشك*»

[Dante, *Enfer*, XI, 93]

24. لأنّه إذا تبنّى، في نهاية المطاف، آراء كزينوفون وأفلاطون، آنذاك تصبح آراؤهما آراءه. إنّ من يتّبع غيره لا يتّبع في الواقع شيئا: إنّه لا يجد شيئا، بل لا يبحث عن شيء. «*إنّنا لا نخضع لملكٍ؛ ليتصرّف كلّ واحد بأمر نفسه*» [Sénèque, *Épîtres*, XXXIII]

لِيَعْلَمْ على الأقلّ أنّه يعلم. يجب أن يتشبّه بطبعهما، لا أن يحفظ قواعدهما. قد ينسى من أين حفظ هذه القواعد، لكن عليه أن يتعلّم كيف يتبنّاها. إنّ العقل والحقيقة ملك للنّاس جميعا؛ وإنّهما لا ينتميان أكثر إلى من عبّر عنهما أوّل مرّة، منه إلى مَنْ ردّدهما من بعده. وما يراه أفلاطون من أمرٍ قد لا يختلف عمّا نراه نحن، طالما أنّنا نراه ونفهمه بنفس الوجه مثله. فالنّحلة تمتصّ مؤونتها من الزهور من هنا وهناك، ثمّ تصنع عسلا، هو عسلها، ولم يعُد لا زعترا ولا مردقوشا. كذلك يمزج المتلقّي العناصر التي يتناولها من غيره ويحوّلها ليجعل منها شيئا خاصّا به حقّا: هو رأيه وحُكمه. وينبغي أن يكون تكوين حُكمه هذا غايته المنشودة التي تتحقّق بالعمل والتربية والتعليم.

25. عليه أن يسكت عن كلّ مرجع عادَ إليه، وألّا يصدح إلّا بما أنجزه بفضله. إنّ الذين يختلسون ويستعيرون يضعون في الواجهة ما أنجزوه واكتسبوه، لا ما أخذوه من غيرهم. إنّك لا ترى العطايا المهداة إلى أحد أعضاء البرلمان، بل كلّ ما تراه هي العلاقات التي حقّقها لنفسه والأمجاد التي بناها لأولاده. لا أحد يعترف أمام الجمهور بما تسلّمه، لكن يعرض كلّ واحد مكاسبه.

إنّ ما نربحه من الدراسة هو أنّنا نصبح أفضل، وأكثر حكمة.

26. كان إبيخارموس (Epicharme) يقول إنّ الذكاء هو الذي يدرك ويفهم، وهو الذي يستفيد من كلّ شيء، ويرتّب كلّ شيء، ويفعل ويسيطر ويحكم، بينما تظلّ كلّ الأشياء الأخرى عمياء صمّاء وبلا روح؛ وقد نجعله وضيعا هيّابا متى حرمناه من حرّية التصرّف بنفسه. من سأل تلميذه مرّة عن رأيه في البلاغة أو النّحو، أو في إحدى مواعظ شيشرون؟ فالمعلومة تُزرَع في ذاكرتنا كالسّهم، بل كالوحْي الذي تكون فيه الحروف ومقاطع الألفاظ نفسها مؤلّفة لجوهره.

إنّ المعرفة عن ظهر قلب ليست هي المعرفة: بل هي حفظ ما أودعناه في ذاكرتنا. وإنّ ما نعلمه حقّا إنّما يكون قيد تصرّفنا دونما إحالة على مثال أو على كتاب. يا لتفاهة

المعرفة التي لا تكون إلّا بالكتاب! لا أريدها أن تكون أُسًّا، وإنّما زخرفًا، قُدوتي في ذلك رأي أفلاطون الذي قال: الحزم والنّزاهة والإخلاص هي الفلسفة الحقّ، أمّا بقيّة العلوم، إذ تسعى إلى أهداف أخرى، فهي لا تعدو أن تكون من قبيل المساحيق والزّينة.

27. بودّي أن أعرف كيف يمكن للي بالوال (Le Paluel) أو بومبي، ذانك الراقصان الرائعان في عصرنا هذا، أن يعلّمانا طريقة الوثب بمجرّد المشاهدة ودون أن نغادر أماكننا! إلّا أنّ هذا ما يزعمه أولئك الذين يريدون تثقيف عقولنا دونما تنشيطها. أو كيف يمكن أن نتعلّم ركوب الحصان، واستعمال الرّمح أو العود أو الغناء، من دون أن نتدرّب على كلّ ذلك، على غرار الذين يريدون تعليمنا حُسن الكلام وجودة التدبير والحُكم من دون تدريبنا لا على الكلام ولا على التدبير والحُكم! والحال أنّ كلّ ما يعرض أمام أعيننا قد يكون بمثابة الكتاب الذي منه ننهل ونتعلّم: مكرُ غلام، وغباءُ خادم، وحديث المائدة، وما إلى ذلك.

28. وعلى هذا فإنّ مخالطة النّاس قد تكون مفيدة جدّا في عمليّة التربية، لأنّها لا تختلف عن زيارة البلدان الأجنبية: حيث لا نقتصر، مثلما يفعل نبلاء فرنسا، على ذكر مساحة سانتا روتوند، أو ثراء الملابس الداخلية للسنيورة ليفيا، أو كذلك، مثلما يفعل بعضهم الآخر، عندما نكتفي بالحديث عن وجه نيرون، ما إذا كان أطول أو أعرض، منقوشًا على بعض الحجارة القديمة، ممّا هو عليه على ميدالية بالية؛ بقدر ما نروي، على العكس من ذلك، ما يتعلّق بطبائع تلك الأمم وتقاليدها، وعندما نجعل عقولنا تحتكّ بعقول غيرنا، فتكون البداية بالفسحة والتجوال، منذ نعومة أظفارنا، بين الأمم المجاورة التي تختلف لغتها عن لغتنا تماما، لأنّه يصعب تطويع اللّسان إذا لم نفعل ذلك باكرا.

29. لا يختلف إثنان في ما يلي: إنّه من غير المستحسن أن يتربّى الطفل في حضن والديه. ذلك لأنّ المحبّة الطبيعية تجعلهما أكثر حُنوًّا وتسامحًا، حتى وإن كانا من أشدّ النّاس تعقّلًا: إنّهما لا يقدران حتى على مجازاة ابنهما على أخطائه، ولا على رؤيته يتربّى بخشونة وفي أوضاع خطرة مثلما ينبغي. كما أنّهما لا يتحمّلان رؤيته عائدا من التمارين ملطّخا بالتراب ويتصبّب عرقا، أو يتناول شرابا ساخنًا أو باردًا، أو يركب حصانًا هائجًا، أو يستلّ سيفه لمواجهة رام ماهر، أو يستعمل بندقيّته لأوّل مرّة. لكن لا توجد طريقة أخرى: فإذا أردنا أن نصنع منّه رجلًا صالحًا، لا بدّ أن نقسو عليه في فترة شبابه وألّا نراعي دائما القواعد الطبّية.

«ليكن عيشه في الهواء الطلق، في جزَع وحيْرة»

[Horace, *Odes*, III, 2, V. 5]

30. لا يكفي أن نقوّي روحه، بل يجب أيضا أن نقوّي عضلاته؛ لأنّ الرّوح تكون

مرهقة إن لم تجد سنَدًا لها، لانشغالها بأمور كثيرة تمنعها من تحمّل الوظيفتين معًا. إنّي أعلم كم تُعاني روحي من اقترانها بجسدٍ حسّاس رقيق يعوَّل عليها كثيرا مثل جسدي. لطالما أطلعتني قراءاتي على أساتذة رأوا في بعض الأمور علامة على الشجاعة والمروءة بينما هي تتعلّق بسُمك الجِلد وصلابة العظام...! لقد شاهدت رجالا ونساء، بل كذلك أطفالا، يتأثّرون من الضرب بالعصا أقلّ من تأثّري من نَقرة، ولا ينبسون بكلمة، بل حتّى إنهم لا يقطّبون، رغم الضرب المبرّح. وعندما يحاكي الرياضيون صبر الفلاسفة، يكون ذلك بالنظر إلى قوّتهم البدنية، لا إلى قوّتهم العقلية. إنّ من يتعوّد على تحمّل الشغل والعمل يتعوّد على تحمّل الألم:

«إنّما العمل نوع من الجُسأة[1] ضدّ الألم»

[Cicéron, *Tusculanes*, II, 15]

31. يجب أن يتعوّد التلميذ على الألم وعلى التمارين الشاقّة كي يصبح قادرا على تحمّل أوجاع الانخلاع والمغص والكيّ، وحتّى السّجن والتعذيب. ذلك لأنّه معرّض، في أوقاتنا هذه، للأخيرين: فالأخيار قد يصيبهم منهما كالأشرار تماما. إنّ التجربة أصدق مثال على ذلك... كلّ من يقف ضدّ القوانين يهدّد أخيار النّاس بالسوط والمشنقة.

32. إنّ سلطة المعلّم، إذ ينبغي أن تكون تامّة على التلميذ، قد تَبطل وتُعاق بسبب حضور الوالدين. ثمّ إنّ ما يلحظه المعلّم من احترام الخدم للتلميذ ومن ثراء أسرته وتميّزها، قد يكون مسيئا في مثل هذا العمر.

33. وغالبا ما لاحظت في هذا التدرّب على التعامل مع النّاس العيب التالي: عوض أن نسعى إلى معرفة الآخر، تجدنا نبذل قصارى جهدنا لتعريف الآخر بنا. ويكون همّنا الوحيد أن نعرض بضاعتنا، أكثر من أن نكسب بضاعة جديدة. بيد أنّ الصّمت والتواضع خصلتان مفيدتان جدّا في التعامل مع الآخرين. يجب أن نعلّم الطفل ألّا يتباهى بما كسبه من معرفة، وألّا يتأثّر بالحماقات والخرافات التي تُقال أمامه، لأنّ من قلّة الأدب أن ننتقد كلّ ما لا يتّفق مع ذوقنا. ليقتصر على إصلاح نفسه أوّلا، وليكفّ عن مؤاخذة غيره عن أمرٍ لا يقبل أن يقوم به هو نفسه، وعن الخروج هكذا عن القواعد العامّة للّياقة والأدب.

«يمكنك أن تكون حكيما من دون تفاخر ولا غطرسة»

[Sénèque, *Épîtres*, CIII]

---

(1) الجسأة: الجلد الخشن، القاسي.

34. عليه أن يتجنّب التصرّفات المغرورة المشينة، وأن يكفّ عن ذلك المَيْل الصّبياني إلى التميّز والانفراد بالنباهة، وعن رغبة البروز بفضل النّقد وإتيان الجديد. فكما أنّه يُتسامح مع كبار الشعراء فقط على ما يقترفونه من الجوازات الشعرية، فكذلك يُتسامح مع النّفوس الراقية العظيمة فقط على ما تستسمحه لنفسها من امتيازات فوق المألوف.

«إذا حدث لسقراط أو لأرستيبوس أن زاغ عن العادات والتقاليد، يجب ألّا نظنّ أنّ ذلك مسموح به لنا أيضا: بل يسمح لهما بالانحراف هكذا لما لديهما من خصال ربّانية إستثنائية».

[Cicéron, *De Officiis*, I, Xli]

وسنعلّمه ألّا يحتجّ ولا يحاجج إلّا أمام خصم جدير بالمحاجحة؛ وحتى في هذه الحالة، ألّا يستعمل كلّ الطرق التي قد تخدمه، بل فقط تلك التي يحتاجها أكثر.

35. لنجعله حريصا على اختيار حججه وترتيبها، وعلى ملاءمتها، وبالتالي على إيجازها. ولنعوّده قبل هذا كلّه أن يعترف بالهزيمة وأن يستسلم للحقيقة حالما يتبيّنها، سواء بانت عند خصمه أو اتّضحت له بعد أن غيّر رأيه. ذلك لأنّه لن يصعد المنبر لسرد نصّ محدّد، ولن يخدم أيّ قضيّة عدا التي يوافق عليها. كما أنّه لن يمارس تلك المهنة التي تباع فيها وتشترى حرّية تغيير الرأي والاعتراف بالخطأ.

«لا واجب يرغمه على الدفاع عن أفكار أُمليت عليه وفُرضت».

[Cicéron, *Académiques*, II, 3]

36. إذا كان طبع معلّمه مثل طبعي، فسيجعل منه خادمًا مخلصًا لأميره، متحمّسًا جدّا وشجاعا؛ لكن سيمنعه من التعلّق به خارج حدود الواجبات الرسمية؛ إذ علاوة على عيوب أخرى كثيرة قد تضرّ بحرّيتنا بسبب ما تخلقه من التزامات خاصّة، فإنّ الحُكم الذي يطلقه الرجل الملتزم والمأجور إمّا أن يكون فاقدًا بالضرورة للحياد والحرّية، وإمّا أن يُنعت بالإجحاف والجحود.

37. لا يستطيع جليس الأمراء، بل لا يريد، أن يتحدّث ويفكّر بما لا يرضي سيّده، إذ اختاره من بين الآلاف من رعاياه كي يسانده ويجمّل صورته. هذه الحظوة التي حظاه بها تُبهره وتُفسد حرّيته، والسّبب واضح. ولذلك فإنّ لغة هذا النوع من النّاس تختلف عادة عن اللّغة المستعملة في مختلف الوظائف، فيجب ألّا نثق بها.

38. ينبغي، على العكس من ذلك، أن يتألّق ضمير التلميذ وأن تبرز خصاله من خلال

كلامه، وألّا يكون إمامه سوى العقل؛ وأن نجعله يفهم ما يلي: أنّ اعترافه بالخطإ الذي يكتشفه في استدلاله، وإن لم يتفطّن له الآخرون، إنّما هو عربون نزاهته؛ وأن يفهم أنّ التعنّت والتكذيب سمتان شائعتان عند أصحاب النّفوس الوضيعة؛ وأنّ مراجعة النفس وإصلاحها، والتخلّي عن موقف باطل عندما يحمى النقاش، فهذه على العكس خصال نادرة، عتيدة وفلسفية.

39. سنشير إليه بأن ينتبه إلى كلّ شيء عندما يكون وسط مجموعة؛ فالمقاعد الأمامية يشغلها عادة أقلّ النّاس كفاءة، ويندر أن تكون الوظائف السهلة موافقة لقدرات من يمتلكونها. ولقد لاحظت أنّه عندما يدور النقاش في طرف من المائدة حول جمال نسيج مزخرف أو مذاق «المالفوازي»[1]، لا أحد ينتبه إلى ما يدور في الطرف الآخر من أفكار جميلة.

40. سيُطلب منه أن يستقصي قدرات كلّ واحد، أكان راعي بقر أم بنّاء أم عابر سبيل؛ ينبغي أن يستغلّ كلّ واحد وأن يستفيد بما يجد عنده، لأنّه ما من شيء إلّا وله فائدة: فقد يتعلّم المرء حتى من غباء الآخرين وضعفهم. فإذا دقّق في مواقف كلّ النّاس وتصرّفاتهم، مال إلى جيّدها وازدرى سيّئها.

41. لنغرس فيه الفضول النّزيه وحبّ الاطّلاع على كلّ شيء، حتى لا يفوته أيّ أمر طريف من حواليه: عمارة، نافورة، رجل، موقع معركة قديمة، مكان مرّ به قيصر أو شارلمان.

«أيّ أرض جمّدها الجليد،
أيّها جعلها الحرّ مذرّاة؛
ما هي الرياح المناسبة
لدفع الشراع في إيطاليا».

[Properce, IV, III, 39]

42. عليه أن يسأل عن أخلاق هذا الأمير أو ذاك، وعن ذرائعه وتحالفاته: فهذه أمور نستمتع بمعرفتها ونستفيد.

43. وفيما يتعلق بمخالطة النّاس، لا تفوتني الإشارة إلى أولئك الذين لا يعيشون إلّا بذاكرة الكتب. فعلى التلميذ إذن أن يعاشر، عن طريق القصص التاريخية، النّفوس النبيلة لأفضل العصور. قد تبدو هذه الدراسة لبعضهم غير مجدية، لكنّها قد تبدو أيضا،

---

(1) 115. خمر يونانية عذبة من شبه جزيرة مالفوازي (Malvoisie).

لبعضهم الآخر، مفيدة للغاية؛ بل هي، على حدّ قول أفلاطون، الدراسة الوحيدة التي عكف عليها أهالي لقيديمونيا. ألن يستفيد مثلا من قراءة كتاب «السِّيَر» لبلوتارخوس؟ لكن رجائي أن لا يغفل المعلّم عن هدفه، وأن يجعل تلميذه يذكر طبع حنّبعل وسكيبيو بدلا من حفظ تاريخ انحطاط قرطاج؛ وبدلا من تذكّر المكان الذي لقي فيه مارسلّوس (Marcellus) حتفه، أن يتذكّر الأسباب التي جعلت موته لا يشرّفه؛ ألّا يعلّمه قصص التاريخ بقدر ما يعلّمه العبرة منها. لأنّ التاريخ في رأيي إنّما هو، من بين كلّ المواد، المادة التي تتعامل معها عقولنا بأكثر الوجوه.

44. قرأتُ عند تيتوس ليفوس الكثير ممّا لم يقرأه غيري؛ وقرأ بلوتارخوس أضعاف ما أحسنت أنا قراءته، وربّما أكثر حتّى ممّا كتبه المؤلّف نفسه. قد يرى بعضهم فيما كتبه مجرّد موضوع لعلم النّحو، وقد يرى فيه بعضهم الآخر موضوعا مرموقا للتفلسف ولتقصّي أكثر جوانب طبيعتنا تخفّيا. يوجد عند بلوتارخوس من الخُطَب المسهبة ما يستحقّ أن نطّلع عليه، لأنّه في ذلك بليغ؛ لكن نجده في ألف عرض آخر يمرّ مرّ الكرام ويشير فقط إلى حيث يمكن أن نتوجّه إذا رُمنا ذلك، كما يقتصر أحيانا على رسم خلاصة في وسط العرض تماما. يجب أن نستخلص هذه الأشياء وأن نضعها جليّة في الصدارة؛ كمثل ما قاله عن سكّان آسيا الذين بقوا عبيدًا لرجل واحد لأنّ المقطع اللّفظي الوحيد الذي لم يحسنوا نطقه هو «لا»؛ ولعلّ قوله هذا هو ما استحثّ لا بويَسي على تأليف مقالته عن «العبودية الطّوعية».

45. يكفي أن نراه يؤكّد على عمل بسيط في حياة شخص ما، أو حتى على مجرّد كلمة تبدو غير هامّة، حتى نتفكّر في ذلك ونتأمّل. من المؤسف أن يميل النّاس الأذكياء إلى الإيجاز: لا شكّ أنّ ذلك يخدم سمعتهم، إلّا أنّنا هكذا لا نجني منهم كثيرا. فبلوتارخوس يفضّل أن نمدحه على حصافة حُكمه أكثر منه على علمه: إنّه يحبّ أن يتركنا متعطّشين وألّا يروينا. كان يعلم أنّه حتى بشأن الأمور المثيرة للاهتمام، قد يصبح كلامنا هذرًا؛ ولقد كان ألكسندريداس (Alexandridas) على صواب لمّا عاب على شخص أسهب في خطابه إلى قضاة إسبرطة، وإن كان خطابه حصيفًا: «أيّها الغريب، أنت تقول ما يَلزم، لكن بوجه آخر غير الذي يَلزم!» يسعى أولئك الذين يملكون جسمًا نحيفا إلى تضخيمه بالحشو، ويسعى أولئك الذين يملكون أفكارا قليلة إلى نفخها بالكلام.

46. تفيد مخالطة النّاس كثيرا في فهم بني الإنسان. فنحن كلّنا نتقوقع على أنفسنا، ولا يتجاوز بصرنا طرف أنفنا. سئل سقراط عن أصله، فلم يجب «من أثينا»، بل قال «من العالم». كان فكره أكثر ثراء ورحابة من فكر غيره، وكان ينظر إلى الكون على أنّه وطنه، ويسخّر معرفته ومجتمعه وعاطفته لكافة النّوع البشري؛ على خلافنا نحن إذ لا

نظر إلى أبعد من أطراف قدمينا. عندما تتجمّد الكروم في قريتنا، يرى راعي كنيستنا في ذلك حجّة على غضب الله على الإنسان؛ وقد يرى أنّ أكلة لحم البشر أنفسهم سيصيبهم ورم في اللّسان...

47. عندما نرى ما يدور من حروب أهليّة، من منّا لا يصرخ قائلا إنّ العالم يسير نحو الهاوية، وأنّها من علامات الساعة، فتغيب عنّا نكبات الماضي وهي أعظم، ومع ذلك استمرّت الإنسانية تعيش في معظمها في فرح وسعادة؟ أمّا أنا فإنّي أتعجّب من لطف تلك الحروب وفتورها، سيّما أنّ المتسبّبين بها يظلّون دون عقاب. إنّ الذي يتساقط البرد فوق رأسه قد يظنّ أنّ الزوبعة الرعدية تشمل نصف الكرة الأرضية. قال رجل من جهة سافوا، «*لو أحسن ملك فرنسا المغفّل قيادة مركبه، لكان بإمكانه أن يكون كبير الخدم في منزل دُوقٍ*». قال ذلك لأنّ عقله عاجز عن تصوّر منزلة أرقى من منزلة سيّده ومولاه نفسه.

48. نقع كلّنا في مثل هذا الخطإ، دون أن نشعر؛ خطأٌ قد تترتّب عليه نتائج وخيمة. أمّا ذلك من يتمثّل، كما في لوحة، الصورة العظيمة «لوالدتنا الطبيعة»، في روعتها وجلالها، ويدرك الثبات وراء تنوّعها، ويلمح فيها، فضلا عن كيانه، مملكة برمّتها مرسومة بمنقاش ناعم دقيق، ذلك فقط دون سواه يستطيع أن يمنح الأشياء بُعدها الحقيقي.

49. هذا العالم الكبير الذي يقسّمه بعضهم إلى أنواع متعدّدة تنتمي إلى نفس الجنس، إنّما هو المرآة التي ينبغي أن نتأمّلها كي نرى فيها أنفسنا جيّدا. وباختصار، أريدُ أن يكون العالم كتابا مفتوحًا أمام تلميذي؛ إذ فيه نرى من الطبائع والطوائف والأحكام والآراء والقوانين والتقاليد ما يجعلنا نحكم بصواب على التي تعود إلينا، وما يجعلنا ندرك ضعف أحكامنا ونقصها الطبيعي – وليس هذا بالأمر الهيّن. فعندما نرى ما يحدث من تقلّبات سياسية ومن نوائب الدهر، ندرك تفاهة مصيرنا الشخصي. وعندما ندرك كثرة الأسماء العظيمة وعدد الانتصارات والفتوحات التي دخلت طيّ النسيان، يغدو من السخافة بمكان أن نأمل في تخليد أسمائنا بالتغلّب على عشرة فرسان واحتلال كوخ لا يُعرف له إسم إلّا لكونه وقع احتلاله. إنّ المواكب الأجنبية المتكبّرة المزهوّة، والأكابر من أهل البلاط المنتفخين عظمة، كلّ هذا يجعل بصرنا أشدّ، فلا يبهره لمعان ما نملكه ولا تَحْوَلُّ أعيننا. ملايين من البشر دُفنوا قبلنا، ما ينبغي أن يشجّعنا على الالتحاق بهم والتمتّع بصحبتهم... وهكذا بالنّسبة إلى كلّ أمر.

50. تشبه حياتنا، كما قال فيثاغور، محفلًا شعبيّا كبيرًا للألعاب الأولمبية: بعضهم يأتونه لتدريب أجسامهم والفوز بالأمجاد، وبعضهم الآخر يزورونه لبيع بضاعتهم

وجني الأرباح، وبعضهم أخيرًا (وهم ليسوا الأسوأ) لا يطمعون إلّا في رؤية كيف ولماذا تحدث الأشياء، وفي مشاهدة حياة الآخرين والحكم عليها وتدبير حياتهم الخاصة.

51. يمكن أن نربط هذه الأمثلة بالاستدلالات الأكثر إفادة في الفلسفة، باعتبارها معيار الأعمال الإنسانية وقاعدتها. سنقول له:

«ما يمكن أن نتمنّاه؛
وفيم يفيدنا كسب المال بعرق الجبين؛
ما يطلبه منّا آباؤنا وكذلك الوطن؛
ما أرادك ربّك أن تكون؛
وما هو الدّور الذي ضبطه لك في المجتمع؛
ماذا عسانا نكون وما الغاية من وجودنا».

[Perse, *Satire III*, 69-73]

52. سنخبره أيضا عن معنى المعرفة ومعنى الجهل، وعن الهدف من الدراسة؛ وعن الشجاعة والاعتدال والعدل؛ وعن الفرق بين الجشع[1] والبخل، وبين العبودية والرعويّة، وبين الإباحيّة والحرية؛ وعن علامات السعادة الثابتة الحقيقية؛ وإلى أيّ حدّ ينبغي أن نخشى الموت والألم والعار،

«وكيف نتجنّب كلّ ألم أو نتحمّله»

[Virgile, *Énéide*, III, 459]

53. وسنخبره كذلك عن القوى التي تحرّكنا، وعن أسباب مختلف نشاطاتنا. إذ يبدو لي أنّ الاستدلالات الأولى التي ينبغي أن نغذّي بها ذكاءه هي تلك التي تنظّم أحكامه وأعماله، وتعلّمه معرفة نفسه، وكيف ينبغي أن يحيا ويموت. ومن بين الفنون المتحرّرة، لنبدأ بالفنّ الذي يحرّرنا.

54. فهي في الواقع كلّها مفيدة، بوجه ما، في تكويننا وتوجيه حياتنا، شأنها شأن الأمور الأخرى. لكن علينا أن نختار هاهنا الفنّ الأكثر إفادة، والذي لا يرمي إلى غير الإفادة.

55. لو كنّا نستطيع أن نُبقي الأمور التي تتعلّق بحياتنا في حدودها الطبيعية الصحيحة،

---

(1) نترجم هنا *ambition* بـ«جشع» لأنّ اللفظ الفرنسي ترجمته الحرفية الضيقة هي «طموح» لكنه يحمل أيضا معنى الرغبة والشهوة والطمع إلخ وقد بان لنا أنّ الترجمة المناسبة هنا هي «جشع» لأنّ مونتاني يريد التمييز بين معان متقاربة ومختلطة (هنا بين البخل والجشع).

لوجدنا أنّ أعظم جزء من العلوم التي نستخدمها إنّما هو خارج الاستعمال، وأنّ العلوم التي نستعملها تتضمّن جوانب وجزئيات غير مجدية تماما، قد يُستحسن تركها على ما هي عليه، والعمل بنصيحة سقراط بإخلاء دائرة معارفنا من المباحث التي لا تنفع.

«تجرّأ وكُنْ حكيمًا،
لأنّ من يتأخّر عن العيش الجيّد
إنّما هو كالبدويّ الذي
ينتظر أن يجفّ النّهر كي يعبره،
والحال أنّ مياهه تسيل أبدا».

[Horace, *Épîtres*, I, 2]

56. من الحماقة بمكان أن نعلّم أطفالنا

«تأثير برج الحوت، وحماسة برج الأسد،
وعلامات برج الجدي في أمواج هسبيريا»

[Properce, IV, 4,85-86]

وأن نلقّنهم علم النجوم وحركة الفلك الثامن، قبل أن نعلّمهم ما يهمّهم مباشرة.

«فيم تهمّني معرفة الثريّا
وفيم تهمّني كوكبة بوفييه؟»

[Anacréon, *Odes*, XVII, 10-11]

57. كتب أناكسيمانس إلى فيثاغور فقال: *«كيف لي أن أتمتّع بالبحث عن سرّ النجوم، بينما يكون الموت والعبودية نصب عينيّ دون هوادة؟»*.

قال ذلك حقّا في عصر كان فيه ملوك بلاد فارس يستعدّون لمحاربة وطنه. فهذا ما ينبغي أن يقوله كلّ واحد: *«كيف لي وأنا أحترق طموحا وشحّا وتهوّرًا وتصديقًا بالخرافات، كيف لي وأنا أستضيف هؤلاء الأعداء للحياة، أن أفكّر في حركة العالم؟»*

58. بعد أن يتعلّم ما يسمح له بأن يصبح أكثر حكمة وأفضل ممّا هو عليه، سنعرّفه بالمنطق والطبيعيات والهندسة والخطابة؛ وحين تنمو قدرته على الحكم، سيتمكّن بسرعة من العلم الذي يختاره. سيكون الدّرس تارة في شكل الحوار، وطورًا باعتماد الكتب. سيوفّر له معلّمه تارة نصوصًا تتعلّق بموضوع الدّرس، وسيقدّم له طورًا خلاصة الدّرس وزبدته. وإذا كان المعلّم نفسه تنقصه معاشرة الكتب ويعجز عن استخلاص ما تتضمّنه من أفكار جميلة كثيرة، سنضيف إليه أديبًا يساعده على تحقيق مبتغاه ويوفّر له،

كلّما اقتضت الحاجة، المؤونة الضرورية التي سيقدّمها «لرضيعه». ولا أحد يشكّ في أنّ هذا النوع من التعليم إنّما هو أسهل وأقرب إلى الطبيعة من التعليم الذي اقترحه غازا (Gaza)[1]. فعند هذا الأخير لا نجد سوى قواعد شائكة مملّة، وكلام مبتذل يكاد يخلو من المعنى، بلا ركيزة ولا أيّ شيء قادر على إيقاظ الذهن. أمّا في نمط التعليم الذي أقترحه، فإنّ الفكر يجد على العكس أين يقضم وممّا يقتات، وتكون الثمار التي يجنيها أسرع نضوجًا مع أنّها أعظم بالتأكيد.

59. من الغريب أن بلغت الأمور هذا الحدّ في عصرنا، وأن أصبحت الفلسفة، حتّى في نظر النّاس الأذكياء، أمرا خياليّا وكلمة جوفاء، لا تصلح لشيء ولا قيمة لها عند العامّة ولا في الواقع. وأعتقد أنّ السّبب هو أنّ شعابها امتلأت بالسفاسف والمناقشات العقيمة. فمن الخطإ الذريع أن نعتبرها مستعصية على الأطفال، وأن نرسم لها وجهًا مخيفًا عبوسًا قمطريرًا: إذ من ذا الذي وضع لها هذا القناع الشاحب البشع؟ مع أنّه لا شيء يفوقها مرحًا وجذلًا وبهجة، بل قد أقول: دعابًا ومزاحا... إنّها تدعو إلى الاحتفال والبهجة والمسرّة؛ أمّا الكآبة والحزن، فهي تأباهما.

60. شاهد دمتريوس النّحوي (Démétrius Le Grammairien) جماعة من الفلاسفة جالسين في معبد دلفي، فتوجّه لهم بهذا الكلام: *«إمّا أنّني مخطئ، وإمّا أنّه لا يدور بينكم نقاش مهمّ، إذ تبدو عليكم علامات الانبساط والبهجة»*. فأجابه هرقليون الميغاري (Héracléon Le Mégarique): قد يجوز أن ترى الإكفهرار على وجوه أولئك الذين يتناقشون، في مجال علمهم، ويتساءلون عمّا إذا كان الفعل βαλλω يُكتب في زمن المستقبل بحرفيْ «لام»، أو يبحثون في اشتقاق أفعال المقارنة χειρον وβελτιον وأفعال التفضيل χειριστον وΒελτιστον؛ أمّا الذين يتناقشون حول مسائل فلسفية فإنّك تراهم مَرِحين ومنشرحين، ولا تراهم يحزنون ويكفهرّون !

«قد تشعر من خلال الجسم المرهق
بالروّح الحيرانة،
لكن قد تشعر أيضا بأفراحها،
لأنّ الوجه يعبّر عن كلتا الحالتين».

[Juvénal, *Satires*, IX, 18-20]

---

(1) ثيودوروس غازا (Théodore Gaza, 1398 - 1475) واحد من أهم العلماء اليونانيين في القرن الخامس عشر، ترجم أعمال أرسطو في العلوم الطبيعية، وألّف كتابا في «النّحو اليوناني»، ولعلّ مونتاني يفكّر هاهنا في هذا الكتاب بالذات.

61. إذا أقامت الفلسفة في الرّوح، صارت الرّوح في صحّة جيّدة وانعكست صحّتها على الجسم؛ ووجب على الرّوح أن تُجلي هدوءها وانشراحها، وأن تجعل مظهرها الخارجي مطابقا لباطنها، متّسما بالنشاط والأَنَفة والحبور، بشكل لطيف مريح. إنّ العلامة المميّزة للحكمة هي البشاشة المستمرّة وطلاقة المُحيّا: بحيث تكون على وضع من السكون والهدوء شبيه بوضع الأشياء القائمة ما بعد القمر. إنّ «باروكو»(Baroco) و«بارالبتون»(Baralipton) هما اللّذان يجعلان الشغوف بهما قذِرًا نتنًا، وليس الحكمة، لأنّه لا يعرفها إلّا معرفة سمعيّة. فما هي الحكمة؟ إنّها ما يعمل على تهدئة عواصف الرّوح، وما يجعلها تسخر من الجوع والحمّى؛ لا يكون ذلك بالتّيه في آفاق خيالية بعيدة، وإنّما بحجج طبيعية ملموسة. إنّ غايتها هي الفضيلة، التي لا تنبت، كما يُقال في المدارس، في قمّة جبلٍ وعرٍ شديد الانحدار يتعذّر صعوده.

62. بل على العكس، كلّ من قارَبها وجدَها في هضبة خصبة مُزهرة، حيث تعلو وتشرف على الأشياء جميعا. وكلّ من علم بمكانها، أمكنه بلوغها بسهولة من خلال دروب مظلَّلة معشوشبة تكسوها الأزهار، لأنّ منحدرها منتظم وخفيف كمنحدر قبّة السماء الزرقاء.

إنّهم لم يتعوّدوا على أُلفة تلك الفضيلة الراقية، الجميلة، المنتصرة، المُحبّة، اللذيذة، الشجاعة، العدوّة اللّدودة للشّؤم والحزن والخوف والقهر، والتي لا تأتمر إلّا بالطبيعة ولا قرين لها سوى الحظّ السعيد والمتعة. بسبب ضعفهم، رسموها بصورة كئيبة، مشاكسة، مغتاظة، مهدِّدة، مكفهرّة، وعزلوها مع الأشواك فوق صخرة، كمثل شبح جُعل لإرعاب النّاس.

63. إنّ المعلّم، إذ يتمثّل شغله في جعله يتعلّق بالفضيلة بشوق يساوي، بل يفوق، احترامه لها، سيقول له إنّ الشعراء أيضا يخضعون للعواطف الشائعة، وسينبّهه إلى كون الآلهة قد جعلت العَرق يجري في الشوارع التي تؤدّي إلى ديار فينوس، لا في التي تقود إلى ديار بالّاس (Pallas). وعندما ينتبه إلى هذه الأمور، سيقدّم له برادامنتا (Bradamante) أو أنجليكا (Angélique) عشيقتين له، الأولى بجمالها الطبيعي ونشاطها وأريحيتها ورجوليّتها (غير المسترجِلة)، والأخرى بجمالها النّاعم الرقيق المصطنع. الواحدة ترتدي كالشّاب وتحمل فوق رأسها خوذة لامعة، والثانية ترتدي كالفتاة وتحمل قبّعة مزدانة باللّؤلؤ. وسيحكم بأنّ عشقه عشقٌ ذكوريّ إذا رآه يختار عكس ما اختاره ذلك القسّ المتخنّث أصيل فريجيا (Phrygie)... وسيعلّمه أمرا جديدا: إنّ قيمة الفضيلة الحقيقية وعظمتها إنّما تكمن في يُسرها ومنفعتها وفي ما توفّره من متعة، كما في خلوّها من كلّ مشقّة، حتّى أنّ الأطفال أنفسهم يقدرون على نيلها مثل الكهول، والبسطاء مثل الأذكياء. ذلك لأنّ سِمَتها هي الاعتدال، وليس القوّة.

64. لقد شاء سقراط، إذ كان حبيبها الأوّل، أن يترك كلّ شيء وينصاع إلى هذه العشيقة ويمشي على خُطاها، لأنّها الأمّ الحاضنة لملذّات الإنسان. فهي إذا صحّحَتها، جعلتها ملذّات يقينيّة خالصة؛ وإذا عدّلتها، أبقيتها موضوع اشتياق واشتهاء. وإذا منعت عنّا قبيحها، هيّجت رغبتنا فيما لم تمنعه عنّا؛ كما أنّها تتركنا ننعم بما تغدق به علينا الطبيعة الحنون من ملذّات، حتّى الشبع، بل حتّى الملل. اللّهم إلّا إذا اعتبرنا من باب المعاداة للّذة أن يتوقّف المرء عن الشرب قبل أن يسكر، وعن الأكل قبل أن يتخم، وعن الدعارة قبل أن يصاب بالثعلبة! وإذا لم تجد عنده رغبة في لذّة عادية، غادرته واستغنت عنه وتعلّقت بعشيق آخر لايطفو ولا يتحرك: لأنّها تعرف كيف تكون غنيّة قويّة عليمة، وكيف ترقد فوق فراش معطّر.

65. الحكمة تعشق الحياة والجمال والمجد والصحّة. لكن يبقى شغلها الشاغل هو تدبير هذه الخيرات باعتدال، والتفريط فيها بحزم وثبات: تُعتبر هذه المهمّة نبيلة أكثر منها قاسية، ومن دونها تفقد الحياة من طبيعتها وتتشوّه ويلحقها الاضطراب، وآنذاك تظهر فيها تلك المزالق والشعاب والوحوش {التي تحدثت عنها آنفا}. فإذا فضّل التلميذ أن يصغي إلى بعض الحكايات عوضًا عن روايةِ رحلةٍ جميلةٍ أو عن كلام حصيف يستطيع فهمه، وإذا فضّل سماع طبلٍ يدعو إلى الألعاب البهلوانية عوض الطّبل الذي يشحذ عزائم أترابه، وإذا كان شعوره بالمتعة والبهجة عندما يعود من لعبة الكفّ أو من بعض المحافل حاملا لجائزة، أكثر منه عندما يعود من معركة حامية الوطيس تكلّلت بالانتصار، آنذاك لا أرى حلّا آخر غير تشغيله في محلّ للمرطّبات في إحدى المدن، ولو كان ابن دُوقٍ، وفقا لمبدإ أفلاطون القائل يجب أن نعطي للأطفال المكان المناسب في المجتمع، ليس بالنظر إلى حسبهم ونسبهم، وإنّما باعتبار ما تملكه نفوسهم من استعدادات.

66. ولمّا كانت الفلسفة تعلّمنا الحياة، وتلقّن دروسا حتى للأطفال ولغيرهم من الأعمار الأخرى، فلماذا لا نعلّمها لتلميذنا؟

> *«الطّين ليّن ورطب: يجب أن نسرع،*
> *وأن تدور العجلة بخفّة وتشكّله !»*

[Perse, III, 23-25]

67. إنّا نتعلّم الحياة بعدما يفوت الأوان: مائة طالب أصابهم مرض الزُّهري قبل أن يصلوا إلى درس أرسطو الذي يعلّمهم الاعتدال!... قال شيشرون إنّه حتى لو عاش مدّة شخصين اثنين، لن يثقل كاهله بدراسة الشّعر الغنائي. وفي اعتقادي أنّ أولئك الذين

يمكن أن نطلق عليهم اسم «الجدليين المتمحّكين» إنّما هم، للأسف، لا يُجدون كذلك نفعا. فبالنسبة إلى الطفل الذي أتحدّث عنه، الوقت يمرّ بسرعة: وينبغي ألّا تتجاوز مرحلة تربيته الخمسة عشر أو الستّة عشر سنة الأولى من عمره، وأن يكرّس ما بقي منه للفعل والعمل. يجب إذن تخصيص زمن قصير لتعليم ما هو ضروري. أزيلوا كلّ الترّهات، وأزيلوا تمحّكات الجدليين المعقّدة التي لا تمتّ لحياتنا بصلة، وتناولوا المسائل البسيطة التي تهتمّ بها الفلسفة؛ أحسِنوا اختيارها ومعالجتها، فهي أيسر على الفهم من بعض خرافات بوكاتشيو: فالطفل يقدر على ذلك حالما يغادر أحضان مربّيته، أكثر من قدرته على القراءة أو الكتابة. إنّ الفلسفة تهتمّ بالإنسان في نعومة أظفاره كما في هرمه.

68. أنا من رأي بلوتارخوس: فـأرسطو لـم ينشغل بتعليم تلميذه اللّامع[1] فنّ القياس المنطقي أو مبادئ علم الهندسة بقدر ما دأب على تلقينه المبادئ الصحيحة للشجاعة والبسالة والشهامة والاعتدال، وعلى جعله يقف بحزم ولا يرتاب من شيء. ثمّ حمّله كلّ ذلك وأرسله لغزو العالم بعتاد يضمّ 30,000 من الجنود المشاة و4000 من الفرسان واثنين وأربعين ألف درهم لا غير. أمّا الفنون والعلوم الأخرى، قال بلوتارخوس، فمع أنّ الإسكندر كان يجلّها ويمجّدها ويجد متعة في تعاطيها، إلّا أنّه لم يعشقها لدرجة أن يرغب في ممارستها.

«إليكم هاهنا، يا شباب ويا شيوخ،
قاعدة ثابتة لتعملوا بها،
وزاد أخير لأيّام الشقاء
والشعور البيضاء».

[Perse, V, 5,64]

69. هذا ما قاله أبيقور في بداية رسالته إلى ميناقايوس: «على الشّاب ألّا يتأخّر عن التفلسف، وعلى الشيخ ألّا يملّ من التفلسف. لأنّ من يقول عكس هذا هو كمن يزعم أنّه لم يحن بعدُ الأوان للعيش السعيد، أو أنّه قد فات الأوان».

70. ولأجل كلّ ما تقدّم ذكره، لا أريد أن يُسجن هذا الصبيّ، ولا أريد أن يقع تسليمه لمعلّم مكتئب حانق مختبل العقل. لا أريد أن يتشوّه تفكيره بالخضوع، شأن غيره، إلى عذاب العمل أربعة عشر أو خمسة عشر ساعة في اليوم، كما لو كان يشتغل حمّالا.

(1) هو إسكندر الكبير.

وإذا شوهد منغمسًا في المطالعة بسبب ميله الطبيعي إلى الكآبة والعزلة، فإنّي لا أريد أيضا أن يُسمح له بذلك ويساعَد عليه؛ لأنّ ذلك يجعل الأطفال عاجزين عن المشاركة في الحياة الاجتماعية ويزيغون عن مشاغل أهمّ. لكَم شاهدت، في شبابي، من أفراد أضحوا أغبياء بسبب تعطّشهم المفرط إلى العلم! كمثل كرنياد (Carnéade) الذي شَغله ذلك حتى عن حلاقة شعره وتقليم أظافره!

71. ولا أريد كذلك أن تَفسد استعدادات الطفل الطيّبة بسبب فظاظة الآخرين وطبعهم الغليظ. كان يوجد في الماضي مثلٌ يقال عن الحكمة الفرنسية، باعتبارها تبدأ في ساعة مبكّرة، إلّا أنّها لا تدوم طويلا... وبالتأكيد فإنّ أطفال اليوم، أبناء فرنسا الصغار، يجلبون المحبّة والعطف في بادئ الأمر، ثمّ يخيّبون الآمال التي عُلّقت عليهم. وإذا بلغوا سنّ الرشد، لم يبق لديهم ما يثير الاهتمام. لقد بلغني من أناس أذكياء أنّ المعاهد التي يرسَلون إليها، وهي كثيرة، هي سبب بلادتهم وغبائهم.

72. أمّا تلميذنا، فإنّا نوفّر له غرفة، وحديقة، وطاولة، وفِراشًا، والوحدة والصحبة، صباحا مساء، في كلّ ساعة وفي كلّ مكان يصلح قاعة للدرس. ذلك لأنّ الفلسفة، بما هي موضوع دراسته المفضّل، وباعتبارها ما يصقل الحُكم ويهذّب الطبع، تتميّز بقدرتها على الولوج في كلّ مكان. لقد صدق الخطيب إيزوقراط لمّا طُلب منه، أثناء مأدبة، أن يتحدّث عن فنّه فقال: «ليس الظرف مناسبا لإبانة ما أستطيع فعله، أمّا ما طُلب منّي إبانته بالذات فأنا لا أستطيع فعله».

73. وفعلا، قد نقع في خلط كبير إن نحن خطبنا في جمهور من النّاس تجمّعوا بهدف اللّهو وتناول ما لذّ وطاب، وتوخّينا معهم أساليب بلاغية متمحّكة. وما نقوله هنا قد يصدق أيضا على العلوم الأخرى. أمّا الفلسفة، باعتبارها تتأمّل في الإنسان، واجباته وأعماله، فقد كانت دائما، في رأي كلّ الحكماء، تفضّل النّقاش، وبالتالي لا يجب إقصاؤها لا من المآدب ولا من الملاهي. ولمّا استدعاها أفلاطون إلى مأدبته، جلبت اهتمام الحُضور بطريقة لطيفة ومناسبة لظرفَيْ الزمان والمكان، مع سموّ موضوعاتها وفائدتها العظيمة.

«مفيدة هي، للفقراء كما للأغنياء،
فإن أهملوها تحسّروا عليها،
صغارهم وكبارهم على حدّ سواء»

[Horace, *Épîtres*, I, 1]

74. لا شكّ أنّه سيكون بهذه الصورة متفرّغا أقلّ من غيره. لكن كما أنّنا، عندما نتجوّل

في رواق، نخطو ثلاثة أضعاف ما ينبغي دون أن نشعر بالملل، على خلاف الخطوات التي نقطعها عندما نتوجّه في طريق مرسوم مسبقا، فكذلك يكون حال درسنا، سلسًا يكاد لا يُحَسّ به، عندما يقع إلقاؤه دون برمجة ولا ضغط من الزمان والمكان، وعندما يتمّ إدراجه ضمن نشاطاتنا وأعمالنا. ستمثّل التمارين والألعاب جزءا مهمّا في الدّرس: العدو والمصارعة والموسيقى والرّقص والصّيد وركوب الخيل واستعمال الأسلحة. أريد، مع تكويننا لفكره، أن ندرّبه في نفس الوقت على الظهور بمظهر لائق، وعلى حسن السلوك في المجتمع، وعلى الطبع اللّيّن.

75. فنحن لا نكوّن روحا أو جسدا، وإنّما نكوّن إنسانا؛ ولذا يجب أن تناولهما على غير انفصال. وكما قال أفلاطون، لا يجب تكوين أحدهما دون الآخر، بل يجب قيادتهما معا بخطوة واحدة، كالفرسين المربوطين إلى نير واحد للجرّ. فإذا فهمنا كلامه جيّدا، ألا يبدو أنّه يمنح وقتا أكثر وعناية أكبر للتمارين البدنية باعتبار أنّ الفكر يجني منها فائدة، بينما العكس غير صحيح؟

76. مهما يكن من أمر، لا بدّ أن تتّسم التربية باللّين والصرامة معًا، لا كما يحدث عادة، عندما تُعرض على الأطفال روايات موحشة مرعبة عوض تعويدهم على دراسة الأدب. أُلغوا البطش والعنف، إذ لا شيء في نظري يجعل السريرة الطيّبة تتدنّى وتفسد. فإذا أردتم من هذا الطفل أن يخشى الجزاء والعار، لا تجعلوه صلبًا يتحمّلهما، بل إجعلوه يتحمّل الحرّ والبرد، والرّيح والشمس، وعوّدوه على المجازفة واحتقار الخطر. فلتحرموه فيما يلبس ويفترش ويأكل ويشرب من كلّ رقّة ولين. عوّدوه على كلّ شيء، ولا تجعلوا منه غلامًا جميلًا متخنّثًا، وإنّما صبيّا غضّا قويّا. كان هذا رأيي دائما، في طفولتي ونضجي وشيخوختي. ومن بين الأمور التي أودّ البوح بها، هو أنّ الطريقة التي تتوخّاها معظم المعاهد لم ترُق لي أبدا؛ فلو كانت تتّسم بتسامح أكثر، لكانت أضرارها أقلّ؛ إنّها حقّا سجون للشّباب الأسير...

77. هذا فضلا عن كوننا قد نضع هؤلاء الشّباب في سكّة الانحراف، إذ نعاقبهم قبل حتى أن ينحرفوا. أقبِلوا عليهم وهم يشتغلون: لن تسمعوا سوى صراخ أطفال يُساء إليهم وصياح معلّميهم الغاضبين الحانقين. يا لها من طريقة مثلى، هذه التي بها نحثّ أطفالا في سنٍّ عطوب إلى الاهتمام بالدّرس، بإرعابهم والتلويح بالسّوط! إنّها عادة جائرة ضارّة. أضيفوا إليها ما لاحظه كنتليان (Quintilien) من كون هذه السلطة القاهرة قد تنجرّ عنها عواقب وخيمة، ولا سيّما فيما يتعلّق بالعقوبات. أليس من اللّائق أن تُفرش الأقسام بالورد والزهور بدلا من أعواد الخيزران الدّامية! أمّا أنا فقد أرسم على جدرانها لوحات تعبّر عن البهجة والفرح، وقد أرسم فلورا (Flora) وحسناوات

الجمال الثلاث[1]، مثلما فعل الفيلسوف سبوسيبوس (Speusippe) في مدرسته الخاصة. إنّ المكان الذي يجد فيه الأطفال ضالّتهم، ينبغي أن يجدوا فيه أيضا مُتعتهم. يجب أن نرشّ السكّر على الطعام الذي ينفعهم، والحنظل على الذي يضرّهم.

78. من الملفت للانتباه في كتاب «القوانين» لأفلاطون، انشغاله بوسائل المرح والتسلية لشباب المدينة، واهتمامه عن قُرب بمسابقاتهم ومبارياتهم وقفزاتهم ورقصاتهم وأناشيدهم. قال إنّ الآلهة نفسها كانت في غابر العصور تقود هذه الأعمال وتسهر عليها: أبولون، ومينرفا، وربّات الفنّ. وبلغ به الاهتمام درجة أنّه قدّم ما لا يحصى من القواعد لملاعبه الرياضية. أمّا الدراسات الأدبية فلم يوليها من العناية إلّا قليلا، وأمّا الشِّعر فقد أوصى به في علاقة بالموسيقى لا غير.

79. ينبغي أن نتجنّب في طريقة عيشنا كلّ سلوك غريب، بما هو سلوك غير طبيعي ويمنع من التواصل الاجتماعي. من لا يستغرب من طبع ديموفون (Démophon)، كبير خدم الإسكندر، إذ كان يتصبّب عرقا وهو في الظلّ، ويرتعش بردا تحت الشمس؟ لقد رأيت من كانوا يخشون رائحة التفاح أكثر من طلقات البنادق؛ ومن كانوا يفزعون من فأرة، أو يتقيّؤون لمجرّد رؤيتهم للقشدة أو عندما يقع نفض فراش من الريش؛ كما كان جرمانيكوس (Germanicus) لا يتحمّل رؤية أو سماع صياح الدّيَكة. لعلّ ذلك يعود إلى دوافع خفيّة، إلّا أنّه يمكن في رأيي كبتها إذا تعاملنا معها في وقت مبكّر. فأنا بالتربية قد تعوّدت على اشتهاء كلّ ما يؤكل عادة، ما عدا الجعّة. لكن لا شكّ أن هذا لم يكن سهلا.

80. عندما يكون الجسم لا يزال طيّعا، لا بدّ من اغتنام الفرصة كي نجعله قادرًا على كلّ العادات والأعمال. وبشرط أن نتحكّم في رغبات الشاب وإرادته، ينبغي أن ندرّبه على الشعور بالراحة في أيّ بلد كان وصحبة أيٍّ كان، بل حتى على تحمّل الاخلالات والتجاوزات إن لزم الأمر. ليكن سلوكه موافقا للتقاليد الجارية. ليكن قادرا على كلّ شيء، ومحبّا للأعمال الطيّبة دون سواها. الفلاسفة أنفسهم يعيبون على كاليستان (Callisthène) فقدانه لحظوة سيّده إسكندر الكبير، بسبب رفضه أن يرافقه في الشرب إلى أقصى حدّ. كان عليه أن يضحك، ويلهو كالمجنون، ويفسق مع أميره. أريده، خلال مجونه بالذات، أن يتجاوز أصحابه بما لديه من قوّة وحزم، وأن يتجنّب فعل الشرّ، ليس عجزًا أو جهلًا، وإنّما بمشيئته وحدها.

---

(1) في الأساطير اليونانية القديمة، حسناوات الجمال الثلاث (Les Trois Grâces) هنّ: إلهة البهاء الساحر، وإلهة الجمال، وإلهة الإبداع.

«يوجد فرق كبير بين عدم رغبتك في عمل الشرّ وبين عدم قدرتك على فعله»
[Sénèque, *Épîtres*, XC].

81. كنت يوما في صُحبة جيّدة، فسألت أحد النبلاء، وقد عُرف باعتداله، كم مرّة ثمل في حياته مُكرَهًا بينما كان في خدمة الملك بألمانيا. سألته ولم تكن غايتي الإساءة إلى شرفه، فتفهّم الأمر وأجابني أنّ ذلك حدث له ثلاث مرّات، ورواها لي. أعرفُ من لم يستطيعوا القيام بذلك، فوقعوا في مواقف محرجة جدّا بينما كانوا يتعاملون مع تلك الأمّة. وإنّي معجب جدّا بطبيعة ألسيبياد (Alcibiade) المدهشة، إذ كانت تسمح له بالتحوّل بطرق متنوّعة ودون أن يخشى على صحّته: تارة يتفوّق على الفُرس في فخامتهم وروعتهم، وطورًا ينافس أهل لقيديمونيا في زهدهم وتقشّفهم؛ كان «عفيفًا» في إسبرطة بقدر ما كان شهوانيا في أيّونيا.

«وهذا أرستيب قد تأقلم مع كلّ شيء:
البدلة والوضع أو الثروة».

[Horace, *Épîtres*, I, XVII, 23]

82. هكذا أودُّ تكوين تلميذي،

«وسيكون إعجابي بذلك الذي، بصبر،
يتغطّى بقطعتين من القماش،
ويتأقلم في حياته مع كلّ تغير
ويلعب كلا الدورَيْن بنجاح»

[Horace, *Épîtres*, I, XVII, 25, 26, 29]

تلك هي قواعدي: فمن طبّقها أفاد منها أكثر من الذي يكتفى بمعرفتها. كلّ ما نراه، ندركه؛ وكلّ ما ندركه، نراه.

83. لا سمح الله، كما قال بعضهم في إحدى كتابات أفلاطون، أن يكون التفلسف هو حفظ أشياء كثيرة زيادة عن الآداب والفنون!

«هذا الفنّ العظيم، فنّ الحياة الجيّدة، إنّما كسبوه بدُربة العيش وليس بالتعلّم».
[Cicéron, *Tusculanes*, IV, III].

84. عندما سأل ليون (Léon)، أمير الفليازيين[1]، هيرقليد دي بون (Héraclide

(1) نسبة إلى مدينة فليياز (Phliase) في منطقة آرغوس (Argos).

Du Pont)، عن طبيعة العلم أو الفنّ الذي يمارسه، أجابه: «لا أعرف فنّا ولا علما، بل أنا فيلسوف».

85. كان يعاب على ديوجانس (Diogène)، وهو الجاهل بكلّ شيء، اهتمامه بالفلسفة، فكان يقول: «لذلك فإنّ اهتمامي بها هو الأفضل».

86. طلب منه هيجسياس (Hégésias) أن يقرأ له بعض الشيء فأجابه: «أنت تُضحكني! إنّك لا تتناول صورة التّين المرسومة، بل تتناول التّين الطبيعي الحقيقي؛ فلماذا لا تختار كذلك الأعمال الطبيعية الحقيقية، الأعمال التي ليست مكتوبة؟»

87. لن يُطلب من التلميذ سرد درسه، وإنّما تطبيقه. سنتبيّن ما إذا كان حذِرًا في أعماله، طيّب السلوك وعادلًا، وهل أنّه سديد الرأي طلق اللّسان، وهل يقاوم المرض، ويتمالك نفسه في اللّعب، ويتحكّم في شهواته، ويحسن تدبير أملاكه، وما إذا كان سواء عنده أن يتناول لحمًا أو سمكًا، خمرًا أو ماءً.

«ألّا يجعل من عِلمه موضوع فخر وتبجّح، وإنّما قاعدة للحياة، وأن يطيع نفسه ويحترم مبادئه الخاصة».

[Cicéron, *Tusculanes*, II, IV]

88. إنّ أصدق مرآة لأفكارنا إنّما هي مجرى حياتنا.

89. لمّا سُئل زوكسيداموس (Zeuxidamos) لماذا لا يسجّل اللّقيديمونيون كتابيًا قواعد الفتوّة والبسالة كي يطلعوا عليها شبابهم، أجاب أنّهم يريدون تعويدهم على الأعمال، لا على الكلام. قارنوا بين أحد هؤلاء الشبّان بعد مرور خمسة عشر أو ستة عشر سنة وبين أحد أولئك الذين يدرسون اللّاتينية في المعاهد فلا يفلح بعد انقضاء نفس المدّة إلّا في تعلّم النطق بها! العالم كلّه ثرثرة، وغالبا ما نتكلّم أكثر ممّا ينبغي، وينقضي نصف عمرنا في هذا لا غير! نخسر أربع سنوات أو خمس في فهم الكلمات وتكوين الجمل، ومثلها في إنشاء بنية كبيرة حسب نِسب معيّنة، منظّمة في أربعة أو خمسة أجزاء، وخمس سنوات إضافية على الأقلّ كي نتعلّم الخلط بينها بسرعة وربطها بدقّة. لنترك كلّ هذا لأولئك الذين يجعلون منه شغلهم ومهنتهم !

90. كنت ذات يوم قاصدا أورليان، فالتقيت قبل بلوغ مدينة كليري (Cléry) بأستاذين قادميْن إلى بوردو، تقريبا على مسافة خمسين قدما أحدهما من الآخر. وبعيدا خلفهما، رأيتُ مجموعة يرأسها المرحوم الكونت دي لا روشفوكو (Le Comte De La Rochefoucauld). سأل أحدُ رفاقي الأستاذ الأوّل عن هويّة الرجل النبيل الذي يقتفي أثره، وبما أنّه لم يكن منتبهًا إلى وجود المجموعة وراءه، ظنّ أنّ المقصود هو

صاحبه الأستاذ الثاني، فقدّم هذه الإجابة الطريفة: «هو ليس نبيلا، وإنّما نحويّ؛ وأنا عالم في المنطق». أمّا نحن، إذ لا نريد أن نكوّن نحاةً أو مناطقةً، وإنّما رجالا نبلاء، فلنتركهم يهدرون وقتهم، لأنّ حاجتنا هي أخرى.

91. ويكفي أن يحصل تلميذنا على بضاعة جيّدة حتى تأتي الكلمات المناسبة، وإن لم تأتِ جَرّها جرّا. قد يعتذر بعضهم عن عجزهم عن التعبير، فيدّعون أنّ أذهانهم تزخر بأفكار جميلة كثيرة، لكن تنقصهم الفصاحة كي يبلّغوها. وهذه خدعة! أتعلمون ما هي الحقيقة في رأيي؟ إنّ أفكارهم هذه لا تعدو أن تكون أفكارًا مختلطة لا يستطيعون فرزها ولا حتى توضيحها لأنفسهم، ويعجزون بالتالي عن تبليغها. إنّهم لا يفهمون حتى أنفسهم! لاحظوا كيف يتلعثمون عندما يعبّرون عن بعض الأفكار، وستدركون أنّهم لم يبلغوا بعدُ مرحلة الولادة ولا يزالون في مرحلة الحَمل، وأنّ كلّ ما يقومون به هو اللّعق المتكرّر لتلك الأفكار. أمّا أنا فإنّي أبقى على رأي سقراط، إذ أعتبر أنّ كلّ من كانت له فكرة واضحة شديدة، استطاع أن يبرزها، أكان ذلك بلهجته العامّية أم بالإيماء إذا كان أخرس:

«إذا تملّكْنا موضوعنا، تدفّقت
الكلمات بكلّ سهولة».

[Horace, *Art Poétique*, V. 311]

92. وكما قال بعضهم الآخر، نثرًا ولكن بمسحة شعرية: «عندما تُدرَك الأشياء بالعقل، تأتي الكلمات بسهولة» [Sénèque, *Controverses*, III, Prœmium]. وقال آخر أيضا: «الأشياء ذاتها تجرّ الكلمات» [Cicéron, *De Finibus*, III, V].

قد لا يعرف معنى المفعول فيه والرابطة والإسم ولا حتى علم النّحو أصلا؛ وقد لا يعرف خادمه ذلك أيضا، ولا بائعة السمك على «البيتي بون» (الجسر الصغير) لها معرفة بهذه الأمور، إلّا أنّهم قد يعقدون معك محادثة طويلة قدر ما تشتهي دون أن يتلخبطوا في القول أكثر من أفضل أساتذة الآداب في فرنسا. إنّه يجهل فنّ البلاغة ولا يعرف كيف يجلب تعاطف القارئ منذ مقدّمة الحديث، لكنّه لا يكترث. وفي الحقيقة فإنّ كلّ هذه الزينة سرعان ما تمّحي بفعل إشعاع حقيقة بسيطة طبيعية.

93. لا تفيد هذه الترّهات إلّا في تسلية أناس لا يقدرون على تناول طعام مُغذّ وصحّي، مثلما نرى بوضوح في طُرفة آفر (Afer) كما رواها تاسيتُس (Tacite): جاء سفراء ساموس لملاقاة كليومان (Cléomène)، ملك إسبرطة، قصد إقناعه بمحاربة الطاغية بوليقراط (Polycrate)، وأعَدّوا لأجل ذلك خطابًا مطوّلًا جميلا. وبعد أن

أنصت إليهم أجابهم: «أمّا عن بداية كلامكم فلا أتذكّرها، كما لا أتذكّر وسطه؛ وأمّا عن خاتمته، فإنّي لا أعبأ بها». يا لها من إجابة جيّدة وصادمة لهؤلاء الخطباء!

94. وإليكم هذه أيضا: كان على الأثينيين أن يختاروا بين مهندسَيْن اثنين للوقوف على أشغال كبيرة؛ كان الأوّل طلق اللّسان، وقدّم خطبة جميلة يبدو أنّها راقت للجمهور، لكنّ الثاني تفوّق عليه بثلاث جُمَل، إذ قال: «يا أسياد أثينا، ما وعدكُم به هو، سوف أحقّقه».

95. عندما كان شيشرون يتباهى بفصاحته وبلاغته، كان يثير إعجاب معظم النّاس، ما عدا كاتون، الذي كان يقول متهكّما: «لدينا قنصل يسلّي». مهما كان الموضع الذي تُدَسّ فيه حكمة نافعة أو عبرة من العبر الجميلة، فنحن نُرحّب بها دائما. وإذا كانت غير ملائمة لِما جاء قبلها ولما سيأتي بعدها، كانت كافية لذاتها. أنا لست من رأي الذين يعتقدون أنّ الإيقاع الجميل يصنع الشِّعر الجميل: دَعُوا الشاعر يمدّد في المقطع اللّفظي القصير إذا شاء، فهذا لا يهمّ؛ لأنّ الصّور إذا كانت ممتعة، والفكر والحُكم إذا لعبا دورهما كما ينبغي، كان الشاعر جيّدا، وكان نظمه للشعر رديئا.

«بيت شعره من ذوق رفيع، لكنّه خشن».

[Horace, *Satires*, I, 4, Vers 8]

96. لنجرّد القصيدة، كما قال هوراس، من كلّ روابطها وقياساتها،

«أزيلوا الإيقاع والقياس، غيّروا ترتيب الكلمات،
ما كان في الأوّل ضعوه في الآخر،
وستظلّ أطراف الشاعر مبعثرة على الدوام هناك».

[Horace, *Satires*, I, X, 58-63]

97. لن تفقد مع ذلك رونقها، وستبقى أجزاؤها جميلة. هكذا كان جواب ميناندر، عندما دُعي للانضباط، لأنّ موعد المسرحية التي وعد بها قرُب ولم يشرع بعدُ في إعدادها: «إنّها مكتوبة وجاهزة، وما بقي سوى إضافة الأبيات الشعرية». إذ لمّا كان الموضوع والمادّة جاهزَيْن في ذهنه، فالباقي لا يهمّه كثيرا. منذ أن رفع رُنسار (Ronsard) ودو بلّاي من شأن الشعر الفرنسي، لم أعُد أرى صانعا للشعر، مهما كان مبتدئا، لا ينفخ في كلماته ولا يُرنّم على منوالهما. «الضجيج أكثر من المعنى». في نظر العامّي، لم يوجد شعراء بهذه الكثرة أبدا؛ لكن بقدر ما كان من السّهل محاكاة إيقاعات هذين الشاعرين، كان من الصّعب محاكاة ما أنتجه أحدهما من أوصاف ثريّة، وثانيهما من أذكار مرهفة.

98. بلى، لكن ماذا عساه أن يفعل إن أوقعناه في قياس سوفسطائي كهذا: «اللّحم المملّح يدفع إلى الشرب، والشرب يطفئ العطش، إذن فاللّحم المملّح يطفئ العطش»؟ عليه أن يسخر من ذلك. فقد يوجد من الذكاء في السخرية أكثر منه في الإجابة...

99. ليَستعر من أرستيب (Aristippe) هذا الردّ الطريف: «لماذا أفكّ عقدة شيء يُربكني حتى وهو في حالة عقدة»؟ كان بعضهم يجادل كلييانتس (Cléanthe) بتمحّك، فقال له كريزيبوس (Chrysippe): «استعملْ هذه المراوغات مع الأطفال إن شئت، لكن لا تغيّر المجرى الجدّي لتفكّرات رجل كهل». فإذا كان ما يُنتظر من هذا التمحّك الأرعن وهذه «السفسطة الملتوية البارعة» [Cicéron, *Académiques*, II, 24] هو أن يصدّق بالكذب، فهذه لعبة خطيرة. أمّا إذا كان لا يتأثّر بهما ويبعثان فيه الرغبة في الضحك ليس إلّا، فإنّي لا أرى لماذا سيحترس منهما. يوجد من النّاس الأغبياء من يقطعون ربع فرسخ بحثا عن كلمة جيّدة: «أو عوض أن يختاروا الكلمات المناسبة للموضوع، يبتعدون عنه بحثا عن أشياء يمكن أن تناسبها الكلمات»[Quintilien, *Institution* *Oratoire*, VIII, III] . وأيضا: «هناك من يرغب في تنزيل كلمة تروق له، فيكتب في موضوع لم يكن في حسبانه أن يتطرّق إليه» [Sénèque, *Lettres*, LIX].

100. أن أرتّب حكمة جميلة وأتبنّاها، فهذا أفضل من الخروج عن الموضوع للبحث عنها. على العكس من ذلك، يجب على الكلمات أن تخدم الفكر وتقتفي أثره، وعلى لغة *أهل منطقة غسكونيا* أن تنجح في ذلك إن لم تفلح الفرنسية. ما أريده هو أن تكون الكلمات هي الأهمّ، وأن تملأ فكر من يُنصت، بحيث لا تبقى عنده أيّ ذكرى للكلمات نفسها. اللّغة التي أحبّها هي اللّغة الطبيعية البسيطة، أكانت مكتوبة أم منطوقة: لغة سائغة وطيدة، مقتضَبة وموجزة، محتدّة مفاجئة أكثر منها ناعمة مهذّبة:

«تكون العبارة جيّدة إذا لطَمت»

{Lucain شاهدة قبر الشاعر}

101. لغة عسيرة لكن غير مملّة، بلا قواعد ولا تكلّف، مفكّكة وجريئة، حيث يكتفي كلّ جزء بذاته، مجرّدة من التحذلق خالية من كلّ وعظ، لغة جنود لا لغة رجال قانون، كلغة يوليوس قيصر (Jules César) على حدّ ما وصفها سوييتون (Suétone)، مع أنّي لا أفهم لماذا وصفها هكذا.

102. غالبا ما سعيت إلى تقليد رقاعة شبابنا في لباسهم: معطف مشدود كالوشاح، مِشمل فوق الكتفين، أسفل غير معدّل، وكلّ ما يُظهر التبجّح والاستخفاف وعدم الاكتراث بتلك الزخارف الأجنبية المصطنعة. لكن أرى هذه الرقاعة أكثر في طريقة

كلامهم. قد يستهجنها النّبلاء لما يرون فيها من حبّ التظاهر، ولا سيّما من مرح وتحرّر بما هما سمتان جدُّ فرنسيتين. بيد أنّه لا بدّ لكلّ رجل نبيل، في الدولة الملكية، أن يتحلّى بوقار أهل البلاط. وبالتالي فقد يُستحسن الميل قليلا نحو ما هو طبيعي ويتحدّى التقاليد...

103. لا أحبّ أن أرى في القماش الخياطة والأوصال، كما لا أحبّ أن أرى في الجسم الجميل العظام والأوردة.

«الخطاب الذي يرنو إلى الحقيقة
لا بدّ أن يكون بسيطًا، لا مصطنَعًا»

[Sénèque, *Épîtres*, XI]

«من يتدرّب على الكلام،
عدا ذلك الذي يتصنّع الكلام؟»

[Sénèque, *Lettres*, LXXV]

البلاغة تضرّ بحقيقة الأشياء، لأنّها تلهينا عنها.

104. كما أنّه من الرعونة بمكان أن نسعى، في طريقة لباسنا، إلى البروز بثياب خاصة غير مألوفة، فكذلك في اللّغة يكون بحثنا عن عبارات جديدة ومفردات غير مألوفة دليلًا على الرغبة الطفولية في التحذلق. لماذا لا أقتصر فقط على تلك التي تستعمل في أسواق باريس؟ لم يفهم أرسطوفان النّحوي أيّ شيء عندما انتقد بساطة أسلوب أبيقور، ولم يدرك الغاية من فنّه الخطابي، ألا وهي أن تكون اللّغة التي يستعملها ملائمة للجميع. يمكن لشعب كامل أن يتعلّم بسرعة لغة من اللّغات، إذ يسهل عليه ذلك بالمحاكاة والتقليد. لكنّ المحاكاة والإبداع لا يتحقّقان بسرعة وسهولة! قد يظنّ قرّاء كثيرون، خطأً، أنّهم أدركوا زبدة كتاب، في حين أنّهم لم يدركوا سوى القشور. قد نستعير من غيرنا المعطف والحليّ، أمّا القوّة والعضلات فلا.

105. يتكلّم معظم النّاس الذين أخالطهم بنفس الطريقة التي أتكلّم بها في كتاب «**المقالات** Essais»؛ لكن لست واثقا من كونهم يفكّرون أيضا بنفس طريقتي.

106. يتميّز الأثينيون في طريقة كلامهم، حسب أفلاطون، بالإسهاب والأناقة، بينما يتميز أهل اسبرطة بالإيجاز، ويهتمّ الكريتيون بخصوبة الأفكار أكثر من اهتمامهم باللّغة نفسها: وعلى هذا فهؤلاء هم الأفضل. كان لزينون نوعان من الطلبة: يطلق على الأوّلين اسم φιλολογους، المتعطّشين إلى معرفة الأشياء، وكان يفضّلهم على

الآخرين الذين يسمّيهم λογοφιλους، أي الذين لا يهتمّون إلّا باللّغة. لا يعني ذلك أنّ حُسن الكلام ليس أمرًا جميلا وجيّدا؛ لكنّه ليس بالدرجة التي يزعمون، وإنّي مستاء من كثرة الانشغال بهذا الأمر. إنّي أرغب قبل كلّ شيء في معرفة لغتي، ولغة جيراني الذين أتواصل معهم أكثر. لا شكّ أنّ اليونانية أواللّاتينية هما بمثابة الحُلّة الجميلة، إلّا أنّها تُكلّف ثمنًا باهظًا... وسأروي هنا كيف يمكن اقتناؤها بأقلّ النّفقات. إنّ الطريقة التي سأذكرها قد طُبّقت عليّ: فليطبّقها من يشاء.

107. لقد أفنى المرحوم والدي حياته في البحث، لدى أهل الذكر من العلماء الأذكياء، عن الطريقة المثلى في التربية، فتبيّن له وجود عيب مألوف في عصره: إذ قيل له إنّ الوقت الذي يتطلّبه تعلّم تلك اللّغات، التي كان القدامى لا ينفقون جهدا كبيرا في تعلّمها، إنّما هو السّبب الحقيقي الذي يمنعنا من بلوغ درجة المعرفة التي كانت عند اليونانيين والرومانيين، ومن التحلّي بشهامتهم. أمّا أنا فلا أعتقد أنّه السّبب الوحيد.

108. مهما يكن من أمر، فإنّ الطريقة التي وجدها أبي هي أنّه، منذ أن وضعني بين أحضان مربّية، وقبل حتّى أن يُطلَق لساني، وضعني أيضا تحت رعاية رجل ألماني، كان طبيبًا مشهورا جدّا في فرنسا وتوفّي في الأثناء، وكان يجهل لغتنا تماما، بينما كان متبحّرا في اللّغة اللاتينية. دعاه أبي خصّيصا لأجل ذلك، ودفع له مالًا كثيرًا مقابل أن يعتني بي باستمرار. لكنّ أبي انتدب أيضا مدرِّسَيْن آخرين أقلّ منه علمًا، لمساعدتي ومواكبة أعمالي، لا يتحدّثان معي بغير اللّغة اللاتينية. أمّا أهل الدّار، فقد كانت القاعدة التي لا يجوز خرقها هي ألّا يخاطبني أحد منهم، لا أبي ولا أمّي ولا أيّ خادم وأيّة منظّفة، إلّا باللّاتينية وبالمفردات التي تعلّموها للغرض.

109. كانت الفائدة التي غنمها الجميع عظيمة جدّا: تعلّم أبي وأمّي ما يكفي من اللّاتينية لفهمها والحديث بها عند الحاجة، كما تعلّمها الشغّالون الذين كانوا في خدمتي. وعموما فقد أضحينا كلّنا نتكلّم باللّاتينية حتّى إنّ القرى المجاورة نفسها أصيبت بالعدوى وأصبحت تستعمل أسماء لاتينية للإشارة إلى الحِرَفيين وأدواتهم. أمّا أنا، فقد تجاوزت السادسة من عمري ولم أزل جاهلا بالفرنسية وبالبريغوردية قدر جهلي للعربية. لقد تعلّمت اللّاتينية، دون منهج ولا كتاب، ولا نحو ولا قواعد، ولا سوط ولا دموع، لاتينية قحّة كمثل معلّمي، إذ لم يكن بإمكاني أن أفسدها أو أمزجها بأيّ أمر آخر.

110. وإذا أُريدَ اختباري في مادة الترجمة، على نحو ما يحصل في المدارس الثانوية، فإنّه عوض أن يُطلب منّي ترجمة نصّ فرنسي مثلما يُطلب من الآخرين عمومًا، كان

يطلب منّي أن أنقل نصّا من لاتينيّته الرديئة إلى لاتينيّة صحيحة. وقد أخبرني الأساتذة الذين درّسوني، نيكولاس غروشي (Nicolas Groucchi)، الذي كتب «De Comitiis Romanorum»، وغليوم غورنتي (Guillaume Guerente)، شارح أرسطو، وجورج بوشانان (Georges Buchanan)، ذلك الشاعر الأسكتلندي الكبير، ومارك أنطوان موري (Marc-Antoine Muret)، الذي يُعتبر في فرنسا وإيطاليا خطيب زمانه، أخبروني كلّهم أنّني كنت أتقن اللّاتينية في صغري حتّى الحذق، لدرجة أنّهم كانوا يهابون مواجهتي. قال لي بوشانان، إذ التقيته بين بطانة المرحوم الماريشال دي بريساك (Maréchal De Brissac)، إنّه كان منشغلًا بالتأليف حول تربية الأطفال وأنّه اتّخذ تربيتي نموذجا، لأنّه تعهّد بتربية الكونت دي بريساك، هذا الذي عهدناه مُذّاك فتى شهما وشجاعا.

111. أمّا اليونانية، إذ أكاد أجهلها، فقد أرادني أبي أن أتعلّمها بطريقة جديدة، بفضل تمارين في شكل ألعاب: كنّا نتلاعب بالتصريف مثلما نتلاعب بالكرة، وكنت أتعلّم على طريقة الذين يتعلّمون، بفضل لوحات معيّنة، الأرتمِطيقا والهندسة. ذلك لأنّ ما نُصَح به أبي، هو أن يجعلني أشتاق إلى العلم والواجب طوعًا، لا قهرًا، وأن يساعدني على السموّ بنفسي بكامل الحرّية وبكلّ لطف، دونما قسوة وإلزام. ولمّا كان هناك من يزعم أنّ إيقاظ الأطفال في الصّباح الباكر على حين فجأة وانتزاعهم من النّوم (إذ ينغمسون فيه بأكثر عمق منّا) دفعة واحدة وبوحشيّة، قد يضرّ بدماغهم الهشّ، فهو قد بالغ في الاحتياط لدرجة أنّه أضحى يوقظني على صوت بعض الآلات الموسيقية، وكلّف لأجل ذلك شخصا في كلّ مرّة.

112. يكفي هذا المثال كي نحكم على بقيّة الأمور، وكي نؤكّد على حصافة رجل صالح وعطوف مثل أبي، الذي ينبغي ألّا يؤاخذ على عدم جنيه ثمار التربية الناعمة التي منحني... إذ يوجد سببان لذلك: أوّلهما الأرضية العقيمة وغير المناسب؛ فلئن كنت في صحّة سليمة جيّدة، لطيف الطّبع سهل المراس، فقد كنت في نفس الوقت ثقيل الدّم، مائعًا كسولا لا يستطيع أحد أن يخلّصني من تقاعسي ولو كان من أجل اللّهو واللّعب. لكن ما كنت أدركه، إنّما كنت أدركه جيّدًا. وكنت أخفي وراء ما أظهره من الخمول أفكارًا جريئة وآراء سابقة لعمري. كان فكري بطيئًا لدرجة أنّه يحتاج إلى مَنْ يرجّه كي يتحرّك. كان فهمي متأخّرا باستمرار، وكان خيالي ضعيفا، وفوق كلّ هذا كانت ذاكرتي فاشلة بشكل لا يصدّق.

113. ليس من الغريب إذن، والحال تلك، إن عجز أبي عن نيل مبتغاه. كان يخشى كثيرا ألّا ينجح في تحقيق ما يريد، وكان شبيها بالذين يرغبون في الشفاء بسرعة

ويأخذون بكلّ نصيحة، فاعتنق الرأي السائد الذي يسير دائما على خطى السابقين مثلما تفعل طيور الكراكي. وبالتالي اقتنع بالنّسج على منوال الجميع، إذ لم يعُد إلى جانبه أولئك الذين علّموه المناهج التي أوردوها من إيطاليا والتي استعملها في بادئ الأمر. فعندما بلغت سنّ السادسة تقريبا، أرسلني إلى معهد غيبان، الذي كان آنذاك أفضل معاهد فرنسا وأكثرها شهرة. لا يمكن مؤاخذته على شيء، بعد ما أبداه من عناية في تعيين مُعيدين أكْفَاء وفي الإحاطة بكافة مجالات تربيتي. لقد سهر على أن تكون تربيتي وفق مناهج مميّزة كثيرة، كانت مخالفة للمناهج المألوفة في المعاهد. لكن مهما كان الأمر فإنّ المعهد يبقى هو الأساس. ضعفت لاتينيّتي، ولم أعد قادرا على استعمالها بسبب عدم ممارستها. ولعلّ الرّبح الوحيد الذي جنيته من طريقة تعلّمي لها هو كوني استغنيت عن المرور ببعض فصول الدراسة: إذ عندما غادرت المعهد في الثالثة عشر من عمري، كنتُ قد أنهيت «تكويني»، لكن في الحقيقة دون نتيجة يمكن أن أتباهى بها اليوم.

114. يعود أوّل عشقي للكتب إلى ما وجدته من متعة في قراءة كتاب أوفيد (Ovide) «Métamorphoses». ذلك لأنّني، في حوالي السابعة أو الثامنة من عمري، ركّزت على مطالعته وتنازلت عن كلّ متعة أخرى، سيّما أنّه كُتب بلغة هي عندي كأنّها اللّغة الأمّ، كما أنّه أيسر كتاب عرفته والأنسب في محتواه إلى سنّي. كنت أجهل مضامين ذلك الكدس من الكتب التي يتسلّى بها الأطفال ولا أعرف حتى عناوينها، إذ كان التعليم الذي أتلقّاه معيّنا بدقّة، مثل «Lancelot Du Lac», «Amadis», «Huon De Bordeaux». وكان شغفي بالمطالعة يلهيني عن إعداد الفروض الأخرى.

115. آنذاك أسعفني الحظ بالتعامل مع مدرّس ذكيّ، غضَّ الطرف عن نزوتي هذه وعن نزوات أخرى. وهو ما سمح لي بقراءة كتاب **«الإنيادة»** لفرجيل دفعة واحدة، ثم بقراءة تيرانس (Térence) وبلاوتوس (Plaute)، ومسرحيات كوميدية إيطالية، تجلبني إلى ذلك دائما المواضيع الشيّقة. فلو شاء مدرّسي كسر جناحي بحماقة، لما غنمت من المعهد سوى كراهية الكتب، مثلما هو حال معظم نبلائنا... إلّا أنّه كان يتصرّف بمهارة، كما لو كان لا يتفطّن إلى أيّ أمر؛ كان يشحذ رغبتي في مطالعة تلك الكتب خلسة، ويمسك بيدي بلطف في إنجاز واجباتي المدرسية. ذلك لأنّ ما كان يبتغيه أبي من الرجل الذي وضعني تحت رعايته هو أن يكون ليّن العريكة سلس الخُلق؛ وبالتالي كان مدرّسي لا يملك عيبا آخر غير التباطؤ والكسل. وليس ما كان يخشاه الجميع أن أسيء العمل، وإنّما أن لا أعمل شيئا. لا أحد كان ينتظر أن أصبح سيّئا، وإنّما أن أصبح غير مفيد. كان يُتوقّع أن أكون متقاعسا، لا أن أكون غير نزيه.

116. وهذا ما حصل فعلًا. إنّ أكثر الشكاوى التي تطنّ في أذني هي من نوع: «إنّه كسول، وقليل الاهتمام بواجبات الصّداقة والقرابة؛ وهو، في واجباته العامّة، أنانيّ جدّا وشامخ الرأس». وحتى أكثر النّاس شتمًا لا يقولون: «لماذا أخذ؟ لماذا لم يدفع؟»، بل على العكس يقولون: «لماذا لا يتنازل عن هذا الدّيْن؟ لماذا لا يعطي؟»

117. قد أعتبر نفسي محظوظا إذ لا يُنتظر منّي من الأمور غير هذه التي لا تُطلب في العادة. وإنّ الذين يطلبون منّي الأكثر إنّما هم يظلمونني، لأنّهم يطلبون أكثر ممّا يجب، بل أكثر ممّا يطلبون من أنفسهم. وهكذا فإنّهم يلغون قيمة العمل النّزيه، والشكر الذي في المقابل أستحقّه. فإذا قمتُ بعمل جيّد، يجب أن يكون وزنه أكبر، إذ ينبع منّي، ممّا قد غنمته أنا من أيّ عمل كهذا. فكما أنّي أتصرّف في ثروتي بصورة أفضل طالما أنّها ثروتي، فكذلك أتصرّف في ذاتي بصورة أفضل ما دامت هي ذاتي. إلّا أنّني، لو كنت منشغلا بتزيين أعمالي، لأنكرت ما يُلام عليّ؛ ولأخبرت بعضهم أنّهم ليسوا غاضبين حقّا بسبب تقصيري فيما أعمل وإنّما لكوني أقدر على عمل أكثر ممّا أعمل.

118. ومع ذلك لم يكن فكري خاليًا، في نفس الوقت، من الانطباعات الشديدة والأحكام الثابتة والمنفتحة بشأن المسائل التي تعترضه، فكان يستوعبها بمفرده، دون أن يفصح بذلك إلى أيّ كان. وأظنّه كان حقّا غير قابل للاستسلام للقوة والعنف.

119. هل أذكر لكم ما كان يميّز طفولتي: طلعة مهيبة، ومرونة في الصّوت والحركة، وهو ما كان يسمح لي بالتأقلم مع الأدوار التي كنت ألعبها؟ ذلك لأنّني، منذ صباي،

«حالما بلغت الثانية عشرة من عمري»

[Virgile, *Bucoliques*, VIII]

لعبت الأدوار الرئيسية في التراجيديات اللّاتينية لبوشانان وغيرنت وميري، التي مُثّلت بهمّة في معهد غيان (Guyenne). ولئن كان الناظر أندري دي غوفيا (André De Gouvéa)، دون وجه للمقارنة، أفضل ناظر سهر على مثل هذا النشاط في فرنسا (كما كان هو الأفضل أيضا في كلّ مهامّه الأخرى)، فقد كنت أكثر واحد تكفّل بذلك تماما. إنّ مثل هذا النشاط يليق بأبناء العائلات المحترمة. وقد شاهدت أمراء يتعاطونه شخصيّا على منوال القدامى، بشرف وبما يستحق من الثناء.

120. في اليونان، كان بالإمكان احتراف ذلك دون عيب:

«عرَضَ مشروعه على الممثّل التراجيدي أرسطون Ariston. كان ذا حسب ونسب. وكانت حِرفته لا تحطّ من قيمته، شأنها شأن الحِرف التي لا يخجل منها اليونانيون».

[Tite-Live, XXIV, XXIV]

121. لقد رفضت دائما الاستهجان الأرعن لوسائل الترفيه، والصدّ الجائر للممثّلين الأكفّاء، ومؤاخذة النّاس على إقبالهم على ملذّات الدنيا. إنّ الحكومات الجيّدة هي التي ترعى مواطنيها وتجمعهم حول نشاطات وألعاب مشتركة، على غرار ما يتجمّعون للشعائر الدّينية المهيبة: فإنّ في ذلك ما يعزّز طبعهم الاجتماعي ويوثّق أواصر الصداقة بينهم. ثمّ إنّه لا يمكن توفير وسائل تسلية منظّمة أكثر من تلك التي تُقدَّم أمام الجميع، بل أمام أنظار السلطة القائمة. ليْت يتبرّع بها الأمير، على نفقته الخاصّة، في سبيل رعاياه، بأريحيّة وبعطف أبويّ. وليْت يوجد، في المدن المكتظة بالسكّان، أماكن مخصّصة للتسلية: فهي لعمري أفضل طريقة لصرف النّاس عن السيّئات.

122. وعوْدا على بدء، يبدو أنّه ما من شيء أفضل من فتح شهيّة التلميذ وتشويقه؛ وإلّا فلن نفلح سوى في تكوين حمارمحمّل بالكتب: بالسّوط نضربه ونرغمه على حفظ حقيبة دُسَّ فيها العلم دسًّا؛ وللمثابرة، قد يحملها معه إلى المنزل، بل قد يتّخذها زوجة له.

الفصل السادس والعشرون

من الغباوة أن أن نجعل الحقّ والباطل متوقّفين على أحكامنا

1. لا شكّ أنّ سرعة التصديق والاقتناع تعود إلى السذاجة والجهل. ذلك لأنّ التصديق هو انطباع يحصل في النّفس، فكلّما كانت أكثر رخاوة وأقلّ مقاومة، كان انطباعها أكثر سهولة.

«ينصاع الفكر للبداهة بالضرورة، مثلما ينحني الميزان بالمكاييل بالضرورة»
[Cicéron, *Académiques*, II, 12]

كلّما كانت النّفس خاوية، كانت أقلّ قدرة على التصدّي وأكثر خضوعًا وتأثّرًا. لذلك ترى التخاذل لدى الأطفال والنساء والمرضى أشدّ من غيرهم[1]. لكن من جهة أخرى يكون متغطرسًا ذلك من يزدري كلّ ما يبدو له مرجّحا ومحتملا ويرفضه قطعا؛ فهذا عيب مألوف عند الذين يظنّون أنفسهم أذكى من غيرهم. هكذا كان سلوكي في الماضي، إذ كنتُ كلّما سمعت حديثا عن الأشباح وعن العرافة وأعمال السّحر أو عن كلّ ما لا أستطيع التصديق به، من

«أضغاث أحلام، وظواهر سحرية مرعبة، وخوارق، ومشعوذات، وغرائب ليلية وعجائب ثيساليا...»

[Horace, *Épîtres*, II, V. 208]

2. كنت أشفق على الجمهور البائس الذي تخدعه هذه الأباطيل، والآن أضحيت أشفق على نفسي. لا لكون التجربة علّمتني بطلان يقيني الأوّل، إذ لم أكن قليل الفضول، وإنّما علّمني العقل أنّ الإقرار قطعًا ببطلان أمر واستحالته يفترض العلم بالحدود التي لا يعلمها إلّا الله والإمكانات التي تشرّعها والدتُنا الطبيعة. ولا توجد حماقة أكثر من أن نُبقي هذه الحدود في نطاق قدرتنا على الفهم والحُكم. فإذا كنّا نسمّي وحوشا أو

---

(1) يبقى مونتاني ابن عصره، ويبقى صاحب نظرة دونية إلى السّوقة عموما وإلى المرأة بوجه خاصّ. انظر أعلاه، فقرة 11 من الفصل 25، موقفه الذكوري الصريح.

خوارق الأشياء التي لا نستطيع أن نسلّم بها بالعقل، أليست هذه الأشياء بادية أمامنا باستمرار؟ انظروا كيف نُجَرّ، وكيف نتحسّس عبر الضباب، إلى معرفة معظم الأشياء التي تكون في متناولنا، وسترون أنّ ما أفقدها غرابتها هي العادة، لا معرفتها:

«فمن كثرة ما تعوّدنا على رؤيتها،
لم يعُد أحد يرفع بصره نحو السماء وبريقها»

[Lucrèce, II, V. 1038-1039]

3. والحال أنّ هذه الأشياء، لو كانت تُعرض علينا لأوّل مرّة، لوجدناها غريبة كالأخرى أو أكثر.

«فلو ظهرت اليوم للعباد،
وانبجست دفعة واحدة أمام الأنظار،
لما رأوا أعجب منها،
ولا أغرب عمّا تعوّدوا عليه»

[Lucrèce, II, 1032-1035]

4. فمن لم يسبق له أن رأى نهرًا، قد يظنّ النهر محيطًا؛ وقد نظنّ أنّ أعظم الأشياء التي نعرفها هي أعظم ما يوجد في الطبيعة.

«والنّهر أيضا، في نظر من لم ير أعظم منه،
قد يبدو عظيما، بل عملاقا.
وكذلك الشجرة، والإنسان؛ وكلّ ما نراه عظيما، نعتقد أنّه هو الأعظم».

[Lucrèce, VI, 674-677]

إنّ التعوّد على رؤية الأشياء يجعلها مألوفة؛ فنصبح لا نستغرب ممّا نراه ولا نبحث عن أسبابه. [Cicéron, *De Natura Deorum*, II, 38]. وإنّ ما يستحثّنا على البحث عن علل الأشياء هي جدّتها، لا عظمتها.

5. لا بدّ من مزيد الخشوع أمام عظمة الطبيعة اللامتناهية، ومن الاعتراف بجهلنا وضعفنا. كم يوجد من الأشياء التي يصعب التصديق بها، والتي شهد بها أناس جديرون بالثقة، بحيث ينبغي أن نعلّق الحكم عليها طالما لم نقتنع بوجودها! ذلك لأنّ الحكم بامتناعها إنّما هو ادّعاء جريء بمعرفة مدى إمكان الأشياء وجواز وجودها. فلو أدركنا الفرق جيّدا بين ما هو ممتنع وما هو غير مألوف، وكذلك بين ما هو مخالف لنظام الأشياء وما هو مخالف للرأي الشائع، ولو تجنّبنا التصديق الساذج دون أن نتخلّى في

نفس الوقت وبسهولة تامّة عمّا نعتقد فيه، لكنّا أخذنا آنذاك بقاعدة «ما من شيء زائد» التي أعلنها شيلون (Chilon).

6. عندما نقرأ، في ما كتبه فرواسارت (Froissart) [1]، أنّ الكونت دي فوَا (Le Comte De Foix) قد علم، منذ اليوم الموالي، وبينما كان في منطقة بيارن(Béarn)، بهزيمة الملك جان دي كستِيّ (Jean De Castille) في جوبِروث (Juberoth)، وعندما يقدّم على ذلك حججه، فقد نسخر منه؛ وكذلك نسخر ممّا تقوله حوليّاتنا من أنّه في نفس اليوم الذي توفّي فيه الملك فيليب أوغست) في مدينة مانت (Mantes)، أقام له البابا هونوريوس (Honorius) موكب جنازة ونعاه في كامل إيطاليا. ذلك لأنّ سلطة أصحاب هذه الشهادات لا تكفي وحدها لإقناعنا. لكن ماذا؟ فإذا كان بلوتارخوس قد أكّد بشدّة، زيادة على ما قدّمه من أمثلة كثيرة استمدّها من العصور القديمة، أنّه في عهد دومسيان (Domitien) بلغ خبر هزيمة أنطونيوس (Antonius) بعيدًا في ألمانيا، مسامع روما ثمّ انتشر في أرجاء العالم في اليوم نفسه، وإذا زعم قيصر أنّه غالبا ما انتشر خبرٌ وسبق الحادثة نفسها، فهل سنقول إنّهما رجلان ساذجان لا يملكان ما نملكه من سداد الرأي ووقعا في الوهم شأنهما شأن أيٍّ كان؟ هل يوجد حكم أدقّ وأوضح وأسرع من حكم بلينيوس الأكبر عندما يحلو له استعماله، حكم أكثر منه رصانة؟ أترُك جانبا سموّ معارفه، ولا أعيرها اهتماما كبيرا؛ في أيّ واحدة من تلك الصفات ترانا نتجاوزه؟ ومع هذا فإنّه ما من تلميذ صغير إلّا وكان مستعدًّا لتكذيبه وتلقينه دروسًا حول سير ظواهر الطبيعة.

7. عندما نقرأ في كتاب بوشيه (Bouchet) عن المعجزات المتعلّقة بالآثار المقدّسة في كنيسة سانت هيلار(Saint-Hilaire)، فهذا أمر بسيط: فهو لا يملك من السلطة ما يجعلنا نمتنع عن تكذيبه. لكن يبدو من المجازفة بمكان أن نرفض كلّ الرّوايات من نفس النّوع. لقد روى القدّيس أوغسطين العظيم أنّه شاهد على الآثار المقدّسة للقدّيس جرفي (Saint Gervais) والقدّيس بروتي (Saint Protais) طفلا أعمى يستعيد بصره؛ وأنّ امرأة في قرطاج شُفيت من مرض السرطان بعلامة الصّليب التي قامت بها امرأة أخرى وقع تعميدها حديثًا؛ وأنّ هسبريوس (Hespérius)، أحد معارفه، طرد الأرواح الشرّيرة من منزله بفضل قليل من التراب جاء به من قبر مولانا، وبعد أن نُقل هذا التراب إلى الكنيسة شُفي به فجأة رجلٌ مشلول؛ وأنّ امرأة، إذ كانت تمشي في موكب، لمست ضريح القدّيس إتيان (Saint Etienne) بباقة من الزهور، وبعد أن فركت بها عينيها عاد

(1) Froissart, Chroniques, III, 17

بصرها الذي كانت فقدته منذ مدّة طويلة؛ وأنّ هناك معجزات أخرى كثيرة كان شاهدًا عليها بنفسه. فبماذا سنتّهمه إذن، هو والأسقفيْن القدّيسيْن أورليوس (Aurelius) وماكسيمينوس (Maximinus) اللّذين يذكرهما بصفتهما شاهدَين؟ هل سنتّهمهم بالجهل والسذاجة والبلادة أم بالمكر والدّجل؟ هل يوجد في عصرنا مغرور يجرؤ على مقارنة نفسه بهم، سواء من جهة الورَع والفضيلة أو من جهة المعرفة والحكم والمقدرة العقلية؟

«فقد يقنعني وقارهم
وإن لم يقدّموا أيّة حجّة»

[Cicéron, *Tusculanes*, I, 21]

8. إنّ استخفافك بما لا تستطيع تصوّره يدلّ على جرأة خطيرة وتهوّر غير معقول. إذ عندما تكون قد رسمت معالم الصّدق والكذب بفضل ذكائك الوقّاد، ثمّ تضطرّ إلى التصديق بأمور أشدّ غرابة من تلك التي رفضت التسليم بها، فها أنّك أصبحت ملزما بمراجعة الحدود التي رسمتها بنفسك. ولعلّ الاضطراب الذي أصبح يحلّ بعقولنا بشأن الدّين، في هذه الأزمنة المتقلقلة التي نعيش فيها، إنّما يعود إلى الطريقة التي بها يتخلّى الكاثوليكيون عن جزء من عقيدتهم، إذ يذهب في ظنّهم أنّهم يقفون أمام خصومهم موقفا ذكيًا ومعتدلًا عندما يتنازلون عن بعض المبادئ التي هي محلّ نزاع. إلّا أنّهم لا يرون ما سيصبح لخصومهم من تفوّق عليهم، جرّاء تنازلهم وتراجعهم، وكم سيشجّعهم ذلك على مواصلة مهاجمتهم، فضلا عن أنّ المبادئ التي فرّطوا فيها قد تكون أحيانا بالغة الخطورة. وعليه فإمّا أن نأخذ دائما بما تقرّره سلطة الكنيسة، وإمّا أن نستغني عنها تماما: وليس علينا أن نحدّد مقدار الطّاعة التي ينبغي أن نتحلّى بها.

9. ثمّ إنّي أصدح بما تقدّم أن اختبرته: لقد مارست هذه الحرّية وميّزت واخترت بنفسي، فتجنّبت بعض قواعد الكنيسة إذ بدت لي إمّا خاوية أو غريبة؛ لكن بعد أن تحدّثت مع أهل الذّكر، تبيّن لي أنّ تلك الأمور مبنيّة على أرضيّة صلبة، وأنّ حمقنا وجهلنا هما سبب اعتبارنا لها غير جديرة بالاحترام مثل الأمور الأخرى. فلماذا ننسى إذن كم نشعر بالتناقض في صميم حكمنا بالذات؟ وكم من الأشياء كانت عندنا بالأمس عقيدة راسخة، وأصبحت اليوم في نظرنا مجرّد هراء؟ إنّما الغرور والفضول وباءان يجتاحان النّفس: فهذا يدعونا إلى النّبش في كلّ شيء، وذاك يمنعنا من الرضى بما هو غامض وغير مؤكّد.

الفصل السابع والعشرون

عن الصّداقة

1. عندما شاهدت الطريقة التي يشتغل بها رسّام كان في خدمتي، تملّكتني رغبة في تقليده. كان يختار أجمل مكان ويعيّن مركز الجدار الذي سيعلّق عليه اللّوحة التي سينجزها بكلّ مهارة. وتراه بعد ذلك يملأ الفضاء المحيط بـ«زخارف أسطوريّة» عجيبة تجلب النظر بتنوّعها وغرابتها. وفي الحقيقة، ماذا عسى أن تكون هذه «المقالات»، إن هي إلّا «رسوم أسطورية» لأجسام ممسوخة ذات أطراف مختلفة ولا تملك شكلا محدّدا، لا ترتبط فيما بينها ولا تتناسب إلّا بمحض الصّدفة؟

«إنّه جسد حسناء جميلة، ينتهي بذيل سمكة»

[Horace, *Art Poétique*, 4]

2. إلى هذا الحدّ قلّدتُ رسّامي بحزم؛ لكن توقّفت قبل المرحلة الموالية وهي أفضل جزء من العمل، لأنّني لا أملك من الكفاءة ما يسمح لي بإنجاز لوحة ثريّة دقيقة مهيّأة وفق القواعد الفنّية. وبالتالي فقد استعرتُ إنجازا من عند إتيان دي لا بويَسي (Etienne De La Boétie)، ويعود إليه شرف كلّ أعمالي الأخرى. إنّه كتاب أطلق عليه عنوان *«خطاب حول العبوديّة الطوعيّة»*؛ لكنّ الذين كانوا يجهلون هذا العنوان قد أحسنوا عندما أطلقوا عليه *«ضدّ الواحد»*. لقد ألّفه في فترة الشباب تمجيدا للحرّية وضدّ الطغاة. يتبادله المثقّفون منذ مدّة طويلة ويولونه قيمة كبيرة، لأنّه يعكس أريحيّة صاحبه وكمال مسعاه. لكن هيهات أن يكون هذا الكتاب أفضل ما كان بوسعه أن يؤلّف: إذ لو أراد، في السنّ المتقدّمة التي عرفته فيها، أن يدوّن أفكاره، لأطلعنا على مآثر القدامى وأمجادهم العديدة. إنّ مواهبه الطبيعية تجعله حقّا فريدا من نوعه لا أحد يضاهيه.

3. لكن لم يصلنا ممّا أنجزه سوى هذا الكتاب، وقد وصلنا عن طريق الصدفة – لأنّه فيما أظنّ لم يسترجعه أبدا منذ أن فرّط فيه – وبعض المذكّرات حول مرسوم جانفي (يناير) الشهير بسبب حروبنا الأهليّة التي قد نعود إلى ذكرها في مجال آخر. هذا كلّ ما تحصّلت عليه من تركته، بعدما ذكرني بعطف في وصيّته، وهو على فراش الموت،

وريثًا لمكتبته وأوراقه، فضلا عن كتيّب أعماله التي سبق أن نشرتها. وأجدُني متعلّقا بشكل خاصّ بكتاب «*ضدّ واحد*» لأنّ هذا النّص هو الذي قادني إلى عقد علاقة مع مؤلّفه: وفعلا لقد اطّلعت عليه قبل أن أتعرّف على صاحبه بمدّة طويلة، ونشأت بيننا صداقة ما فتئت تترعرع طالما رضي الربّ عنها، صداقة تامّة كاملة حتّى إنّك لن تقرأ عن مثلها في الكتب ولن تجد ما يضاهيها عند المعاصرين لنا. لا بدّ من تظافر ظروف عديدة كي تنشأ وتتكوّن، حتّى إنّك قد تبالغ إذا قلت بإمكان وجودها مرّة في كلّ ثلاثة قرون.

4. لم تدفعنا الطبيعة إلى شيء أكثر ممّا إلى العيش في المجتمع، وقال أرسطو إنّ المشرّعين الجيّدين كان اهتمامهم بالصداقة أكثر منه بالعدالة. وفعلا فإنّ الحياة في المجتمع تبلغ درجة الكمال بفضل الصداقة. ذلك لأنّ العلاقات المبنيّة على المتعة أو المنفعة، والتي تولّدها وتغذّيها الحاجة العامّة أو الخاصة، إنّما يكون ابتعادها عن الصداقة الحقيقية بقدر ما تخلط بينها وبين أسباب أخرى، وأهداف أخرى، وثمار أخرى.

وإنّها لا يوافقها أيّ نوع من أنواع الصداقة الأربعة القديمة: العادية، والمتعلّقة بالوضع الاجتماعي، والمرتبطة بالضّيافة، والغرامية، حتّى لو اعتُبرت كلّ هذه الأنواع معًا.

5. أمّا بين الأب وأبنائه، فإنّ الأمر لا يتجاوز الاحترام: إذ لمّا كانت الصداقة إنّما يغذّيها التواصل، فإنّها لا يمكن أن تُبنى بينهم، بسبب كثرة اختلافهم. ثمّ إنّها قد تضرّ بالواجبات الطبيعية، لأنّه لا يمكن للآباء أن يبوحوا بأسرارهم لأبنائهم، وإلّا أصبحت العلاقة بينهم حميميّة بشكل مزعج، كما لا يمكن للأبناء أن يوجّهوا لآبائهم التحذير والعتاب، مع أنّهما من أوكد واجبات الصداقة. لقد جرت العادة لدى بعض الشعوب أن يقتل الأبناء آباءهم، كما جرت لدى شعوب أخرى أن يقتل الآباء أبناءهم، تجنّبا للمضارّ التي قد يلحقها بعضهم ببعض، بحيث كان مصير بعضهم مرتبطا بمصير بعض. وكان بعض الفلاسفة يحتقرون العلاقة الطبيعية التي تربط الأب بابنه، شأن أرستيب (Aristippe)؛ إذ لمّا طُلب منه الاعتراف بعطفه على أبنائه لكونهم خرجوا منه، أخذ في البصاق وقال إنّ البصاق أيضا خرج منه، وحتّى القمل والدّود. كما أجاب أحدهم بلوتارخوس إذ كان يهمّ بالمصالحة بينه وبين أخيه: «كونه خرج من نفس الثقب الذي خرجتُ منه، فهذا لا يجعله أعظم مكانة في نظري».

6. وفي الحقيقة فإنّ لقب «الأخ» لقب جميل مفعم بالوجدان، ما جعلنا نختاره، أنا ولا بويَسي، رمزا للعلاقة التي تربطنا. بيْد أنّ اختلاط الأرزاق وتقاسمها وكون ثراء أحدهم قد يكون سببا في فقر الآخر، فكلّ هذا من شأنه أن يضعف كثيرا رابطة الأخوّة

ويحلّ أواصرها. إذ لمّا كان الإخوة يسلكون نفس النهج ويسيرون على نفس الدّرب في حياتهم، كان لا بدّ لهم أن يصطدموا بعضهم ببعض وأن يزعجوا بعضهم بعضا. ثمّ لماذا تريدون أن يكون التعاطف والانسجام الحميمي، بما هما مصدر الصداقات الحقيقية التامّة، موجودَيْن بالضرورة بين أخوَيْن اثنين؟ فمزاج الأب قد يكون مختلفًا تماما عن مزاج الابن، وكذلك مزاج الابن عن مزاج أخيه: «هو ابني، وهو قريبي، لكنّه غليظ الطبع، وشرّير، وغبيّ».

7. ثمّ إنّه لمّا كانت تلك الصداقات إنّما تفرضها الطبيعة علينا فرضًا، فهي لا تنشأ عن إرادتنا واختيارنا الحرّ؛ والحال أنّ الاختيار الحرّ إنّما هو أكثر ما يميّز العطف والصداقة. أقول هذا مع أنّ والدي كان، من حُسن حظّي، أفضل والد على الإطلاق، كما أنّه كان في قمّة الحِلم والتسامح إلى آخر يوم في حياته. فأنا أنتمي إلى أسرة ذات نسَب، عُرفت بانسجامها الأخوي،

«كما عُرفتُ أنا أيضا بعطفي الأبويّ تجاه إخوتي»

[Horace, *Odes*, II 2, V. 6]

8. ولا يصحّ أن نقارن الصداقة بالعشق، ولا أن نعُدّ العشق من صنف الصداقة، رغم أنّه يقوم على الاختيار أيضا. قد يكون لهيبه، أعترف بذلك، أشدّ اضطراما وحُرقة وعنفًا،

«إذ لسنا غرباء عن الإلهة التي تمزج هموم العشق بمرارةٍ عذبةٍ»،

[Catulle, Épigrammes, LXVIII, 17]

لكنّه لهيب جسور فرفار، متقلّب متنوّع، إنّه حُمّى تبلغ ذروتها ثمّ تزول، وإنّه لا يمسّنا إلّا من جهة معيّنة من كياننا. أمّا الصداقة فهي، على العكس، دفء عامّ وشامل، متوسّط ومعتدل، دفء يستمرّ هادئا لطيفًا ناعمًا، لا حِدّة فيه ولا وجع.

9. ثمّ إنّ العشق رغبة متهوّرة في من ينفر منّا،

«كالصيّاد الذي يطارد الأرنب،
في البرد، في الحرّ،
عبر الجبال وعبر السهول،
فإذا أمسك به لم يعد يبالي،
وإذا أفلت منه همَّ بملاحقته»

[Arioste, *Roland Furieux*, X, Stance VII]

10. وإذا تحوّل العشق إلى صداقة، أي إلى مجرّد توافق بين رغبات متبادلة، ذبل

وفتر؛ وتكون المتعة سبب البليّة، لأنّها غاية جسديّة قابلة للإشباع. أمّا الصداقة فنحن، على العكس، نتمتّع بها بقدر ما نرغب، وهي لا تقوم ولا تتغذّى ولا تنمو إلّا بالتمتّع بها، لأنّ لها بُعدًا روحانيا، ولأنّها تهذّب الرّوح. ومع هذا فقد خالجتني مشاعر الحبّ العابرة، في مرتبة تحت مرتبة الصداقة، ولن أقول شيئا عن ذلك الذي أسهب في ذكرها في أبياته الشعريّة[1]. فهاتان العاطفتان قد وُجدتا عندي معًا، بيِّنتين لكن غير متنافستين: أولاهما في العُلا رافعة هامَتها بفخر، مزدرية تلاعبات الثانية القائمة بعيدا تحتها.

11. وبشأن الزواج، فزيادة على كونه صفقة حرّة في البداية فحسب، إذ تكون مدّتها ملزِمة ولا تتوقّف على إرادتنا، وزيادة على كون هذه الصفقة تُعقد عادة لأغراض مختلفة عن أغراض الصداقة، فهو يكون عرضة لمشاكل خارجية كثيرة يصعب حلّها وقد تكفي لإفساد العلاقة وتغيير مجرى العاطفة وإن كانت صادقة. أمّا الصداقة، على العكس، فهي لا تفترض شأنًا آخر أو تعاملًا آخر سوى مع ذاتها. والحقّ يقال، فإنّ الاستعداد الطبيعي للمرأة يجعلها غير قادرة على الاستجابة للروابط الحميمة التي تغذّي هذه العلاقة الإلهية، كما أنّ روحها ليست على درجة من الشدّة كي تتحمّل ضغط عروة وثيقة لا تنحلّ كهذه. لا شكّ أنّه لو كان يمكن أن يوجد تفاهم حرّ وإرادي، تلتقي به النّفوس في متعة تامّة وكذلك الأجساد تنال نصيبها، لكانت الصداقة على أرقى درجة من التّمام والكمال. إلّا أنّه لا يوجد حتى الآن مثال يؤكّد نجاح الجنس الآخر في ذلك، بل هو معفى تقليديا من هذا الأمر.

12. أمّا تلك العلاقة التي كانت مألوفة عند الإغريق، فإنّ من عاداتنا وأخلاقنا أن نمقتها حقّا. هذا فضلا عن أنّ ممارستها كانت تفترض وجود فارق في السنّ واختلاف في السلوك بين العشيقين لدرجة أنّها لا تناسب الوحدة التامّة التي ننشدها ههنا: «إذ ماذا عسى أن تكون هذه الصداقة العاشقة؟ كيف لا نعشق يافعًا قبيحًا ولا شيخًا وسيمًا؟». أعتقد أنّ إبيكارموس (Epicharme) نفسها لن تعارضني إذا قدّمت رسمها لذلك على النّحو التالي: هذا الجنون الأوّل الذي يبعثه ابن فينوس في قلب العاشق من أجل زهرة شباب ناعم كان الإغريق لا يمنعون عنه تهيّجات الحبّ وانفلاتات العشق المفرطة، هذا الجنون لم يكن يتجاوز حدود الجمال الخارجي. ولم يكن هذا الجمال أكثر من صورة خادعة لنموّ الجسم، لأنّ الروح ليس لها في ذلك نصيب، إذ لم تزل لا مرئيّة، ولم تزل في طور النشوء، قبل حتّى أن يبلغ هو سنّ النبوت.

13. فإذا تولّى هذا الجنون قلبًا تافهًا، كانت الوسائل المستعملة للإغواء هي الأموال

(1) المقصود هو لا بويَسي.

والهدايا والوظائف الشرَفية والمصالح الدنيئة التي كانوا يستنكرونها. أمّا إذا استولى على قلب نبيل، كانت الوسائل كذلك نبيلة: دروس في الفلسفة، حضّ على العبادة وطاعة القانون والتضحية في سبيل الوطن، عربونَ شجاعة وحكمة وعدل. إذّاك يسعى العاشق إلى معشوقه بجمال روحه، طالما أنّ جمال جسده قد فنيَ منذ مدّة، طلبًا للانسجام الفكري الدائم والمتين. ولئن لم يكن يطلب من العاشق أن يدأب على ما يريد بصبر واحتشام، فذاك هو، على العكس، ما كانوا يطلبونه من المعشوق، إذ كان عليه أن يحكم على الجمال الباطني، وقد يصعب ترصّده ومعرفته. عندما يصل البحث إلى منتهاه، وعندما يحين الأوان، تنشأ لدى المعشوق رغبة روحانية، تستثيرها روحانية الجمال. كان هذا الجمال في نظرهم هو الأولى، لأنّ جمال الجسم عرضيّ وثانويّ، على خلاف ما يحدث للعاشق.

14. لهذا السبب كانوا يفضّلون المعشوق على العاشق. وكانوا يؤكّدون أيضا أنّ الآلهة نفسها تفضّله، كما كانوا يعيبون على الشاعر إسخيلوس، في مثاله عن عشق أخيل (Achille) لباتروكل (Patrocle)، كونه أعطى دور العاشق لأخيل، الذي كان يافعًا أمردَ في ريعان الشباب، متفوّقا في الجمال على كلّ اليونانيين. كانوا يقولون عن وحدة الشعور هذه، حيث يبرز أرقى ما فيها وأنبله، إنّها تترتّب عليها نتائج جدّ إيجابية لكلّ من الحياة الخاصّة والحياة العامّة؛ وإنّها ما يشكّل قوّة الأمم التي توجد فيها، كما أنّها أهمّ دفاع عن الإنصاف والحرّية. وليس أدلّ على ذلك، في نظرهم، من العشق البطولي بين هَرمُديوس (Harmodius) وأرسطوجيتون (Aristogiton). ولذا كانوا يعتبرونها مقدّسة وإلهية، ولا يرون أعداء لها سوى عنف الطغاة وجبن الشعوب. وأخيرا فإنّ كلّ ما يمكن قوله لصالح الأكاديمية هو أنّ الأمر كان يتعلّق، بالنسبة إلى أولئك النّاس، بعشق ينتهي بالصداقة. وأنّهم لم يبتعدوا كثيرا عن التعريف الرّواقي للحبّ:

«الحبّ هو الرغبة في الفوز بصداقة إنسان يسحرك بجماله»

[Cicéron, *Tusculanes*, IV, XXXIV]

15. لكن أعود إلى توصيفي للصداقة بأكثر دقّة:

«لا يمكن أن يكون حُكمنا في الصّداقة حصيفا إلّا بعد أن نتقدّم في السنّ ويكتمل طبعنا ويتماسك»

[Cicéron, *De Amicitia*, XX]

بقي أنّ ما نسمّيه عادة صداقة وأصدقاء إن هي إلّا علاقات مألوفة تربط بين النّفوس،

تنشأ في ظروف ما ولأجل مصالح معيّنة. أمّا الصداقة التي أتحدّث عنها، فهي توحّد بين النّفوس وتمزج بينها تماما، لدرجة أنّها تمحو الخياطة التي تربط بينها وتزيلها. وإذا ألححتم كي أصرّح لماذا أحببته، أظنّني لا أقدر على التعبير بغير هذه الصورة: لأنّه كان هو، ولأنّني كنتُ أنا[1].

16. ورغم كلّ ما أستطيع قوله، وإن دخلتُ في التفاصيل، فإنّ هناك قوّة يتعذّر شرحها، تعود إلى القدَر، هي التي كانت وسيط وحدتنا. كنّا نبحث أحدنا عن الآخر قبل أن نلتقي، وكان ما يروّج عنّي وعنه يؤثّر فينا أكثر ممّا يجري في العادة: أظنّ أنّ السماء هي التي سطّرت ذلك. كنّا إذا نطق أحدنا باسم الآخر، يكون كما لو قبّله. وفي لقائنا الأوّل، إذ حدث صدفة وسط جمهرة من النّاس، في حفلة كبيرة أُقيمت في بعض المدن، وجدنا نفسَينا مجذوبَيْن الواحد إلى الآخر كما لو كنّا نعرف بعضنا سابقا، وسرعان ما توثّقت عرى الصّداقة بيننا، حتّى إنّه لم يعد يوجد من هو أكثر قربا منّا من قرب واحدنا من الآخر.

17. كتبَ أهجوّة ممتازة نشرها باللّغة اللّاتينية، حيث فسّر وبرّر التهوّر الحاصل في علاقتنا التي سرعان ما بلغت درجة الكمال. قُدّر أن تكون مدّتها قصيرة، لأنّها بدأت متأخّرة (بينما كنّا في سنّ النضج، وهو متقدّم عليّ ببضع سنوات)، وبالتالي لم تكن لترضى بإضاعة الوقت... كما لم يكن عليها أن تنسج على منوال الصداقات العادية الضعيفة، التي تحتاج إلى احترازات كثيرة وإلى محادثات مسبقة طويلة. فصداقتنا هذه ليس لها أيّ مثال أعلى آخر غير نفسها، وأيّ مرجع آخر غير ذاتها. ليس ما استحوذ على إرادتي ودفعها إلى الانغماس في إرادته والضياع فيها مجرّد ملاحظة خاصّة، ولا ملاحظتين، ولا ثلاثة، ولا أربعة، ولا ألف ملاحظة، وإنّما هي خلاصة كلّ هذا وزبدته؛ ولا هو كلّ ذلك ما استحوذ على إرادته ودفعها إلى الانغماس في إرادتي والضياع فيها بنفس الاشتهاء وبالحماسة نفسها. قلتُ «ضياع»، لأنّه لم يعُد يوجد ما لدينا بوجه خاصّ، لم يعُد يوجد ما هو لي وما هو له.

18. بعد أن صدر الحكم على تيبريوس غراشوس (Tibérius Gracchus)، شرع القناصل الرومان في ملاحقة كلّ الذين شاركوه في المؤامرة. وعندما سأل لِيليُوس (Lélius)، في حضورهم، كايوس بلوسيُوس (Caius Blossius) عن أفضل صديق لغراشوس، وماذا عساه أن يفعل لأجله، أجابه: «كلّ شيء». – كيف كلّ شيء؟ استمرّ

(1) أصبحت هذه العبارة البليغة مأثورة، تُستعمل للدلالة على الصداقة الحميمية التي تجمع بين روحين، (« Parce que c’était lui, parce que c’était moi »)

الآخر في سؤاله؛ وعلى افتراض أنّه أمرك بإضرام النّار في معابدنا؟ ما كان لِيطْلبَ منّي ذلك أبدا، أجاب بلوسيُوس. فلو كان مع ذلك أمَرك؟ استطرد ليليُوس. فأجابه: لو فعل لكنتُ أطعته. فلو كان بلوسيُوس صديقا تامّا لـغراشوس، مثلما قال المؤرّخون، لما أجدى اعترافه بذلك وإهانته للقناصل بهذا الاستفزاز: ما كان عليه أن يتخلّى عن يقينه وعن ثقته الأولى في إرادة غراشوس.

19. غير أنّ الذين يرون في هذه الإجابة دعوة إلى التمرّد لا يفهمون جيّدا ما في الأمر من سرٍّ ولا يتصوّرون حتّى –مع أنّها حقيقة– أنّ بلوسيُوس كان يهيمن على غراشوس إذ كانت له عليه سلطة وكان يعرفه حقّ المعرفة. وفي الواقع، كانا صديقين أكثر منهما مواطنين، كانا خليلين أكثر منهما صديقين أو عدوّين لبلدهما، خليلين أكثر منهما صديقين للطموح والقلاقل. لقد سلّم كلّ منهما نفسه للآخر، ومسك كلاهما بمقاليد الآخر وميوله. حاوِلوا إذّاك قيادة العربة بالفضيلة والعقل (إذ من المحال ربطها دون ذلك) وستدركون أنّ جواب بلوسيُوس كان على أحسن ما يرام. بيد أنّهما إذا أقدما فيما بعد على أعمال مختلفة، فلأنّهما في اعتقادي لم يكونا صديقَيْن لبعضهما حقّا ولا كلاهما صديق لنفسه.

20. وبعد كلّ هذا فإنّه لا معنى لجوابه أكثر من معنى جوابي بالإيجاب على من يطرح عليّ السؤال التالي: «لو أمرتك إرادتك بقتل ابنتك، هل ستفعل؟» لأنّ جوابي لن يدلّ على الإطلاق أنّني أوافق على ذلك حقّا، وإذ كنت لا أشكّ مطلقا في إرادتي، فإنّي لا أشكّ أيضا في إرادة صديق كذلك الصديق. ولن تستطيع كلّ الحجج أن تنزع منّي الثقة في نواياه وفي حكمه؛ ولا يوجد أيّ عمل من أعماله، مهما كان، إلّا وكنت أخمّن في الإبّان دوافعه. لقد مضت روحي وروحه في انسجام تامّ حتّى وقعتا في وجدٍ عميقٍ وكشفتا عن أغوار سريرتهما، وحتّى أصبحتُ أعرف ليس فقط روحه كمعرفتي لروحي، بل غدوتُ أثق به في الشأن الذي يهمّني أكثر ممّا أثق بنفسي.

21. لا ينطبق ما أقوله هنا على الصداقات الشائعة الأخرى: فأنا أملك من الأصدقاء ما يملكه أيّ كان، بل إنّي أنعم بصداقات في غاية الكمال. لكن قد نخطئ إذا لم نميّز بين قواعد الصداقة، وهذا ما لا أنصح به. ففي الصداقات العادية، ينبغي السّير والزّمام بأيدينا، بحذر واحتراز، لأنّ العلاقة لا تكون وطيدة لدرجة أنّها تخلو من كلّ ارتياب. قال شيلون: «أحِبّوه، كما لو كنتم يوما ما قد تكرهونه. أكرهوه، كما لو كنتم يوما ما قد تحبّونه». تكون هذه القاعدة بغيضة إذا تعلّقت بصداقة تامّة كاملة، لكنّها تكون مجدية إذا تعلّقت بالصداقات العادية الشائعة، التي يصدق عليها قول أرسطو المتكرّر: «أيا أصدقائي، لا يوجد صديق!»

22. في تلك العلاقة المميّزة، لا يُستحَقّ حتّى أن يُنظر إلى المساعدات والفوائد المغذّية للصداقات الأخرى، بسبب الاندماج التامّ بين الإرادتين. فكما أنّ الصداقة التي أمحضها لنفسي لا تزداد بما أقدّمه لنفسي من مساعدة، رغم ما يقوله الرّواقيون، وكما أنّني لا أدين لنفسي بأيّ خدمة أقدّمها لنفسي، فكذلك تكون وحدة الصديقين على غاية من الكمال، ما يجعلهما يغضّان عن فكرة الاعتراف بالفضل والامتنان، ويقصيان من دوائرهما معاني الانقسام والاختلاف، من نوع: الإحسان، الاعتراف بالفضل، الامتنان، التوسّل، الشّكر، إلخ. إذ لمّا كانت كلّ الأشياء مشتركة بينهما: الأماني والأفكار والأحكام والخيرات والنّساء والشرف والحياة، ولمّا كانا يملكان روحا واحدة في جسدين اثنين، مثلما قال أرسطو بوجاهة، فإنّهما بالتأكيد لا يعيران لبعضهما شيئا ولا يستعيران من بعضهما شيئا.

23. ولهذا فإنّ المشرّع، تبجيلا للزّواج باعتباره، صورَيّا، شبيهاً بقران إلهيّ، قد منع الهبة بين الزوج والزوجة. ومراده أنّ كلّ الأشياء ينبغي أن تكون لكلٍّ منهما، وأنّه لا يوجد ما يستحقّ القسمة أو التوزيع بينهما. وفي الصداقة التي أتحدّث عنها، إذا أعطى أحد الصديقين شيئا ما للآخر، كان المتقبِّل هو صاحب الفضل على الأوّل؛ ذلك لأنّهما الإثنان يرغبان في الإحسان أحدهما إلى الآخر، ولأنّ الذي منهما يوفّر المناسبة المؤاتية لهذا الإحسان إنّما هو الذي يكون صاحب الكرم، لكونه يوفّر لصديقه متعة القيام لأجله بالشيء الذي يرغب فيه أكثر. قال الفيلسوف ديوجانس إنّه كان، عندما تضيق به الحال، يستردّ المال من أصدقائه، وليس يطلبه. وحتّى أبيّن حقيقة الأمر، سأذكر مثالا قديما ملفتا للانتباه.

24. كان لأوداميداس (Eudamidas) الكورنثي صديقان: شاريكزينوس (Charixènos) من سيسيونا (Sicyone) وأريثيوس (Aréthéos) من كورنثيا (Corinthe). فلمّا أشرف على الموت وكان فقيرا وصديقاه ثرِيّين، كتب هكذا وصيّته: «*أُوصي أريثيوس بإطعام والدتي ورعايتها في شيخوختها؛ وأُوصي شاريكزينوس بالسّهر على زفاف ابنتي وبأن يوفّر لها أعظم مهر يقدر عليه؛ وفي حال وفاة أحدهما، أُوصي من بقي منهما على قيد الحياة بأن يتكفّل بوصيّتي للآخر*». سخر منه الذين قرأوا الوصيّة، بينما رحّب بها الورثاء كثيرا. توفّي شاريكزينوس بعد خمسة أيّام، فدأب أريثيوس على إطعام والدة المرحوم وأنفق ما يملكه بالعدل على زواج ابنته الوحيدة وعلى زواج ابنة أوداميداس، واحتفل بزفافهما في نفس اليوم.

25. هذا المثال ممتاز. وإذا وجب التعليق عليه، فبشأن كثرة الأصدقاء: ذلك لأنّ الصداقة التي أقصدها غير قابلة للقسمة. فالصديق يهب نفسه لصديقه تماما، ولا يبقى عنده ما يقدّمه لغيره؛ وقد يتحسّر لكونه ليس اثنين أو ثلاثة أو أربعة، بل لكونه لا يملك أرواحا كثيرة وإرادة متعدّدة كي يمنحها كلّها لصديقه. أمّا الصداقات العادية،

فهي تقبل القسمة: فقد نحبّ الجمال عند صديق، وليونة الطبع عند آخر، والسخاء عند ثالث، والأبوّة عند هذا، والأخوّة عند ذاك، وهكذا. إنّ الصداقة التي أقصدها، تلك التي تستولي على النّفس وتهيمن عليها وتتسلّط، إنّما هي غير مزدوجة إطلاقا. إذ لو استغاث بك صديقان اثنان في وقت واحد، فلمن ستستجيب؟ ولو طلبا منك خدمات متضاربة، فماذا عساك تفعل؟ وإذا أسرّك أحدهما بأمر قد يستفيد الآخر من معرفته، فكيف ستتصرّف؟

26. الصداقة بين اثنين ليس أكثر، تعفي من كلّ التزام آخر. فأنا لن أحنث بيميني لو بُحت بسرٍّ إلى صديقي، إذ هو ليس شخصا آخر، بل هو أنا. قد يندر جدّا أن تجد من يقدر على الازدواج، وإنّ الذين يزعمون الانقسام إلى ثلاثة لا يعلمون قيمة ذلك. إنّ من كان له شبيه، لا يصعب عليه أمرٌ. ومن ذا الذي قد يرى أنّني من بين الإثنين لا أفضّل أحدهما على الآخر، وأنّهما يتبادلان الحبّ أيضا، وأنّهما يحبّانني بقدر ما أحبّهما؟ هكذا يتحوّل أمر فريد أوْحَد إلى نفر من الإخوان، مع أنّه أشدّ الأمور ندرة في هذا العالم.

27. وتوضّح بقيّة الرواية ما كنت أقول: لقد أنعم أوداميداس على صديقيه وأحظاهما لمّا استغاث بهما: إذ كان سخيًّا وترك لهما الفرصة كي يُحسنا إليه. وعلى ذلك فإنّ شدّة الصداقة تظهر بأكثر وضوح في حالته ممّا في حالة أريثيوس. وباختصار، فإنّ هذه الأمور تبقى عصيّة على الفهم عند أولئك الذين لا يشعرون بها ولا يختبرونها؛ ولا يسعني إلّا التعبير عن تقديري الكبير لذلك الجنديّ الذي هكذا أجاب سايروس، إذ سأله بكَم مقابل يمكنه أن يفرّط في الجواد الذي ربح السّباق بفضله، وإن كان مستعدّا لمبادلته بمملكة: «لا يا مولاي، لكن قد أفرّط فيه عن طيب خاطر مقابل الفوز بصديق، لو وجدتُ شخصا جديرا بصداقتي».

28. كان دقيقا لمّا قال: «لو وجدتُ»؛ إذ لئن كان من السهل أن تجد أناسا يميلون إلى المعاشرة البسيطة، فإنّ المعاشرة التي أقصدها والتي تُعقد أواصرها في صميم الفؤاد إنّما ينبغي أن تكون دوافعها واضحة تماما وثابتة.

29. في الشراكة التي تُبنى على طرف واحد، يكون التركيز دائما على العيوب والنقائص المتعلّقة به. إنّي لا أرغب في معرفة ديانة طبيبي الخاص أو المحامي الذي أتعامل معه، فهذا الاعتبار لا يمتّ بصلة إلى الخدمات التي يقدّمانها لي. وكذا الشأن في تنظيم أسرتي، حيث يعتني بها معي أفراد في خدمتي: فأنا لا تهمّني كثيرا عفّة خادمي بقدر ما يهمّني اجتهاده وكدّه؛ وإنّي أفضّل بغّالا يلعب القمار على بغّال غبيّ؛ وطبّاخا يجدف بنعمة ربّه على طبّاخ جاهل. ليست غايتي أن أُبلغ النّاس بما يجب أن يفعلوا – فقد يتكفّل بذلك آخرون غيري –وإنّما يهمّني ما أنا فاعل.

«أمّا أنا فهكذا أفعل؛
وأمّا أنتم فافعلوا ما طاب لكم»

[Térence, *Heautontimorumenos*, I, 1]

30. وكذا شأن الجلوس إلى مائدة الغداء، حيث أفضّل المتعة على الجدّ؛ وعلى الفراش أفضّل الجمال على الطّيبة؛ وفي المناقشة أفضّل الكفاءة وإن لم تقترن بالنزاهة؛ وهكذا دواليك.

31. قيل إنّ رجلا فوجئ يلعب مع أولاده وهو يمتطي عصا، فرَجَا من شاهده ألّا يتحدّث بذلك إلى أن يرزق بأطفال مثله، على أمل أن تجعله عاطفة الأبوّة يحكم على سلوكه بأكثر عدل. وقياسا على هذا فأنا أيضا أتمنّى مخاطبة أناس اختبروا ما أقول. لكن لمّا كانت الصداقة عندي بعيدة كلّ البعد عن الاستعمال المألوف ونادرة إلى أقصى حدّ، فإنّي لا أتوقّع العثور على من يُحسن تقييمها.

32. ذلك لأنّه حتّى المصنَّفات القديمة التي تناولت هذا الموضوع تبدو لي ضعيفة بالمقارنة مع الإحساس الذي أشعر به، وفي هذا المجال بالذات قد يتجاوز الواقع مبادئ الفلسفة نفسها.

«طالما بقيتُ سليم العقل،
لن أماثل شيئا بالصديق الودود»

[Horace, *Satires*, I, 44]

33. قال الشاعر القديم ميناندر إنّ من يعثر فقط على خيال صديق، تُكتب له السعادة. وهو في قوله هذا على حقّ، سيّما إذا كان قد اختبر الأمر بنفسه. وفي الحقيقة، لو قارنتُ حياتي كلّها، إذ كانت بفضل الله ناعمة متيسّرة خالية من المآسي – باستثناء هلاك صديقي –، يملؤها الهدوء إذ كنت أقتصر على مواهبي الطبيعية الأصلية، قلتُ لو قارنتها بالسنوات الأربع التي تمتّعت خلالها بصحبة هذا الخليل وعشرته الطيّبة، لوجدتها مجرّد دخان ومجرّد ليلة مُقلقة حالكة الظلام. ومنذ أن فقدته،

«في عذاب ذلك اليوم الأبديّ، والذي سأخلّد ذكراه، تلك هي مشيئتك، يا ربّ !»

[Virgile, *Énéide*, V, 49-50]

34. أجرُّ قدميَّ متراخيًا. وحتّى الملذّات التي أنعم بها، عوض أن تواسيني، تُضاعف ألمي لفقدانه. كنّا نملك النّصف من كلّ شيء: يبدو لي كأنّي أختلس نصيبه.

«وعزمتُ على الزّهد في كلّ متعة،
إذ فقدتُ من كان أنيس حياتي».

[Térence, *Heautontimorumenos*, I, 1,149-150]

35. لقد تعوّدتُ أن أكون الثاني في كلّ شيء، حتّى أصبحت أشعر الآن أنّي لست أكثر من نصفٍ.

«بما أنّ ضربة قاضية قبل الأوان
نزعت منّي نصف روحي،
فلماذا أبقى بنصفي الآخر،
بعدما سئمتُ من نفسي،
ولم أعُد أحيا بكاملي؟»

[Horace, *Odes*, II, 17, VV. 5 Et Sq.]

36. أفتقده في كلّ عمل من أعمالي وكلّ فكرة من أفكاري، مثلما قد يفتقدني. كان يفوتني في الصداقة كثيرًا، كما في كلّ اقتدار وفضيلة.

«فلماذا أحمرُّ وأضبط نفسي
إذ أبكي على شخص حبيب؟»

[Horace, *Odes*, I, 24, V. 1]

«ما أتعسني، يا أخي، إذ فقدتك !
فضاعت معك تلك الأفراح
التي غرسَتها صداقتك اللطيفة في حياتي
ومُتَّ فتحطّمت سعادتي، يا أخي،
ودُفنت في قبرك روحنا معا،
غيابك أزال من حياتي،
متعة التفكير والترفيه المجتهد.
ألن أحدّثك بعدُ ولن أسمعك؟
يا أخي وحبيبي أكثر من حياتي،
ألن أراك بعدُ، إن كنتُ ماضيا في حبّك؟»

[Catulle, LXVIII, 20 Et LXV, 9]

37. لكن لنستمع قليلا إلى هذا الصبيّ البالغ من العمر ستّ عشرة سنة.

لمّا رأيتُ أولئك الذين يرغبون في إحداث البلبلة وتغيير النظام السياسي قد وَضعوا كتابه في الصدارة، لأغراض مقيتة، دون أن يسألوا أنفسهم حتّى إن كانوا سيطوّرونه، فضلا عن أنّهم مزجوه بكتابات من طينتهم الخاصّة، تراجعت عن إدراجه هنا. ولكي تبقى ذكرى المؤلّف طيّبة عند الذين لم يطّلعوا عن كثب على آرائه وأعماله، أُحيطهم عِلما بأنّه تناول الموضوع المطروق في فترة المراهقة، باعتباره تمرينا ليس إلّا، وموضوعا عاديّا اجتُرَّ ألف مرّة في مختلف الكتب.

38. لا أشكّ لحظة واحدة في أنّه آمن بما كتب، وأنّه لشدّة حرصه لم يكن قادرا على الكذب، ولو للمزاح والتسلّي. وأعلم أيضا أنّه لو خُيّر بين أن يولد في البندقية أو في سارلا، لاختار سارلا وكان محقًّا في ذلك. لكن هناك قاعدة مطبوعة بامتياز في روحه: هي أن يطيع القوانين التي يعيش في ظلّها وأن يخضع لها تماما. لم يوجد مواطن أفضل منه أبدا، ولا أشدّ منه حرصا على سلامة بلده، ولا أكثر منه استنكارًا لقلاقل عصره وبدَعه: بل كان مستعدّا لبذل ما في وسعه لإخمادها، لا لتأجيجها. إنّما فكره قُدَّ على مثال عصور أخرى غير هذا العصر.

عوضًا عن عمله الجادّ هذا، سأعرض عملا آخر أنجزه في نفس الفترة من حياته، غير أنّه يتّسم بالمرح والبهجة[1].

---

(1) هذا العمل هو: تسعة وعشرون سونيتة لإتيان دي لا بويَسي، وهو موجود في الفصل الموالي من طبعة 1588، غير أنّ مونتاني شطبه وألغاه من «نسخة بوردو».

الفصل الثامن والعشرون

تسعة وعشرون سونيتة[1] لـ إتيان دي لا بويَسي

إلى السيّدة دي غرامونت (De Grammont)، *كونتسّة دي غيسان*

1. سيّدتي، لا أهديك هنا شيئا من عندي إذ إنّك تملكين ما قد أهديك، أو قد لا يليق بمقامك ما أهديك. لكن أردت أن يتصدّر اسمك هذه الأبيات أينما تمّ الاطّلاع عليها، وأن يمنحها من شرف كوريزاند الأندوينية العظيمة. بدا لي أنّ هذه الهديّة تلائمك، لأنّ قلّة من نساء فرنسا يحكمن على الشعر أفضل منكِ ويستعملنه على أحسن وجه؛ سيّما وأنّه لا أحد يستطيع أن يبعث فيه الرّوح والحيويّة مثلما تفعلين بفضل ذلك التناغم الثريّ الجميل الذي حظَتك به الطبيعة من بين ملايين الحسناوات. سيّدتي، هذه الأبيات تستحقّ أن تحبّيها وتعزّيها، لأنّك قد تشاطرينني هذا الرّأي: لم يصدر من غاسكونيا ما يشهد أكثر منها على الإبداع والنّبل، وما يشهد أيضا على ثراء القريحة التي أبدعتها.

2. ولا تغاري لكونك لا تملكين بقيّة الأبيات التي طبعتُها برعايةِ قريبك النّبيل السيّد دي فوَا (De Foix)، لأنّها تعبّر في الحقيقة على حميّة وغليان، إذ كتبها في مرحلة الشّباب لمّا كان يحترق تهيّجا جميلا نبيلًا، بشأن موضوع سأخبرك عنه يوما سرًّا. تعود الأبيات الأخرى إلى مرحلة لاحقة، لمّا كان يفكّر في الزّواج، حيث كتبها على شرف خطيبته، وقد اتّسمت (هذه الأبيات) مذّاك بضرب من البرود الزّوجي. وإنّي من الذين يرون أنّ أفضل المواضيع التي يُمتعنا فيها الشعر هي المداعبة والهزل.

(نُشر *السونيتات* ضمن أعمال لا بويَسي).

---

(1) السونيتة (Sonnet) قصيدة من 14 بيتا.

الفصل التاسع والعشرون

عن الاعتدال

1. إنّنا نفسد الأشياء باستعمالها، كما لو كنّا نقطّر سمًّا، مع أنّها في ذاتها حسنة وجميلة. فقد نحوّل الفضيلة إلى رذيلة، إذا احتضنّاها بشوق لاذعٍ شديد. وإنّ الذين يقولون إنّ الفضيلة لا يكون فيها إفراط أبدا، وإلّا ما كانت فضيلةً، إنّما هم يتلاعبون بالألفاظ.

«يجب أن نسمّي الحكيمَ أخرقَ،
والعادلَ ظالمًا، إذا تجاوزا الحدّ
في اللّهث وراء الفضيلة».

[Horace, *Épîtres*, I, 6, V. 15]

2. إنّه لرأيٌ فلسفيّ عميق. فقد نُغالي في عشق الفضيلة ونتجاوز الحدّ أثناء سعينا إلى العدل. ذاك هو مغزى كلام ربّك: «لا تكن حكيما أكثر من اللّزوم، بل كن حكيما باعتدال».

3. لقد شاهدت شخصا موقّرا كان يسيء إلى سمعة دينه بسبب إفراطه في التديّن.

4. أحبّ من يكون مزاجهم وسطيّا معتدلا. ولا يزعجني عدم الاعتدال بقدر ما يدهشني ويحيّرني، حتّى في حالة ما إذا كانت الغاية منه طيّبة، ولا أدري بأيّ نعت سأنعته. وإنّي أرى في موقف والدة بوزانياس (Pausanias) عملا غريبا أكثر منه عادلا، إذ كانت هي الأُولى في الوشاية بابنها ثمّ في رميه بالحجارة. وكذا شأن بُسْتوميوس (Posthumius)، إذ أعدم ابنه الذي دفعته حماسة الشباب إلى مهاجمة العدوّ والفتك به، غير أنّه تجاوز الدّور الذي كُلِّف به. لن أنصح، بل لن أقبل بفضيلة بمثل هذه الشراسة، لأنّها تكلّف غاليا.

5. الرّامي الذي يتجاوز سهمه الهدف يُعتبر مخفقًا، شأنه شأن الذي لم يبلغ سهمه الهدف. وعيناي تنزعجان، سواء وجّهتهما فجأة نحو نور شديد أو نحو ظلام حالك؟

وفي محاورة لأفلاطون[1]، قال كاليكلاس إنّ الإفراط في التفلسف قد يصبح مضرًّا، ويُنصح بعدم التوغّل فيه أكثر من اللّزوم؛ فتعاطي الفلسفة قد يكون ممتعا ويعود بالنّفع إذا تمّ باعتدال،إلّا أنّه قد يحوّل الإنسان في آخر المطاف إلى كائن فاسد متوحّش: محتقرٍ للأديان وللشرائع العامّة، رافضٍ للتواصل مع الآخرين، فاقدٍ لكلّ مسؤولية سياسيّة، عاجزٍ عن إغاثة غيره كما عن إغاثة نفسه... وباختصار فهو لا يستحقّ التقدير. إنّ كلامه صحيح، لأنّ الإفراط في التفلسف قد يفقدنا حرّيتنا الطبيعية، وقد يجعلنا التحذلق والتمحّك نضيّع الطريق المستقيم الجميل الذي رسمته لنا الطبيعة.

6. إنّ العاطفة التي يشعر بها كلّ واحد نحو زوجته أمرٌ مشروع تماما. ومع هذا فإنّ الكنيسة لا تنفكّ تكبحها وتضع لها القيود. أذكر أنّي قرأت يوما مقطعا للقدّيس طوماس (Saint Thomas) حيث يرفض الزواج بين الأقارب من الدرجات المحرّمة، وحيث يذكر من بين الأسباب العاطفة المفرطة التي قد تربط الزوج بزوجته، إذ لئن كانت عاطفة الزواج تامّة وفي محلّها، فإنّ إرهاقها بعاطفة القرابة قد يجرّ الزوج لا محالة إلى سلوك يتجاوز حدود المعقول.

7. إنّ العلوم المنظِّمة لأخلاق النّاس وعاداتهم، كعلميْ اللّاهوت والفلسفة، لا يفوتها أن تقول كلمتها في كلّ أمر: فلا عمل يفلت من معرفتها وقواعدها، مهما كان خاصّا ومهما بلغت سرّيته. وإنّ الذين يدافعون عن حرّية المرأة إنّما هم على درجة من السذاجة: إذ لا تمانع المرأة أن يلامسها أحد، بينما يمنعها الحياء من ذلك في مجال الطبّ. وعلى هذا أريد أن أخبر الأزواج بما يلي، إن وُجد منهم من لا يزال متهيّجًا: إنّ المتعة التي يجدونها في معاشرة زوجاتهم تكون محرّمة بقدر ابتعادها عن الاعتدال، وقد تتحوّل إلى فسق وفساد كما لو كانت غير شرعيّة. فتلك الملامسات والمداعبات الفاحشة التي تجرّنا إليها ألاعيب الحبّ، ليست تخدش حياء المرأة فحسب، بل قد تلحق بها كذلك أضرارا. لتتعلّمْ العُهر بين أيادي أخرى! أمّا بالنّسبة إلى ما نحتاجه نحن، فهي تكون دائما على قدرٍ كافٍ من الإثارة. وأمّا أنا، فإنّي لم أمارس في هذا المجال غير ما كان موافقا لتربية طبيعية بسيطة.

8. الزواج رابطة دينيّة مقدّسة؛ ولهذا ينبغي أن تكون متعته جدّية متعفّفة ولا تخلو من القسوة؛ يجب أن تكون متعة مفعَمة بالحكمة والضمير الحيّ. ولمّا كانت غايته الرئيسية إنّما هي الإنجاب، كان يجب أن نسأل أنفسنا هل يجوز أن يضاجع الزوج زوجته بعدما يزول الأمل في الإنجاب، إمّا لكونها بلغت سنّ اليأس أو لكونها حامل.

(1) هي محاورة جورجياس، 484B – 485C، XL

ففي نظر أفلاطون، يكون ذلك جريمة. وعند بعض الأمم (ولا سيّما الأمّة المحمّدية) تعتبر مضاجعة المرأة الحامل أمرًا فظيعا. وتحرّم أمم أخرى مضاجعة المرأة الحائض. وكانت الملكة زنوبيا لا تقبل زوجها بين أحضانها إلّا مرّة واحدة، وتتركه بعد ذلك يلهث وراءها طيلة حملها، فلا تدعه يعيد الكرّة إلّا فيما بعد، وهذا لعمري مثال للزواج.

9. استعار أفلاطون من أحد الشعراء المتعطّشين لهذه المتعة الرواية التالية: ذات يوم تملّكت جوبيتِر (Jupiter) رغبة شديدة في مضاجعة زوجته ولم يستطع انتظار ولوجها الفراش فطرحها على الأرض، ونسي من شدّة المتعة القرارات المهمّة العظيمة التي اتّخذها مع بقيّة الآلهة في مجلسه السماوي. ومُذْ ذاك وهو يتبجّح بما شعر به من متعة لا تقلّ عمّا شعر به يوم افتضّ بكارتها في غفلة من والديها.

10. كان ملوك بلاد فارس يصطحبون نساءهم في المآدب، لكن عندما ينتشون ويترنّحون من السّكر ويرغبون في قضاء حاجتهم من المتعة، كانوا يأمروهنّ بالعودة إلى ديارهنّ، حتى لا تشاركن في إشباع رغباتهم الجامحة، كما كانوا يستدعون في مكانهنّ نساء لا يشعرون تجاههنّ بنفس واجب الاحترام.

11. لا يوجد تكافؤ بين كلّ النّاس فيما يتعلّق بكلّ متعة وكلّ حظوة ومحاباة. كان إبّامينُنداس (قد سجن شابّا فاسقا، فرجاه بيلوبيداس أن يطلق سراحه محاباة له، فرفض، ثمّ أطلق سراحه محاباة لفتاة من معارفه طلبت منه الشيء نفسه، وقال إنّ هذه المحاباة تصلح عندما يتعلّق الأمر بصديقة، لا عندما يتعلّق بنقيب في الجيش. أمّا سوفوكليس، فهو لمّا كان زميلا لبيرقلاس (Périclès) في مجال القضاء، شاهد صدفة فتًى جميلًا يمرّ من أمامهما فصرخ قائلا: «يا له من فتى جميل !». فأجاب بيرقلاس: «قد يستجمله أيٌّ كان، ما عدا القاضي، إذ ينبغي أن تكون عيناه طاهرة، لا يداه فقط».

12. تذمّرت زوجة الإمبراطور أليوس فيروس (Elius Verus) من عشقه لنساء أخريات، فأجابها أنّه يفعل ذلك بموجب الضمير، لأنّ الزواج محلّ شرفٍ وكرامةٍ، لا محلّ شبقٍ فاسقٍ لعوب. وقد حفظ تاريخنا الكنسي ذكرى تلك المرأة التي طلّقت زوجها لكونها لم تعد تتحمّل تغزّله بها بوقاحة وقلّة حياء. وعموما فإنّه لا توجد شهوة، مهما كانت مشروعة، إلّا وعِيبت علينا إذا أطلقنا لها العنان ولم نمارسها باعتدال.

13. لكن في الحقيقة، أليس الإنسان حيوانًا بائسًا؟ لأنّه ما يكاد ينجح، بفضل وضعه الطبيعي، في تذوّق لذّة واحدة خالصة تماما، حتّى يشرع فورا في قمعها بالتفكّر فيها. وكما لو كان ذلك لا يكفي، تراه يوظّف كامل مهارته وكلّ جهده كي يزداد بؤسًا على بؤس.

«إنّنا نوظّف براعتنا
للزيادة في حظّنا البائس»

[Properce, II, VII, 32]

14. قد تدّعي الحكمة الإنسانية العمق والبراعة عندما تقلّص من عدد ملذّاتنا ونعومتها، كما عندما تعمل، بمهارة ونجاح وبما لديها من الحيل، على تجميل الشرور وتزيينها كي تخفّف عنّا وطأتها. فلو كنتُ رئيس حزب (دينيّ)، لتوخّيت طريقا آخر أقرب إلى طبيعة الأشياء وإلى الحقيقة المقدّسة المواتية. ولعلّه كان لي من القدرة ما يكفي كي أرسم لهذا الطريق حدودا.

15. يتصرّف أطبّاء أرواحنا وأطبّاء أبداننا كما لو كانوا يتآمرون علينا، إذ لا يجدون أيّ علاج آخر لنا وأيّ دواء لأمراض الجسم والرّوح غير العذاب والألم والشقاء. فإلى مثل هذا يرمي السّهَر، والصَّوْم، والقميص الخشن، والنّفي بعيدا، والسجن المؤبّد، والسّوط، وعذابات أخرى. لكن بشرط أن تكون عذابات حقيقية، وأن تؤثّر بمرارتها فينا، وألّا يكون الحال كحال غاليو (Gallio) الذي نفي إلى جزيرة لسبوس (Lesbos)، حيث أعلِمتْ روما بأنّه غدا يقضي هناك أوقاتا ممتعة وأنّ جزاءه تحوّل لصالحه. تمّ الاستدراك في الحال، ودُعي للرجوع إلى جوار زوجته، في منزله، وأُمِر بعدم مغادرته حتى تكون العقوبة مناسبة لِما كان ينبغي أن يحسّ به.

16. ذلك لأنّ من يكون الصّوم عنده عاملا من عوامل الصحّة والبهجة، ومن يكون السّمك عنده ألذّ من اللّحم، لن يرى في الأمر علاجًا وخلاصًا. كما لن يكون للعقاّقير، بالنسبة إلى طبّ الأبدان، تأثير في من يتناولها باشتهاء وتلذّذ: لأنّ المرارة والصعوبة هي من الشروط الملائمة لفاعليّتها. إنّ من يتناول الرّاوند كما لو كان عقارًا عاديّا قد يُفسد استعماله: إذ لا بدّ أن يكون شيئا مؤلمًا للمعدة حتّى يعالجها. وههنا نتبيّن أنّ القاعدة الشائعة التي تقول إنّ الأشياء تعالَج بأضدادها إنّما هي قاعدة باطلة، لأنّ الألم يعالَج بالألم.

17. ترتبط هذه الرّؤية برؤية أخرى ضاربة في القدم، تتمثّل في الاعتقاد بأنّ السماء والطبيعة تبتهجان عندما تريانا نتقاتل ونسفك دماء بعضنا بعضا. في زمن آبائنا، ذُبح أمورات (Amurat)، إبّان غزوه لبرزخ كورنثوس، ستّمائة شابّ تكفيرا عن ذنوب المرحوم أبيه. وفي الأراضي الجديدة التي اكتُشفت حديثًا، وهي لا تزال بورًا طاهرة بالمقارنة مع أراضينا، فإنّ الذبائح والقرابين ظاهرة مألوفة عند أهاليها. فكلّ أصنامهم تكرع من دماء البشر، وتشهد على هذه البشاعة أمثلة كثيرة: كانوا يحرقون ضحاياهم

أحياء، وكانوا يخرجونهم من جحيم النّار نصف محروقين ويقتلعون قلوبهم وأحشاءهم؛ وكانوا يسلخون حتّى النّساء وهنّ أحياء، ويلبسون جلودهنّ الدّامية للآخرين أو يجعلون منها أقنعة. ولا تنقصنا الأمثلة على شجاعة وحزم أولئك المساكين المطلوب منهم الأضاحي، إذ يبحثون هم أنفسهم عن قرابين من عجائز ونساء وأطفال، لكي يُضحّى بهم، كما أنّهم يُقبلون على هذه المجزرة وهم ينشدون ويرقصون مع الحاضرين.

18. وكان سفراء ملك مكسيكو، من أجل إشعار فرناند كُرتاز (Fernand Cortez) بعظمة مولاهم، يقولون إنّ لديه ثلاثين إقطاعيًا من أتباعه، بوسع كلّ واحد منهم تعبئة ألف محارب، وإنّه مستقرّ في أجمل مدينة والأكثر عتادًا تحت السماء، وهو قادر على أن يهدي خمسين ألف نسمة قربانا للآلهة كلّ سنة. ويروى أيضا أنّه كان يؤجّج لهيب الحرب مع مجاوريه من الشعوب الكبيرة، لا فقط من أجل أن يتمرّن الشباب على ذلك، وإنّما خاصّة ليكون له أسرى يقدّمهم كقرابين. كما يروى أنّ كُرتاز، عندما دخل إحدى المدن، ضحّى أهلها بخمسين رجل دفعة واحدة، احتفالًا به.

19. أُواصل وأروي لكم ما يلي: أرسلت بعض الشعوب التي انتصر عليها كُرتاز لإعلامه بالولاء له والتقرّب منه؛ وعرضت عليه ثلاثة أنواع من الهدايا: «مولانا، إليك خمسة عبيد؛ فإن كنتَ إلهًا قاسيا تتغذّى من اللّحم والدّم، فعليك بأكلهم وسنجلب لك غيرهم؛ وإن كنت إلهًا طيّبا، فإليك بهذا البخور والرّيش؛ وإن كنت بَشَرًا، خُذ هذه الطيور والفواكه».

الفصل الثلاثون

عن الكانيباليين (أكَلَة أمثالهم)[1]

1. عندما عبَر الملك بيروس (Pyrrhus) إلى إيطاليا وشاهد نظام الجيش الذي أرسله الرومانيون ضدّه، صاح قائلا: «لا أدري إلى أيّ نوع من البرابرة ينتمي هؤلاء (إذ كان اليونانيون يطلقون هذا الإسم على كلّ الأجانب)، لكن تنظيم الجيش الذي يقابلني ليس بربريًا». وقال اليونانيون نفس الشيء عن الجيش الذي عبر به فلامنيوس (Flaminius) بلادهم، كما قال فيليب[2] الكلام نفسه عندما شاهد من مكان مرتفع هيئة المعسكر الرومانيّ وتنظيمه لمّا حطّ الرحال في مملكته بقيادة بوبليوس سولبيسيوس غالبا (Publius Sulpicius Galba). وعليه ينبغي أن نتجنّب الآراء السائدة، وأن نحكم على الأشياء، ليس بالنظر إلى ما تلقّيناه من أفكار، وإنّما من منظور العقل.

2. وجدت نفسي طويلا صحبة رجل عاش مدّة عشر سنوات أو إثنتي عشرة سنة في ذلك العالم الذي وقع اكتشافه في قرننا هذا، في المكان الذي أرسى فيه فيلغنيون (Villegaignon) وأطلق عليه اسم فرنسا الأنتاركتيكية. بدا اكتشاف هذا البلد الشاسع أمرا مهمّا جدّا. لكن من المحتمل أن تُكتشف بلدان أخرى في المستقبل، لأنّ هناك أناس أكثر منّا كفاءة ولم يحسنوا تقدير هذا الاكتشاف الأوّل. أخشى أن تكون أعيننا أوسع من بطوننا، وفضولنا أعظم من قدرتنا: فنحن نقبّل كلّ شيء، ولكن لا نحتضن سوى الرياح.

3. أخبرنا أفلاطون، عن صولون، عن أساقف مدينة صا الحجر (Saïs)[3]

---

(1) في الفرنسية، الكانبالية (Cannibalisme) هي أكل الكائن الحيّ لبني جنسه، أي لأمثاله، بينما الأنثروبوفاجيا (Anthropophagie) تخصّ الإنسان الذي يتناول لحم البشر. المصطلح الأوّل يشمل كلّ الكائنات الحيّة، والمصطلح الثاني لا يصدق إلاّ على الإنسان. يستعمل مونتاني في هذا الفصل لفظ «الكانبالية»، لكن حديثه يدور حول «الأنثروبوفاجيا» على وجه التخصيص.

(2) هو فيليب المقدوني الخامس، الذي هزمه فلامنيوس سنة 97.

(3) صا الحجر، مدينه قديمه فى مصر، كانت عاصمة الإقليم الخامس فى غرب الدّلتا. سمّاها اليونانيون القدامى سايس، وموقعها جنوب مدينة دسوق وشمال مدينة بسيون شمال غرب الدّلتا.

المصريّة، بوجود جزيرة كبيرة سابقة للطوفان اسمها أطلنتيد (Atlantide)، في مخرج مضيق جبل طارق، كانت على امتداد أرحب من إفريقيا وآسيا معا. وكانت سيطرة ملوكها تتجاوز حدودها، بعيدا في اليابسة، في كامل عرض إفريقيا وصولا إلى مصر، وعلى طول أوروبا حتى توسكانا (Toscane)؛ كانوا يرغبون في الذهاب إلى آسيا وفي السيطرة على الأمم المطلّة على البحر المتوسط، وصولا إلى البحر الأسود. ولأجل ذلك، تنقّلوا عبر إسبانيا، وبلاد الغال(La Gaule)، وإيطاليا، ووصلوا إلى اليونان حيث حاربهم الأثينيون. لكن بعد مدّة أغرقهم الطوفان جميعا وأغرق جزيرتهم أطلنتيد.

4. ومن المحتمل جدّا أنّ تلك الكوارث التي تسبّبت فيها المياه قد حوّلت وجه الأرض بشكل مدهش، إذ مثلًا، فصل البحر صقلّية عن إيطاليا.

«قيل إنّ تلك الأراضي انفصلت
بعضها عن بعض في تشنّج عنيف
بعدما كانت تؤلّف قارّة واحدة معا»

[Virgile, *Énéide*, III, V. 414]

وكذلك انفصلت قبرص عن سوريا، وجزيرة أوبي (Eubée) عن يابسة بيوسيا (Béotie)؛ وفي جهة أخرى ربط البحر بين أراض كانت متفرّقة، وردمت بينها بالرمال والطّمْي.

«وبعدما ظلّت المستنقعات جرداء طويلا، لا تحرّكها سوى المجاذيف،
أصبحت الآن تُطعم المدن المجاورة، وتحرثها المحاريث»

[Horace, *Art Poétique*, 65]

5. لكن يبدو أنّ جزيرة أطلنطيد ليست هي العالم الجديد الذي وقع اكتشافه مؤخّرا، لأنّها كانت تكاد تلمس إسبانيا، وكان لا بدّ من حدوث فيضان عظيم كي يدفعها إلى الوراء أكثر من ألف ومائتي فرسخ. سيّما أنّ البحّارة المعاصرين قد أيقنوا من أنّ هذا العالم الجديد ليس جزيرة، وإنّما هي اليابسة، بل هي أرض قارّية ملاصقة للهند الشرقية من جهة وللأراضي تحت القطبية من جهة أخرى أو، إن كانت منفصلة عنها، فليس بأكثر من مضيق صغير لا يستحقّ أن نسمّيه «جزيرة».

6. يبدو أنه توجد حركات في تلك الأجسام الكبيرة مثلما في أجسامنا: بعضها طبيعية، وبعضها مضطربة.

عندما أشاهد ما أحدثه نهر دردونيا (Dordogne) في عصرنا، على الضفة اليمنى من

مجراه، وأرى ما أكله من الأرض في ظرف عشرين سنة، وأسس البنايات التي قوّضها، فإنّه لا يسعني إلّا أن أقرّ بعظمة تحرّكه: إذ لو استمرّ هكذا فيما مضى، أو استمرّ على نفس الوتيرة في المستقبل، فقد يتغيّر مظهر البلاد وينقلب تماما. لكن هذه الحركات نفسها متبدّلة: فالنّهر تارة يفيض من جهة وطورا من الجهة الأخرى، وأطوارا يبقى في مجراه على حاله.

7. لا أتحدّث عن الفيضانات المفاجئة، التي ندرك أسبابها: فعلى سواحل الميدوك (Médoc)، شاهد أخي، السيّد دارساك (Le Sieur D'arsac)، أراضيه تبتلعها الرمال التي تقيّأها البحر، وما بقي يظهر منها سوى قمّة بعض المباني. وتحوّلت مزارعه وضيعاته إلى مراعي هزيلة. قال سكّان البلد إنّه منذ مدّة أصبح البحر يغزو أراضيهم بكلّ شدّة حتّى إنّهم فقدوا منها أربعة فراسخ؛ حيث كانت الرمال في الطليعة، وظهرت كثبان من الرمال المغرقة تتقدّم البحر بنصف فرسخ وتغزو البلاد.

8. نجد عند أرسطوَ شهادة أخرى قديمة، لها علاقة بذلك الاكتشاف للعالم الجديد، هذا إذا صحّ أنّه صاحب ذلك الكتيّب الموسوم بـ«عجائب لا تصدّق». قال فيه إنّ عددا من القرطاجيين تجاوزوا مضيق جبل طارق في اتّجاه المحيط الأطلسي، حيث أبحروا طويلا قبل أن يكتشفوا جزيرة خصبة كبيرة، تكسوها الغابات تمامًا وتسقيها أنهار عظيمة عميقة، بعيدة كلّ البعد عن كلّ يابسة، فاستقرّوا بها صحبة نسائهم وأطفالهم، ولحق بهم آخرون أغرتهم الأراضي الخصبة الغنيّة.

9. لمّا شاهد سادة قرطاج تهجير بلادهم تدريجيًا، منعوا أيّا كان من مغادرتها للذهاب هناك، تحت التهديد بالقتل، وطردوا من هناك السكّان الجدد، خشية أن يتكاثروا لدرجة أن يهدّدوا دولتهم نفسها. إنّ رواية أرسطو هذه لا تتّفق أيضا مع ما نعرفه عن الأراضي التي اكتُشفت حديثا.

10. كان خادمي رجلًا فظّا بسيطًا، وهذا لعمري شرط ملائم لكلّ شهادة صادقة. إذ لئن كان أصحاب الفكر الرشيق أكثر فضولا وأشدّ ملاحظة للأشياء، فإنّهم يضيفون إليها شروحهم. وحتّى يكون تأويلهم مقنعا للآخرين، كان لا بدّ لهم من تشويه التاريخ قليلا: إنّهم لا ينقلون الأمور كما هي عليه حقّا، وإنّما يغيّرونها ويزيّفونها قليلا وفق رؤيتهم لها. وفي سبيل أن يصدّقهم الآخرون ويأخذوا برأيهم، تراهم يضيفون إلى روايتهم ويمدّدون فيها ويضخّمون. على العكس من ذلك، ينبغي أن يكون الشاهد صاحب ذاكرة أمينة، أو شخصًا في غاية البساطة حتى إنّه لا يستطيع أن يأتي من لدنه ما به يبني روايات كاذبة قابلة للتصديق. كانت هذه حالة خادمي؛ ومع ذلك فقد أراني عدّة مرّات تجّارًا وبحّارة تعرّف عليهم أثناء سفره. ولهذا أقتصر على هذه المعلومة، وأغضّ الطرف عمّا يقوله الكوسموغرافيون (علماء في وصف الكون) في المسألة.

11. قد نحتاج إلى طوبوغرافيين (علماء في قياس الأراضي) يصفون لنا بصورة

دقيقة المناطق التي زاروها. لكن بما أنّهم يمتازون عنّا بكونهم زاروا فلسطين، فإنّهم يغتنمون الفرصة دائما لإضافة أخبار عن بقيّة أقطار العالم... فأنا بودّي أن يكتب كلّ واحد عمّا يعلمه في كلّ المواضيع، وليس أكثر. إذ قد يكون لبعضهم تجربة أو معرفة بنهر ما أو نافورة، وأن لا تكون معرفته، فيما عدا ذلك، أوسع من معرفة أيّ شخص آخر. إلّا أنّك تراه، للأسف، في عرضه لمجاله الضيّق، لا يتوانى عموما عن إعادة كتابة كامل علم الفيزياء! ويخلّف مثل هذا العيب مساوئ خطيرة.

12. عودة إلى حديثي وبناء على ما رُويَ لي، أرى أنّه لا يوجد أيّ توحّش لدى تلك الشعوب، وأنّ كلّ واحد يسمّي توحّشا ما لم يكن جزءًا من عاداته. ذلك أنّنا لا نملك معايير أخرى لما هو حقّ وما هو معقول غير الأمثلة التي نعاينها وغير الآراء السائدة والعادات الجارية في البلد الذي نعيش فيه. ففي هذا البلد، هذا ما نعتقده عادة، توجد الديانة الكاملة، والحكومة الفاضلة، والاستعمال الأمثل للأشياء جميعا.

إنّنا نسمّي تلك الشعوب «متوحّشة بريّة» على نحو ما نسمّي الثمار التي تنتجها الطبيعة من تلقاء نفسها «ثمارًا بريّة»، والحال أنّ الثمار التي غيّرنا من طبيعتها وأفسدناها بما اصطنعناه لها هي التي ينبغي أن تسمّى «بريّة». لقد خلطنا الثمار الأصليّة الأولى وهجّناها لصالح ذوقنا الفاسد، بعدما كانت مفعَمة بالمنافع والفضائل الطبيعية الحقيقية.

13. بيد أنّ مختلف الثمار التلقائية في تلك الربوع تمتلك طعمًا ومَذاقًا ممتازَين، وقد تقبل المقارنة بينها وبين ما ننتجه نحن. وبالتالي فلا مبرّر للقول إنّ الفنّ يتفوّق على الطبيعة، والدتنا القديرة العظيمة. فنحن قد حمّلناها ما لا يطاق، حتى خنقناها بما ابتكرناه وأضفناه إلى منتجاتها الغنيّة الجميلة. إنّها، حيثما تظهر في كلّ نقائها، تجعلنا نخجل بسبب مساعينا التافهة البسيطة.

«واللّبلاب إذا تسلّق بمفرده كان أحسن،
وشجر القطلب إذا نما في العزلة كان أجمل،
والعصافير، إذا جهلت الفنّ، كان تغريدها أعذب»

[Properce, I, 2,10.]

14. فنحن رغم كلّ جهودنا، لن نستطيع حتى أن نبني عشّ أصغر العصافير، بنسيجه وجماله وفائدته، ولا حتى أن ننسج بيت أقلّ عنكبوت. تنتج كلّ الأشياء، كما قال أفلاطون، بالطبيعة، أو الصدفة، أو الفنّ. وينتج أجلّها وأجملها بإحدى الأوليَيْن، وبالأخير ينتج أقلّها وأخسّها.

15. تبدو تلك الشعوب «متوحّشة» لكونها لم تخضع كثيرا للعقل وبقيت قريبة جدّا

من وضعها الأصلي. كما أنّها ظلّت تحتكم إلى قوانين الطبيعة، التي لم تمتزج بعدُ كثيرا بقوانيننا. أمام هكذا صفاء، تراني أشعر أحيانا بالأسف على كوننا لم نعلم بوجودها من قبل، في فترة وُجد فيها من النّاس من هم أجدر منّا بتقديرها حقّ قدرها. أتأسّف لكون ليكورغ (Lycurgue) وأفلاطون لم يعلَما بوجودها، ويبدو لي أنّ ما نلحظه لدى تلك الشعوب يفوق كلّ التصوّرات التي زيّن بها الشعراء العصر الذهبي وكل ما بذلوه من براعة في تخيّل وضعيّة سعيدة للإنسان، كما يفوق حتّى الفلسفة ومحبّتها. لم يستطع القدامى أن يتخيّلوا حالة طبيعية بمثل طهارة وبساطة الحالة التي نختبرها فعلا، كما لم يكن بإمكانهم أن يعتقدوا في قدرة المجتمع على البقاء رغم قلّة الوسائل وقلّة الروابط بين الأفراد.

16. فاعلمْ، يا أفلاطون، أنّها شعوب لا معرفة لها بالتجارة، ولا بالآداب، ولا بعلم الأعداد؛ شعوب لا تعرف حتى كلمة «قاضي»، وتجهل المراتب والدرجات؛ لا تستعمل خدَما، ولا تعرف الثراء ولا الفقر؛ تجهل العقود، والتركات والمواريث؛ لا شغل لها سوى الفراغ، ولا تحترم غير الأقارب المقرّبين؛ لا ترتدي ثيابا، ولا فلاحة لها، ولا تعرف المعادن ولا الخمور ولا الحبوب؛ كانت لا تعرف حتى كلمات الكذب والخيانة والمواراة والبخل والحسد والنميمة والصفح. هل أنّ جمهورية أفلاطون، كما تخيّلها، بعيدة عن هذا الكمال؟

«تلك هي أولى القوانين التي وهبتها الطبيعة»

[Virgile, *Géorgiques,* II, 20]

17. ثم إنّها تعيش في بيئة لطيفة للغاية وفي مناخ معتدل، حتى إنّه، حسب ما رواه شُهودي، يندر أن ترى من بينها إنسانًا مريضًا؛ بل أكّدوا لي أنّهم لم يروا أحدًا يرتعش، أو عيناه متقيّحتان، أو فاقدا لأسنانه، أو تقوّس هرَمًا. كانت تعيش على ساحل البحر، في منطقة تمسح مائة فرسخا، تحميها من جهة البرّ جبال شاهقة عظيمة. كانت اللّحوم والأسماك عندها متوفّرة جدّا، وهي لا تشبه لحومنا وأسماكنا، كما كانت تقتصر على طبخها دون سابق إعدادها. وأوّل من ركب حصانا، رغم مشاهدتها للأحصنة أثناء حلّها وترحالها، بعث في قلوب النّاس الرعب فرموه بسهامهم وأردوه قتيلا قبل حتى أن يتعرّفوا عليه.

18. أكواخ هذه الشعوب فسيحة جدّا وتتّسع لمائتي نسمة أو ثلاثمائة. وهي مفروشة بجذوع أشجار كبيرة، تلمس أطرافها الأرض وتتماسك من فوق، مثل بعض مخازننا التي ينزل سقفها حتى الأرض ويشكّل جدارًا. ولديها خشب صلب جدّا تستعمله

للقطع وتصنع منه السيوف وسفود الشوي. أسِرّتها المصنوعة من قماش القطن معلّقة إلى السقف، مثل أسرّة مراكبنا البحرية. ولكلّ واحد سريره، لأنّ النساء لا ينمن مع أزواجهنّ. ينهض أفرادها باكرا مع طلوع الشمس، ثمّ يتناولون فطورًا واحدًا لكامل النهار. لا يشربون وقتها، وهُم في ذلك، حسب ما رواه سويداس (Suidas)، لا يختلفون عن شعوب أخرى تعيش في المشرق ولا تشرب إلّا خارج أوقات الطعام. يشربون مرّات كثيرة في اليوم، وبكمّيات كبيرة. يُصنع شرابهم من بعض الجذور، وله لون نبيذنا الأحمر. يتناولونه دافئا، ويحتفظون به يومين أو ثلاثة. له طعم حارّ، وهو لا يُسكر وينفع المعدة. قد يتسبّب في الإسهال لمن لم يتعوّده، لكنّه ممتع جدّا لمن يألفه. ويتكوّن خبزهم من مادة بيضاء شبيهة بالكزبرة الملبّسة (المغطاة بالسكّر). لقد جرّبته، فوجدته حلو المذاق، لكن من دون نكهة.

19. يقضّون كامل نهارهم في الرقص. يحمل شبابهم الأقواس ويذهبون لقنص الحيوانات المتوحّشة، بينما ينحصر شغل بعض النساء في تسخين مشروبهم. ويتكفّل واحد من بين الشيوخ، في الصباح قبل أن يشرعوا في تناول الفطور، بوعظهم جميعا مكرّرا الجملة نفسها وهو يمشي حول المبنى الذي يبلغ طوله مائة قدم. إنّه لا يطلب منهم سوى أمرين اثنين: أن يستبسلوا ضدّ أعدائهم، وأن يعطفوا على نسائهم.

20. وإنّهم لا يتوانون أبدا في التذكير بدَيْنهم لهنّ، إذ إنّهنّ يحافظن على مشروبهم دافئا معطّرا. ويمكن أن ترى في العديد من الأماكن، وخاصة حيث أقطن، شكل أسرّتهم وحبالهم وسيوفهم والأساور الخشبية التي يحمون بها رسغهم أثناء القتال، والعصيّ الكبيرة المفتوحة في طرف منها والتي يستخدمونها للرّقص بإيقاع. إنّهم يحلقون وجوههم تماما، بل يحلقونها عن كثب أكثر ممّا نفعل، دون أيّ شفرات حلاقة أخرى غير التي صُنعت من خشب أو حجر. يؤمنون بخلود الأرواح، وبأنّ التي تنال رضا الآلهة ستحلّ في السماء حيث تشرق الشمس، بينما ستقبع الأرواح الملعونة في جهة الغرب.

21. يوجد عندهم أنواع من الأنبياء أو الكهنة الذين نادرا ما يظهرون أمام العموم، لأنّهم يستقرّون في الجبال. لكن عندما ينزلون، يُحتفى بقدومهم ويُعقد اجتماع رسميّ لقرى كثيرة (لأنّ كلّ دار من ديارهم، كما وصفتُها، هي عبارة عن قرية كاملة، وهي متباعدة مسافة فرسخ فرنسي). يتوجّه إليهم النبيّ بالحديث علنًا، ليحضّهم على الأعمال الفاضلة وعلى القيام بواجباتهم. لكنّ أخلاقهم كلّها تتلخّص في هاتين الدّعوتين: أن يكونوا مقدامين في الحرب ومخلصين لزوجاتهم. إنّه يتنبّأ لهم بالأحداث القادمة وبعواقب أعمالهم؛ كما يدعوهم إلى الحرب أو يردعهم عنها؛ لكن لو أخطأ في تنبّؤاته

وسارت الأحداث على خلاف ما توقّع، اتّهموه بالدّجل وقطعوه إربًا إربا إذا قبضوا عليه. ولذا فمن المحال أن تراه ثانية إذا افتضح أمره.

22. إنّ العَرافة هبة من الله؛ ولذا فلا بدّ من محاسبة كلّ عرّاف دجّال. كان السّيثيون، عندما يفشل العرّافون في توقّعاتهم، يطرحونهم أرضا ويكبّلون أياديهم وأرجلهم بالأغلال، ويضعونهم على عربات تجرّها ثيران، مفروشة بفضلات الأشجار، ثمّ يضرمون فيها النّار. إنّ الذين يتعاملون مع الحالات المتوقّفة على مستطاع الإنسان ويبذلون ما في وسعهم قد يُغفر لهم ذلك؛ أمّا الذين يخدعون ذويهم ويتبجّحون بقدرات خارقة تتجاوز الفهم، ألا يحقّ محاسبتهم لعدم الإيفاء بوعودهم ولكذبهم وصلفهم؟

23. يحارب الكانباليون الشعوب التي تقطن ما وراء الجبال، بعيدا في الفيافي، ويقصدونهم عراة لا يحملون سلاحا غير أقواس أو سيوف خشبية حادّة في أحد أطرافها، شأن حديد رماحنا. إنّه لأمر مرعب أن ترى استبسالهم في المعارك دون هوادة، وتكون الخاتمة بالموت والدّم، إذ لا يعرفون الهلع والهرب. ويعود كلّ واحد برأس عدوّه غنيمةً يعلّقها في مدخل بيته. وبعد معاملة أسراهم معاملة حسنة مدّة من الزمن وتوفير كلّ أسباب الرفاهة لهم، يدعو سيّدهم كلّ معارفه من النّاس إلى اجتماع كبير، ثمّ يقيّد ذراع أحد الأسرى بحبل، تاركا إيّاه على مسافة منه خشية أن يُعتدى عليه، ويقدّم الذراع الأخرى إلى أحد أعزّ أصدقائه ليمسكه بنفس الطريقة. بعد ذلك يسدّدان له ضربات بالسّيف معًا، ثمّ يوضع للطّهي ويأكله الجميع، ويتمّ إرسال أجزاء منه إلى الأصدقاء المتغيّبين. وإنّهم لا يقومون بذلك، كما قد يُظنّ، بغرض التغذّي، مثلما كان يفعل السيتيون فيما مضى، وإنّما بغرض الانتقام الشديد.

24. والدليل على ذلك هو أنّهم، عندما لاحظوا ما يفعل بهم البرتغاليون (المتحالفون مع أعدائهم) عندما يقبضون عليهم، إذ كانوا يردمونهم حتّى الحزام، ثمّ يرشقونهم بالسهام قبل إعدامهم شنقًا، خمّنوا أنّ هؤلاء الذين قدموا من خارج عالمهم (والذين سبق أن نشروا شتى أنواع الرذائل من حولهم، فضلا عن تفوّقهم في مسالك الانحراف) لم يتوخّوا هذا النوع من الانتقام دون سبب، ولعلّه بالتالي أكثر فظاعة من انتقامهم. وإذّاك تخلّوا تدريجيا عن طريقتهم وأخذوا بطريقة البرتغاليين.

قد أستاءُ من فظاعة مثل هذا السلوك ووحشيّته، لكنّني مستاء أكثر من كوننا نحكم بجدٍّ على أخطائهم، بينما نغضّ الطرف عن أخطائنا.

25. إنّي أرى أكثر توحّشًا في أكل إنسانٍ حيٍّ ممّا في أكله ميّتا، وفي تعذيبه وتمزيق جسده بينما لا يزال يحسّ، وفي شيّه قِطَعًا صغيرة ورميه للكلاب والخنازير كي تنهشه وتلتهمه (لم أقرأ ذلك فقط، بل رأيته بأمّ عيني، ولم يحدث ذلك بين ألدّ الأعداء فحسب،

وإنّما بين المواطنين أيضا وحتى بين الأجوار، بل الأسوأ من ذلك هو أنّه حدث بتعلّة الدّين والتقوى)... إنّ في ذلك أكثر توحّشا ممّا في شيّ إنسان وأكله بعد موته.

26. كان في اعتقاد خريزيبوس (Chrysippe) وزينون (Zénon)، رئيسَا المدرسة الرواقية، أنّه لا عيب في استغلال جثّتنا، وقت الحاجة، للحصول منها على ما يسدّ الرّمق، مثلما فعل أسلافنا لمّا حاصرهم قيصر في أليزيا (Alésia)، حيث عزموا على مقاومة المجاعة بتناول أجسام النساء والشيوخ وغيرهم ممّن لا يصلحون للمعركة.

«قيل إنّ الغاسكونيين، بفضل هذه الأطعمة، قد أطالوا مشوار حياتهم»
[Juvénal, XV, 93]

وإنّ الأطبّاء لا يخشون من استغلالها لمختلف الأغراض المتعلّقة بصحّتنا، سواء بتناولها فمويّا أو باستعمالها الخارجي. لكن لم يوجد أبدا إنسان على درجة من الحمق حتّى يبحث عن الأعذار للغدر والطغيان والقسوة، وهي من خطايانا العادية.

27. قد يجوز إذن أن ننعتهم بالمتوحّشين، بالنظر إلى قواعد العقل، لكن ذلك لا يجوز إذا قارنّاهم بأنفسنا، لأنّنا نفوقهم توحّشا. حربهم شريفة ونبيلة، ولها من الجمال والأعذار بقدر ما يمكن أن يوجد لهذه العاهة الإنسانية؛ وإنّ مبدأها الوحيد هو المروءة لا غير. إنّهم لا يعارضون مساعي الآخرين إلى استعمار أقطار جديدة، لأنّهم لا يزالون يتمتّعون بخصوبة الطبيعة التي توفّر لهم دون شغل ولا عناء حاجاتهم الضرورية، حتى إنّهم لا يستحقّون لتوسيع أراضيهم. إنّهم لا يزالون على حالة من السعادة المتمثلة في الاقتصار على ما تطلبه الطبيعة، وكلّ ما عدا ذلك فهو زائد في نظرهم.

28. يسمّون من كان في نفس عمرهم «أخًا»، ومن كان أصغر منهم سنّا «ابنًا»، ويعتبرون الشيوخ «آباء» للجميع. ويترك هؤلاء الشيوخ أملاكهم مشاعة بين ورثتهم، دون أيّ عقد عدا العقد الطاهر الذي تمنحه الطبيعة لمخلوقاتها عند الولادة.

وإذا اخترق جيرانهم الجبال وهاجموهم وانتصروا عليهم، كانت غنيمتهم شرف المجد والمروءة والشهامة، لأنّهم لا يكترثون بأملاك المهزومين. ثمّ يعودون إلى بلادهم حيث لا تنقصهم الضروريات، وحيث يملكون خصلة عظيمة تتمثل في الرضا بوضعهم السعيد وتمتّعهم به. ويسلك الآخرون بنفس الطريقة، إذ لا يطلبون من أسراهم فدية أخرى غير الاعتراف بالهزيمة.

29. لكن يندر جدّا أن تجد من بين هؤلاء الأسرى واحدًا فقط يتخلّى، قولًا أو فعلًا، عن أنفته وبسالته كي لا يُقتل. لن ترى أحدا منهم يتضرّع إلى عدوّه كي لا يقتله ويأكله. يعاملهم المنتصرون معاملة حسنة، لكي يزداد تشبّثهم بالحياة؛ ويحدّثونهم كثيرا عن موتهم القريب، وعن العذاب الذي ينتظرهم، وعمّا يعدّونه لأجل ذلك، وعن الطريقة

التي بها ستُقطع أطرافهم، وعن الحفل الذي سيقام بالمناسبة. كلّ هذا لغاية واحدة، هي إرغامهم على النّطق بكلام خسيس جبان، أو لدفعهم إلى الهرب؛ يعني لتخويفهم وإدخال البلبلة في نفوسهم، إذ في ذلك فقط يتمثّل الانتصار الحقيقي:

«لا يوجد انتصار حقيقي
غير الذي يكسر شوكة الرّوح
ويرغمها على الاعتراف بالهزيمة»

[Claudien, *De Sexto Consulatu Honorii*, V. 248]

30. كان المجرّيون، في وقت مضى، مولعين بالقتال، وإذا انتصروا على عدوّهم توقّفوا عند هذا الحدّ ولم يساوموه على شيء وتركوه يذهب في سبيل حاله دون الإساءة إليه، شريطة أن يعترف بهزيمته وأن يلتزم بعدم حمل السلاح ضدّهم في المستقبل.

31. إنّا نتفوّق على أعدائنا بعديد المزايا، إلّا أنّها ليست من مزايانا الخاصة بقدر ما هي مستعارة منهم. وإنّ قوّة الذراعين والسّاقَيْن هي من خصال الحَمّال، لا من خصال الرجل الشجاع؛ والرشاقة سمة فطرية جامدة؛ ومن حسن الحظّ.

أن يتعثّر عدوّك وينبهر بنور الشمس الساطعة؛ ولا تعدو مهارة المبارز بالسّيف، مع أنّه جبان تافه، إلّا أن تكون نتيجة التعلّم والدربة. إنّ قيمة الإنسان تكمن في قلبه، لا في إرادته: فقلبه هو مكمَن شرفه الحقيقي. وتتمثل الشجاعة في الحزم ورباطة الجأش، لا في قوّة الساعدين والرّجلين؛ وهي لا تكمن في قيمة حصاننا أو سلاحنا بقدر ما تكمن في مدى قيمتنا نحن. إنّ الذي يسقط، ولا تضعف شجاعته، إنّما هو

«إذا سقط، استمرّ في القتال جاثما على ركبتيه»

[Sénèque, *De Providentia,* II]

وإنّ الذي يتهدّده الموت ولا يفقد رغم ذلك الثقة بنفسه ويحدّق في وجه عدوّه بجرأة واحتقار، إنّما هو لا ينهزم أمام عدوّه بقدر ما ينهزم أمام القدر: إنّه يُقتل، لكن لا يُهزم. وأحيانا قد يكون أكثر النّاس شجاعة أقلّهم حظّا.

32. رُبَّ هزيمة مساوية للنّصر! حتّى تلك الانتصارات المتشابهة الأربعة، أجمل انتصارات حدثت تحت الشمش : انتصارات سالامين (Salamine) وبلاتي (Platées) وميكال (Mycale) وصقلّية، فإنّ أحدا لم يجرؤ أبدا على الموازنة بين ما جلبته من مجد، حتّى جميعها معا، وبين الهزيمة التامة للملك ليُونيداس (Léonidas) وأهله في معركة ترموبيل (Thermopyles).

33. من كان يعدو أسرع من القبطان إيخولاس (Ischolas)، رغبة في الانتصار

المجيد، ورغم ذلك خسر المعركة؟ من وضع ذكاءه وهمّه في صلاحه، أكثر ممّا وضعهما هو في طلاحه؟ كان قد تمّ تكليفه بالدفاع عن ممرّ في البيلوبونيز (Péloponnèse)، ضدّ الأركاديين (Arcadiens)، فقدّر أنّه لن يستطيع ذلك أبدا بسبب طبيعة المكان وتفاوت القوى المتصارعة، ورأى أنّ الحرب مع العدوّ ينبغي أن تبقى في ساحة الوغى، فضلا عن أنّه لا يجدر بمواطن لسيديمونيّ مثله، يتحلّى بالشجاعة والمروءة، أن يخلّ بالمهمّة التي أُنيطت بعهدته، فوجد حلّا وسطا: اختار من بين جنوده أصغرهم سنّا وأصلحهم، وأعادهم إلى بلدهم لخدمته والدفاع عنه؛ وقرّر البقاء للدفاع عن الممرّ مع الجنود الذين لا يعني موتهم كثيرًا، فضحّوا بحياتهم، وكلّفوا أعداءهم ثمنا باهظا مقابل اقتحامهم الممرّ. ذاك ما حصل فعلا.

34. فعلًا، كانوا محاصرين من الأركاديين، فقاتلوهم بنجاح قبل أن يرضخوا ويُقتلوا جميعًا بحدّ السّيف. هل يوجد أفضل من هكذا كأس بطولة يستحقّه المهزوم أكثر من هازمه؟ إنّ الانتصار الحقيقي يتحقّق بالقتال، وليس بالنجاة؛ وإنّ شرف الجنديّ يتمثل في الاستبسال في القتال وليس في القتل.

35. عَوْدًا إلى قصّة الكانيباليين، فقد رأينا أنّ الأسرى لا يقرّون بهزيمتهم، رغم ما يتكبّدون؛ بل تراهم، على العكس، طيلة حبسهم شهرين أو ثلاثة أشهر، يُظهرون مرحهم، ويحثّون أسيادهم على تعجيل نهايتهم، فيستفزّونهم ويشتمونهم وينعتونهم بالجُبن ويذكّرونهم بعدد المعارك التي خسروها ضدّهم. توجد بحوزتي أنشودة من تأليف أحد الأسرى، يدعو فيها سجّانيه، ساخرا، إلى أن يلتفّوا ويجعلوا منه عشاءهم، لأنّهم إذا فعلوا، سيكون عشاؤهم من لحم آبائهم وأجدادهم الذين سبق أن تناولهم وتغذّى من أجسامهم...

قال فيها: «*هذه العضلات، وهذا اللّحم، وهذه الأوردة، إنّما هي تعود إليكم أيّها المجانين. ألا تقرّون بأنّها لا تزال تحتوي على خلاصة أجدادكم؟ تذوّقوها جيّدا وستجدون فيها طعم لحمكم الخاص*».

هذا الموقف، لعمري، لا يمكن أن يوصف بـ«المتوحّش».

36. إنّ الذين وصفوهم لحظة ضربهم وإعدامهم، قدّموا لنا صورة أسرى يبصقون على جلّاديهم ويسخرون منهم، ولا ينقطعون حتى آخر رمق يستفزّونهم ويتحدّونهم بكلامهم وبرباطة جأشهم. بصراحة، ومقارنة بنا، يبدو هؤلاء النّاس متوحّشين. إذ لا بدّ إمّا أن يكونوا حقّا متوحّشين، وإمّا أن نكون نحن المتوحّشين: فثمّة بَوْن شاسع بين أسلوب وجودهم وأسلوبنا.

37. يملك رجال تلك البلاد عددا كبيرا من الزّوجات، يزداد عددهنّ طردًا مع

شجاعتهم وفتوّتهم. ويوجد في زواجهم أمر ملفت للانتباه: فلئن كانت غيرة زوجاتنا هي سبب حرماننا من عطف النّساء الأخريات وعشقهنّ لنا، فعند أولئك النّاس، على العكس، يكون انشغال النساء بشرف أزواجهنّ هو الأوْلى، ويكون دأبهنّ أكثر على أن يصبح لهنّ أكثر ما يمكن من الضرائر، لأنّ في ذلك علامة على فتوّة بعلهنّ وشجاعته.

38. قد يستغرب أهلنا من ذلك ويذهلون؛ لكن لا غرابة في الأمر. إذ نقرأ في التوراة أنّ ليا (Léa) وراشيل وسارة وزوجات يعقوب قد وضعن خادماتهنّ الجميلات تحت تصرّف أزواجهنّ، كما شجّعت ليفيا (Livia) على إشباع شهوات أوغسطس، على حسابها. أمّا زوجة الملك دجوتاروس ستراتونيك (Dejotarus Stratonique)، فهي لم تعرض عليه فقط فتاة ساحرة الجمال من بين خدَمها، بل سهرت أيضا على تربية أبنائهما وساعدتهم على خلافة أبيهم.

39. وحتّى لا يظنّ بعضهم أنّ سلوك كلّ هؤلاء يعود إلى مجرّد خنوع للتقاليد وضغط العادات القديمة، وأنّهم يتصرّفون دون تأمّل ولا تفكير، وأنّهم على درجة من الغباء حتى أنّهم يعجزون عن عمل آخر، يجب أن أبيّن بعض علامات ذكائهم. فعلاوة على العلامة التي بيّنتها من خلال بعض أناشيدهم الحربيّة، إليكم علامة أخرى، هي هذه المرّة أنشودة حبّ، هكذا بدايتها: «أيّتها الأفعى، قفي مكانك؛ قفي أيّتها الأفعى، حتى تكون صورتك مثالا تعتمده أختي في صنع حبل نفيس سأهديه لصديقتي؛ وحتى تبقى صورة جمالك ورشاقتك أبدا أفضل من صورة كلّ الأفاعي الأخرى».

40. هذا المقطع الأوّل هو الذي تُردّده الأغنية. وبما أنّي لست غريبًا عن ميدان الشعر فإنّي أصدح لا فقط بخلوّه من كلّ «توحّش»، وإنّما أيضا بأنّه ينتمي إلى شعر الغزل («الأناكريُوني» Anacréontique)[1]. وعلاوة على ذلك فإنّ لغتهم ناعمة ولهجتهم عذبة، تميل قوافيها إلى اللّغة اليونانية.

41. جاء ثلاثة منهم في زيارة إلى مدينة روان، حيث كان يقيم الملك المرحوم شارل التاسع. كانوا لا يتوقّعون كم من الأذى سيلحق بسعادتهم وهنائهم بعد اطلاعهم على الفساد السائد عندنا، ولم يجُل بخاطرهم لحظة واحدة أنّ معاشرتهم لنا قد تقضي بهلاكهم، مع أنّي أتصوّر أنّهم أصبحوا على قاب قوسين أو أدنى منه (لأنّ مصيرهم البائس جعلهم يلهثون وراء الجديد ويهجرون أرضهم الطيّبة من أجل أرضنا). حدّثهم

---

(1) نسبة إلى الشاعر اليوناني أناكريون Anacréon، وهو شاعر غنائيّ يوناني قديم، ولد (نحو582 ـ 485 ق.م) في تيوس (إيونية، بآسيا الصغرى)، ويعدّ آخر شعراء الأغنية الشعبية الهلّينية البارزين في آسيا الصغرى واليونان قبل الميلاد.

الملك طويلا، وتعرّفوا على عاداتنا وأبّهتنا وجمال مدينتنا. ثمّ سُئلوا عن رأيهم وعن أكثر ما أثار دهشتهم، فأجابوا وقالوا ثلاثة أشياء؛ نسيت الشيء الثالث، لسوء الحظ، لكن ما زلت أتذكّر الآخرين: قالوا إنّهم استغربوا جدّا من مشاهدتهم رجالا ملتحين، طويلي القامة مفتولي العضلات ومدجّجين بالسّلاح (لا شكّ أنّهم يقصدون الحرس السويسري) يحيطون بالملك ويطيعون صبيّا[1] عوض أن يختاروا من بينهم أحدا يحكمهم.

42. قالوا ثانيا (إذ يقسّمون النّاس إلى «نصفين») إنّهم لاحظوا من بيننا أشخاصا متّخمين من الطعام وينعمون برغد العيش، بينما يطرق الآخرون أبوابهم للتسوّل، يتضوّرون جوعا ويعانون من الفقر. لقد بدا لهم من الغريب أن يتحمّل هؤلاء مثل هذا الظلم، وألّا يمسكوا الآخرين من تلابيبهم أو يضرموا النّار في ديارهم.

43. تحدّثتُ مع بعضهم طويلا، إلّا أنّ غباوة المترجم منعته من فهم أفكاري ومواكبة ما أقول، ولم أجْنِ متعة من ذلك. سألتُ أحدهم عمّا يغنمه من تفوّقه على بني قومه (إذ كان قبطانا، وكانَ الملّاحون ينادونه «الملك»)، فأجابني أنّ ذلك يخوّل له بأن يتقدّم الجميع في الحرب. ولمّا سألته عن عدد أتباعه، أشار بيده إلى فضاء ما،

قاصدا أنّهم بالعدد الذي يملؤه، أي أربعة أو خمسة آلاف من الأنفار. سألته ما إذا كانت سلطته تتوقّف مع نهاية الحرب، فأجاب أنّ ما يبقى له منها هو أنّه، عندما يزور القرى الموالية له، تُرسم له مسالك عبر الأجمات في غاباتهم حتّى يتنقّل بسهولة.

44. يبدو كلّ هذا جيّدا. لكن ماذا؟ إنّهم لا يلبسون سراويل.

(1) حكم هذا الملك وهو في العاشرة من عمره.

الفصل الحادي والثلاثون

في أنّه يجب ألّا نتدخّل كثيرا في أحكام اللّه

1. المجالات والموضوعات المفضّلة للدّجل، هي التي ليس لدينا بها معرفة؛ سيّما أنّ ما يحدوها من غرابة للوهلة الأولى قد يجعلنا نسلّم بها، وبما أنّها ليست من الموضوعات التي تستقطب تفكيرنا عادة، فإننا لا نهتمّ بإيجاد الوسيلة لمحاربتها. ولهذا السبب، كما قال أفلاطون، يكون إقناع المستمعين بما نقوله عن طبيعة الآلهة أيسر منه بما نقول عن طبيعة البشر: إذ يسمح الجهل بأن نتناول الموضوع الأوّل بكامل الحرّية، طالما أنّه يتعلّق بأمور مجهولة تماما.

2. ويترتب على ذلك أنّنا لا نصدّق بشيء أكثر من الذي تكون معرفتنا به أقلّ؛ وأنّه لا يوجد من يثقون بأنفسهم أكثر من أولئك الذين يخرّفون، أمثال الخيميائيين والعرّافين والمنجّمين وقارئي الكفّ والأطبّاء، «وكلّ الذين من نفس العجينة» [Horace, Satires, I, 2].

وقد أضيف إليهم، بشيء من الجرأة، عددا من الأشخاص الذين يفسّرون غايات الله ويراقبونها، ويزعمون أنّهم يعلمون أسباب كلّ حادثة، ويكشفون عن أسرار مشيئة ربّهم وأغراضه غير المفهومة. ورغم أنّ تنوّع الأحداث ونشازها المستمرّ يجعلهم يقفزون كما الذين يلعبون، من زاوية إلى أخرى ومن جهة إلى أخرى، فإنّهم لا ينقطعون مع ذلك عن الجري وراء كُرتهم، وعن استعمال نفس القلم في رسم الأبيض والأسود معًا.

3. توجد عند شعب من بلاد الهند عادة محمودة تتمثل في كونه، عندما تسوء حاله في بعض المعارك أو المبادرات، يطلب الصفح من الشمس علنًا، إذ يعبدها، كما لو أنّه اقترف بعض الموبقات. إنّهم هكذا يجعلون سعادتهم أو شقاءهم يتوقّفان على العقل الإلهي، ويعلّقون عليه أحكامهم وتأمّلاتهم.

4. يكفي أن يعتقد المسيحي أنّ كلّ الأشياء تترتّب على مشيئة الربّ، وأن يرى فيها حكمته اللّامتناهية، حتى يستحسنها، مهما كان وجه حدوثها. لكن ما لا أستحسنه اليوم هو ما أعاينه من سعي إلى دعم ديانتنا وفرضها بحجّة نجاح أعمالنا ومبادراتنا، لأنّ عقيدتنا تملك من الأسس ما يخوّل لها البحث عن أسّ سلطتها في شيء آخر غير

الأحداث. ذلك لأنّ الخطر يتمثّل في أنّ الشعب الذي يتعوّد على مثل هذه الحجج الممكنة والتي تروق له، قد يتزعزع إيمانه بسبب أحداث تناقض رغبته ولا تخدم مساعيه.

5. كذا شأن الحروب الدّينية التي نعيش في غمارها. إنّ الذين انتصروا في معركة روشلاباي (Rochelabeille) واحتفلوا بهذه الواقعة، قد اغتنموها كما لو كانت تشهد على وجه حقّهم. لكنّهم، علّلوا خيبتهم في مونتكنتور (Montcontour) وجرناك (Jarnac) بأنّها نتيجة لعقاب إلهيّ، فلو لم يكن شعبهم يجلّهم ويخشع لهم تماما لجعلوه يظنّ أنّهم يضعون فصيلتين من الدقيق في كيس واحد، وأنّهم ينفخون الحرّ والبرد من نفس الفم...

6. من المستحسن أن نبلّغ الحقيقة للنّاس على أسس صحيحة. كانت معركة بحريّة جميلة، تلك التي رُبحتْ ضدّ الأتراك في الأشهر الأخيرة، تحت قيادة دوم جوان دوستريا (Dom Juan D'austria)؛ غير أنّ الربّ قد شاء أيضا، في مناسبات أخرى، أن تكون المعركة الجميلة على حسابنا؛ وبالتالي قد يصعب أن نقيس الأمور الإلهية بمقياسنا دون أن نشوّهها. إنّ آريوس (Arius) والبابا ليون (Léon)، وهما ممّن صدعوا بهذه الزندقة، قد ماتا في زمنين مختلفين، لكن بطريقتين متشابهتين وغريبتين جدّا، إذ اضطرّ كلاهما على مغادرة المجلس والذهاب إلى بيت الراحة على إثر آلام في البطن، وقضيا نخبهما هناك. فإذا أراد بعضهم أن يرى في ذلك انتقاما إلهيّا، سيّما أنّه حدث في مثل هذا المكان، فقد يمكن أن نضيف موت هليوغابال (Héliogabale) الذي قُتل أيضا في مكان كهذا.

7. لكن ماذا؟ لقد عرفت إيريني (Irénée) المصير نفسه. إنّ الله، إذ يريد أن يعلّمنا أنّ للأخيار وللأشرار أشياء أخرى يأملونها أو يخشونها غير الأحداث السعيدة أو المحزنة في هذا العالم، يستخدم هذه الأحداث ويطبّقها بقدرته الخفيّة ويمنعنا من تسخيرها لصالحنا بغباوة. فما أخفّ العقول التي تريد تعليل هذه الأحداث بفضل عقل الإنسان. إنّ أصحابها أشبه بالمتبارزين الذين ما إن يسدّدوا ضربة حتى يتلقّوا ضربتين. ولقد قدّم القديس أوغسطين في (*مدينة الله*) دليلا رائعا ضدّ معارضيه. إنّها خصومة تُحلّ بالذاكرة أكثر منها بالعقل. وينبغي أن نرضى بالنّور الذي تمنّ به الشمس علينا بفضل أشعّتها، وكلّ من يرفع بصره مباشرة نحوها لنيل الأكثر ينبغي أن لا يتعجّب إن فقد بتهوّره البصر. من يستطيع من بين البشر أن يطّلع على غايات الله؟ من يستطيع أن يتصوّر ما يريده مولانا؟ [Bible, *Le Livre De La Sagesse*, IX, 13]

الفصل الثاني والثلاثون

الزهد في الملذّات، على حساب الحياة؟

1. لقد تبيّن لي أنّ معظم الآراء القديمة تُجمع على ما يلي: عندما يصبح بقاؤنا على قيد الحياة أقرب إلى الشرّ منه إلى الخير، يكون قد حان الأوان كي نموت، ويصبح سعينا إلى البقاء رغم عذابنا وانهيارنا أمرا مناقضا لقواعد الطبيعة نفسها. وكما تقول تلك القواعد القديمة،

«فإمّا حياة هادئة وإمّا موت سعيد،
وقد يحلو الموت عندما تغدو الحياة حملا ثقيلا،
إنّ مغادرة الحياة أفضل من العيش البائس»

[*Poètes Gnomiques*, Éd. Crispin, 1569]

2. أمّا أن يبلغ احتقارنا للموت إلى حدّ التخلّي عن المجد والمال والعظمة وما إلى ذلك من الخيرات والحظوات، كما لو كان عقلنا متفرّغا لإقناعنا بوجوب هذا التخلّي، هذا ما لم أشاهد من أوصى به أو من طبّقه على أرض الواقع، إلى أن وقع بين يديّ ذلك المقطع لسنيكا (Sénèque)، حيث ينصح لوسليوس (Lucilius)، وهو شخصيّة بارزة ويتمتّع بمكانة كبيرة عند الإمبراطور، بأن يغيّر مجرى حياته ويتخلّى عن المتعة والأبّهة وكلّ طموحات العالم، في سبيل العيش في العزلة عيشا فلسفيّا هانئا.

3. فلمّا عبّر لوسليوس عمّا قد يعترضه من الصعوبات، أجابه سنيكا: «في رأيي، إمّا أن تتخلّى عن نمط عيشك هذا، وإمّا أن تغادر الحياة تماما. أنصحك أن تختار الطريقة الأهون، وأن تفكّ العقدة التي أسأت ربطها بدل أن تقطعها؛ أمّا إذا امتنع عليك أن تفكّها بأيّ طريقة، فاقطعها. إذ ما من أحد، مهما كان جبانا، إلّا وفضّل السقوط دفعة واحدة على البقاء في حالة من اضطراب التوازن». قد تبدو هذه النصيحة متماشية مع قسوة الرواقيين، إلّا أنّ الغريب في الأمر أنّها مستعارة من أبيقور(Epicure)، الذي كتب إلى إيدوميني (Idoménée) أشياء من هذا القبيل.

4. أعتقد أنّي لاحظت شيئا مماثلا عند أناس من حوالينا، لكن مع اعتدال مسيحيّ.

كان سانت هيلار (Saint-Hilaire) أسقفا لمدينة بواتيي وعدوّا لدودا للهرطقة «العريانية»[1]، وبينما كان في سوريا بَلغه أنّ ابنته الوحيدة عبرا، إذ تركها صحبة والدتها هناك، طَلبَها للزواج أبرز أشراف القوم، نظرا إلى كياستها وحُسنها وثرائها وصغر سنّها، فراسلها - كما يشهد بذلك تاريخه - وطلب منها أن تزهد في كلّ المتع والمزايا التي وعدوها بها، وأعلمها أنّه وجد لها، أثناء رحلته، عريسا أفضل، جديرا بها، من طينة مختلفة من حيث النفوذ والفخامة، يستطيع أن يهديها من الفساتين والصياغة ما لا يُقدَّر بثمن.

5. كانت غايته أن يبعدها عن ملذّات الدّنيا وأن تتّحد بربّها تماما. لكن لمّا كان الطريق الأقصر والأوفق هو أن تموت ابنته، فهو لم ينقطع عن الصّلاة والمناجاة والتوسّل إلى الله كي يأخذها إلى جواره. وهذا ما حدث فعلا، لأنّها توفّيت مدّة قصيرة بعد عودته، فسعد بذلك كثيرا.

يبدو أنّ هذا الشخص قد بالغ في الأمر، لأنّه لجأ إلى هذه الوسيلة من الوهلة الأولى والحال أنّها ابنته الوحيدة، بينما لا يلجأ غيره إلى ذلك إلّا في مرحلة ثانية كحلّ بديل.

6. لكن لا أريد أن أغضّ النظر عن نهاية هذه القصّة، رغم أنّها تخرج عن سياق حديثي قليلا. إنّ زوجة سانت هيلار، بعدما أخبرها أنّ وفاة ابنتهما كانت برغبة منه ومشيئته، وأنّها تنعم الآن بسعادة أعظم بعد أن أخذتها يَدُ المنيّة، شعرت بميل شديد إلى أن تنعم بدورها بالسعادة الأبدية، فطلبت من زوجها بإلحاح أن يعيد الكرّة معها. فلمّا استجاب الربّ لدعائهما ودعاها بعد مدّة قصيرة إلى جواره، تقبّل كلاهما الأمر بصدر رحب.

---

(1) العريانية (Arianisme) هي مذهب عريوس (Arius) الذي ينفي ألوهية المسيح. وينفي هذا المذهب أيضا القول بوحدة الجوهر في الأقانيم الثلاثة (Consubstantialité)، وبمساواة جوهر الإبن لجوهر الأب. لقد طعن هذا المذهب في ركن رئيسي من أركان العقيدة المسيحية (ألوهية المسيح)، ولذا تمّ تكفيره في سنة 325 في المجمع الدّيني بمدينة نيكايا (Nicée - Nikaia).

الفصل الثالث والثلاثون

غالبا ما تقترن الصدفة بالعقل

1. للصدفة أوجه عديدة، وهي قابلة لتغيّرات كثيرة.

هل توجد عدالة أسرع من الآتي ذكرها؟

دُعي دوق فالنتينوَا (Duc De Valentinois) إلى تناول العشاء صحبة أبيه البابا الإسكندر السادس، في ضيافة أدريان، كاردينال كرنيتا (Adrien, Cardinal De Cornete)، فخامرته فكرة تسميم مضيّفهما، فسبق إلى بيته حاملا معه زجاجة من النبيذ المسموم وطلب من الساقي أن يحتفظ بها جيّدا. فلمّا قدم البابا قبل ابنه وطلب أن يشرب، أعطاه الساقي من الزجاجة، ظنّا منه أنّها من طراز رفيع ما دام طُلب منه حفظها، ثمّ قدم ابنه وتناول منها هو الآخر، إذ ظنّ أنّ زجاجته لم تُفتح بعدُ، فمات الأب موتا شنيعا وطال المرض بابنه وتعذّب كثيرا وعرف مصيرا أشنع.

2. قد تتلاعب بنا الصدفة أحيانا في حينه.

كان السيّد دي إستري (D'estrée)، وهو حامل راية السيّد دي فندوم (De Vendôme)، والسيّد دي ليكه (De Licques)، وهو ملازم في فيلق دوق أسكوت (Duc D'ascot)، يعشقان أخت السيّد دي فونغسال (De Foungueselles)، رغم اختلاف انتمائهما (مثلما يحدث للأجوار الذين يقطنون على الحدود)، إلّا أنّ المعشوقة كانت من نصيب السيّد دي ليكه. لكن يوم الزفاف وقبل الدخول إلى غرفة النّوم، أراد العريس أن يكسر رُمحا[1] على شرف عروسه، فخرج للمناوشة قرب سانت أومير. غير أنّ السيّد دي إستري كان حاضرا وشارك في المناوشة، فهزم دي ليكه وأسره عنده. وزيادة على ذلك، كان لا بدّ للعروس،

«إذ افتُكّ منها قرينها الشابّ
قبل أن تخمد نيرانها في تعاقب
فصول الشتاء ولياليه الطويلة...»

[Catulle, LXVIII, 81-83]

---

(1) يعني أن يخرج للمبارزة.

أن تترجّاه، باسم الشهامة، أن يعيد لها زوجها، فكان لها ذلك، لأنّ النّبل الفرنسي يأبى أن يرفض للسيّدات أمرا.

3. ألا تلعب الفرصة أحيانا دور الفنّان؟ لقد أسّس قسطنطين (Constantin) ابن هيلان (Hélène) الإمبراطورية القسطنطينية؛ وبعد قرون عديدة، كان انهيارها على يد قسطنطين ابن هيلان.

4. وقد تُزاحِم الفرصة أحيانا المعجزات. يقال إنّه خلال محاصرة الملك كلوفيس(Clovis) لأنغولام (Angoulême)، انهارت أسوار المدينة من تلقاء نفسها وبفضل من الله. وقد روى بوشي (Bouchet)، عن بعض المؤلّفين ما يلي: كان الملك روبير (Robert) بصدد محاصرة مدينة، فغادر الحصار وذهب إلى مدينة أورليان (Orléans) للاحتفال بعيد سانت إينيان (Saint Aignan). وفي لحظة من لحظات القدّاس، بينما كان منفردا للعبادة، سقطت أسوار المدينة المحاصرة من تلقاء نفسها.

وفي حروب إيطاليا، حصل العكس تماما: كان القبطان رانس (Rense) بصدد محاصرة مدينة إيرون (Eronne)، فوضع لغما تحت جدار كبير، ما جعل الجدار يطير فجأة في الفضاء قبل أن يسقط برمّته فوق أسسه، حتّى أنّ المحاصرين ظلّوا محميّين بجدارهم.

5. وكذلك تلعب الصدفة أحيانا دور الطبيب. فهذا جازون دي فاراس (Jason De Phères) قد عجز الأطبّاء عن مداواة ورم في صدره، فعزم على التخلّص منه ولو كلّفه ذلك أن يلقى حتفه، فرمى نفسه بين الأعداء وأصابته ضربة اخترقت جسمه في المكان المناسب وانتزعت ورمه، وشُفي تماما.

6. ألم تتفوّق الصدفة على الفنّان بروتوجان (Protogène) في إحكام فنّه؟ فبعدما انتهى بروتوجان من رسم صورة كلب مرهق خائر القوى، كان راضيا على كلّ أجزاء لوحته ما عدا الجزء الذي لم ينجح فيه في رسم رغوة الكلب وزبده؛ اغتاظ جدّا ومسك نشّافته الملطّخة بمختلف الدهون ورماها فوق اللّوحة لغاية فسخها تماما؛ فشاءت صدفةٌ عجيبةٌ أن تقع النشّافة بالضبط على فم الكلب، وأعطت بذلك اللّمسة الأخيرة، بينما لم ينجح في ذلك الفنّ نفسه.

7. ألا تتحكّم الصدفة كذلك أحيانا في مشاريعنا وتصحّحها؟ كان على إيزابيل (Isabelle)، ملكة إنجلترا، أن تعود من زيلندا (Zélande) في اتّجاه مملكتها مصحوبة بجيش مُوال لابنها ضدّ زوجها. كانت ستلقى حتفها حتما لو أرست في الميناء الذي اختارته، حيث كان العدوّ لها بالمرصاد. لكن شاءت الصّدفة أن تغيّر مرساها رغم أنفها وأن تطأ أقدامها الأرض بكلّ أمان. انظروا أيضا إلى ما حصل في القديم لذلك الرجل

الذي ظنّ أنّه رمى كلبا بحجر والحال أنّه أصاب زوجة أبيه وأرداها قتيلة... أليس من حقّه أن يتلو هذا البيت:

«رُبّ صدفة تـفُوقنا حكمةً»

[Ménandre, In *Poètes Gnomiques*, Édit. Crispin, 1569]

8. أعطى إيستاس (Icetès) رشوة لعسكريين اثنين كي يغتالا تيموليون (Timoléon) الذي كان يقيم في أدران بجزيرة صقلّية. قرّرا القيام بذلك في أحد أعياد الأضحى، فاختلطا بالجمهور، ولمّا همّا باغتيال تيموليون، إذ برجل يضرب رأس أحدهما بالسّيف ويرديه قتيلا ثمّ يهرب. ظنّ الثاني أنّه افتضح أمرهما فهرول في اتّجاه المذبح راجيا العفو واعدا بقول كلّ الحقيقة. في الأثناء، وبينما كان يعترف بالمؤامرة، أُلقي القبض على الرجل الثالث وتمّ دفعه بقوّة وجرّه جرّا عنيفا نحو تيموليون والحاضرين معه من الأعيان.

9. إذّاك طلب الرّحمة، وقال إنّه ثأر فقط لأبيه، وشاءت الصُّدفة أن وَجد في الإبّان شهود على ذلك، أثبتوا أنّ والده أُغتيل حقّا في مدينة اللّيونتين من طرف الشخص الذي قُتل الآن. أعطي مكافأة بعشرة دراهم أتيكية، إذ شاءت الصّدفة أن ينقذ من الموت، «أب جميع الصقلّيين».

إنّ هذه الصّدفة تفوق نجاعة كلّ مؤهّلات الحكمة الإنسانية.

10. وفي الختام، ألا يكشف لنا ما يلي عن عنايتها الكبيرة وطيبتها المدهشة؟

بعد أن حكم ثلاثي السلطة في روما على إغناطيوس الأب وابنه بالموت، عزم كلاهما على هذا السلوك النبيل: أن يضع كلٍ منهما حياته بيد الآخر، شماتة في الطّغاة الأشرار. ارتمى كل منهما على الآخر ممسكا بالسّيف، وسدّد كلّ منهما للآخر ضربة شاءت الصدفة أن تكون قاتلة؛ لكن شاءت الصدفة أيضا أن يبقى لهما من القوّة ما يكفي كي يجذبا ذراعيهما المسلّحين الدّاميين من الجروح الغائرة، وأن يتعانقا بشدّة وهُما في هذا الوضع، حتّى أنّ الجلّادين اضطرّوا إلى قطع رأسيهما معا وإلى أن يتركا جسميهما متّحدين بعقدة نبيلة، يمتصّ الواحد من الآخر دماءه وبقايا حياته.

الفصل الرابع والثلاثون

أشياء مفقودة في تقاليدنا

1. قال لي المرحوم أبي، وقد عُرف برجاحة عقله، مع أنّه لا يملك رصيدا آخر غير تجربته وخصاله الطبيعية، إنّه كان بودّه لو جعل في كلّ مدينة مكانا مخصوصا يقصده كلّ من يحتاج إلى أمر ما ويسجّل فيه طلبه عند مستكتب قارّ هناك، كأن يسجّل مثلا: «أرغب في بيع لآلئ» أو «أرغب في شراء لآلئ»؛ أبحث عمّن يصطحبني إلى باريس؛ أرغب في توظيف صاحب الاختصاص الآتي ذكره؛ أرغب في العمل؛ أبحث عن شغّال؛ وهكذا دواليك، كلٌّ حسب حاجته. ولا شكّ أنّ هذه الطريقة في التبادل والتعامل قد تحسّن جدّا العلاقات بين النّاس، فنحن نجد أنفسنا دائما في أوضاع نحتاج فيها بعضنا إلى بعض، فإذا تعذّر التواصل، بقينا في حرج كبير.

2. بلغني خبر مشين في عصر كهذا، هو موت شخصيّتين علميّتين مرموقتين، بسبب الجوع: ليليوس جيرالدوس (Lilius Giraldus) في إيطاليا وسيباستيان كستاليو (Sébastien Castalio) في ألمانيا. مع أنّي أعتقد أنّ آلاف النّاس كانوا مستعدّين لإيوائهم وتوظيفهم أو حتّى لمساعدتهم حيث يوجدون، لو علموا بأمرهم. فالدّنيا ليست فاسدة لدرجة أنّه لم يعُد يوجد فيها من يتمنّى بشدّة لو يستطيع - إن شاء الله - أن يستعمل ما يملكه من الوسائل لإغاثة الأشخاص النادرين والمرموقين الذين قرعتهم قوارع الدّهر. فهو قد يستطيع على الأقلّ أن يؤمّن لهم ظروفا على درجة من الجودة بحيث إذا لم تَرُق لهم كان ذلك بسبب عيب في تفكيرهم.

3. كانت طريقة والدي في تدبير شؤون المنزل جدٌّ مقنعة، غير أنّي لم أستطع أن أعمل بها أبدا. ذلك أنّه، علاوة على السجلّ الخاص بالشؤون المنزلية والذي تسجّل فيه الحسابات الصغيرة والمصاريف اليومية، إذ لا تحتاج إلى شهادة عدل ويشرف عليها مجرّد متصرّف، كان أبي يشغّل أحد خدمه كاتبًا له ويأمره بمسك مذكّرة يسجّل فيها ما يحدث يوما بعد يوم ممّا يفيد في التأريخ للمنزل. أضحت قراءة هذا التاريخ ممتعة جدّا، سيّما بعد أن امّحت الذكريات، وغالبا ما أفادتنا في تدقيق بعض الأمور وأنقذتنا:

متى بدأ شيء ما؟ متى انتهى؟ من هم الأعيان الذي زاروا منزلنا؟ كم من الوقت نزلوا عندنا؟ رحلاتنا، غياباتنا، الأعراس، الوفيات، ما تلقّيناه من أخبار سارّة أو سيّئة، تغيير رؤساء الخدم، وما إلى ذلك. إنّه تقليد قديم، لكن أظنّ أنّه يستحقّ أن نعمل به مجدّدا، كلٌّ بطريقته. وإنّي ألوم نفسي لكوني لم أعمل به.

الفصل الخامس والثلاثون

في عادة ارتداء الثياب

1. حيثما ذهبت، كان لا بدّ لي من كسر حواجز العادات التي باتت تقيم في شوارعنا. ظللت أتساءل، في موسم البرد هذا، ما إذا كانت الشعوب التي اكتشفت مؤخّرا تعيش عارية بسبب حرارة الطقس، شأن الهنود والمور Maures، أم أنّها عادة متأصّلة في الإنسان. في موضوع كهذا، حيث يجدر التمييز بين القوانين الطبيعية والقوانين التي وضعها الإنسان، سيّما وأنّ كلّ ما يجري تحت السماء، كما يقول الكتاب المقدّس، إنّما يخضع لنفس القوانين، يقرّ ذوو الألباب في العادة بوجود نظام عامّ في العالم، وبغياب كلّ اصطناع.

ولمّا كان كلّ شيء مدبّرا بإحكام في أدقّ دقائقه كي يستمرّ على حاله، يبدو من غير المحتمل أن نكون وحدنا صُنعنا على حالة من العجز والعوز، غير قادرين على البقاء دون سند خارجي. ولهذا فكما أنّ النباتات والأشجار والحيوانات وكلّ الكائنات الحيّة تملك بطبعها ما يفي بحمايتها من تقلّبات الزمن،

«إذ معظم الأجسام تكون مكسوّة بجلد أو قشرة أو جُسأة»

[Lucrèce, IV, 936-37]

فكذلك كنّا نملك، نحن أيضا، ما يفي بحمايتنا.

2. لكن مثلما يستعيض بعضهم عن نور الشمس بالنّور الاصطناعي، فنحن قد عوّضنا وسائلنا الخاصة بوسائل مستعارة. ومن البيّن أنّ العادة هي التي تجعل بعض الأمور تبدو لنا مستحيلة وهي ليست كذلك. ذلك لأنّ بعض تلك الشعوب التي لا تعرف الثياب تعيش في مناخ لا يختلف كثيرا عن مناخنا؛ زد على ذلك أنّ الجزء الأكثر حساسية فينا يوجد دائما مكشوفا: العينان والفم والأنف والأذنان؛ وعند الفلّاحين كما عند أجدادنا، الصّدر والبطن أيضا. ولو كنّا وُلدنا كي نحمل بالضرورة تنّورة أو سروالا على النمط الإغريقي، لما زوّدتنا الطبيعة بجِلد سميك حيث كان يمكنها أن تتركنا عرضة لقسوة الطقس، مثلما فعلت لأطراف أصابعنا وأخمص أقدامنا.

3. لماذا يصعب عليكم التصديق؟ فإنّي أرى بين لباسي ولباس فلّاح من بلدنا أكثر اختلافا ممّا بين لباسه ولباس رجل لا يرتدي سوى جلده. فكم من رجل، خاصة في تركيا، يسير عاريا بداعي الورع والتقوى!

4. لا أتذكّر من سأل ذات يوم صعلوكا كان يتجوّل في قميص في الشتاء البارد، مرحا شأنه شأن من كان مدّثرا حتّى أذنيه بفرو السمّور: «كيف يمكنك أن تتحمّل هذا؟»، فأجابه: «أنت، يا سيّدي، تترك وجهك مكشوفا؛ طيّب! وأنا فإنّي وجهٌ بكاملي!»

يروي الإيطاليون أنّ مهرّج دوق فلورنسا أجاب سيّده إذ سأله كيف يستطيع أن يتحمّل من البرد ما لا يقدر هو عليه، مع أنّه رثّ اللّباس: «اتّبع وصفتي، وضع فوقك كلّ ما تملك من الثياب مثلما أفعل، ولن يؤذيك البرد أكثر منّي».

أمّا الملك ماسينيسا، فلا أحد استطاع أن يقنعه، حتى في أيّام شيخوخته، بضرورة أن يغطّي رأسه، مهما كان الجوّ باردا أو عاصفا أو ممطرا؛ وكذا شأن الإمبراطور سيفيروس (Sévère) حسب ما يروى.

5. في المعارك التي دارت بين المصريين والفُرس، لاحظ هيرودوت، ولاحظ غيره أيضا، أنّ من بين الأموات، جمجمة المصريين أكثر صلابة من جمجمة الفُرس، لسبب بسيط هو أنّ الفُرس كانوا يحملون دائما قبّعات أو عمائم، بينما كان الآخرون يحلقون رؤوسهم تماما منذ الطفولة ويتركونها عارية.

6. لقد عزم أجيزيلاس (Agésilas)، حتى نهاية حياته، على ارتداء نفس الثياب صيفا وشتاء. وحسب سويتون (Suétone)، كان قيصر يسير دائما في مقدّمة جيشه، وكان في الغالب يمشي على قدميه، مكشوف الرأس، أكان الطقس مشمسا أو ممطرا. وقيل أيضا نفس الشيء عن حنّبعل (Hannibal)،

«إذ تهاطلت على رأسه العاري
شلّالات السماء وسيول المطر»

[Silius Italicus, *Les Puniques,* I, 250-51]

7. عاش رجل من البندقية في مشارق الهند طويلا، ولمّا عاد قال إنّ الرجال والنساء هناك يغطّون أبدانهم لكنّهم يمشون حُفاة، ويبقون هكذا حتّى إذا ركبوا على ظهر حصان. ومن الغريب أنّ أفلاطون كان ينصح، لغاية حفظ صحّة كامل البدن، بعدم تغطية الرأس والقدم إلّا بما جعلته الطبيعة لهما.

8. كان إتيان باتوري (Etienne Bathory)، الذي اختاره البولونيون ملكا عليهم بعد هنري دانجو (Henri D'anjou) الذي أصبح على إثر ذلك ملكا علينا تحت اسم هنري

الثالث (Henri III)، والذي كان في الحقيقة أحد أعظم ملوك عصرنا، لا يحمل قفّازات ولا قبّعة أبدا، مهما كان الطقس وحتى في فصل الشتاء.

9. إذا كنتُ لا أتحمّل البقاء عاري الصدر مفكوك الأزرار، فإنّ أجواري من الحارثين قد يزعجهم عدم البقاء هكذا. وقد زعم فارون (Varron) أنّ واجب تعرية الرأس في حضور الآلهة أو أمام القضاة إنّما يعود إلى الانشغال بصحّتنا ولحمايتنا من أضرار السّنين أكثر منه للتعبير عن الخشوع والاحترام.

10. وبما أنّنا، نحن الفرنسيون، نعيش في منطقة باردة ومتعوّدون على الألبسة المزركشة (أمّا أنا فلا، لأنّي لا أرتدي سوى الثوب الأسود أو الأبيض، مثل أبي)، دعوني أضيف ما يلي: روى القبطان مارتين دي بلاي (Martin Du Bellay) أنّه شاهد في أثناء حملة لوكسمبورغ صقيعا قاسيا لدرجة أنّ مؤونة النبيذ كانت تُقطع بالفأس وتوزّع على الجنود بالميزان ويحملونها معهم في سلّاتهم. وقال أوفيد (Ovide) شيئا من هذا القبيل:

> *«يحافظ الخمر على شكل الجرّة،*
> *فلا يبقى سائلا ويُشرب قِطَعا»*

[Ovide, *Tristes,* III, X, 23]

11. كان الصقيع قاسيا في مصبّ بحر ميوتيد (Méotide)، حتى أنّه في نفس المكان الذي انتصر فيه ملازم ميتريدات (Mithridate) على العدوّ وهو على اليابسة، انتصر فيه مرّة أخرى، في فصل الصّيف، في معركة بحريّة؟

12. كان الوضع لغير صالح الرّومان خلال معركتهم ضدّ القرطاجيين قُرب بليزانس (Plaisance)، لأنّهم هاجموهم وكانت دماؤهم وأطرافهم متجمّدة من قسوة البرد؛ وأشعل حنّبعل من جهته النّار في مختلف أنحاء مخيّمه لتدفئة جنوده، ووزّع عليهم الزيت لتدليك أطرافهم المتجمّدة وتطرية أعصابهم وحماية مسامّ بشرتهم من الزوابع والرياح المثلّجة.

13. كان تراجع الإغريق من بابل إلى بلدهم محفوفًا بالصعوبات ومشهورا بما كبّدهم من عذاب. فقد صادفتهم، على سبيل المثال، عاصفة ثلجية عنيفة في جبال أرمينيا، فضلّوا طريقهم وتاهوا في البلاد. ولمّا تعرّضوا للهجوم، أُرغموا على البقاء نهارا وليلة دون أكل ولا شرب ونفقت معظم دوابّهم. لقي الكثير منهم حتفهم، وأصيب عدد منهم بالعمى بسبب الصقيع ونور الثلج الساطع؛ الكثير منهم تجمّدت أطرافهم، وبعضهم الآخر تصلّبوا وتيبّسوا وشُلّت حركتهم من شدّة البرد، وبقوا مع ذلك واعين تمام الوعي.

14. لقد شاهد الإسكندر قومًا يواري أشجاره المثمرة تحت التراب في فصل الشتاء، حماية لها من الصقيع. ويمكن أن نشاهد ذلك في بلادنا أيضا.

15. وفيما يتعلّق بالثياب: كان ملك المكسيك يغيّر ثيابه أربع مرّات في اليوم ولا يعيد لبسها أبدا؛ وكان يستغلّ الثياب التي ينزعها في تقديم الهدايا والمكافآت؛ أمّا أدوات الطبخ وآنية الطعام فقد كان لا يستعملها أكثر من مرّة أبدا.

الفصل السادس والثلاثون

عن كاتون الشابّ

1. إنّي لا أقترف الخطأ الشائع الذي يتمثّل في الحكم على غيري بالقياس على نفسي؛ بل قد أتصوّر له من الصفات ما يختلف عن صفاتي. وإنّي إذا بادرت بأمرٍ، لا أُلزم كلّ النّاس بالنسج على منوالي، مثلما يفعل الكثيرون. يوجد في تصوّري واعتقادي ألف طريقة مختلفة للعيش. وعلى عكس عموم النّاس، أجد سهولة أكثر في التعامل مع المختلف عنّي مما أجد مع المماثل لي. وقد لا أتوانى في إعفاء الآخر من قواعدي ومبادئي الخاصة، وفي اعتباره في شخصه من دون مقارنته بشخصي، وفي تمثّله على النمط الذي هو عليه. ورغم أنّي لست طاهر النّفس، فإنّي معجب بطهارة الرهبان «الفويانت» (Feuillants) والرهبان «الكبوشيين» وأستحسن طريقتهم في العيش. إنّي أتخيّل نفسي في مكانهم وأحبّهم وأمجدّهم بقدر اختلافهم عنّي. ليت الآخرين يقدّروني في شخصي ولا يحكمون عليّ بالنظر إلى الشائع والمألوف.

2. إنّ ضعفي الشخصي لا يُفسد تقديري لقوّة وعنفوان الأشخاص الذين يستحقّون. «إنّ بعضهم لا يستحسن إلّا الأمور التي يكون تقليدها ممكنا ». قد أزحف على طمي الأرض، إلّا أنّ هذا لا يمنعني من مشاهدة أرواح الأبطال المحلّقة في علياء السماء. ولئن كانت أعمالي أحيانا غير سويّة، فقد أكون محظوظًا جدّا إذا أبقيت حُكمي سويًّا خلوًا من الفساد. كما أكون ممنونًا جدّا إذا أُوذِيَتْ ساقي وأُعْفِيَتْ إرادتي.

3. يتّسم عصرنا هذا الذي نعيش فيه بالفظاظة، على الأقل في حدود ربوعنا، إذ إنّه لا يفتقر فقط إلى الفضيلة، وإنّما يخلو حتّى من تصوّرها؛ ولا يعدو لفظ الفضيلة إلّا أن يكون من قبيل الرطانة المدرسية:

> *«يعتقدون أنّ الفضيلة إن هي إلّا كلمة*
> *وأنّ الغابة المقدّسة إن هي إلّا حطبًا»*

[Horace, *Épîtres*, VI, 31]

«(الفضيلة) التي كان بالأحرى تمجيدها،
وإن كانوا عاجزين عن فهمها...»

[Cicéron, *Tusculanes*, V, 2]

إنّها جوهرة رخيصة تُعلَّق فوق الجدار، أو في طرف اللّسان أو الأذن، للتجميل...

4. أصبحنا لا نرى أعمالًا فاضلة: فالأعمال التي تبدو فاضلة ليست فاضلة حقّا، لأنّها تكون بدافع المصلحة والمجد والخشية والتعوّد وما إلى ذلك من الدوافع التي لا تمتّ إلى الفضيلة بصلة. قد نبدو على درجة من العدل والشجاعة والإحسان، وقد نحمّل هذه الخصال معنى الفضيلة أمام أعين النّاس، لكنّها أمام أعْيننا ليست فضيلة، لأنّ الدافع إليها دافع آخر، والغاية التي تقصدها غاية أخرى. أمّا الفضيلة الحقّ، فهي لا تقرّ لنفسها إلّا بما يتحقّق بفضلها وحدها ولأجلها وحدها.

5. على إثر معركة بوتيديا (Potidée) الشهيرة، التي انتصر فيها اليونانيون، بقيادة بوزانياس، على ماردونيوس، قائد الفرس، تقاسم المنتصرون، حسب العُرف عندهم، شرف الانتصار ونسبوا إلى أهل إسبرطة الجزء الأكبر منه. كان على الإسبرطيين، إذ يحسنون تقدير المعارك، أن يعيّنوا من بينهم من كان الأفضل في خوضها هذه المرّة، فقرّروا أنّه أرستودام (Aristodème)؛ إلّا أنّهم لم يمنحوه وسام الشرف، لأنّ بطولته ومجابهته للموت إنّما كانت بغرض التكفير عن ذنبه وغسل العار الذي لحقه في معركة ترموبيلس (Thermopyles).

6. لا تزال أحكامنا مريضة، وذلك طردًا مع انحلال أخلاقنا. وإنّي أرى معظمهم يتفنّنون في حجب ما للمآثر القديمة من مجد، فيؤولونها بطرق خبيثة، ويخترعون لها ظروفا وتعليلات واهية. يا لها من بصيرة، حقّا! قدِّموا لي أفضل عمل وأطهره، وسأجد له ما يصعب إحصاؤه من النّوايا الفاسدة... والمحتمَلة! فالربّ يعلم مدى وطأة الأفكار المتنوّعة على إرادتنا الباطنة. ومع هذا تراهم لا ينقطعون عن المكر والنميمة؛ إنّهم أغبياء أكثر منهم أشرارًا؛ إنّهم فقط غِلاظٌ ثقلاء.

7. على العكس منهم، سأتناول أسماء كبيرة وسأبذل في دعمها نفس ما بذلوه من جهد في تشويهها، وبنفس الحرّية. لن أتردّد في ردّ الاعتبار إلى تلك الشخصيات الاستثنائية التي أجمع الحكماء على أنّها مثال يُقتدى به، بقدر ما أستطيع فهمها وتصوّرها بالوجه المناسب. ولا شكّ أنّ ما يطلبه ذلك من جهد فكريّ يبقى دون ما تستحقّه. إنّه من واجب أهل الخير أن يرسموا الفضيلة بأجمل صورة ممكنة. وقد لا نستاء إذا ما حمَلنا الهيام إلى رسم صور تلك الشخصيات بطريقة رائعة. أمّا ما يفعله الآخرون،

فإنّهم يفعلونه على العكس بدافع الإساءة أو نتيجة ذلك العيب المتمثّل في الحكم وفق ما يعتقدون، مثلما بيّنت ذلك أعلاه؛ أو بالأحرى لكونهم لا يملكون بصَرًا جيّدا وواضحا بما فيه الكفاية ولا يقدرون على تصوّر الفضيلة في أبهى حُللها وفي طهارتها الطبيعية. وعلى حدّ ما رواه بلوتارخوس، فإنّ بعض رجال عصره قد علّلوا وفاة كاتون الشاب (Caton Le Jeune) بالخوف الذي انتابه من قيصر. اغتاظ بلوتارخوس من هذا القول، وكان في ذلك على حقّ. وقد يكون اغتاظ أكثر ممّن علّلوا وفاته بطموحه. ما أغباهم! لأنّ ذلك الرجل قد يفضّل القيام بعمل جميل يتّسم بالشهامة والعدل، ولو كلّفه ذلك الخزي والعار، على اللّهث وراء المجد. كان حقّا مثالًا ونموذجًا اختارته الطبيعة كي تبيّن إلى أيّ حدّ يمكن أن ترتفع فضيلة الإنسان وقوّته الأخلاقية.

8. لئن كنتُ لا أقدر هنا على معالجة هذا الموضوع الكبير، فإنّي أريد أن أعرض فقط لهذه الأبيات الجميلة لخمسة شعراء لاتينيين، قيلت في مدح كاتون، خدمةً له، وعرَضًا خدمةً للشعراء أنفسهم. سيجد الفتى الذي تلقّى تربية جيّدة أنّ البيتَيْن الأوّلَين فاتران قليلا مقارنة بالأبيات الأخرى، بينما يتّسم البيت الثالث بحيويّة مفرطة. وسيحكم أنّ المجال لا يزال مفتوحًا لنمطَيْن أو ثلاثة من الخيال لبلوغ البيت الرابع الذي سيجعله يضمّ يديه تعبيرا عن الإعجاب. وسيدرك أنّ البيت الأخير يتقدّم على بقيّة الأبيات بمسافة يتعذّر على عقل أيّ إنسان قطعها، وسيظلّ مشدوها أمامه متأثّرا إلى أقصى حدّ.

9. إليكم هذا الأمر المدهش: لدينا من الشعراء أكثر ممّا لدينا من نقّاد الشعر والشرّاح. قد تبدو كتابة الشعر أيسر من فهمه! في مستوى أوّل، يمكن إدراكه من حيث قواعده الفنّية؛ أمّا الشعر الرفيع والجيّد، الشعر الإلهي، فهو فوق القواعد وفوق العقل. إنّ كلّ من يدقّق في جماله ويبصره بثبات وهدوء، لا يدركه حقّا، مثلما لا ندرك روعة البرق. إنّه لا يسير على درب عقولنا بقدر ما يجرفها ويفتك بها. إنّ الهيجان الذي يحثّ من يستطيع فهمه وإدراكه، يصيب كذلك من يقال له ويُعرض عليه، كقطعة المغناطيس التي لا تقتصر على جذب الإبرة وإنّما تنقل لها قدرتها على جذب أجسام أخرى. ويبيّن لنا المسرح بوضوح كيف أنّ الإلهام المقدّس لربّات الفنّ، بعد أن يولّد في الشاعر الغضب والحزن والكراهية، وبعد أن يخرجه من ذاته ويقوده حيث يريد، ينتقل من خلاله إلى الممثّل المسرحي، ومن الممثّل إلى كافّة الجمهور المتفرّج. إنّها إبر مغناطيسية معلّقة بعضها ببعض.

10. منذ نعومة أظفاري، كنت شديد التأثّر بالشعر. كان هذا التأثّر طبيعيا في نفسي، لكنّه تحوّل بطرق مختلفة باختلاف الأسلوب الشعري؛ لم يكن ذلك بسبب رقيّ الأسلوب أو هبوطه، لأنّ الأمر يتعلّق دائما بالأسلوب الراقي في الشعر، وإنّما بسبب ما

رأيته من مختلف الألوان الشعرية: أوّلا، السلاسة المرِحة والمبدعة؛ ثمّ الرقّة والرقيّ؛ وأخيرًا القوّة والعنفوان والنضج. هذا ما ستبيّنه الأمثلةَ بصورة أفضل. أوفيد، ولوكان، وفرجيل، إليكم هؤلاء.

«*كاتون في حياته أعظم من قيصر*» [Martial, VI, 32]، هذا ما قاله أحدهم.

«*كاتون لا يُقهَر وهزم الموت*» [Manilius, *Astronomiques*, IV, 87]، قال الآخر.

وقال ثالث، متحدّثا عن الحروب الأهلية بين قيصر وبومبي، «*تقف الآلهة في صفّ الغالب، ويقف كاتون في صفّ المغلوب*» [Lucain, *La Pharsale*, I, 128]

وأضاف رابعٌ في مدح قيصر «*كان العالم تحت أقدامه، ما عدا روح كاتون المتمرّدة*» [Horace, *Odes*, II, 1,23]

وأخيرا، هكذا صدح رئيس الجوقة بعدما عرض أسماء أعظم الرومانيين: «*عليهم يُملي كاتون القوانين*».

الفصل السابع والثلاثون

كيف نحزن ونفرح للأمر نفسه

1. يخبرنا التاريخ القديم أنّ أنتيغونوس استشاط غضبا على ابنه، ثمّ أخذ في البكاء والشهيق، لمّا جاءه برأس الملك بيروس، مع أنّه كان عدوّا له وقُتل للتوّ في المعركة؛ وأنّ الدّوق ريني دي لوران (Rene De Lorraine) بكى هو الآخر على موت الدّوق شارل دي بورغوني (Charles De Bourgogne) بعدما انتصر عليه، ثمّ سار في جنازته؛ وأنّ في معركة أوراي (Auray)، التي ربحها الكونت دي مونفور (Comte De Montfort) ضدّ شارل دي بلوَا (Charles De Blois)، منازعه في الحقّ على دوقيّة بريطانيا، أظهر المنتصر حزنا شديدا أمام جثّة عدوّه... فعندما نعلم كلّ هذا، يجب ألّا نصرخ

«وهكذا تخفي النّفس انفعالاتها،
وتظهر تارة ملامح الفرح،
وطورا ملامح الحزن»

[Pétrarque, *Sonnets*, 21]

2. قال المؤرخون إنّه عندما عُرض رأس بومبي أمام قيصر، أدار الأخير رأسه، كما لو كان لتجنّب مشهد مزعج قبيح. كان يربطهما الذكاء والتفاهم، والتوافق في تدبير الشؤون العامة، والحظوظ المشتركة، والتعاملات والتحالفات، لدرجة أنّنا لا نعتقد أنّ الحركة التي قام بها كاذبة ومفتعلة، مثلما ظنّ هذا الذي قال:

«فكّر في إمكان أن يصبح حموًا،
فجدّ في إفراز دموعه،
وخرجت تأوّهاته من قلب مسرور»

[Lucain, *La Pharsale*, IX]

3. في الحقيقة إنّ معظم أعمالنا لا تعدو أن تكون مجرّد أقنعة،

«وقد يتخفّي الضّحك أحيانا وراء انتحاب الوريث»

[Publius Syrus, D'après Aulu-Gelle, XVII, 14]

لكن لا يفوتنا، في الحكم على هذه الأشياء، أنّ النّفس غالبا ما تحرّكها أهواء متناقضة. وكما أنّه توجد في الجسم تركيبة من الأمزجة المتنوّعة يحتلّ أحدها الصدارة ويوجّهنا وفق ما يمليه طبعنا، فكذلك يحدث في النّفس، رغم ميولها المتضاربة، أن تخضع لسيادة أحدها. إلّا أنّها ليست سيادة تامّة: لأنّ حركيّة النّفس وطبعها المرن قد يسمحان للميول الضعيفة باستعادة تفوّقها أحيانا لمدّة قصيرة.

4. لذلك نشاهد الأطفال، إذ يسلكون وفق ما تمليه الطبيعة، يضحكون ويبكون بدافع الأسباب نفسها. لكن ليس هذا الوضع خاصّا بهم: إذ لا أحد منّا يمكنه أن يتشدّق بأنّه، عندما يتأهّب للسّفر لمتعته الشخصية ويستعدّ لمغادرة أهله وذويه، لا يشعر بقلبه يتفتّت. ولئن حبس دموعه، فهو ما إن يمتطي حصانه حتّى يبان الحزن والكآبة على وجهه. أمّا الفتاة الشريفة التي يشتدّ لهيب العشق في قلبها، فقد يتطلّب الأمر افتكاكها من أحضان أمّها بالقوّة لتسليمها إلى زوجها، مهما كان رأي بعضهم:

«هل أنّ فينوس قبيحة في نظر العروس الجديدة،
أم أنّ العروس لا تكترث لفرح والديها
وتذرف كلّ تلك الدموع الكاذبة
على عتبة غرفة الزفاف؟
بربّكم ! أهذه الدموع مختلقة !»

[Catulle, LXVI, 15]

وهكذا ليس غريبا أن نأسف على موت من كنّا لا نطيقه حيّا!

5. عندما أعاتب خادمي، أعاتبه صراحة ولا أفتعل الغضب. فإذا زالت السحابة واحتاج إليّ، كنتُ له خير مُعين، وطويت الصفحة في الحال. وعندما أصفه بالمغفّل وبالعِجل، لا تكون غايتي أن ألصق به مثل هذه الصفات، بل لا أشعر حتّى بأنّي أتناقض عندما أصفه بعد حين بالرجلِ الصالح الشريف. لا توجد صفة تعرّف بنا بصورة تامّة وكلّية. فلو لم أكن أخشى أن أنعت بالجنون، لأرغيتُ كلّ يوم وكلّ ساعة وقلتُ: «يا لي من غبيّ !». ومع هذا لا أظنّني غبيّا حقّا...

6. لو ظننتم، لكونكم تروني تارة أُظهر لزوجتي الجفاء وطورا أنظر إليها بعشق، أنّني في كلتا الحالتين أتصنّع، فأنتم مخطئون تماما. بعد أن ودّع نيرون أمّه إذ أمر بإغراقها، أحسّ رغم ذلك بحسرة الوداع، أحسّ بالفظاعة والشفقة معا.

يقال إنّ نور الشمس ليس مسترسلا، وإنّما الشمس ترسل دون انقطاع أشعّتها المتقاربة جدّا حتّى إنّنا لا ندرك ما يفصل بينها.

«منبع واسع مسيل للنّور،
تغمر الشمس السماء بوهج يتولّد أبدا،
وبنورها تُجدّد النّور دائما»

[Lucrèce, V, 282-284]

وبنفس الطريقة تطلق النّفس سهامها المختلفة بشكل غير محسوس.

7. كان أرتابانوس (Artabanos) يراقب زركسيس (Xerxès)، ابن أخيه، دون علمه، وعاب عليه ما انتابه من ارتباك على حين فجأة. فعلا. كان زركسيس بصدد تأمّل عظمة جيوشه وهي تعبر الهلّسبونت (Hellespont) في حملتها ضدّ اليونان. اهتزّ في الأوّل فرحا إذ شاهد آلاف الرجال تحت إمرته، وبدت البهجة والانبساط على محيّاه. لكنّه دار بخاطره في نفس اللّحظة أنّ كلّ هذه الأرواح سيكون مآلها جميعا الفناء، وذلك على أقصى تقدير بعد قرن، فامتقع وجهه واعتراه الحزن إلى حدّ البكاء.

8. لقد أصرَرْنا على الانتقام ممّن أهاننا، وأحسسنا بلذّة الانتصار، ومع ذلك ترانا نبكي! لا نبكي على ذلك، لأنّ شيئا لم يتغيّر؛ وإنّما أصبحنا الآن نرى الأمر بعين أخرى، ونجد له وجها آخر. ذلك لأنّ كلّ شيء يظهر بطرق متعدّدة ويملك أوجهًا مختلفة. يستولي الأقارب والأصدقاء والمعارف القديمة على مخيّلتنا، كلٌّ حسب طبعه، ويستثيرون فيها الانفعالات. لكن التغيّرات تكون مفاجئة لدرجة أنّها تغيب عنّا.

9. «لا شيء يكون أسرع من المشروع،
ومن استهلال الفكر لنشاطه،
فالفكر إذن أكثر حركيّة من كلّ
ما تعرضه الطبيعة على حواسّنا وأنظارنا»

[Lucrèce, III, 182-185]

10. ولذلك فلو نحن تصوّرنا هذه المجموعة من المشاعر على نمط واحد، كنّا مخطئين. بعد قتله المتعمَّد لأخيه بعد طول تفكير، بكى تيموليون (Timoléon)[1]، إلّا أنّه لم يبكِ بسبب الحرّية التي عادت إلى وطنه، ولم يبك على الطاغية، وإنّما بكى أخاه؛ إذ حالما انتهى من الجزء الأوّل من واجبه، كان لا بدّ له أن يضطلع بالجزء الثاني.

---

(1) وُلد حوالي 410 ق.م. في عائلة أرستقراطية من كورنثيا، ووقف بكلّ شدّة ضدّ أخيه تيموفان الذي كان يطمح إلى اغتصاب السلطة، وبعد أن حاول ثنيه عن ذلك دون نجاح، أمر بقتله بمحضره، واقتصر على الإشاحة بوجهه عن المشهد. وبعد ذلك هجر المكان واعتزل قرابة العشرين سنة.

الفصل الثامن والثلاثون

عن العزلة

1. دَعوا جانبا المقارنة التقليدية بين حياة العزلة والحياة النشيطة. لكن ماذا عسانا نقول عن هذا الإعلان الجميل بأنّنا لم نولد لخدمة مصلحتنا الشخصية وإنّما لخدمة المصلحة العامة، عدا أنّه يخفي الطموح والجشع؟ لنسأل المعنيين بالأمر، وليراجعوا ضمائرهم: أليس السعي وراء المراكز والوظائف ومختلف العلاقات الاجتماعية إنّما هو من أجل الاستفادة من عامّة النّاس؟ إنّ الوسائل الدنيئة التي تُستعمل في عصرنا لبلوغ هذا الهدف قد تبيّن دناءته. أمّا الطموح فهو بالذات ما يحثّنا على العزلة. أليس هو قبل كلّ شيء الهروب من المجتمع؟ أليس هو الرغبة في الانطلاق بكامل الحرّية؟

2. قد نحسن في كلّ وقت وقد نسيء. لكن إذا صحّ قول بياس[1] إنّ أسوأ نصيب هو الأعظم، أو قول سفر الجامعة[2] (L'ecclésiaste) إنّه «*على ألف واحد لا أحد يمثّل خيرًا*»، أو قول جوفينال (Juvénal)

«قلّة قليلة هم الأخيار، وبالكاد يبلغ عددهم
عدد أبواب طِيبـَة أو عدد مصبّات النّيل»

[Juvénal, XIII, 26-27]

فإذّاك يبان خطر العدوى لدى الجمهور: فإمّا أن نقلّد الفاسدين وإمّا أن نكرههم. غير أنّ كلا الموقفين خطيران: فإمّا أن نتشبّه بهم نظرا إلى كثرتهم، وإمّا أن نكرههم نظرا إلى اختلافهم عنّا.

3. إنّ التجّار الذين يركبون البحر يكونون على حقّ عندما يشترطون ألّا يركب معهم الفاسقون والمجدّفون والأشرار، لأنّ الاجتماع معهم يجلب النّحس.

4. لذلك قال بياس (Bias) مازحا لأصحابه الذين كانوا يستنجدون بالآلهة خائفين من العاصفة القويّة القادمة نحوهم: «اسكتوا، حتّى لا تعلم أنّكم ههنا بصحبتي!»

---

(1) بياس من بريني (Bias de Priène) فيلسوف ومحام ورجل دولة إغريقي عاش في القرن السادس ق.م.، وهو أحد حكماء الإغريق السبعة.

(2) هو أحد أسفار الكتاب المقدّس (العهد القديم).

إليكم مثال آخر أشدّ وضوحا: كان ألبوكرك (Albuquerque)، نائب ملك بلاد الهند لحساب إيمانويل ملك البرتغال، في وضع خطير جدّا وسط عاصفة، فحمل طفلا صغيرا على كتفيه، وأصبح مصيرهما مشتركا، واستغلّ براءة الطفل كي يستجدي الآلهة لتنقذ حياته.

5. يمكن للحكيم أن ينعم بالعيش في كلّ مكان، بل يمكنه ذلك حتّى لو كان يعيش وحيدًا بين أهل البلاط؛ لكن لو كان بوسعه أن يختار، لرفض حتّى أن يراهم؛ قد يتحمّل العيش معهم إن لزم الأمر، لكن لو كان حرّا، لاختار العيش في عزلة. ويبدو له فعلا أنّه لم يتجرّد بعدُ من عيوبه تماما، حتّى يتحمّل فوق ذلك عيوب الآخرين.

وكان شارُنداس (Charondas) لا يتوانى عن معاقبة الأشخاص الذين عُرفوا بالعيش في صحبة سيّئة.

6. ما أكثر كره الإنسان للإنسانية وما أكثر ميله إليها في نفس الوقت! إنّه يكرهها بدافع الرذيلة، ويميل إليها بطبعه الاجتماعي. لقد ردّ أنتيستان (Antisthène) على من عاب عليه معاشرة السيّئين فقال: «إنّ الأطبّاء يعيشون بين المرضى؛ فقد تتحسّن صحّة مرضاهم، بينما تسوء صحّتهم بالعدوى وبمعاشرة الأمراض».

7. إنّ الغاية من العيش في العزلة والوَحْدة هي العيش في سكينة وراحة بال. إلّا أنّنا لا نجد الطريق إلى ذلك دائما؛ إذ غالبا ما نظنّ أنّنا هجرنا أعمالنا والحال أنّنا غيّرناها فقط. وإنّ تدبير شؤون الأسرة لا يشغل البال أقلّ من تدبير شؤون دولة برمّتها. فإذا كان الفكر منشغلا بأقلّ شيء، كان انشغاله به كاملا. ومهما قلّت وطأة الهموم العائلية، فإنّ إزعاجها لنا لا يقلّ... وحتى لو تخلّصنا من هموم التجارة والعدالة، فإنّنا لم نتخلّص من هموم الحياة الرئيسية.

«الحكمة والعقل هما اللذان يبدّدان أحزاننا،
وليس البقاع التي منها نرى أفق البحر»

[Horace, *Épîtres*, I, II, 25-26]

8. لا يغادرنا الطموح والجشع والتردّد والخوف والشبق لكوننا غادرنا البلد:

«يمتطي الحزنُ الفرسَ ويبقى مع الفارس»

[Horace, *Odes*, III, I, 40]

غالبا ما تقتفي هذه الانفعالات أثرنا حتّى في الأَدْيرة وفي مدارس الفلسفة، فلا الصّحاري تُخلّصنا منها ولا الكهوف ولا القميص الغليظ ولا الصّيام:

«ويبقى السّهم القاتل عالقا في جنبه»

[Virgile, *Énéide*, IV, 73]

9. قيل لسقراط إنّ بعضهم لم يتحسّن قطُّ رغم سفَره، فأجاب: «كلّا، لأنّه سافر واصطحب نفسه معه».

«عمّاذا نبحث إذ نذهب للعيش تحت شمس أخرى؟
عندما نهجر بلدنا، ألسنا نهرب من أنفسنا؟»

[Horace, *Odes*, II, XVI, 18-20]

10. إذا لم تتخلّص النّفس أوّلا من الحِمل الذي يضغط عليها، فإنّ الحركة ستجعلها تشعر به أكثر؛ تماما كحمولة السفينة التي إذا تمّ رصّها وربطها جيّدا فإنّها لن تتعطّل في القيادة. قد نسيء إلى المريض أكثر ممّا نحسن إليه عندما نحرّكه من مكانه. إنّا نكدّس الألم أكثر إذا حرّكناه، كما في كيس، مثلما تنغرس الأوتاد أكثر عندما نحرّكها ونرجّها. وهكذا نتبيّن أنّه لا يكفي أن نعتزل عن النّاس، ولا يكفي أن نغيّر المكان، وإنّما المطلوب هو أن نبتعد عن أنماط وجودهم: ينبغي أن نحبس أنفسنا، وأن نعود إليها.

«تقول: ها قد كسرتُ قيودي.
نعم، كالكلب الذي يكسر قيده ويهرب،
و يجرّ جزءا منه طويلا في رقبته»

[Perse, V, 158-160]

11. إنّنا نحمل قيودنا معنا؛ فهذه ليست حرّية تامّة، لأنّنا لا نزال نتأمّل ما تركنا، ولا تزال عقولنا بذلك مشغولة.

«أمّا إذ كان قلبُنا لم يصْفَ، فأيّ معارك
وأيّ مخاطر سنواجه رغما عنّا؟
وأيّ هموم عنيفة ستمزّق الإنسان الذي
يعذّبه الهوى، وأيّ مخاوف أيضًا؟
كم من الدّمار ستحقّقه الكبرياء
والرذيلة والتهوّر، والبذخ والكسل !»

[Lucrèce, V, 43-48]

إنّ وجْعنا يمكث في النّفس، ولا يمكن للنّفس أن تهرب من نفسها.

12. ولهذا وجب أن نعيدها إلى نفسها وأن نحبسها فيها: تلك هي العزلة الحقيقية،

العزلة التي يمكن أن ننعم بها في البلاط وفي المدينة. لكن قد ننعم بها أكثر إذا كنّا على حِدة.

13. حالما نقرّر العيش في عزلة، وبالتالي الاستغناء عن الآخرين، يجب أن نجعل راحتنا لا تتوقّف على شخص آخر غيرنا: فلنتخلّص من كلّ الروابط التي تقيّدنا بالآخرين، ولنتدرّب على العيش في الوَحْدَة، وكما يحلو لنا حقّا.

14. نجا ستيلبون (Stilpon) من الحريق الذي أصاب المدينة، لكنّه فقَدَ زوجته وأبناءه وكلّ أرزاقه. فلمّا رآه دمتريوس بوليورسات (Démétrios Poliorcète) غير متأثّر بهذه الكارثة وغير خائف على وطنه، سأله ما إذا لم تلحقه أضرار، فأجابه بالنّفي، وأنّه يحمد ربّه ويشكره على كونه لم يفقد شيئا من الأشياء الخاصّة به. في هذا المضمار، قال الفيلسوف أنتيستان مازحًا، إنّه على الإنسان أن يتزوّد بالمؤونة التي تستطيع أن تطفو فوق الماء كي تنجو معه من الغرق.

15. بالتأكيد، لا يفقد المرء شيئا طالما بقي هو ذاته. عندما دمّر البرابرة مدينة نولا (Nola)، وبعدما فَقَدَ الأسقف بولان (Paulin) كلّ ما يملك ووقع في أسرهم، تضرّع إلى ربّه وقال: «ربّاه، أحفظني من ويل الخسارة، لأنّك تعلم أنّهم لم يمسّوا بعدُ بما أملك». فالثروات التي جعلته ثريّا، والخيرات التي جعلته خيّرا، قد بقيت محفوظة. هكذا يكون حسن اختيار الثروات التي يمكن أن تبقى في منجى من كلّ شرّ، مخبوءة في مكان لا يعلمه سوانا. لا بدّ أن يكون لدينا نساء وأطفال وخيرات، والصحّة خاصّة إن أمكن، لكن دون أن نتعلّق بهذه الأشياء لدرجة أنّها تصبح شرط سعادتنا.

16. يجب أن نحتفظ لأنفسنا بمستودع خلفيّ، لا يؤمّه أحد غيرنا، حيث نقبع بحرّية تامّة وحقيقية، يكون ملجأنا الرئيسي كلّما رُمنا الاعتزال والوحدة. فهناك ينبغي أن نخاطب أنفسنا كلّ يوم، في جوّ حميميّ لا يفسده أيّ اتّصال أو علاقة بالأشياء الخارجية. يجب أن نتحدّث فيه ونضحك كما لو لم يكن لدينا نساء وأطفال وحاشية وخدم وأملاك، حتّى إذا جاء وقتُ فقدانها لم يكن ذلك أمرا جديدًا عندنا. لدينا نفسٌ قادرة على الانطواء على ذاتها، وعلى مؤانسة ذاتها؛ وتملك ما به تهاجم وما به تدافع عن نفسها، وما به تتقبّل وما به تعطي. وعلى هذا لا ينبغي أن نخاف من الوحدة ومن الركود في فراغ مُضن،

«كُن في عزلتك حشْدا لنفسك»

[Tibulle, IV, XIII, 12]

إنّ الفضيلة تكتفي بذاتها: بلا قواعد ولا كلام ولا عمل.

17. في جملة أعمالنا اليوميّة، لا يهمّنا في الحقيقة عمل واحد من بين ألف. فهذا الذي نراه يتسلّق فوق أنقاض السّور، هائجًا مائجًا معرِّضًا نفسه لضربات القربينة (البندقية)، وذلك الذي تملأ جسمه الندوب، شاحب الوجه جائعًا خائر القوى، متصدّيًا لفتح الباب حتّى الموت، أتظنّون أنّهما هناك لأمرٍ يهمّهما؟ بل هما يعملان لفائدة شخص آخر لعلّهما لم يرياه أبدًا، شخص لا يكترث لَمصيرهما، يتمرّغ وقتذاك في نعيم الملذات والترف. وذاك الذي يغادر مكتبه بعد منتصف اللّيل، يكحّ ويبصق، مغرورق العينين، قذرًا، أتظنّون أنّه يبحث في الكتب عمّا يجعله رجلًا فاضلًا، تملؤه الحكمة والسعادة؟ كلّا! هناك سيموت وينتهي، وربّما سيعلّم الأجيال القادمة تقطيع أبيات شعر بلاوتوس (Plaute) والرّسم الصحيح لكلمة لاتينية. من منّا لا يفضّل الشهرة والمجد على حساب صحّته وراحته وحياته؟ إلّا أنّ هذه العُملة المتداولة عندنا إنّما هي أقلّ عملة نفعا وصلاحًا وأكثرها تزييفا. إنّ موتنا يخيفنا ما يكفي، فما بالنا نضيف إلى همّنا موت زوجاتنا وأبنائنا وذوينا؟ ألا تكفي مشاغلنا وهمومنا، حتّى نضيف إليها هموم جيراننا وأصدقائنا ونكسّر بذلك رؤوسنا؟

«*فأنّى للإنسان أن يحبّ شيئا أكثر من نفسه؟*»

[Térence, *Adelphes,* I, I, 38-39]

18. يبدو لي أنّ العزلة هي الاختيار المعقول والمنطقي لمن كرّس أفضل سنوات عمره لخدمة المجتمع، كحال طاليس.

19. كفى عيشا من أجل غيرنا، ودعونا نعيش لأجل أنفسنا، على الأقلّ ما بقي من عمرنا. دعونا نستعيد أفكارنا ونوايانا، في سبيل راحتنا. ليس أمرًا هيّنًا أن نعتزل في مكان آمن، وقد يشغلنا ذلك عن الاهتمام بأمور أخرى. وما دام الربّ يسمح لنا بالمغادرة، فعلينا أن نعدّ أنفسنا لها. لنحزم أمتعتنا ونستأذن أصحابنا؛ لنتخلّص من تلك الروابط التي تُلزمنا وتجرّنا بعيدًا عن ذواتنا. يجب أن نتخلّص من تلك الالتزامات مهما كانت شدّتها، وأن نشرع في محبّة هذا أو ذاك، لكن دون أن نقترن بأيٍّ كان غير أنفسنا. يعني: أن نربط علاقة بكلّ الأشياء، لكن من غير أن نقترن بشيء ما بالذات أو نلتصق به لدرجة أن يصبح الانفصال عنه متعذّرا دون أن يتسبّب في جَرحنا وفي سلب جزء منّا. ذلك لأنّ أفضل ما في الحياة هو أن نكون لأنفسنا.

20. حان الوقت كي ننفصل عن المجتمع، طالما أنّنا لا نستطيع أن نضيف إليه شيئا؛ فالذي لم يعُد قادرا على الإعارة، يجب أن يمتنع عن الاستعارة. إنّ قوانا آخذة في الانهيار: فلنحتفظ بها لأنفسنا، ولنجمعها عندنا. فيا حبّذا لو كان بالإمكان أن نعكس الأمور وأن

نلعب قصْد أنفسنا الدّور الذي كانت تلعبه الصداقة والصُّحبة. إنّ أُفولنا يجعلنا لا نفيد الآخرين، بقدر ما ننفّرهم ونزعجهم؛ فلنحترز كي لا نكون لأنفسنا مضجرين منفّرين غير نافعين. يجب أن نُطري أنفسنا وأن نلاطف أنفسنا، وخاصة أن نسلك في كلّ الأمور وفق عقولنا وضمائرنا، كي لا يزلّ قدمنا في حضورهم ونشعر بالخجل.

«إذ من النّادر حقّا أن يُجلّ المرء نفسه كما ينبغي»

[Quintilien, X, VII].

21. قال سقراط إنّ على الشباب أن يتدرّبوا على المعرفة، وعلى الكهول أن يتدرّبوا على فعل الخير، وعلى الشيوخ أن يتخلّوا عن كلّ شغل مدنيّ وعسكريّ، وأن يعيشوا كما يروق لهم ودون أن يلتزموا بشيء.

22. هناك أناس أقدر من غيرهم على العمل بهذه القواعد وعلى الاعتزال. فالذين يكونون مثلي، ضعفاء ليّنين كلّما وجب التعلّم، ذوي إحساس مرهف وعزيمة رقيقة، لا ينحنون ولا يقبلون أن يستغلّهم أحد، فإنّهم يكونون، بطبعهم وسلوكهم، قادرين أكثر على العمل بهذه القواعد من أولئك الذين يكونون نشطين ومشغولين، يرغبون في كلّ الأشياء معا ويدأبون على كلّ أمر، يتحمّسون لكلّ شيء ويعرضون خدماتهم على كلّ من هَبَّ ودَبّ. يجب أن يكون استخدامنا للمزايا الظرفية الخارجية بقدر ما تكون ممتعة، دون أن نجعل منها قاعدة لحياتنا، لأنّها ليست قاعدتها: فلا العقل ولا الطبيعة يقرّان بذلك. فلماذا سنسلك إذن ضدّ قوانينهما ونعلّق أمر سعادتنا على سلطة غيرنا؟

23. وقد يكون من قبيل الإفراط في الفضيلة أن نستبق تقلّبات الدّهر، وأن نحرم أنفسنا من المزايا التي يمكن أن نتمتّع بها، مثلما فعل بعضهم بدافع التقوى وعدد من الفلاسفة عن اقتناع: كأن نخدم أنفسنا، ونرقد على اليابسة، ونفقأ عينينا، ونرمي أملاكنا عرض البحر، ونرغب في الألم ونتحمّل عذاب الدّنيا طمعا في الآخرة، ونرقد على الدرجة السّفلى خوفا من السقوط إلى أسفل. فعلى أصحاب النّفوس الحازمة والقويّة أن تجعل من عزلتها مبدأ للمجد وعنوان المثالية.

«إذا كنتُ فقير الحال، أعتزّ بما أملك،
وأرضى بالقليل؛ لكن إذا أوسع الله
رزقي، آنذاك أصدح بأعلى صوتي
أن لا سعيد في العالم ولا حكيم سوى
من كانت أرزاقه راسخة في أرض طيّبة»

[Horace, *Épîtres,* I, XV, 42-46]

24. أعتقد أنّ الأمر لا يستحقّ أن نذهب هكذا بعيدًا. يكفي أن أنعم بما أحظاني به الدهر وأستعدّ لتقلّباته، وأن أتوقّع في راحة من بالي، بقدر ما تستطيعه مخيّلتي، ما قد يصيبني منه. هذا ما نفعله زمن السّلم، عندما نلعب لعبة الحرب فنتطارح ونتبارى.

25. وفي اعتقادي أنّ فضيلة الفيلسوف أرسيزيلاس (Arcésilas) لم تكن ضعيفة لكونه استعمل ما كان يملك من الأواني الفضّية والذهبيّة؛ بل هو على العكس يستحقّ كلّ تقديري لكونه استعملها باعتدال، وبسخاء أيضا ولم يحرم نفسه منها.

26. إنّي أدرك الحدود الضرورية التي ترسمها لنا الطبيعة. وعندما أرى أنّ المتسوّل الذي يطرق بابي غالبا ما يكون أكثر منّي مرَحًا وفي صحّة أفضل من صحّتي، أضع نفسي مكانه وأحاول أن أنسج على منواله. بمشاهدتي لحالات كثيرة من هذا النوع، ورغم ما يبدو لي من أنّ الموت والفقر والذّل والمرض تسير في أعقابي، يصبح من السهل ألّا أخشى ما لا يخشاه رجل أقلّ منّي شأنا وأن أصبر على ما يصبر عليه. ولا أظنّ أنّ عقلًا محدودًا يستطيع أكثر ممّا يستطيعه عقل متوقّد، أو أنّ نتائج الاستدلال لا تكافئ نتائج التعوّد. وعلى هذا فلمّا كانت ظروف الرفاهة ثانوية وغير قارّة، فإنّه لا يفوتني، وقد أخذتُ منها نصيبي، أن أتقدّم إلى الله بأفضل طلب عندي، ألا وهو: أن يجعلني راضيًا عن نفسي وعلى ما أعمله من حسنات.

27. أرى أشخاصا في عنفوان الشباب، ويحملون مع ذلك في جعبتهم كمّية من الأقراص كي تكون في متناولهم إذا داهمهم المرض وأصابهم زكام؛ بحيث تكون خشيتهم من الزكام أقلّ، بقدر ما يكون الدّواء عندهم؛ هكذا ينبغي أن نتصرّف؛ ولا سيّما إذا شعرنا بأنّنا عِرضة لمرض أخطر، فتسلّحنا بالأدوية اللازمة لتسكين الألم في العضو المريض.

28. ينبغي ألّا تكون مشاغلنا، عندما نعتزل المجتمع، شاقّة ولا مزعجة؛ وإلّا فما الفائدة من اختيارها ومن البحث فيها عن الراحة؟ يتعلّق الأمر بذوق كلّ واحد: أمّا ذوقي فلا يتماشى مع الشؤون المنزلية؛ وعلى الذين يجدون فيها راحتهم، أن يتعاطوها باعتدال:

«أن نتحكّم نحن في الخيرات،
لا أن تتحكّم الخيرات فينا»

[Horace, *Épîtres*, I, I, 19]

وإلّا أصبحت الأعمال المنزلية، كما قال سالوست (Salluste)، من أعمال الرقيق؛ والحال أنّها قد تكون أكثر نُبلا، كأعمال البستنة، التي ينسبها كزينوفون إلى سايروس.

ولا شكّ أنّه يوجد حلّ وسط بين ذلك النشاط الدنيء الحقير، الذي يُكرهك ويشغل بالك، ويفني عمر كلّ من يتعاطاه، وبين اللامبالاة والفتور الشديدين لأولئك الذين، على العكس، يتركون كلّ الأشياء مهجورة.

«يترك ديمقريطس قطيعه يأتي على القمح،
بينما يشرد ذهنه بعيدا عن جسمه»

[Horace, *Épîtres*, I, XII, 12]

29. لكن لننصت بالأحرى إلى النصيحة التي قدّمها بلينيوس الأصغر (Pline Le Jeune) إلى صديقه كورنليوس روفوس (Cornélius Rufus) بشأن مسألة العزلة والوحدة: «أنصحك، وأنت في خلوتك التامة المرفّهة، أن تترك أهلك وذويك يتكفّلون بشؤون الدار المقرفة الكريهة، وأن تتفرّغ لدراسة الأدب وتأتي أمرًا يكون لك أنت تمامًا». كان يقصد بذلك الشهرة، مثل شيشرون لمّا قال إنّه يريد أن يكرّس وحدته واعتزاله للشؤون العامة لتخليد اسمه بالكتابة.

«أليس علمك فراغًا في فراغ طالما أنّك
تترك الآخرين لا يعلمون أنّك تعلم؟»

[Perse, I, 23-24]

30. قد يكون من المنطقي، طالما أنّ الحديث يدور حول اعتزال العالم، أن ننظر إلى ما وراءه. إلّا أنّ الذين ذكرتهم أعلاه لا يحقّقون كلّ المطلوب. إنّهم يحرصون على شؤونهم وأعمالهم لمرحلة في الحياة لن يكونوا فيها قيد الوجود؛ إنّهم، بضرب من التناقض السخيف، يطمعون في جني ثمار مجهودهم في عالم سيكونون فيه في قائمة الغائبين. ولعلّ الذين يبحثون عن العزلة لغاية العبادة ويملأون قلوبهم بالإيمان بيوم الآخرة هم أكثر انسجاما مع أنفسهم. إنّ غايتهم هي الله، بطيبته وقدرته اللّانهائيتَيْن، وقد تجد معه النّفس ما يُشبع رغباتها بكامل الحرّية؛ قد تفيدهم الآلام والأوجاع طالما أنّها تمهّد للصّحة والسعادة الأبديّتَيْن؛ وقد تجيء المنيّة في أوانها، إذ هي تمثّل لحظة الانتقال إلى عالم أفضل. وسرعان ما تضعف قسوة قواعدهم بالتعوّد، وتخمد شهواتهم الجسدية بالتزهّد، لأنّه لا شيء يغذّيها ويقوّيها أكثر من استعمالها وممارستها. يستحقّ هذا التّوْق إلى السعادة والخلود أن نزهد حقّا في منافع الدّنيا ومباهجها. وإنّ من يستطيع أن يؤجّج لهيب الإيمان في قلبه وأن يوقظ الأمل باستمرار في نفسه، قد يبني في عزلته حياة ناعمة زكيّة، قد تفوق كلّ حياة أخرى ممكنة.

31. صفوة القول إنّني لا أرضى بالهدف الذي رسمه بلينيوس، ولا بالوسيلة التي اقترحها: فمثَله كمثَل من يستبدل الحمّى بالحرارة! إنّ تأليف الكتب ليس أقلّ مشقّة من أيّ عمل آخر؛ بل إنّه قد يضرّ بالصّحة، هذا ما يجب أن لا ننساه؛ كما يجب ألّا تشدّنا المتعة التي نجدها في ذلك، لأنّها نفس المتعة التي تضرّ بمن يتجاوز الحدّ في العناية بمنزله وفي الشحّ والطموح والشبق. ومع هذا فإنّ الحكماء ينبّهوننا إلى وجوب الاحتراز من شهواتنا، وإلى التمييز بين اللّذات الكاملة الحقيقية واللّذات المختلطة التي يشوبها الألم؛ ذلك لأنّ أغلب اللّذات، كما يقولون، تدغدغنا وتعانقنا كي يسهل عليها خنقنا، على نحو ما كان يفعل قطّاع الطُّرق الذين كان المصريون يسمّونهم «فيليستاس» (Philistas). فلو كان وجع الرأس يسبق السّكر، لشربنا الخمر باعتدال. إلّا أنّ المتعة تأتي أوّلا، فتخدعنا وتخفي عنّا ما يتلوها. إنّ القراءة أمر ممتع، لكن إذا كانت معاشرة الكتب ستفقدنا البهجة والصّحة، وهما أعزّ ما نملك، فلا حاجة لنا بها؛ إنّي من بين الذين يعتقدون أنّ ما نغنمه منها لا يعوّض الخسارة التي قد تنجم عنها.

32. كما أنّ الذين يشعرون بوعكة صحّية مستمرّة ينبغي عليهم زيارة الطبيب كي يقدّم لهم وصفة دواء ونظام عيش يسيرون عليه، فكذلك ينبغي على من يسأم الحياة في المجتمع ويخيّر الاعتزال، أن ينقاد لقوانين العقل ويفكّر في ترتيب حياته الجديدة ويستعدّ لها مسبقا. يلزَمه أن يتفادى كلّ نوع من الألم، مهما كان مظهره، وبصورة عامّة أن يتجنّب كلّ الانفعالات التي تُفسد راحة الجسم والنّفس، وفي الأخير أن يختار طريقه وفق طبعه ومزاجه.

Unus Quisque Sua Noverit Ire Via[1]

[Properce, II, 25]

33. في كلّ ما يتعلّق بالأعمال المنزلية وبالدراسة والصّيد وكلّ ممارسة أخرى، يجب أن نذهب إلى أقصى حدود المتعة وألّا نتجاوزها، خوفًا من الألم المحدِق. يجب ألّا ننفق من جهدنا إلّا ما نراه ضروريا للبقاء في حالة جيّدة، كما يجب، في مقابل ذلك تماما، أن نتحاشى سلبيات الفراغ الخامد الناعم. هناك علوم صعبة وعقيمة، تستهدف في معظم الأحيان الجمهور، وينبغي أن تُترك لأولئك الذين يملكون وظائف في المجتمع. أمّا أنا فإنّي لا أحبّ سوى الكتب الممتعة أو السهلة، إذ تدغدغني بلطف، أو الكتب التي تواسيني وتساعدني على ترتيب شؤون حياتي وموتي.

(1) «على كلّ واحد أن يعلم كيف يشقّ طريقه».

«أسيرُ بصمتٍ نحو غابات شافية
يشغلني ما يشغل رجلًا صالحًا وحكيما»

[Properce, II, 25]

34. يستطيع الحكماء، أصحاب النّفوس القويّة الفتيّة، أن ينعموا براحة النّفس؛ أمّا أنا، فإنّي صاحب نفس عادية، أحتاج أن أقيم أوْدي بوسائل الراحة الجسدية، وبما أنّ سنّي يعيقني عن الوسائل التي كانت تناسبني أكثر، ها إنّي أدرّب نفسي وأعوّدها على الوسائل الأكثر ملاءمة لحالتي. يجب أن نحارب بأشدّ ما أوتينا من القوّة كي نحافظ على ملذّات الحياة التي تنتزعها الأيّام من أيادينا الواحدة تلو الأخرى.

«لنقطفْ المتع واللّذات، إنّها منّا وإلينا؛
في يوم ما، سنصبح رمادا، وظلّا، وحكاية»

[Perse, V, 252]

35. وأمّا المجد الذي قصده كلٌّ من بلينيوس وشيشرون، فهو لا يناسبني؛ لأنّ أكثر ما يبعدنا عن حياة الاعتزال هو الطموح؛ إنّ الراحة والمجد لا يمكنهما التعايش تحت نفس السقف؛ وفي رأيي أنّ ذينك الرّجلين لا يعزلان سوى ذراعيهما وساقيهما عن المجتمع، أمّا روحاهما وضميراهما فإنّهما يظلّان قائمَيْن فيه أكثر من أيّ وقت مضى.

«أيّها الرجل المهذار، هلّا تعيش
فقط من أجل تسلية الآخرين؟»

[Perse, I, 19]

36. إنّهما لا يتراجعان إلّا استعدادًا للقفز بصورة أفضل ولإحداث شقّ أعمق في المعسكرالمقابل. أتريدون أن أثبت لكم قصر نظرهما؟ ضعوا في الميزان رأي فيلسوفين اثنين، من مدرستين مختلفتين تماما، يكتبان إلى صديقَيْهما، أحدهما إلى إيدوميني[1]، والثاني إلى لوسليوس[2]، يستحثّانهما على هجر المجتمع والاعتكاف في الوحدة، يقولان: «لقد عشتَ حتى اللحظة تسبح وتطفو؛ تعال الآن للموت في المرسى. إنّك كرّست معظم حياتك للنّور، دعْ ما تبقّى للظلام. لا يمكنك أن تعتزل أعمالك إن لم تتخلّ عن ثمارها. ولهذا، تنازل عن الشهرة والمجد. إنّ ما أخشاه هو أن تضيء أعمالك الماضية حاضرك، وأن يقتفي نورها أثرك حتّى إلى ملجئك. اهجر، مع

(1) هو أبيقور في مراسلته لتلميذه إيدوميني (Idoménée).
(2) هو سينيكا في «رسائل إلى لوسليوس».

المتع التي تهجرها، المتعة التي تأتيك من استحسان الغير لك. أمّا علمك وكفاءتك، فلا تقلق بشأنهما، لأنّ قيمتهما لا تزول إذا وظّفتهما لنفسك أكثر.

37. تذكّر الذي سُئل لماذا هكذا يجهد نفسه في فنٍّ لا يمكن أن يروق للجمهور العريض، فأجاب: «إنّي أكتفي بالقليل، وقد أرضى بمعجَب واحد، بل بلا أيّ واحد». كان كلامه صحيحا: فأنت وصديقك تكوّنان مسرحًا كافيًا أحدكما للآخر، بل حتى أنت وحدك تكوّن لنفسك مسرَحًا. فليكنْ جمهورك كأنّه رجل واحد، وليكن رجل واحد كأنّه جمهورك. ليس جميلا أن نستمدّ مجدنا من هجرنا للعالم ومن الملجأ الذي اخترناه لأنفسنا. يجب أن ننسج على منوال الحيوانات التي تمحو آثار أقدامها أمام عرينها. يجب أن يكون مبتغاك أن تعلم، لا بأيّ وجه يتحدّث النّاس عنك، وإنّما بأيّ وجه ستتحدّث أنت إلى نفسك. اخْتَلِ بنفسك، لكن كن مستعدّا لاستقبال نفسك أوّلًا: إذ من الجنون أن تثق بنفسك وأنت لاَ تحسن التدبير.

38. قد يخطئ المرء في العزلة كما في المجتمع. وحتّى يزول ارتباكك، وتشعر بالخجل من نفسك وباحترام ذاتك، املأْ عقلك بصوَر من الفضيلة واستحضر دائما كاتون وفوسيون وأرستيد، ففي حضورهم يتستّر حتّى المجنون على أخطائه؛ اجعلهم يراقبون نواياك: فإذا اختلّت، عادت بفضل احترامك لهم إلى الصراط المستقيم، وساعدوك على البقاء فيه، وعلّموك معنى الاكتفاء بالذات، والاقتصار على ما تملك، وعلى المضيّ بنفسك على درب التأمّلات الحصيفة حيث تجد متعتك وحيث تدرك الخير الحقّ الذي ستنعم به بقدر ما تكتشفه، فتنبسط لذلك وترضى، ولا ترغب في طول العمر ولا في تخليد اسمك».

هذه من نصائح الفلسفة الطبيعية الحقيقية، لا من نصائح فلسفة متباهية ثرثارة، كفلسفة بلينيوس وشيشرون.

الفصل التاسع والثلاثون

تحرّيات حول شيشرون

1. كلمة أخرى عن المقارنة بين الفيلسوفَيْن المذكورَيْن أعلاه: يمكن أن نجد في كتابات شيشرون وبلينيوس الأصغر (الذي لا يشبه عمّه قطّ، في رأيي) جملة من العناصر التي تثبت طموحهما المفرط. من ذلك مثلا أنّهما كانا يطلبان من مؤرّخي عصرهما، على مرأى ومسمع من الجميع، ألّا يغفلوا عن ذكرهما في مؤلّفاتهم. ومن سخرية القدر أن وصلنا خبرهما في حين بقيت المؤلّفات التاريخية المقصودة طيّ النّسيان. والأدهى من كلّ ذلك، بالنسبة إلى شخصين من طرازهما، أنّهما سعيا إلى كسب بعض المجد بالثرثرة والقوقأة، وبنشر رسائلهما الخاصة إلى أصدقائهما، حتى إنّهما لم يتوانيا عن نشر بعض الرسائل التي فوّتا فرصة إرسالها، بحجّة أنّهما لا يرغبان في ضياع ثمار شغلهما وجهدهما.

2. يا لجمال المهمّة التي اضطلع بها قنصلان من قناصل روما، قاضيان رفيعان من قضاة جمهورية سيطرت على العالم، إذ كرّسا أوقات فراغهما لتحرير رسائل جميلة وترتيب كلماتها بمهارة تشهد بتوغّلهما في معرفة لغة أهلهما! أليس هذا أفظع ما قد يصنعه معلّم بسيط لكسب قوته؟ فلو لم تكن أعمال كزينوفون وقيصر أفضل كثيرا من فصاحتهما، لا أظنّ أنّهما كانا سيرويانها. فهُما أرادا التعريف بأعمالهما، لا بخطاباتهما. ولو كانت اللّغة المتقنة تحقّق المجد لصاحبها، لما ترك سكيبيو وليليوس عبدًا إفريقيًا[1] يكسب المجد بفضل أعمالهما الكوميدية وكلّ ما تحتويه من دقائق اللّغة اللّاتينية ولذائذها؛ إنّ براعة هذه اللّغة تثبت أنّ هذه الأعمال أعمالهما، ولقد أقرّ تيرانس نفسه بذلك. فلا تزعجوني كثيرا ولا تطلبوا منّي أن أغيّر رأيي في هذا الموضوع.

---

(1) هذا العبد هو تيرانس أو، كما يُطلق عليه، «العبد الإفريقي». ولد في قرطاج حوالي سنة 190 ق.م. وتوفّي في روما سنة 159 ق.م.، وكان شاعرًا ومؤلّفًا كوميديًّا فذّا. وقع في العبودية منذ كان طفلا، واشتراه المستشار الروماني تيرنتيوس لوكانوس (Terentius Lucanus) الذي أعتقه وأهداه اسمه. وقد كان تيرانس صديقا لسكيبيو وليليوس. لكن رغم ما قاله مونتاني في هذا المقطع، فالصّواب أنّ الأعمال الكوميدية المذكورة إنّما تعود حقّا إلى تيرانس، وليس إلى صديقَيه.

3. قد يكون من قبيل السخرية، أو حتى الإهانة، أن نوصف بصفات لا تليق بمقامنا، أو لا تمتّ إلينا بصلة، وإن كانت هذه الصفات في حدّ ذاتها محمودة. فإنّ ذلك كما لو كنّا نشيد بملك لكونه رسّامًا جيّدًا، أو مهندسا معماريًا بارعًا، أو حامل قربينة ماهرًا، أو عدّاء سريعًا في لعبة الحلقة: إنّ مثل هذا الثناء لا يشرّفه إلّا إذا جاء بعد الثناء على خصاله الشخصية، كالعدل، والقدرة على قيادة شعبه زمن السلم وزمن الحرب. وهكذا فإنّ الفلاحة تشرّف سايروس، كما تشرّف الفصاحة والآداب شرلماني. أتريدون مثالا أوضح؟ لقد شاهدت في شبابي أناسا غنموا الشهرة والمراتب بفضل كتاباتهم، ثمّ أنكروا ما تعلّموه وأفسدوا أسلوبهم وتجاهلوا خصالهم إذ بدت لهم في غاية الابتذال ولا تُنسب عادة إلى أصحاب العلم؛ فلا ريب أنّهم كانوا يَعِدُون بخصال أفضل يملكونها.

4. كان رفاق ديموستان (Démosthène)، في بعثتهم إلى فيليب المقدوني يمدحون جماله وفصاحته وتحمّله المسكرات، فقال لهم ديموستان إنّ هذه المدائح قد تليق بامرأة ومحام وسكّير أكثر ممّا تليق بملك.

«أن يقود، وينتصر على العدوّ الذي يقاوم،
ويرحمه إذا هزمه وطرحه أرضا».

[Horace, Chant Séculaire, 15]

فليست وظيفته أن يُحسن الصّيد أو يجيد الرقص:

«آخرون غيره يحسنون المرافعة، وقياس
حركات السماء بالبوصلة، وتسمية الأفلاك،
أمّا هو فعليه بقيادة الشعب وحكم البلاد»

[Virgile, *Énéide*, VI, 849-51]

5. قال بلوتاخورس: إنّك ببروزك في تلك المجالات الثانوية إنّما تشهد على نفسك بأنّك أسأت توظيف أوقاتك وأفنيتَ جهدك في دراسات غير ضرورية وعديمة الجدوى. ولهذا فإنّ فيليب المقدوني، عندما سمع ابنه إسكندر الكبير يغنّي خلال مأدبة وينافس أفضل الموسيقاريين في الطرب، قال له: «ويحك! ألا تخجل من الغناء هكذا ببراعة؟». ولمّا استرسل فيليب في مناقشة أحد الموسيقاريين حول فنّه، أجابه هذا الأخير: «لا سمح الله، مولاي، أن تحلّ بك مصيبة امتلاك هذا الفنّ أفضل منّي».

6. يجب أن يكون ردّ الملك على منوال ردّ إيفيقراط (Iphicrate) على الخطيب الذي كان يعاتبه بالنّحو التالي: «طيّب، فمن أنت إذن، حتّى تتظاهر بالشجاعة؟ هل أنت

تحمل السلاح؟ هل أنّك رامي سهام، أو رامي رماح؟»، حيث أجاب الملك: «لست شيئا من كلّ هذا، بل أنا من يُحسن الحكم فيهم جميعا». وفي سياق كهذا، كانت حجّة أنتيستان على تفاهة إيسمنياس أنّه كان يُشهد له بالبراعة في النفخ بالمزمار.

7. عندما أسمع بعضهم يذكر أسلوب كتابي «مقالات»، أفضّل أن يكفّ عن الكلام. ذلك لأنّ في الإعجاب بالشكل استخفافٌ غير مباشر بالمعنى واحتقارٌ له. قد أكون مخطئًا في ما أراه، لكن يبدو لي أن لا أحد غيري قدّم مادّة أفضل وأثرى ممّا قدّمتُ؛ ولئن قدّم بعض المؤلّفين مادّة ما، بأيّ شكل من الأشكال، كثيرا أو قليلا، فهذه المادّة ليست أكثر غزارة وجوهريّة. ولا أخشى أن أضيف أنّني لم أتطرّق سوى للأفكار الأساسية؛ إذ لو كان لا بدّ من شرحها، لكتبتُ أضعاف ما فعلتُ. فكم من الروايات أتيتُ على ذكرها دون تعليق، قد يستخلص منها من يريد فحصها بشيء من التركيز مادّةً لتأليف ما لا نهاية له من «المقالات»! فلا هذه الروايات ولا شواهدي قدّمتُها أمثلةً يُنسَج على منوالها، للاعتبار أو للتزيين؛ وإنّي لم أقدّمها فقط باعتبار حاجتي إليها، بقدر ما أنّها تحمل في الغالب، فيما وراء ما أقول، بذور تفكير أكثر ثراء وأكثر جرأة، كما أنّ رجع صداها يصلني بصورة أدقّ (إذ لم أرغب في الإفصاح أكثر)، ويصل بالتوازي إلى أولئك الذين تروق لهم طريقة تفكيري.

8. وعودةً إلى فضيلة اللّغة، فإنّي لا أرى فرقا كبيرا بين أن نسيء القول فحسب، وأن نحسنه فحسب.

«ليس ترتيب الكلام زينة ذكورية»

[Sénèque, *Lettres*, CXV]

يقول الحكماء إنّ الفلسفة دون سواها، في باب المعرفة، والفضيلة دون سواها، في باب العمل، يمكنهما ملاءمة كلّ النّاس، بقطع النظر عن رتَبهم وأوضاعهم.

9. يوجد عند الفيلسوفَيْن الآخرين اللّذين ذكرتهما، أبيقور وسنيكا، شيء مماثل لما وجدناه عند الأوّلَيْن، لأنّهما يتوقّعان أيضا خلود الرسائل التي بعثاها إلى أصدقائهما. بيد أنّ ذلك لا يعدو أن يكون لغاية محمودة إن هي إلّا خدمة أولئك المغرورين الذين يخشون الوحدة والعزلة ويؤثرون مواصلة أعمالهم في المجتمع حتّى تطبّق شهرتهم الآفاق. إنّ غايتهما هي فعلا حثّهم على حياة العزلة، فهي في نظرهما حياة آمنة لا تدعو إلى الخشية، ولا ريب أنّ الرسائل التي يكتبانها للأجيال القادمة ستحقّق لهما من الشهرة ما قد تحقّقه الأعمال العامة لغيرهما في المجتمع. وزيادة على ذلك فإنّ هذه الرسائل ليست فارغة وجوفاء، ولا تكمن قيمتها في مجرّد البراعة في اختيار الكلمات

وفي تكديسها وترتيبها حسب إيقاع معيّن، بقدر ما تكمن، على العكس، في ما تتضمّنه من مقالات علميّة لا تجعلنا أكثر فصاحة، وإنّما أكثر حكمة، ولا تعلّمنا حُسن الكلام بقدر ما تعلّمنا حُسن العمل.

10. أُفٍّ من الفصاحة التي نرغب فيها بدل أن نرغب في الأشياء! وذلك مهما قيل عن شدّة فصاحة شيشرون ومنتهى كمالها. أضيف في هذا المضمار نادرة تخصّه وتعرّفنا أكثر بطبعه. كان عليه أن يخطب في الجمهور، فضاق به الوقت ولم يستعدّ إلى ذلك كما ينبغي. جاءه عبده إيروس (Eros) وأعلمه بأنّ الجلسة تأجّلت إلى يوم غد، ففرح بهذا النّبأ أيّما فرح وعتقه.

11. فيما يتعلّق بالرسائل، أضيف ما يلي: هي جنس من الكتابة يزعم أصدقائي أنّني أملك فيه بعض البراعة. ولعلّي كنت سأختار هذا النوع من الكتابة للتعبير عن قريحتي لو كان لي من أخاطب. كان لا بدّ أن تكون لي، كما في الماضي، علاقة خاصّة بمن يجذبني ويسندني ويحملني؛ لأنّ الكلام بخفّة، مثلما يفعل بعضهم، هذا ما لا أستطيعه، اللّهمّ إلّا في الحلم؛ كما لا أستطيع أن أختلق مراسلين أخاطبهم في أمور جدّية، لأنّني أخذت على نفسي عهدًا بتجنّب كلّ أنواع الزّور. كان يمكنني أن أكون أكثر يقظة وأشدّ ثقة بنفسي لو كوّنت صداقة قويّة متينة بدل التأمّل، مثلما جرى لي، في سلوك النّاس ومختلف طرائق عيشهم.

12. لديّ أسلوب شخصيّ، على حدة؛ إنّه أسلوب خاص بي، لا يناسب الحياة العامّة، كشأن لغتي: أسلوب مختزَل جدًا، مضطرب ومتقطّع. لستُ بارعا في المراسلات الرسميّة المتصنّعة، فهي لا تعدو أن تكون تلاحقًا للعبارات المهذّبة، وإنّي لا أستطيع، بل لا أميل إلى تلك الشهادات الطويلة على التعاطف وعلى الرغبة في إسداء الخدمات. إنّي لا أعتقد في كلّ ذلك، ولا يروق لي أن أقول عكس ما أُضمر. قد أكون هكذا بعيدا عمّا جرت به العادة، نظرًا إلى العَهْر البشع والدنيء لعبارات الأدب والمجاملة: حياة، روح، ورع، عبادة، خادم، عبد، تتلاحق كلّ هذه الكلمات بسهولة حتّى إنّنا إذا أردنا أن نعبّر من خلالها عن إرادة أشدّ ثبوتا واحترامًا، كانت عاجزة عن التعبير.

13. إنّي أستبشع أن تفوح منّي رائحة التملّق؛ ولهذا تراني أتكلّف طريقة في الكلام جافّة حامضة غليظة، قد يبدو لمن لا يعرفني أنّها تنمّ عن التكبّر والاحتقار. إنّ الأشخاص الذين أحترمهم وأقدّرهم أكثر هم أولئك الذين أُظهر لهم أقلّ علامات التقدير والاحترام. وعندما أكون في غاية المرح والبهجة، يغيب عنّي واجب الأدب والمجاملة. أعرض نفسي بشكل هزيل، وبفخر، على من أكون تابعًا له، وبشكل أقلّ على من عرضت نفسي عليه الأكثر. عليهم أن يقرؤوا في قلبي، لأنّ الكلمات قد تخدع مشاعري.

14. لا أعرف أحدًا يُعوزه الكلام أكثر منّي، في الترحيب والاستئذان والشكر والتحيّة وعرض الخدمات، وفي كلّ تلك المجاملات المهذارة التي تفرضها علينا قواعد اللّياقة والأدب الرسمية. ولم أفلح أبدا في تحرير رسالة تنويه أو توصية دون أن يجدها المرسَل إليه جافّة وفاترة.

15. الإيطاليون هم من كبار الناشرين للرسائل؛ أظنّ أنّ لديّ منها مائة مجلّد؛ وتبدو لي رسائل أنيبال كارو (Annibale Caro) هي الأفضل. لو بقي بعض الشيء من الورقات التي خربشتها سابقا لأجل السيّدات، حين كانت يدي يدفعها الهوى، لوجدت من بينها ورقات تستحقّ أن يطّلع عليها الشباب المتفرّغ للعشق. عندما أحرّر رسائلي، أكون دائما على عجلة، بل أكون متسرّعا لدرجة أنّي أفضّل أن أحرّرها بيدي عوض أن أكلّف شخصا آخر، رغم رداءة خطّي، لأنّي لا أجد من يستطيع أن يواكب إملائي، كما أنّي لا أحتفظ بنسخة منها أبدا. لقد عوّدتُ معارفي من الشخصيّات البارزة بوَرق غير مثنيّ، تغيب فيه الهوامش ويكثر الفسخ والتشطيب. الرسائل التي تكلّفني الأكثر هي تلك التي تهمّني بدرجة أقلّ؛ وإذا تباطأت فيها، فهي العلامة على أنّها لا تعبّر عمّا يخالجني؛ قد أشرع في الكتابة دون غاية محدَّدة: فتجرّ الفكرة الأولى إلى فكرة ثانية.

تحتلّ التوطئة والمقدّمة، في رسائل اليوم، مساحة أكبر من الجوهر نفسه. إنّه أهون عليّ أن أحرّر رسالتين اثنتين من أن أطوي رسالة واحدة وأختم عليها، فأنا أترك دائما هذا الشغل لشخص آخر؛ كما أكلّف غيري أيضا، عندما أكون انتهيت الكتابة في لبّ الموضوع، بالاستطراد والإطناب في المجاملات، وبإضافة ألقاب وصفات المرسل إليه؛ فكم أتمنّى أن يتغيّر ذوق العصر ونُعفى من هذه الأمور! فكي لا أخطئ، عدلت أكثر من مرّة عن الكتابة، ولا سيّما عن مراسلة رجال القضاء ورجال المال، نظرا إلى تجدّد مهامّهم باستمرار وإلى صعوبة تحديد ألقابهم الشرَفية وترتيبها؛ والحال أنّ هذه الألقاب تكلّفهم الكثير، ولا يمكن تغييرها أو إغفالها دون إهانتهم. وكذلك أرى من غير اللّائق أن نضعها على الواجهة وفي فاتحة الكتب التي ننشرها.



الفصل الأربعون

الخير والشر يتوقّفان خاصّة على تصوّرنا لهما

1. تقول حكمة يونانية قديمة إنّ الإنسان لا تؤلمه الأشياء، بقدر ما يؤلمه رأيه في الأشياء. قد نخطو خطوة حاسمة في التخفيف عن وضعنا الإنساني البائس لو أثبتنا صدق هذه الحكمة في جميع الحالات. فإذا كان رأينا وحده هو ما يسمح للشرّ باجتياح وجودنا، فقد نستطيع ازدراءه أو تحويله إلى خير. وإذا كانت الأشياء تحت تصرّفنا، فلماذا لا نتصرّف إزاءها بصفتنا أسيادا، أو لماذا لا نطوّعها لصالحنا؟ إذا كان ما نسمّيه شرّا وألما ليس في ذاته شرّا ولا ألما، وإنّما مخيّلتنا هي التي تصفه هكذا، فإنّه يبدو بوسعنا أن نغيّره. ولمّا كان لنا الخيار، فقد يكون من الحماقة بمكان أن نتشبّث بالرأي الأكثر إزعاجًا وأن نعطي للمرض والفاقة والاحتقار طعمًا مرًّا حامضًا، بدل أن نعطيها طعمًا جيّدًا، سيّما أنّ القدر قد وفّر لنا المادّة وما بقي إلّا أن نمنحها الصورة.

2. وبالتالي فإنّ ما نسمّيه «شرّا» لعلّه ليس في ذاته شرّا، أو على الأقلّ، ومهما كان في الواقع، لعلّه يتوقّف علينا أن نعطيه طعمًا آخر، أو – الأمران سيّان – وجهًا آخر. لنتأمّل في مدى صدق هذه الفكرة.

3. لو كانت صورة الأشياء التي نخشاها تنطبع في نفوسنا بشكل تلقائي، لانطبعت في نفوس كلّ النّاس، لأنّهم ينتمون جميعا إلى نفس النّوع، ويتمتّعون جميعا، بقطع النظر عن تفاوتهم في ذلك ببعض الدرجات، بنفس الآلات والأدوات التي بها يتصوّرون ويحكمون. إلّا أنّ تنوّع آرائنا حول هذه الأشياء يبيّن بوضوح أنّها لا تنطبع إلّا بموافقتنا: فإذا تقبّلها بعضهم بمعناها الأصلي، فإنّ ألفًا غيرهم يضفون عليها معنى معاكسًا جديدًا.

4. قد يبدو الموت والفقر والألم من ألدّ أعدائنا. لكنّ الموت، إذ تفوق فظاعته كلّ فظاعة، من لا يعلم أنّه قد يكون، في نظر بعضهم، المرسى الوحيد لعذابات الدّنيا، والخير الأسمى للطبيعة، والسّند الوحيد لحرّيتنا، والعلاج الطبيعي والسريع لكلّ آلامنا؟ فكما أنّ بعضهم يرتعدون خوفا في انتظاره، يرى فيه بعضهم الآخر حِملًا أهون من حمل الحياة.

5. فهذا يتذمّر من سهولته:

«أيا موت اتركِ الجبناء،
واقبلْ على الشجعان الأقوياء !»

[Lucain, *La Pharsale*, IV, 580]

زيادة على هؤلاء الشجعان، نذكر ثيودور إذ قال لليزيماك (Lysimaque) الذي كان يهدّده بالقتل: *«ستكون ضربتك قاضية إذا كانت بقوّة مساوية لقوّة الكنتاريد»*. ولقد أقدم معظم الفلاسفة على الموت بمحض إرادتهم، فعجّلوا فيه وسهّلوه.

6. كم نرى من النّاس، يُقادون إلى الموت، إلى موت فظيع يجلب لهم العار وأحيانا الآلام الشديدة، ويُظهرون مع ذلك حزمًا قويًا، عنادًا أو بطبعهم البسيط، كما لو أنّ شيئا لم يطرأ على حياتهم العادية! يقومون بتصريف شؤونهم العائلية، ويتوسّلون إلى أصدقائهم، ويطربون، ويعِظون، ويخاطبون النّاس ويمزحون، ويشربون على نخب من يَعرفون، مثلما فعل سقراط. بعضهم يطلب، أثناء اقتياده إلى المشنقة، أن لا يقع العبور به من بعض الأنهج حتى لا يقبض عليه تاجر يدين له ببعض المال؛ وبعضهم الآخر يطلب من الجلّاد ألّا يلمس عنقه كي لا يدغدغه ويجرّه إلى الضحك؛ وبعضهم أجاب المرشد الدّيني النجيّ الذي وعده بأنّه سيتناول الغداء هذا اليوم صحبة ربّه: «اقصُده بنفسك، أمّا أنا فصائم». وبعضهم أخيرا طلب أن يشرب، فشرب الجلّاد من الإناء قبله، فرفض أن يشرب بعده خوفا من عدوى الجدري. وقد سمعنا كلّنا بقصّة ذلك الرجل من بيكاردي، إذ عُرضت عليه فتاة بينما كان ينتظر حبل المشنقة، وقيل له، كما تسمح بذلك عدالتنا أحيانا، إنّه قد ينجو بحياته لو تزوّجها؛ تفحّصها قليلا فرأى أنّها تعرج فقال: «ضعوا الحبل في عنقي، إنّها عرجاء»!

7. يروى أيضا أنّه حُكم في الدانمارك على رجل بقطع الرأس، وعُرض عليه نفس الشيء، فرفض متعلّلا بأنّ وجنتي الفتاة مترهّلتان وأنفها حادّ جدّا. وفي تولوز، اتُّهم خادم بالزندقة لكونه تبنّى عقيدة سيّده، الطالب الشاب المسجون معه؛ وفضّل الموت على الإقرار بأنّ سيّده قد أخطأ. ويروى أنه عندما استولى الملك لويس الحادي عشر على مدينة أرّاس، خيّر العديد من أفراد الشعب أن يُشنقوا وألّا يصيحوا «يحيا الملك!»

8. وفي مملكة نارسينغار Narsinghgarh [1]، إلى يومنا هذا، تُدفن زوجات الكهنة أحياء مع أزواجهنّ، وتُحرق غيرهنّ أحياء أيضا في موكب دفن أزواجهنّ، ويتمّ ذلك بكلّ حزم، بل في كنف البهجة. وعندما يقع حرق جثّة الملك المرحوم، تُسرع زوجاته وجواريه وكذلك غلمانه وخدمه وضبّاطه نحو المحرقة حيث يرمون بأنفسهم مع مولاهم، بطيب خاطر، ويبدو شرفا عظيما أن يصاحبوه حتى في الموت.

---

(1) هي حاليّا ولاية في الهند الوسطى.

9. ويوجد حتّى من بين أصحاب النفوس الذليلة كالبهلوانيين من لم يكفّ عن المزاح وهو يواجه الموت. يروى أنّ بعضهم صاح، عندما أسقطه الجلّاد: «ما سيحصل سيحصل!»، وهي عبارته المفضّلة. وكان آخر يحتضر، ممدَّدا على فراش من القش بجانب النار، فسأله الطبيب عن مكان وجعه، فأجابه: «ما بين الدكّة والنّار». ولمّا همّ الكاهن بتقديم المسحة الأخيرة وبحث عن قدميه الملتويتين والمتشنّجتين بسبب المرض، قال له: «ستجدهما في آخر ساقيّ». وأجاب من كان يدعوه إلى أن يستغفر ربّه ويستسلم للموت:

– من سيذهب إلى جواره؟

– أنت عن قريب، إن شاء الله.

– آه لو كان ذلك فقط مساء غد...

– استغفره وتوسّله، وستكون قريبا إلى جواره.

– في هذه الحالة، أفضّل أن أحمل إليه استغفاري وتوسّلاتي أنا بنفسي.

10. خلال حروب إيطاليا الأخيرة، وبعد الكثير من الكرّ والفرّ، انزعج النّاس من هذه القلاقل المستمرّة وعزموا على الموت، وسمعتُ أبي يتحدّث عن خمسة وعشرين شخصًا من الأعيان أقدموا على الانتحار في ظرف أسبوع واحد. تُذكّرنا هذه الواقعة بواقعة الغزنـويين (Xanthiens)، إذ كان بروتوس (Brutus) يحاصرهم، فأظهروا حماسةً كبيرةً للموت، رجالًا ونساء وأطفالا معًا، وبذلوا من الجهد في هجر الدّنيا ما يبذله الآخرون تماما في الهرب من الموت.

11. كلّ رأي قادر على فرض نفسه، وإن كان مقابل التضحية بالحياة. يدعو البُند الأوّل من ذلك العهد الشجاع الذي قطعته اليونان مع نفسها واحترمته، أثناء الحروب اليونانية-الفارسية، إلى أن يضحّي كلّ واحد بحياته في سبيل أن تبقى قوانين اليونان صامدة لا تعوّضها قوانين فارس.

كم من الأتراك خُيّروا، في أثناء حربهم على اليونان، أن يُقتلوا أشنع قتل، بدل أن يتخلّوا عن الختان أو أن يقع تعميدهم؟ هذا مثال على ما تقدر عليه الأديان.

12. بعد أن طرد ملوك قشتالة اليهود من أراضيهم، سمح لهم الملك يوحنّا البرتغالي بالمكوث في أراضيه مقابل ثمانية ريال للرأس الواحد، بشرط أن يغادروها في أجل محدّد؛ ووعدهم، من جهته، بأن يوفّر لهم السّفن للعبور إلى إفريقيا؛ لمّا حان الأوان، وإذ كان من المقرّر أنّه بعد الأجل المحدّد سيقع استعباد الذين لم يغادروا، تمّ توفير السّفن بالتقتير؛ أمّا الذين أبحروا، فقد عانوا من سوء معاملة طاقم السفينة: ففضلا عمّا تكبّدوه من مختلف الإهانات، وقع التلاعب بهم ذهابًا وإيّابًا حتّى تأخّروا عن الوصول

ونفدت مؤونتهم واضطرّوا إلى شراء ما يقيم أودهم بأثمان باهظة، وطالت المدّة حتّى عادوا إلى اليابسة، مجرَّدين من كلّ شيء وحتّى من أقمصتهم.

أمّا الذين لم يبحروا بعدُ، فإنّهم لمّا بلغهم خبر هذه المعاملة الوحشية، فضّلوا في معظمهم الاستسلام للعبودية، بل تظاهر بعضهم حتّى بتغيير ديانتهم.

13. لمّا ورث إيمانويل السلطة، شرع في منحهم الحرّية، ثمّ تراجع حدَّد لهم أجَلا كي يغادروا البلاد، وعيّن لهم ثلاثة مرافئ للسّفر. بحسب الأسقف أوزوريوس (Osorius)، وهو أفضل مؤرّخ لاتيني في عصرنا، فإنّ إيمانويل، طالما أنّه لم ينجح بمنحهم الحرّية، تمنّى هدايتهم إلى الكاثوليكية، لتجنّب مخاطر القرصنة التي سبق أن عانى منها أصحابهم، وخوفًا من هجر البلاد التي تعوّدوا فيها على رغد العيش والارتماء في بلد غريب مجهول.

14. لكن لمّا خابت آماله ورآهم عازمين كلّهم على السّفر، حذف مرفأين من الثلاثة الموعودة، كي يثنيهم عن الرحيل في ظروف سيّئة، وكي يتجمّعوا في مكان واحد يسمح له بتنفيذ الخطّة التي أعدَّها لهم. تتمثّل هذه الخطّة في خطف كلّ الأطفال الذين أعمارهم تحت أربع عشرة سنة وأخذهم إلى مكان بعيد عن أنظار آبائهم حيث يسهل تلقينهم ديانتنا. يقال إنّ هذا القرار الوحشي قد أحدث بلبلة مرعبة في صفوف الآباء والأبناء بدافع إيمانهم وبسبب العاطفة الطبيعية التي تربط بينهم. وشوهد من الآباء والأمّهات من أقدموا على الانتحار، بل أفظع من ذلك، شوهد من رموا أطفالهم الصغار في الآبار، بدافع الحبّ والعطف وللإفلات من القانون.

15. في الأخير، وبعد أن انتهت الآجال، وقعوا مجدّدا في العبودية. بعضهم اعتنقوا الديانة المسيحية، إلّا أنّ قلّة من البرتغاليين، حتّى اليوم وبعد مرور مائة سنة، استمرّوا هم والذين خلفوهم على إيمانهم، رغم أنّ تأثير العادة ومرور الزمان يتسببان في إرغام المرء. في مدينة كاستلنوداري (Castelnaudary)، تمّ حرق خمسين فردا من الألبيجوَا(Albigeois) الهراطقة الذين تقبّلوا مصيرهم برباطة جأش ولم يفرّطوا في عقيدتهم. *«كم من مرّة، قال شيشرون، ارتمى في أحضان الموت ليس فقط جِنرالاتنا، بل أيضا جيوشنا بكاملها؟»* [Tusculanes, I, XXXVII]

16. لقد شاهدت صديقًا حميمًا يسعى إلى الموت بحماسة حقيقية وبعزيمة تأصّلت فيه بحجج مختلفة لم أقدر على تخليصه منها. وفي أوّل مناسبة توفّرت له، أقدم على الموت، تحيط به هالة من المجد، فاقدًا كامل عقله، كما لو كان مدفوعا بنهمٍ حارقٍ شديد.

17. لدينا أمثلة كثيرة، في أيّامنا هذه، عن أشخاص، بل عن أطفال أقدموا على

الانتحار خوفًا من بعض المصاعب البسيطة. في هذا السياق قال مؤلّف قديم: «*ماذا عسانا أن نخشى، إن كنّا نخشى حتّى الملجأ الذي اختاره الجُبن لنفسه؟*» لو كنت أريد هنا أن أعِدّ قائمة بالأشخاص، من كلّ جنس ومن كلّ وضع، الذين انتظروا الموت برباطة جأش أو سعوا إليه بإرادتهم، ليس فقط هروبا من مآسي الدّنيا وإنّما عند بعضهم سأماً من الحياة وعند بعضهم الآخر أملًا في حياة أفضل، لن أنهي هذه القائمة أبدًا. إنّهم من الكثرة بمكان بحيث إنّني قد أكون أسرع في عدّ الذين خشوا الموت.

18. أضيف ما يلي: كان بيرون على متن سفينة لمّا هبّت عاصفة كبيرة واشتدّ هلع من كانوا حواليه، فأخذ يشجّعهم وضرب لهم مثال الخنزير الذي كان معهم ولا يعبأ إطلاقا بما يحدث. هل نجرؤ ونقول إنّ تفوّقنا بالعقل، إذ به نعتزّ ونعتبر أنفسنا ملوكًا وأسيادا على باقي المخلوقات، إنّما الهدف منه تعكير صفو حياتنا؟ فما حاجتنا إلى معرفة الأشياء إذا كانت نتيجة المعرفة هي فقدان راحة البال والطمأنينة. وإذا كانت هذه المعرفة تجعل وضعنا أسوأ من وضع خنزير بيرون؟ هل سنستخدم الذكاء، الذي مُنِح لنا لأجل خيرنا، في تحقيق هلاكنا بمعارضة أغراض الطبيعة ونظام الأشياء في الكون، والحال أنّ المطلوب هو أن يستعمل كلّ واحد مواهبه وقدراته لصالحه؟

19. قد يقول لي بعضهم: فليكن، كلامك قد يصدق على الموت، لكن ما قولك في الفقر؟ وما قولك في الألم، إذ يعتبره أرستيب وجيروم دي كارديا (Jérôme De Cardia)، شأن معظم الحكماء، شرًّا مطلقا؟ (وإنّ الذين أنكروه في كلامهم، سلّموا به في الواقع). كان بوزيدونيوس يعاني من مرض حادّ يؤلمه جدًّا. زاره بومبي واعتذر على قدومه في ظرف مزعج كي ينصت إليه يتفلسف. قال بوزيدونيوس: «لا قدّر الله، أن يجعلني الألم أمسك عن الحديث عنه؟» ثمّ شرع في الحديث عن احتقار الألم؛ لكن في الأثناء، كان الألم يلعب دوره وينخره دون هوادة؛ حينها صرخ: «مهما فعلتَ، أيّها الألم، لن أقول إنّك شرّ!»

هذه الطرفة المشهود بها، ماذا تعلّمنا عن احتقار الألم؟ لا يتعلق الأمر فيها إلّا بالكلمة نفسها. ورغم هذا، فإذا كان بوزيدونيوس لا يشعر بالألم، فلماذا كان يتوقّف في كلامه؟ ولماذا رأى من المهمّ ألّا يسمّيه «شرّا»؟

20. لا يتعلّق الأمر هنا بمجرّد خيال. إذا كان الرأي هو الذي يسود في الأمور الأخرى، فإنّ الأمر يتعلّق هنا بالمعرفة الموضوعية. وتكون حواسّنا هي ذاتها الحَكم.

«*فإذا خدعتنا الحواسّ،*
قام العقل بالشيء نفسه»

[Lucrèce, IV, 485]

هل سنقنع جِلدنا بأنّ ضربات السّوط تدغدغه؟ وذوقَنا بأنّ طعم الصبّار مثل نبيذ غرافاس؟ ههنا يقف خنزير بيرون في صفّنا: فإن كان لا يخشى الموت، فهو يصيح ويئنّ عندما يُضرب. كيف نسير ضدّ قانون الطبيعة العام، الذي يتعلق بجميع الكائنات الحيّة على الأرض، ألا وهو خشية الألم؟ فحتّى الأشجار لعلّها تئنّ بسبب الضربات التي تتلقّاها. إنّ الموت لا يدرَك إلّا بالتفكّر، لأنّه يحصل في لحظة واحدة:

«إنّه مضى أو سيأتي،
ولا شيء منه حاضر»

[La Boétie, *Satire*, Adressée À Montaigne]

«إنّما عذاب الموت
أقلّ وطأة من عذاب انتظاره»

[Ovide, *Héroïdes*, V. 82]

تموت ألف دابّة ويموت ألف إنسان حال تهديدهم. وفي الحقيقة، إنّ ما نخشاه بالأساس في الموت هو الألم الذي يتقدّمه عادة.

21. لكن إذا شئنا أن نأخذ بكلام قدّيس، «فإنّ الموت لا يكون شرّا إلّا بالنظر إلى ما يتلوه» [Saint Augustin, *Cité De Dieu*, I, XI]

أضيف وأقول، بدقّة أكثر، لا شيء ممّا يسبق الموت ولا شيء ممّا يتلوه يمثّل جزءا منه. فنحن نخطئ إذن عندما نتعلّل بالألم. وإنّي أعلم بالتجربة أنّ ما يجعلنا لا نتحمّل الألم هو عجزنا عن تحمّل مجرّد ذكر الموت، كما أنّ الألم يبدو لنا حادًّا جدّا لأنّه بمثابة الإعلان عن موتنا. لكن لمّا كان العقل يبيّن لنا جُبننا إذ نخشى أمرًا يحدث فجأة، لا نحسّ به ويتعذّر الإفلات منه، كنّا نلجأ إلى تلك التعلّة، لأنّها تُغتفر.

22. نقول عن الشرور التي لا تشكّل خطرًا آخر غير ما قد تتسبّب فيه من الألم، إنّها بلا خطر علينا. إذ مهما كانت حدّة ألم الأسنان أو النقرس، وطالما أنّه لا يجرّ إلى الموت، من ذا الذي سيعتبره مرَضًا؟ ولهذا لا بدّ من التسليم بأنّ ما يزعجنا في الموت إنّما هوالألم. وكذا شأن الفقر: إنّ ما نخشاه فيه هو ما يترتب عنه من ألم، ألم العطش والجوع والبرد والحرّ والسُّهاد.

23. إذن لا شيء يهمّنا غير الألم. وإنّي إذ أقرّ بأنّه لا شيء ممّا يحدث لنا يفوقه سوءًا، أبغضه أكثر من أيٍّ كان، وأنفر منه قدر الإمكان، رغم أنّي حتّى الآن، شكرا الله، لم أتكبّده كثيرا. ولئن كنّا نعجز عن القضاء عليه، فنحن نستطيع على الأقلّ أن نخفّفه ونتعوّد عليه، كما نستطيع، رغم تأثيره في الجسم، أن نحافظ على سلامة نفوسنا وعقولنا.

24. فلو لم يكن الأمر هكذا، فمن أين ستنشأ قيم الفضيلة والمروءة والشهامة والحزم؟ كيف لها أن تلعب دورها لو لم يوجد الألم كي تتحدّاه؟

«إنّما الفضيلة ترغب في الخطر بشدّة»

[Sénèque, *De Providentia*, IV]

لو لم نُرغَم على النّوم مدجَّجين بالسلاح على الأرض اليابسة، وعلى تحمّل قيظ الظهيرة، وعلى أن نقتات من لحم الخيل والحمير، وعلى تحمّل الجروح واقتلاع رصاصة من بين عظامنا وإعادة خياطتنا وكيّنا وقسطرتنا، فمن أين سنجني تفوّقنا الذي نريد على سواد البشر؟

25. عوض أن نسعى إلى تجنّب الشرّ والألم، ينبغي أن نرغب خاصة، كما قال الحكماء، من بين الأشياء الطيّبة حقّا، في التي تطلب عناء أكثر.

«لأنّ تحصيل السعادة لا يكون بالمرح والمتعة، والضحك واللّهو، فهذه الأمور تنمّ عن خفّة العقل؛ بل غالبا ما نجدها أيضا في الحزن بفضل الحزم وقرارة النّفس»

[Cicéron, *De Finibus,* II, XX]

لذلك كان لا يمكن إقناع أسلافنا بأنّ الفتوحات التي تتحقّق في أمان تامّ عن طريق المناورات والتدابير الدبلوماسية هي أفضل من التي تتحقّق بقوّة الحرب ومخاطرها:

«تكون الفضيلة مرحة أكثر
عندما تكلّفنا غالياً»

[Lucain, IX, 405]

26. زد إليك هذا الذي قد يواسيك:

«إذا كان الألم شديدًا، كان عابرًا، وإذا دام طويلا، كان خفيفًا»

[Cicéron, *De Finibus*, II, XXIX]

لن نشعر به طويلا إن كنّا نشعر به كثيرا؛ فهو إمّا زائل، وإمّا سنزول نحن، والأمر سيّان؛ وإن لم نأخذه، أخذ منّا.

«تذكّر أنّ الموت يضع حدّا لأوجاعنا الكبيرة، وأنّ الصغيرة لا تكون مسترسلة، أمّا المتوسّطة فهي تحت سيطرتنا. إنّها إذا كانت خفيفة، تحمّلناها، وإذا كانت لا تطاق، خلصنا منها بمغادرة الحياة التي لا تروق لنا، مثلما نغادر المسرح»

[Cicéron, *De Finibus,* I, XV]

27. إنّ ما يجعل الألم لا يُطاق، هو عدم تعوّدنا على العثور في أنفسنا على راحتنا الرئيسية، وعدم الرجوع إليها كما ينبغي، مع أنّها هي وحدها التي تتحكّم في سلوكنا بإطلاق. إنّ الجسد لا يملك سوى درجات متباينة، وله سلوك واحد وموقف واحد. أمّا النّفس فهي متغيّرة جدّا وتتقمّص شتّى الأشكال. إنّها تنسب إلى نفسها وإلى أحوالها، ما يطرأ على الجسم وينطبع فيه من إحساسات. ولذلك يجب أن ندرسها ونسألها ونحرّك الدواليب القويّة التي بداخلها. فلا العقل يستطيع، ولا الإلزام والقوّة، الوقوف ضدّ ميولها واختياراتها. من بين آلاف الأعمال التي تقدر عليها، لنعمل بما يكون مناسبًا لراحتنا وسكينتنا، وإذّاك لن نكون فقط بمأمن من كلّ إصابة، بل لعلّ جروحنا وأحزاننا ستكون سببًا في مجازاتنا وإطرائنا.

28. تفيد النّفس من كلّ شيء، دون تمييز: إنّها تفيد من الأخطاء والأحلام، لأنّها تجد فيها ما قد يضمن راحتنا. ومن السهل أن نتبيّن أنّ ما ينمّي الإحساس باللّذة والألم هو حدّة أذهاننا. إنّ الدّواب، إذ تكبح أذهانها، تسمح لأجسامها بالتعبير عن إحساساتها بحرّية وبطريقة طبيعية، بحيث تكون هذه الإحساسات تقريبا هي عينها عند كلّ الأنواع، مثلما نرى ذلك من خلال تشابه سلوكها.

لو لم نُدخِل الاضطراب على أجسامنا واحترمنا قواعدها الطبيعية، لكنّا على أفضل حال، لأنّ الطبيعة منحت أجسامنا مقياسًا دقيقًا وعادلًا للّذة والألم. ولا أظنّه يكون إلّا عادلًا، طالما أنّه مشاع بين الجميع. لكن بما أنّنا تحرّرنا من قواعده وتركنا العنان لنزواتنا، لنحاول على الأقل أن نجعلها تميل نحو ما يكون أكثر إمتاعا.

29. يخشى أفلاطون من مَيْلنا الملحوظ إلى الألم واللّذة، إذ يرى فيه خضوع النّفس للجسد. أمّا أنا فإنّي أرى على العكس أنّه يخلّصها ويجرّدها منه.

كما أنّ العدوّ يزداد ضراوة عندما يشاهدنا نفرّ، فكذلك يزداد الألم غطرسة عندما يرانا نرتعد أمامه؛ وقد يكون أكثر مطاوعة مع من يقف في وجهه؛ وعلى ذلك يجب أن نقاومه بكلّ ما نملك من قوّة؛ فإن نحن تراجعنا وتوارَينا، فتحنا الطريق للهزيمة. إنّ الجسم يتصدّى للهجوم بشكل أفضل إذا تصلّب، وكذلك النّفس.

30. لنتناول الآن بعض الأمثلة، فهي خبز مبارك لأناس ضعفاء مثلي. سنرى أنّ شأن الألم كشأن الحجارة التي تتّخذ لونا باهتا أو شديد اللّمعان حسب الورقة التي توضع فوقها، وأنّه لا يحتلّ المنزلة التي نضعه فيها.

\ *«لقد تألّموا، بقدر استسلامهم للألم»*

[Saint Augustin, *Cité De Dieu*, I, X]

قد يؤلمنا موسى الطبيب الجرّاح أكثر من عشر طعنات بالسّيف عندما تحتدم المعركة. وهنالك شعوب لا تكترث البتة بآلام الولادة، التي يشهد الأطبّاء ويشهد الربّ نفسه أنّها آلام مبرّحة، وترانا مع ذلك نحيطها بعناية مفرطة. لا أتحدّث عن نساء لقيديمونيا؛ أمّا عند السويسريين، من جنودنا المشاة، هل ترون فرقا في تلك اللحظة بالذات؟ إذ تنطّ زوجاتهم في أعقابهم حاملات في أحضانهنّ الطفلَ الذي كان بالأمس في أحشائهنّ. على خلاف البوهيميات اللاتي التُقطن على الطريق، واللائي يغسلن بأنفسهنّ مواليدهنّ ويغتسلن في أقرب نهر.

31. تخفي العديد من البغايا أطفالهنّ، أثناء الحمل وعند الولادة. لكن لا بدّ أن نذكر زوجة الشريف الروماني سابينوس (Sabinus)، الجديرة بالاحترام، إذ رأت من صالح زوجها أن تلد توأميها وحيدة دون مساعدة، بلا صراخ ولا أنين.

32. اختلس صبيّ من لقيديمونيا ثعلبا وأخفاه تحت معطفه، ورغم أنّه شرع في نهش بطنه فضّل أن يتحمّل ذلك على ألّا يفتضح أمره (ذلك لأنّه، مثل ذويه، يخشى العار أكثر ممّا نخشى نحن العقاب نفسه). وكان بعضهم ينشر البخور أثناء تضحية فسقطت جمرة في كُمّ قميصه وأحرقته حتى النخاع، وتحمّل رغم ذلك كي لا يشوّش على سير الاحتفال. وقد شاهد بعضهم عددًا من الأطفال يبرهنون على ما أصبحوا عليه من شجاعة تمرّسوا عليها بفضل التربية المتقشّفة التي تلقّوها، ويصبرون على جلدهم بالسوط حتى الموت دون أن يظهر شيء على وجوههم، وذلك رغم أنّهم لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم. وقد شاهد شيشرون أفواجًا كاملة يتعاركون بالأيدي والساقين وبالأسنان حتّى الإغماء، دون أن يستسلموا ويعترفوا بالهزيمة.

«ما أمكن أبدًا للعادة وحدها أن تهزم الطبيعة، لأنّ الطبيعة لا تُهزم؛ لكنّنا بنعومتنا وملذّاتنا وكسلنا وميوعتنا أفسدنا أنفسنا؛ أفسدناها وأرخيناها بأحكامنا المسبقة وعاداتنا السيّئة»

[Cicéron, *Tusculanes*, V, 27]

33. كلّ واحد يعرف قصّة سيفولا (Scévola) الذي اندسّ في معسكر العدوّ ليغتال قائده، فلمّا فشل في مهمّته أراد أن يعيد الكرّة وأن يبرّئ وطنه بفضل حيلة مدهشة: فقد اعترف لبورسنّا (Porsenna) لا فقط بنيّة اغتياله، وإنّما أضاف أنّه يوجد في معسكره عدد كبير من الرومانيين أمثاله يشاركونه مهمّته. وكي يبرهن على بسالته، اقترب من جمرة ملتهبة وترك ذراعه يحترق في مشهد مروّع جعل عدوّه نفسه يأمر بأخذ النّار بعيدا. وما رأيكم في ذلك الذي لم يشأ أن يتوقّف عن قراءة كتابه بينما كان يخضع لعمليّة

جراحية؟ وفي ذلك الذي استمرّ في الضّحك ملء شدقيه متهكّما من تعذيب الجلّادين له، حتّى انتصر في الأخير على شراستهم وغضبهم وكلّ ما ابتكروه من أساليب الضرب والتعذيب؟ لكن كان الأمر يتعلّق هنا بفيلسوف.

34. إيه! وذلك المصارع الذي كان في خدمة قيصر، وتحمّل نبش جروحه وفتحها، وظلّ مستمرّا في الضّحك.

«هل شاهدتم مصارعا يئنّ أو يشيح بوجهه؟
هل شاهدتم من أبدى خوفه، ليس فقط وهو يصارع، بل وهو يسقط؟
هل رأيتم واحدا فقط، وهو على الأرض في انتظار الضربة القاضية، يخفي عنقه؟»

[Cicéron, *Tusculanes*, V, 27]

35. دعونا نضيف أمثلة عن النّساء. من لم يسمع عن تلك المرأة التي، في باريس، أقدمت على سلخ نفسها، لا لشيء إلّا لكي تصبح أكثر نعومة ونضارة بفضل بشرة جديدة؟ هناك من أقدمت على اقتلاع بعض أسنانها القويّة السليمة من أجل تحسين ترتيب الأسنان الأخرى، أو من أجل أن تصبح لثغاء عذبة الصّوت. كم يوجد من الأمثلة التي تشهد على احتقارهنّ للألم؟ ماذا قد يفعلن؟ ماذا يخشيْن طالما أنّهنّ يأملن في تحسين جمالهنّ؟

«يعتنين باقتلاع شعراتهنّ البيضاء،
وبفرك جلدتهنّ لتجديد بشرتهنّ»

[Tibulle, I, VIII, 45]

شاهدتهنّ يبلعن التراب والرماد ويقمن بكلّ ما يفسد معدتهنّ في سبيل أن تصبح بشرتهنّ شاحبة. وكم يتحمّلن من العذاب بسبب ما يرتدين من أحزمة ضيّقة تحدث جروحا بليغة في أجنابهنّ، بهدف أن يصبح لهنّ جسم ممشوق مثل الإسبانيات؟ فقد يصل بهنّ الأمر أحيانا إلى الموت.

36. من الشائع عند كثير من الشعوب أن يشوّه المرء نفسه طواعيّة كي يعطي وزنا للوعد الذي يقطعه على نفسه. ولقد عاين ملكُنا هنري الثالث أمثلة على هذه الممارسة في بولونيا، وكان في بعض الأحيان هو المقصود بها. إنّي أعلم أنّ بعضهم، في فرنسا، قد قلّدوا مثل هذا السلوك؛ لكن فيما يخصّني، فقد شاهدت قبل أن أعود بقليل من تلك

الولايات العامة في مدينة بلــوَا[1]، فتاة من بيكاردي (Picardie) أرادت أن تبرهن على صدق وعودها وثباتها عليها فأخذت مِخرزا كانت تحمله في شعرها وسدّدت أربع أو خمس طعنات إلى ذراعها فانفلقت جلدتها وسالت دماؤها.

37. أمّا الأتراك فإنّهم يجرحون أنفسهم جروحا غائرة كي يفوزوا بإعجاب عشيقاتهم؛ وحتى لا تزول، تراهم يضعون فوقها النّار ويضغطون عليها مدّة طويلة مدهشة، من أجل أن يتوقّف الدّم وتتكوّن ندبة. هناك أناس شاهدوا ذلك، ودوّنوه، وأقسموا لي على صدق ما رأوه. بل لا يندر أن ترى من بين الأتراك من يكون مستعدّا، مقابل عشرة فلوس، لأن يحدث جرحا غائرا في ذراعه أو فخذه.

38. أراني مسرورا بوجود شهود مثاليين على ما أقول، أجد في المسيحية الكثير منهم. ففضلا عن مثال سيّدنا المسيح، أراد الكثيرون من بعده أن يحملوا شعار الصليب ورَعًا. إنّا نعلم، بشهادة واحد جدير بالثقة التّامة، أنّ الملك سان لويس قد ارتدى قميصا خشنا إلى أن بلغ سنّ الشيخوخة وعفاه نجيّه(Confesseur) [2] من ذلك، وأنّه كان كلّ يوم جمعة يدعو كاهنه إلى جلده على كتفيه بخمس سلاسل حديدية صغيرة تُوفّر له مع ملابس اللّيل.

وقد استمرّ غليوم، آخر دوق غيينّا ووالد أليينور التي نقلت هذه الدّوقية إلى ديار فرنسا وإنجلترا، في ارتداء درع تحت ثوبه الدّيني، تكفيرا عن ذنوبه، وذلك طوال العشر سنوات أو الإثني عشرة سنة الأخيرة من حياته.

أمّا فولك (Foulques)، وهو كُونت آنجو (Comte D'anjou)، فقد ذهب حتّى القدس كي يجلده اثنان من خدمه، جاثمًا والحبل في عنقه أمام قبر سيّدنا.

ألم تشاهدوا، في أيّام الجمعة المقدّسة وفي مناطق مختلفة، عددا كبيرا من الرجال والنّساء يضربون أنفسهم ويمزّقون أجسامهم ويثقبونها حتّى العظام؟ رأيتهم أكثر من مرّة، ولم يكونوا مسحورين. كانوا يحملون أقنعة، وقيل هناك من بينهم من يفعل ذلك مقابل المال، ليشهدوا بورَع أشخاص آخرين، فيظهرون احتقارًا للألم يزداد بقدر ما تتغلّب مناخس الورع على مناخس الجشع.

39. لقد دفن كانتوس ماكسيموس ابنه الذي كان شخصيّة قنصلية، ودفن ماريوس كاتون ابنه المسمّى لمنصب القاضي الشرعي، ولوسيوس بولوس دفن ابنيه الاثنين في

---

(1) الولايات العامة لبلوَا (Les États généraux de Blois) هو اجتماع استثنائي بقيادة ملك فرنسا هنري الثالث، للنظر في مسألة الصراعات القائمة بين مختلف الطوائف الدينية.

(2) النجيّ، le confesseur: هكذا نترجم هذا اللفظ، الذي يُقصد به المرشد الدّيني، أو بالأحرى «كاهن الإعتراف» الذي يبوح له المذنب بذنوبه فيطلب له الغفران والرحمة ويكتم سرّه.

أيّام قليلة، فحافظوا على هدوئهم ولم تظهر على ملامحهم علامات الألم. كتبتُ في يوميّاتي، مازحًا، عن شخص فقدَ في يوم واحد أبناءه الشبّان الثلاثة كما لو كان ذلك بضربة قاضية، إنّه كاد أن يرى في هذه المصيبة مكافأة ونعمة من الله.

أنا لست من أولئك الذين يحملون مشاعر متوحّشة وقاسية كهذه؛ فقد فقدت أنا نفسي اثنين أو ثلاثة أطفال رُضّع، وإن كنتُ تأسّفت على ذلك، فإنّي لم أشعر بحزن عميق. ومع هذا فإنّه لا يوجد ما يؤثّر في الإنسان أكثر من هذه الحادثة. وقد توجد أوضاع محزنة أخرى، غير أنّها قد لا تؤثّر فيّ كثيرًا لو حصلت لي. بل هناك من الحوادث المفزعة لكلّ النّاس والتي قد أخجل حقًّا لو افتخرت بكوني احتقرتها لمّا حصلت لي.

«نرى بذلك أنّ الحزن لا ينشأ من الطبيعة، وإنّما من الرأي»

[Cicéron, *Tusculanes*, III, XXVIII]

40. الرأي عامل قويّ جريء لا يمكن ضبطه. من كانت رغبته في الأمان والراحة أشدّ من رغبة الإسكندر وقيصر في الاضطراب وانشغال البال؟ كان تيراس، والد سيتَلساس، يحبّ أن يقول إنّه يشعر، عندما تغيب الحروب، أنّه لا فرق بينه وبين سائس خيْله.

41. لمّا كان كاتون قنصلا على بعض مدن إسبانيا، أراد أن يؤمّنها واقتصر على منع سكّانها من حمل الأسلحة، فأقدم العديد منهم على الانتحار:

«أمّة شرسة، تأبى العيش بلا سلاح»

[Tite-Live, XXXIV, XVII]

كم من النّاس هجروا حياتهم الناعمة الهادئة، في ديارهم بين أهلهم وأصدقائهم، بحثا عن الصحاري المقفرة الموحشة، واضعين أنفسهم في ظروف مقرفة دنيئة، محتقرين بقيّة العالم، ومع ذلك كانوا راضين بوضعهم الجديد ويخيّرونه على ما سِواه؟

42. إنّ الكاردينال بورومي الذي توفي مؤخرًا في ميلانو، مُحاطا بالفجور الذي يدفعه إليه انتماؤه إلى طبقة النبلاء وثروته الطائلة والوضع السائد في إيطاليا وسن الشباب، كان يتوخّى دائمًا حياة الزهد حتّى إنّه كان يرتدي نفس اللّباس صيفًا وشتاء، وينام على التّبن، ويقضي ما يتبقّى من الوقت خارج ما تطلبه وظيفته في الدراسة دون انقطاع، جاثمًا على ركبتيه، وبجانب كتابه قليل من الخبز والماء. وكان يقتصر على هذا الطعام طوال بقائه هكذا.

43. لديّ معرفة بأشخاص استفادوا من خيانة قريناتهم Cocuage، مع أنّ مجرّد النطق

بهذه العبارة يرعب معظم النّاس. لئن لم يكن البصر أكثر حواسّنا لزوما، فهو على الأقلّ أكثرها متعة. إلّا أنّ أكثر أعضائنا إفادة وأشدّها متعة هي على ما يبدو تلك التي تصلح للإنجاب؛ ورغم هذا فإنّ الكثيرين يكنّون لها حقدًا مميتًا، لا لشيء سوى لكونها ممتعة جدًّا، ولذلك يرفضونها بسبب أهمّيتها: على منوال ذلك من أدرك أهمّية عينيه ففقأهما[1].

44. يرى العقلاء من النّاس أنّ السعادة تكون في كثرة الإنجاب. أمّا في رأيي كما في رأي بعض الآخرين، فإنّ أعظم سعادة هي في عدم الإنجاب إطلاقا.

عندما سئل طاليس لماذا لا يتزوّج، أجاب أنّه لا يريد أن يترك من بعده خَلَفًا.

45. كون قيمة الأشياء إنّما تعود إلى رأينا فيها، هذا ما نراه من خلال الكثير من الأشياء، إذ لا نقيّمها بالنظر إليها وإنّما بالنظر إلى أنفسنا. ليس ما يهمّنا صفاتها وفائدتها، بقدر ما يهمّنا ثمن امتلاكها، كما لو كان هذا الثمن جزءا من جوهرها. وإنّ ما نعتبره قيمتها ليس هو ما تقدّمه لنا وإنّما ما نمنحه لها من قيمة. ومن هنا ألاحظ أنّنا نعطي أهمية كبيرة لثمن الأشياء. فالفائدة منها مرتبطة طردا بأهمّيتها، وإنّا لا نتركها تتفاقم من دون فائدة. إنّ الشراء هو الذي يمنح الألماس قيمته، والصعوبةُ هي التي تمنح الفضيلةَ قيمتها، والألمُ يمنح الورعَ قيمته، والمرارةُ تمنح الدّواءَ قيمته.

46. أراد بعضهم[2] أن يصبح فقيرًا، فرمى أمواله في البحر، فأخذ النّاس يبحثون عنها ويصطادونها في كلّ ناحية. قال أبيقور إنّ الثّراء لا يمنحك الراحة بقدر ما يغيّر من طبيعة همومك. وصدق من قال ليست الندرة والفاقة ما يولّد البخل، وإنّما هي الوفرة. سأروي لكم تجربتي في هذا الموضوع.

47. لقد مررت بثلاثة أوضاع مختلفة منذ تجاوزت سنّ الطفولة. في فترة أولى دامت زهاء عشرين سنة، كانت وسائل عيشي مضطربة، وكنت تحت رحمة غيري متى أراد أن يساعدني، دون دخل ثابت ولا حسابات مدروسة. كنت أصرف بسرور ومن دون أن أشغل بالي بقدر ما كانت ثروتي تخضع للصُّدف. كنت في منتهى السعادة. ولم يرفض أصدقائي إعارتي المال أبدا، لأنّ قاعدتي الثابتة كانت ألّا أخلّ بموعد تسديد ديوني أبدا، فكانوا، تقديرا لسعيي إلى الإيفاء بوعدي، يؤخّرون أكثر من مرّة آجال الدّفع. وكنت في المقابل أظهر ولاء متقشّفًا ولا يخلو من بعض الغِشّ. كنت أشعر طبعا ببعض المتعة في الدّفع: كما لو أنّي أتخلّص من حمل ثقيل ومن عبودية الدَّين. كما كنت أشعر بدغدغة الرضا والانبساط كلّما أحسنتُ عملًا وأسعدت به غيري.

(1) تبدو الإشارة واضحة إلى الفيلسوف ديمقرطس.

(2) هو أرستيب (Aristippe)، حسب رواية ديوجانس اللايرسي، سِير مشاهير الفلاسفة...، II,77.

48. أضع جانبًا الدفوعات التي تتطلّب الحساب والمساومة؛ فإذا لم أجد من يتكفّل بها عوضًا عنّي، تفاديتها بخجل قدر المستطاع، لأنّني أخشى هذا النوع من النقاش الذي لا يتلاءم مع مزاجي وطريقة كلامي. إنّي لا أمقت شيئا أكثر من المساومة: إنّ في ذلك علاقة غشّ وصلافة. فبعد النقاش والأخذ والردّ ساعة كاملة، يتنازل أحد الطّرفين عن أقواله ووعوده من أجل خمسة فلوس. لذلك كنت أستدين بطريقة خاسرة، لأنّني إذ كنت لا أملك الشجاعة للمطالبة في حضور الآخر، أرجئ الأمر لوقت آخر، حتّى أحرّر مكتوبًا قد لا يجدي نفعا ويسهل رفضه. كنت إذن، في إدارة شؤوني، أفوّض أمري إلى الحظّ، وبحرّية أكثر ممّا فعلت من حينها، إلى فطنتي وإلى عناية الربّ.

49. إنّ معظم الذين يحسنون إدارة أعمالهم يعتبرون هذا النمط من العيش المريب أمرًا فظيعا. إلّا أنّهم لا يعلمون أنّ أغلب النّاس يعيشون على هذا النمط. كم من النّاس الشرفاء تخلّوا عن قناعاتهم كلّ يوم في سبيل الفوز بحظوة الملوك والسعي وراء الحظ؟ لقد لجأ قيصر إلى التّداين واقترض مليونًا من الذهب، زيادة على ما كان بحوزته، كي يصبح قيصر. وكم من التجّار بدأوا معاملاتهم ببيع محاصيل زراعتهم وإرسالها إلى بلاد الهند

«عبر البحار الهائجة»

[Catulle, IV, 18]

وفي زمن شحَّ فيه الورَع كزماننا، نرى آلاف التجمّعات تنعم بحياة هادئة في انتظار أن تجُود عليهم السماء بما يحتاجونه للعشاء.

وثانيا، إنّهم لا ينتبهون إلى أنّ هذا اليقين الذي ينطلقون منه إنّما هو غير مؤكّد وفيه مجازفة أكثر من الصدفة نفسها. إنّي أرى البؤس يكُرّ عليَّ حالما تتجاوز إيراداتي ألفي ريال. ذلك لأنّ الصّدفة قد تفتح مائة ثغرة يتسرّب منها الفقر إلى ثرواتنا، ولا تكون المسافة في الغالب أكثر من خطوة بين الثراء الفاحش والفقر المدقع.

«الثروة من بِلّور، فإذا شعّت انكسرت»

[Publius Syrus, In Juste Lipse, *Politiques*]

وهي قد تُفسد حساباتنا رغم احتراسنا وتحرّزنا.

50. غالبا ما يظهر الفقر والعوَز، لأسباب مختلفة، عند أصحاب الأملاك أكثر منه عند مَنْ لا يملكون شيئا؛ وقد يكون العَوَز أقلّ وطأة إذا نشأ بمفرده، منه إذا نشأ وسط الثروات، التي قد تتأتّى عن إدارة جيدة أكثر منه عن مداخيل حقيقية: *«كلّ واحد هو*

صانع ثروته الخاصة» [Salluste, *De Rep. Ordin.* I, 1]. إنّ الثريّ الذي يكون فاقدا لراحة البال بسبب الضغوط المالية، يبدو أكثر بؤسًا من الفقير البسيط. *«العوَز وسط الثراء إنّما هو أسوأ أنواع الفقر»* [Sénèque, *Épîtres*, LXXIV] . وإنّ أعظم الأمراء وأكبر الأثرياء، قد يضطرّهم الفقر وتقودهم الحاجة إلى أقصى الأعمال. إذ هل يوجد أقسى من أن يتحوّلوا إلى طغاة وأن يسلبوا أرزاق رعاياهم ظلمًا وبهتانا؟

51. في فترة ثانية من حياتي، أصبح عندي مال. تعلّقت به وادّخرت ما يكفي في وضعي الاجتماعي. كنت أعتبر أنّنا لا نملك حقّا سوى ما يتجاوز النفقات العادية، وأنّه لا يمكن أن نثق في أملاك لا تقدّم إلّا الأمل في الرّبح، مهما بدا الرّبح بديهيًا. إذ كنت أقول لنفسي: ماذا لو حدثت لي مصيبة أو فاجعة؟ وكنت بسبب هذه التخمينات الخبيثة التافهة أسعى إلى اتّقاء كلّ طارئ ممكن عن طريق الادّخار الزائد. فإذا عارضني بعضهم بأنّ الأحداث الطارئة لا يحصى لها عدد، لم أتوان عن الجواب بأنّ مدّخراتي، وإن لم تفِ بكلّ الحالات، فهي قد تفي على الأقلّ بعدد كبير منها. إلّا أنّي كنت أشعر بقلق مؤلم. لقد جعلت من الأمر سرّا؛ وإذ كنت سابقا لا أخشى أن أتحدّث عن نفسي، أضحيت لا آتي على ذكر أموالي إلّا بالكذب، مثلما يفعل الأثرياء عندما يدّعون الفقر، والفقراء عندما يتظاهرون بالثراء، دون أن يشهدوا بصراحة أبدا بما يملكون في الحقيقة. يا له من تحفّظ مخجل ومثير للسخرية!

52. هل ذهبتُ في رحلة؟ كان يبدو لي دائما أنّني لم أحمل معي ما يكفي من المال. وبقدر ما كنت أحمل من النقود، كنت أحمل من الخشية، بسبب الطّرق غير الآمنة، أو مدى إخلاص الذين يحملون أمتعتي التي لا أهنأ، شأن الكثيرين مثلي، إلّا إذا بقيت أمام أنظاري. هل تركتُ علبة نقودي في المنزل؟ كانت تخامرني الشكوك والظنون المؤلمة، والأمرّ هو أنّه لم يكن بوسعي أن أبوحَ بذلك؛ كانت تعتريني الوساوس؛ وإذا وازنّا بين الأمور، تبيّن لنا أنّ ربح المال أيسر من حفظه؛ فإن كنت في الواقع لا أفعل تماما كلّ ما قلته، فإنّ الإمساك عن فعله كان يكلّفني. أمّا الرفاهية، فقد كنت أتمتّع بها قليلا، ولعلّي لم أعتن بها أبدا: إذ رغم ما كنت أجده من سهولة في الإنفاق، كان ذلك يشعرني بالملل؛ ذلك لأنّه، كما كان يقول بيون (Bion)، يغضب غزير الشعر مثلما يغضب الأصلع إذا انتُزعت شعرات رأسه؛ فأنت حالما تتعوّد على ما تملكه وعلى تصوّر تكديس معيّن من الذهب، لم تعُد تمتلكه، لأنّك لن تتجرّأ على أن تنقص منه شيئا... فقد تنهار البناية تماما إذا مسستها، ولا بدّ أن تكون مضطرّا جدّا كي تفعل ذلك. كنتُ قبل أن ألجأ إلى مثل هذا الحلّ أبيع ثيابي البالية وأبيع حصاني، لأقلّ سبب وبأقلّ ندم ممّا لو كنتُ أُحدث ثغرة في كنزي المُودَع على حدة. بيد أنّ الخطر هوذا: قد يصعب أن نضع حدودًا لهذه الرغبة

في التكديس (إذ يصعب دائما أن نضع حدًا للأمور التي نراها جيّدة)، وبالتالي في تعيين حدّ للادّخار الذي نريد، فلا نتوقّف عن تضخيمه وزيادة أرقامه، حارمين أنفسنا بحماقة من التمتّع بخيراتنا الخاصة، عاكفين فقط على متعة حفظها، دون استغلالها.

53. لسبب كهذا، كان أصحاب الثروات هم الذين يتكفّلون دائما بحراسة أبواب المدينة وجدرانها. وفي تقديري، فإنّ كلّ ثريّ بخيل. لقد صنّف أفلاطون الخيرات البدنية والإنسانية كما يلي: الصحّة، الجمال، القوّة، الثراء؛ وقال إنّ الثراء ليس أعمى، وإنّما هو على العكس بصير جدًا إذا ما اقترن بنور الحكمة. وفي هذا السياق، أتى دونيس الأصغر (Denys Le Jeune) أمرا محمودا: بلغه أنّ شخصًا من سراقوسة أخفى كنزًا في التراب، فأرسل إليه كي يأتيه به؛ أطاعه هذا الشخص، غير أنّه احتفظ لنفسه بجزء من الكنز وقصد بلدة أخرى وأخذ ينفق ما عنده بعد أن فقدَ عادة الخزن والتكديس، فعلم دونيس بالأمر وأعاد إليه ما أخذ منه من الكنز قائلا إنّه يرجعه إليه طالما أنّه أصبح يحسن استعماله.

54. عشتُ بعض السنوات مهووسًا بالمال، إلى أن ساعدني جنّيّ على الخروج من هذه الحالة، كشأن الرجل السراقوسي، فأخذت أنفق ما جمعتُ: كان ذلك بمناسبة رحلة ممتعة باهظة الثمن، حيث رميت عرض الحائط بعادتي الغبيّة. وعلى إثر ذلك، بدأتْ المرحلة الثالثة في حياتي، وهي (أقولها كما أحسّها) بلا شكّ أكثر بهجة وأشدّ تنظيما، لأنّي أصبحت الآن أوازن بين نفقاتي ومداخيلي. تارة تفوق مداخيلي نفقاتي، وطورًا العكس، لكنّها تبقى عموما متقاربة. أعيش بالتقسيط، وأقتصر على إرضاء حاجاتي الحاضرة والعادية، لأنّ كلّ مدّخرات العالم لن تكفي لسدّ الحاجات الخارقة للمألوف. ومن الجنون أن ننتظر من الصّدفة أن تحمينا من نفسها. يجب أن نقاومها بأسلحتنا الخاصة، لأنّ الأسلحة التي تمنحها لنا قد تخدعنا في اللحظة الحاسمة. إذا ادّخرتُ بعض المال، كان ذلك بغرض إنفاقه قريبًا؛ ليس في شراء الأراضي، إذ لا شغل لي بذلك، وإنّما في تحقيق ملذّاتي. «*إنّ تغلّبك على الجشع يجعلك ثريّا، وإنّ انتصارك على هوس الشراء يحقّق لك مدخولا* »[Cicéron, *Paradoxes*, VI, 3]. إنّي لا أخشى أن تنقص أملاكي ولا أرغب في زيادتها. «*إنّا في الوفرة نجد ثمرة الثروات، وفي الشبع نجد معيار الوفرة* »[Cicéron, Paradoxes, IV, 2] . كم أنا سعيد بأنّ هذا النمط من التفكير راودني في سنّ ينزع فيه المرء عادة إلى البخل! هكذا أكون بمنأى عن ذلك الجنون الشائع بين الشيوخ، وعن أكثر تصرّفات البشر سخافة.

55. لقد انتقل فيرولاس (Phéraulas)، في كتاب *سيروبيديا* (*Cyropédie*) لكزينوفون، من المرحلتين اللّتين ذكرتهما، ووجد أنّ مضاعفة أملاكه لا يزيد في رغبته في الشرب والأكل والنّوم وتقبيل زوجته. كما أحسّ مثلي، من جهة أخرى، بثقل العناية

بأملاكه، فقرّر أن يُسعِد بها شابّا فقيرًا كان صديقًا مخلصًا له وكان يلهث وراء المال، فأهداه ثروته الطائلة، وحتّى ما كان بصدد جمعه يوما بعد يوم من عطايا مولاه سايروس طيّب القلب، وأيضا من الحرب. وكان شرطه الوحيد أن يلتزم صديقه بإيوائه وإطعامه وأن يؤمّن معاشه بصدق. منذ تلك اللحظة، عاشا سعيدَين، راضيَيْن بالتحوّل الحاصل في وضعهما. هذا ما أودّ كثيرا أن أنسج على منواله.

56. أنا معجب جدّا كذلك بما أتاه أُسقف عجوز، إذ تخلّى بكلّ بساطة عن ثروته ومداخيله وملابسه، تارة لصالح خادم اختاره وطورا لصالح شخص آخر، وقضّى هكذا سنوات طويلة من حياته لا يعرف شيئا عن شؤونه وأعماله كما لو كانت غريبة عنه. أن تثق في طيبة غيرك، فهذه شهادة قويّة على طيبتك أنت، وبالتالي فإنّ الله يرضى بما تفعل. وبالنّسبة إلى الأسقف الذي ذكرتُ، فإنّي لا أرى منزلًا تُدار شؤونه بانتظام وجدارة مثل منزله. طوبى لمن دبّر حاجياته فأحكم تدبيرها، فرضي بثروته ولم يشغله ماله عن مهامّ أخرى أكثر ملاءمة وأكثر هدوءًا وأقرب إلى قلبه!

57. يتوقّف الغنى والفقر على نظرتنا؛ فلا الأموال ولا الأمجاد ولا الصحّة تكون جميلة أكثر وممتعة أكثر ممّا قد نرى فيها من جمال ومتعة. يكون كلّ واحد على أفضل حال أو أسوأ حال وفق ما يراه؛ ولا يكون سعيدًا بوضعه ذلك من نظنّه سعيدًا، وإنّما مَنْ يعتقد هو بالذات أنّه سعيد. في هذا فقط، يصبح الاعتقاد واقعًا وحقيقة.

58. إنّ القدَر لا يحسن إلينا ولا يسيء؛ إنّه يوفّر فقط للنّفس، وهي أكثر منه اقتدارًا، المادّة والمناسبة كي ترتّبهما كما يحلو لها؛ فهي وحدها سيّدة وضعها وحالها، أكان سعيدًا أم بائسًا. إنّ التأثيرات الخارجية تستمدّ طعمها ولونها من طبيعتنا الداخلية، تماما كالثياب التي لا تُدفئنا بحرارتها الخاصة وإنّما بفضل حرارتنا نحن، إذ هي جُعلت لإبقاء تلك الحرارة وحفظها. وإنّ من يغطّي جسمًا باردًا يحصل على النتيجة نفسها: فهكذا يُحفظ الثلج والجليد.

59. مثلما تكون الدراسة أمرًا شاقًا في نظر الكسول، والإمساك عن شرب الخمر عذابًا في نظر السكّير، فإنّ الزهد يكون تنكيلًا بالنّفس في نظر الفاسق، وتكون ممارسة الرياضة عذابًا في نظر رجل رقيق خامل، وكذا شأن بقيّة الأشياء. فالأشياء ليست في ذاتها لا مؤلمة ولا عسيرة، وإنّما هكذا تكون بسبب ضعفنا وجبننا. وحتّى نحكم على الأشياء المهمّة والرفيعة، ينبغي أن تكون أنفسنا من نفس طينتها، وإلّا أضفينا عليها عيوبنا ونقائصنا. يبدو المجداف المستقيم معوجًا في الماء؛ فالمهمّ ليس الشيء ذاته، وإنّما الطريقة التي نراه بها.

60. لكن لماذا لا نجد من بين مختلف الخطب التي تقنع النّاس بازدراء الموت وتحمّل الألم خطابا واحدا يلائمنا؟ ولماذا، من بين كلّ الاستدلالات الجميلة التي نجحت عند الآخرين، لا يطبّق كلّ واحد على نفسه الاستدلال الأفضل الذي يناسب طبعه ومزاجه؟ فإذا كان لا يهضم المخدّر الجذري القويّ الذي يقضي على الألم، فليتناول على الأقلّ مخدّرا لطيفا ليخفّف منه.

«يسيطر علينا حكم مسبق تافه وأنثويّ، في الألم كما في اللّذة، فتجعلنا ميوعتنا لا نتحمّل ونصيح لمجرّد لدغة نحلة. إنّما كلّ أمر يعود إلى قدرتنا على ضبط أنفسنا»

[Cicéron, *Tusculanes*, II, XXII]

وعموما فإنّنا لا نفلت من الفلسفة بالمبالغة في ذكر وطأة العذاب وضعف الإنسان، لأنّنا هكذا نجعلها تلجأ إلى هذه الردود التي لا تُقهر:

«إذا كان سيّئًا أن نعيش في الاحتياج، فلا ضرورة للعيش في احتياج»

«لا أحد تطول مصيبته إلّا بخطإ منه. إنّ من لا يملك الشجاعة كي يتحمّل الحياة والموت، وكي يبقى أو يغادر، فبماذا يمكن أن نساعده؟»

الفصل الحادي والأربعون

لا تنتقل سمعتك إلى شخص آخر غيرك

1. لعلّ أكبر حماقة في هذا العالم وأوسعها انتشارًا وشيوعًا بين النّاس هي تلك التي تتمثّل في كثرة انشغالنا بسمعتنا الخاصّة، حتّى إنّنا نترك ثرواتنا وراحتنا وصحّتنا وعيشنا، وهي أمور مادّية وواقعيّة حقّا، ونلهث وراء مجرّد صورة خيالية ومجرّد كلمة لا مضمون لها ولا فحوى.

«الشهرة التي تسحر بصوتها الرقيق معشر الآدميين
وتبدو لهم في غاية الجمال، هي حلم وصدى،
بل هي خيال يتبدّد ويتقشّع بهبوب أقلّ الرياح»

[Torquato Tasso, *Jérusalem Délivrée*, XIV, 63]

ومن بين كلّ التصرّفات الخرقاء، يبدو أنّ الفلاسفة أنفسهم يجدون صعوبة في النّأي بأنفسهم عن مثل هذا التصرّف.

2. هذه الحماقة هي أيضًا أشدّها فظاظة وعنادًا: «*لأنّها لا تنفكّ تغري حتّى أولئك الذين تقدّموا أشواطًا في طريق الفضيلة*» [Saint Augustin, *Cité De Dieu*, V, XIV]

ولئن كان لا يوجد ما يشهد العقل بتفاهته أكثر منها، فهي تظلّ مع ذلك متأصّلة فينا بشدّة، حتّى إنّي لا أظنّ أنّ أحدا استطاع أن يتخلّص منها حقّا. إذ عندما يبدو أنّك عقدتَ العزم على تجاوزها وانتهى الأمر، تجدك مدفوعًا إليها رغم أنفك بدافع عميق لا يمكن صدّه. فكما قال شيشرون، أولئك أنفسهم الذي يحاربونها في كتبهم، يريدون تنزيل أسمائهم في صدارة هذه الكتب؛ إنّهم يريدون أن يغنموا الشهرة من خلال احتقارهم لها.

3. كلّ الأشياء الأخرى تقبل أن نعيرها إلى غيرنا؛ فقد نضع أملاكنا وحياتنا في خدمة أصدقائنا إذا اقتضى الأمر ذلك؛ أمّا أن نهدي إلى غيرنا شرَفنا وسمعتنا، فهذا ما لا يمكن أبدًا... في حربه ضدّ السمبريين (Les Cimbres)، وبعدما عجز عن منع جنوده من الفرار أمام العدوّ، تظاهر كاتولوس لُكتاتيوس (Catulus Luctatius) بالخوف مثلهم، واختلط بالهاربين حتى يبدو كأنّهم يتبعون قائدهم وينسحبون معه. لقد آثر أن يسيء إلى سمعته وألّا يَلحق العار جنوده.

4. عندما همّ الإمبراطور شارلكان بالمرور إلى البروفانس (Provence)، عام 1537، يُروى أنّ أنطوان دي لاف (Antoine De Lhève)، إذ رآه عاقدًا العزم على هذه الحملة وقدّر أنّها ستحقّق له المجد، وقف رغم ذلك ضدّها ونصحه بعدم خوضها، وذلك حتّى يعود شرف العزم والقرار إلى الإمبراطور نفسه، وحتّى يقال إنّ سيّده كان صائبًا في رأيه وحكمه وإنّه، وحده ضدّ الجميع، نجح نجاحًا باهرًا في حملته؛ بمعنى أنّه سعى إلى شرف سيّده ومجده، على حسابه الخاص.

5. عندما همّ سفراء تراقيا (Thrace) بمواساة أرشيليونيد (Archileonide) على موت ابنها براسيداس (Brasidas) وشرعوا يتغنّون بمآثره وزعموا أنّه لا مثيل له، رفضت مدحهم لشخصه وأرادته أن يكون مدحًا عامًّا فصدحت بما يلي: «*كلّا، لأنّي أعلم أنّه يوجد في إسبرطة مواطنون يفوقونه فتوّة وشجاعة*».

وفي معركة كريسي (Crécy)، كان أمير ويلز، وهو لا يزال شابًا يافعًا، في طليعة جيشه، وكان هو من تحمّل الهجوم الرئيسي في المعركة. فلمّا رأى اللّوردات الذين يصطحبونه أنّهم في وضع دقيق، استنجدوا بالملك إدوارد، فسألهم عن حالة ابنه، فلمّا علم أنّه لا يزال حيًّا راكبًا فرسه، قال: «*قد أسيء إليه لو تحرّكت الآن وسرقت منه شرف الانتصار في هذه المعركة إذ صمد فيها طويلا. فمهما تعرّض له من الخطر، فإنّ هذا الانتصار سيكون انتصاره*». لم يشأ أن يذهب لمساندة ابنه ولم يرسل أحدا، إذ لو فعل، لقيل إنّ المعركة كانت خاسرة لولا تدخّله، ولكان فخر الانتصار من نصيبه هو وحده.

«*ذلك لأنّ التعزيزات الأخيرة تبدو دائما هي السبب الوحيد للنّصر*»
[Tite-Live, XXVII, XLV].

6. في روما، كان في اعتقاد الكثيرين، بل كان بعضهم يتفوّهون بذلك صراحة، أنّ مآثر سكيبيو الرئيسية تعود في جزء منها إلى لِلِيوس (Lélius) مع أنّه لم يدّخر جهدا لتبريز سكيبيو وتمجيده، على حساب مجده الشخصي. وكذلك في نفس السياق أجاب ثيوبومب (Théopompe)، ملك إسبرطة، ذلك الذي كان يزعم أنّ المجتمع يقوم على أكتافه لكونه يحسن الحكم والتدبير، بأنّ «*الأصحّ هو أن يقول إنّ الجمهور يحسن الطاعة*».

7. كما أنّ النّساء اللّائي يتولّين مناصب في مجلس النبلاء يملكن الحقّ، رغم جنسهنّ، في حضور الحصص القضائية مع أقرانهم وإبداء رأيهنّ، فكذلك يكون من واجب النبلاء الكنسيين، رغم مناصبهم، أن يعاونوا الملوك في حروبهم، ليس فقط بتشريك أصدقائهم وخدَمهم، وإنّما أيضا بمشاركتهم شخصيّا. كان أسقف بلدية

بوفي (Beauvais) صُحبة فيليب أوغسط في حرب بوفين (Bouvines)، واستبسل معه في المعركة، لكن بدا له مع ذلك أنّه لم يكن يستحقّ أيّ مقابل عمّا بذله من جهد دمويّ عنيف. وقع في أسره، يومذاك، الكثير من الأعداء، فوضعهم بين يدي أوّل نبيل اعترضه كي يذبحهم أو يأسرهم أو يفعل ما يشاء. هذا ما فعله مثلا بالكونت غليوم دي سالزبوري (Guillaume De Salisbury) إذ استودعه إلى السيّد جان دي نسل (Jean De Nesles). كان يقاتل بحيلة تتمثّل في الضرب بلطف دون إلحاق أذى، وإذّاك لم يستعمل إلّا نوعًا من السلاح. أذكر أنّ شخصا عاتبه الملك لكونه رفع يده على كاهن، فأنكر ذلك بشدّة وقال إنّه ضربه حتى الموت ركلا بقدميه فحسب...

الفصل الثاني والأربعون

عن التفاوت بين النّاس

1. قال بلوتارخوس إنّ المسافة بين حيوان وحيوان ليست أكبر من المسافة بين إنسان وإنسان. كان يقصد القيم الرّوحية والخصال الباطنية. وفي الحقيقة، إنّي أرى مسافة شاسعة بين إيبامينونداس كما أتخيّله وبين أيّ إنسان آخر، حتّى أنّي لا أتوانى في تعزيز كلام بلوتارخوس، وأقول إنّ المسافة بين إنسان وإنسان هي أكبر من المسافة بين إنسان وحيوان.

«آهٍ ! كم من المسافة بين إنسان وآخر !»

[Térence, *Eunuque,* II, 2]

وأعتقد أنّه يوجد من مستويات الأذهان بقدر ما يوجد من باع من هنا حتّى السّماء.

2. وفيما يتعلّق بتقديرنا للأشياء فإنّنا، إذا استثنينا أنفسنا، لا نحكم على شيء إلّا بالنظر إلى خصاله الذاتية. فنحن نمدح قوّة الفرس ومهارته، ولا نمدح سرجه،

«إنّا نمدح الفرس لسرعته وفوزه بالجوائز،
ولانتصاراته في الملعب والتصفيق له»

[Juvénal, VIII]

وإنّا نمدح الكلب السّلوقي لسرعته، وليس للعِقد الذي في رقبته؛ والصقر المدرَّب لتحليقه في الفضاء، وليس لأحزمته وأربطته.

3. فعندما يتعلّق الأمر بالإنسان، لماذا لا ننسج على نفس المنوال ولا نقدّره حقّ قدره؟ إنّه يعيش في البذخ، ويملك قصرًا بديعًا، واعتمادات وإيرادات طائلة: فكلّ هذه الأشياء تقوم خارجه، لا في شخصه بالذات. إنّك لا تشتري قطًّا من دون أن تراه؛ وإنّك لا تساوم في شراء حصان من دون أن تنزع عنه سرجه وتكشف عليه عاريا؛ وإذا جُعل له غطاء، كما عند بيعه للأمراء قديمًا، يجب أن يُسدل على الأجزاء الأقلّ أهمّية، حتّى لا يُنظر إلى جمال شعره أو ردفه العريض بقدر ما يقع التركيز على قوائمه وعينيه وحوافره، لأنّها الأهمّ.

«جرت العادة عند الملوك،
إذا أقدموا على شراء جواد،
فحصوه عاريا، حتّى إذا
كان جميل المـحيّا رخو القدم،
لا يغـرّهم لا ردفه الجميل ولا
خطمه المليح ولا عنقه الفاخر»

[Horace, *Satires*, I, II, 86]

4. لماذا إذن تحكمون على إنسان وهو ملفوف محزوم؟ فهو لا يُظهر سوى العناصر التي لا تنتمي إليه، ويخفي التي تسمح وحدها بتقديره حقّ قدره. إنّ ما تريدونه هو ثمن السّيف، لا ثمن الغمد؛ وربّما لن تدفعوا مقابل الغمد فلسا واحدا إذا نزعتم منه السّيف. وكما قال أحد القدامى مازحًا [Horace, *Satires*, I, 2]: «*أتعلمون لماذا يبدو لكم طويلا؟ ذلك لأنكم تحسبون أيضا نعله العالي*». إنّ قاعدة التمثال ليست هي التمثال. قيسوا ارتفاع ذلك الرجل من دون عكاكيزه؛ دَعوا جانبا ثرواته وألقابه، وليتقدّم بمجرّد قميصه: فهل أنّ جسمه يؤدّي وظائفه، وهل يتّسم بالنشاط والصحّة والعافية؟ ما هي طبيعة روحه؟ هل هي جميلة رفيعة مفعَمة بكلّ عناصرها؟ هل هي غنيّة بذاتها أم بغيرها؟ هل أسعفها الحظّ في ذلك؟ هل هي لا تخشى مواجهة السّيوف المسلولة أمامها؟ هل يهمّها إذا كانت ستغادر من الفم أم من الحنجرة؟ هل أنّها واثقة من نفسها، هادئة راضية بمصيرها؟ ذاك ما ينبغي أن نسأل عنه، وما يسمح بفهم الفوارق القصوى القائمة بيننا.

5. «هل هو رجل حكيم وسيّد نفسه؟
هل هو من طينة لا يخلخلها الخوف
لا من الفقر ولا من الموت ولا من الأغلال؟
هل يقدر على مقاومة أهوائه وازدراء الأمجاد،
وعلى البقاء متقوقعًا على نفسه ملتفًا
مثل كرة تزلق من فوقها الأشياء
وتتصدّى لضربات الدّهر العمياء»

[Horace, *Satires*, II, VII, 83]

رجل كهذا يكون خمسمائة باعًا فوق الممالك والدّوقيات: إنّه مملكة نفسه.

«*إنّما الحكيم هو صانع سعادته الخاصّة*»

[Plaute, *Trinummus*, II, 2,84]

6. ماذا بقي له أن يرغب؟

«ألا نرى أنّ الطبيعة لا تطلب منّا غير
جسم خال من الألم وروح هانئة
لا تعتريها الهموم والمخاوف؟»

[Lucrèce, II, 16]

قارنوا بينه وبين واحد من عموم النّاس، أحمق فظّ دنيئ مرتبك خاضع باستمرار لزوبعة أهوائه التي تدفعه يمينا يسارا، تابعًا لغيره تماما: لا ريب أنّ المسافة بينهما تفوق المسافة بين السماء والأرض. ومع هذا فإنّ العمى الذي ابتلانا قد يجعلنا لا نهتمّ، أو قلّما نهتمّ. فعندما نكون إزاء فلّاح وملك، أو إزاء أحد النبلاء وآخَر من الدّهماء، أو قاض ورجل من العامّة، أو ثريّ وفقير، قد نظنّ أنفسنا أمام أقصى الاختلاف والتنوّع، والحال أنّهم لا يختلفون سوى في المظهر.

7. في تراقيا، كان الملك يميّز نفسه عن شعبه بطريقة خاصّة وجدُّ طريفة؛ كانت له ديانة له وحده! إلهٌ يعبده هو فقط دون سواه، وليس من حقّ رعاياه أن يعبدوه: هو عُطارد. وكان يحتقر آلهتهم: مرّيخ، باخوس، ديانا.

إلّا أنّ هذه خيالات، ولا تُبنى عليها فروق جوهريّة بين البشر. فكما يصعد الممثّل على الرّكح ويتقمّص شخصية الدّوق أو الإمبراطور، ثمّ يعود بعد ذلك إلى وضعه الطبيعي الأصلي، خادمًا أو حمّالًا بائسًا، فكذلك حال الإمبراطور الذي يبهر الجمهور بأُبّهته،

«لأنّه يحمل زمرّدا لمّاعًا كبيرًا مرصّعا بالذهب، ويلبس ثوبا بلون البحر بلّلته الربّة فينوس بعرقها»

[Lucrèce, IV, 1126]

8. إذا رأيته من وراء الستار، بدا لك كأيّ من النّاس، بل ربّما بدا لك أحقر من أيّ واحد من رعاياه.

«ذاك يكون راضيا عن نفسه؛ وذاك لا يدرك سوى متعة سطحية»

[Sénèque, *Lettres*, CIX Et CXV]

إنّه ككلّ شخص آخر، يحرّكه الجبن والحيرة والطموح والغيظ والحسد،

«فلا الكنوز ولا حكومة القناصل
تبدّد عذابات الفكر الأليمة والهموم

التي ترفرف حول اللوائح الذهبية»

[Horace, *Odes*, II, XVI, 9]

يجتاحه الخوف وتساوره الهموم، ولو كان قابعا بين جنوده،

«فلا ريب أنّ مخاوف النّاس وهمومهم
لا تختفي عندما يقعقع السّلاح وتقتل السّهام،
بل تبقى قـيّـمة بين الملوك والعظام،
دونما احترام للذهب وبريقه...»

[Lucrèce, II, 48]

9. هل هو معفى، على العكس منّا، من الحمّى والصّداع والنّقرس؟ وعندما يهرم ويتقوّس ظهره، هل سيعيد له حرسه الرّماة استقامته؟ وعندما تقرب المنيّة وينتابه الخوف، هل سيطمئنه حضور أهل بيته من النبلاء؟ وعندما يهيج بسبب الحسد أو نزوة من النزوات، هل أنّ نزع قبّعاتنا إجلالا له سيعيد له الهدوء؟ إنّ مظلّة سريره المرصّعة بالذهب واللّؤلؤ لا تستطيع أن تخفّف من المغص الحادّ الذي يشعر به:

«وإنّ الحمّى الحارقة لن تزول بسرعة أكثر
وأنت ممدود على أقمشة مطرّزة أو أرجوانية
ممّا لو كنت مستلقيًا على فراش بسيط».

[Lucrèce, II, 34]

10. أراد المتملّقون للإسكندر الكبير إيهامه بأنّه ابن الربّ جوبيتر؛ أصيب ذات يوم بجرح، فأخذ الدّم يسيل منه فصاح قائلا: «ما قولكم إذن؟ أليس هذا دمًا آدميًا قرمزيًا؟ إنّه ليس من صنف الدّم الذي يسيل من جروح الآلهة، كما صوّره هوميروس».

لقد نظّم الشاعر هرمودور (Hermodore) أبياتا على شرف أنتيغونوس (Antigonos)، وفيها ناداه بـ«ابن الشمس». فكان ردّ أنتيغونوس كالآتي:»إنّ من يُفرغ مقعدي المثقوب في بيت الخلاء يعلم جيّدا أنّ هذا غير صحيح». فالإنسان إنسان، وكفى. وإذا وُلد بخصال قبيحة، فإنّ سيّد الكون نفسه لن يغيّر ما به أبدا.

«لتتخاصم الفتيات من أجله،
لتنشأ الورود تحت أقدامه في كلّ مكان»

[Perse, II, 38]

فما الفائدة إذا كان غليظ الطبع غبيّا؟ إنّه لا متعة ولا سعادة دون ذكاء وحزم.

«*قيمة الأشياء تقاس بفؤاد صاحبها،*
تكون خيرا عند من يحسن تدبيرها،
وتكون شرّا عند الذين لا يحسنون»

[Térence, *Hautontimorumenos,* I, III, 21]

11. الخيرات التي تكون وليدة الصدفة، مهما كان نوعها، ينبغي أن أحسّ بها حتّى أتمتّع؛ ذلك لأنّ التمتّع ليس مجرّد الامتلاك، بل هو ما يجعلني سعيدا.

«*ليست الدّيار والأراضي،*
ولا كومة البرونز أو الذهب،
عندما أكون طريح الفراش،
ما يطرد الحمّى من جسدي،
ويزيل الهموم من نفسي.
لا بدّ من الصحّة والعافية،
للاستمتاع بخيرات الدّنيا،
وإذا آلمتنا الرغبة وعذّبنا الخوف،
أضحت الدّيار والخيرات
كاللّوحات أمام الأعمى
وكالمرهم عند المصاب بالنّقرس».

[Horace, *Épîtres,* I, II, 47]

12. خذوا غبيّا، فإنّ ذوقه يكون بليدًا مبهما. إنّه لا يستمتع بما لديه من الخيرات، كمثل المزكوم الذي لا يتذوّق عذوبة النبيذ الإغريقي، أو الحصان الذي لا يدرك قيمة السرج الذي زُيّن به. وكما قال أفلاطون، إنّ الجمال والقوّة والأموال وكلّ ما نسمّيه خيرًا، قد يكون شرّا عند الظالم وخيرا عند العادل، والعكس بالعكس.

وإذا كان الجسم والروح في حالة سيّئة، فما الفائدة من تلك المزايا الخارجية، والحال أنّ أقلّ وخز إبرة، وأقلّ انفعال، قد يكفي ليجرّدنا من متعة الحياة؟ مهما كانت فخامة الملك وجلالته،

«*ومهما عبّأ من الفضّة والذهب*»

[Tibulle, I, II, 71]

ألا يحدث له أن يفقد ذكرى قصوره وعظمته؟ وإذا استشاط غضبا، هل سيمنعه

مركزه الملكيّ من الاحمرار والشحوب واصطكاك أسنانه كالمجنون؟ أمّا إذا كان صاحب فطنة وذكاء، فإنّ منزلته كملك لن تضيف إلى سعادته كثيرا:

«إذا كانت المعدة على أحسن حال،
وكذا شأن الرئتين والقدمَيْن،
لن تزيدكم ثروات الملوك سعادة»

[Horace, *Épîtres*, I, 12]

إنّه يرى في ذلك زيفًا وبُطلانًا. وقد يكون من رأي الملك سلوكوس (Seleucus) الذي قال إنّ من يعرف وزن الصولجان قد لا يفكّر في أخذه متى وجده ملقى على الأرض.

13. بالتأكيد، ليس من الهيّن أن نسعى إلى تنظيم سلوك غيرنا، لا سيّما أنّنا نجد صعوبة جمّة في تنظيم سلوكنا الخاص. بيد أنّ الحُكم يبدو أمرًا ممتعًا جدًّا. لكن عندما أعتبر حماقة الإنسان وصعوبة الاختيار بين المستجدّات مجهولة المصير، أقف مع الذين يعتقدون أنّ هناك سهولة أكثر وراحة أكبر في اقتفاء خطوات غيري ممّا في قيادته، وأنّ فكري يكون في غاية الاطمئنان عندما يُرجى منّي فقط أن أبقى على الصراط المستقيم، وعندما لا أكون مسؤولا إلّا عن نفسي.

«من الأفضل كثيرا أن تطيع في اطمئنان،
من أن ترغب في الإمساك بزمام الدولة»

[Lucrèce, V, 1526]

أضف إلى ذلك ما قاله سايروس: وحده يستطيع أن يحكم الآخرين من كان أفضل منهم وأرفع.

14. لكن قد نقرأ فيما ألّفه كزينوفون أنّ الملك هيرون (Hiéron) ذهب إلى أكثر من ذلك لمّا إقرَّ بأنّ أمثاله عاجزون عن التمتّع بملذّات الدّنيا على غرار عامّة النّاس، لأنّ رغد عيشهم يحرمهم من النكهة الحامضة-الحلوة التي نجدها في الأشياء عمومًا.

«ينفّر العشق عندما يصبح واثقا من نفسه ويشبع،
مثلما تملّ المعدة من إفراط الطعام وتُنهَك»

[Ovide, *Amours,* II, XIX, 25-26]

15. أتعتقدون أنّ أطفال الخورس المرتّلين في الكنيسة يجدون متعة حقيقية في الإنشاد؟ لا شكّ أنّهم يتخمون من ذلك ويسأمون. قد يحلو الرّقص ويطيب الطعام،

وقد تبعث المباريات والمحافل التنكّرية السرور والبهجة في النّفوس التي لم تتعوّد عليها وما انفكّت ترغب فيها؛ أمّا في نظر الذي يكون متعوِّدا عليها، فهي تكون تافهة، بل قد تبعث على الاشمئزاز: فالمرأة مثلا لا تثير من تعوَّد على جماعها كلّما أراد... وإنّ من لم يشعر أبدا بالعطش لن يجد متعة كبيرة في الشرب. وقد تروق لنا مُزَح البهلوانيين، أمّا في نظرهم فهي عمل كادح. وقد يحتفل الأمراء ويجدون متعة كبيرة في التنكّر والتسفّل على غرار الدّهماء.

«*تغيير نمط العيش قد يبعث البهجة في نفوس العظماء:*
طعام نظيف بسيط، دون أرجوان ولا حصير،
في بيت فقير، تزول فيه التجاعيد وتنبسط الأسارير»

[Horace, *Odes*, III, XXIX, 25-26]

16. لا شيء يسبّب النّفور والملل أكثر من الغزارة والوفرة. أيّ رغبة لا ينهكها إشباع ثلاثمائة امرأة، كما في حريم السلطان التركي؟ أيّ رغبة وأيّ متعة كان يشعر بها أجداده عندما كانوا يخرجون للصّيد صحبة سبعة آلاف صقّار على الأقلّ؟ أعتقد أنّ هذه الفخامة الباهرة لا تخلو من العيوب، وقد تُفسد كلّ متعة، لأنّها بارزة جدّا وعلى مرأى ومسمع من الجميع. قد يُطلب منهم حقّا أن يخفوا خطاياهم ويستتروا؛ لأنّ ما قد نرى فيه نحن مجرّد إفراط وتهوّر، قد يراه الجمهور طغيانًا، واستخفافًا بالقوانين واحتقارًا لها. وفضلا عن نزوعهم إلى الرذيلة، كانوا يستمتعون بخرق القواعد المشتركة ودوسها تحت الأقدام. صحيح أنّ أفلاطون، في كتاب غورجياس، قد عرّف الطغاة بأنّهم أولئك الذين يحقّ لهم أن يفعلوا في مدينتهم ما يشاؤون؛ ولعلّ هذا ما يفسّر كون عرضهم لخسائسهم أمام كلّ النّاس قد يولّد الاستياء في الغالب أكثر من هذه الخسائس نفسها.

17. يخشى كلّ النّاس أن تقع مراقبتهم والتجسّس عليهم؛ ويقع التجسّس على العظماء حتّى في أعمالهم وأفكارهم، إذ يرى الجمهور أنّ ذلك من حقّه. وكما أنّ البقع تبدو أكبر إذا كانت عالية وتحت نور ساطع، فكذلك تبدو عندهم الوحمات البسيطة أو البثور على الجبين أكثر فظاعة من الندبة في وجوه الآخرين.

لذلك يزعم الشعراء أنّ الإله جوبيتر كان في مغامراته الغرامية يتقمّص وجها آخر غير وجهه؛ وفي كلّ المغامرات المنسوبة إليه، لم يظهر على حقيقته، بكامل عظمته وفخامته، إلّا في مناسبة واحدة لا غير.

18. لكن لنعُد إلى هييرون: لقد قال أيضا إنّه يجد وضعه كملك مُعيقًا جدّا، إذ لا يستطيع أن يسافر بحرّية، كما لو كان سجينًا في حدود بلده، رهين مضايقة الجمهور في

كلّ لحظة. عندما أرى أحد العظماء وحيدًا على الطاولة، لكن محاصَرًا بحشد من النّاس يخاطبونه ويمعنون فيه النظر، فإنّي لا أحسده بقدر ما أرثي لحاله.

كان الملك ألفونس يقول لعلّ الحمير أسعد من الملوك: إذ يتركها سيّدها ترعى كما يحلو لها، بينما لا يستطيع الملوك أن يتحرّروا حتّى من خدمهم. ولم يجُل بخاطري أبدا أنّ رجلا مثقّفًا قد يرى بعض الفضل في أن يراقبه عشرون شخصا بينما يكون في بيت الخلاء على كرسيّه المثقوب؛ أو أنّ خدمة إنسان يملك إيرادات بعشرة آلاف ليرة، أو احتلّ مدينة كازال أو دافع عن مدينة سيينا، هي أقرب إليه وأفضل من الخدمة التي يقدّمها له خادم جيّد ذو خبرة واسعة.

19. تكاد تكون المزايا التي يتمتّع بها الأمراء في معظمها خياليّة. ففي كلّ درجة من الدرجات الاجتماعية، نجد بعض التشابه مع وضع الأمراء. كان قيصر، في زمانه، يسمّي «مُلَيْكًا» كلّ مولى يكون له حقّ القضاء بين النّاس. وفعلا فقد سمّى الكثيرون أنفسهم «ملوكا» بدلا من «أسياد»، حبّا في العظمة. انظروا إلى المقاطعات البعيدة عن البلاط، كمقاطعة بريطانيا مثلا، وما يتوفّر فيها للمولى الذي يعيش منعزلًا ملازمًا بيته، حيث شبّ وسط خدَمه، من حاشية ورعايا وضبّاط وموظّفين وخدم ومراسم. وتأمّلوا أيضا كيف يشتغل خياله: فهو يعتقد أن لا أحد يفوقه مَلَكيّة؛ وتصله الأخبار عن سيّده مرّة في السنة، كما لو تعلّق الأمر بملك بلاد فارس، كما لا تربطه به سوى قرابة غامضة يسجّل أواصرها كاتبه الشخصي. وفي الحقيقة فإنّ قوانيننا تشكو بعض الوهن، وإنّ النّبيل الفرنسي لا يشعر بجسامة السيادة والسلطة سوى مرّة أو مرّتين في حياته. إنّ التبعيّة الحقيقية والفعلية تخصّ فقط أولئك الذين يرضون بالخضوع ويرغبون في الثراء والمجد بهذه الطريقة. إذ يكون حرًّا حرّية دوق البندقية ذلك من يبقى لابدًا في بيته ويحسن إدارة أعماله دون خصومات ولا محاكمات.

«العبودية لا تقيّد إلّا قليلا من النّاس، لكنّ الكثيرين يقيّدون أنفسهم بها»

[Sénèque, Épîtres, XXII]

20. لكن ما كان يحزّ في نفس هييرون أكثر من كلّ شيء هو إحساسه بالحرمان من ألذّ ثمرة في حياة الإنسان: الصداقة والمعاشرة الطيّبة. فعلا، ما الذي يضمن لي صدق علامات العطف والمحبّة التي يُظهرها لي مَنْ يدين لي، أحبّ أم كره، بالوضع الذي هو عليه؟ هل يمكن أن أعتزّ بمخاطبته لي بخشوع واحترام، والحال أنّه يتعذّر عليه أن يفعل عكس ذلك؟ إنّ من يمجّدني ويعظّمني لكونه يخشاني، لا يمجّدني ولا يعظّمني حقّا، وكلّ ما يبديه من علامات الخشوع والاحترام إنّما هو يقصد بها شخصي الملكي، لا شخصي أنا.

«أفضل ما يمتاز به الحكم الملكي هو أنّ الشعب يُرغَم، لا فقط على تحمّل أفعال مولاه، بل أيضا على مدحها»

[Sénèque, *Thyeste*, II, I, 205]

21. ألا ترون أنّ الملك الشرّير والملك الخيّر، الذي نكرهه والذي نحبّه، يحظيان كلاهما بنفس الشرف والمجد: نفس الأبّهة ونفس الاحتفالية. هكذا تمّت معاملة سلفي، وهكذا سيعامل خلَفي. وإذا كانت رعيّتي لا تهينني، فليس معناه أنّها تحبّني؛ لِمَ أظنّ ذلك والحال أنّها لا تستطيع أن تفعل ما تشاء؟ لا أحد يصاحبني بموجب الصداقة، لأنّ الصداقة لا تنشأ حيث لا يوجد تعاطف وانجذاب. حكمَتْ عليَّ منزلتي العالية بالبقاء على هامش المجتمع: يوجد بيني وبين النّاس تباين وعدم تكافؤ صارخَيْن. ينصاعون لأوامري احتراما للأعراف والتقاليد، بل احتراما لثروتي وحسن طالعي، طمعا في نيل ما نلته. كلّ ما يقولونه ويفعلونه من أجلي لا يعدو أن يكون مجرّد نفاق، لأنّهم لا يتصرّفون بحرّية ويخضعون لسلطتي. لا أرى من حواليّ إلّا أناسًا مقنَّعين متسِّترين.

22. كان جلساء الإمبراطور جوليان يمدحون ذات يوم إنصافه وعدله، فقال: «قد أعتزّ بهذا المديح لو كان يصدر عن أناس يجرؤون على استقباح أعمالي أو نقدها متى كانت سيّئة».

كلّ المزايا الحقيقية التي يتمتّع بها الأمراء، يشاركهم فيها بسطاء النّاس؛ أمّا ركوب الخيول المجنّحة والتغذّي من الرحيق، فهذا من شأن الآلهة. ليس نوم الأمراء أو شهيّتهم أفضل من نومنا وشهيّتنا؛ وليس حديدهم من معدن أفضل من معدن سلاحنا؛ ولا تحميهم سلطة التّاج من الشمس أو المطر. كان ديوكليتيان (Dioclétien) ملكًا موقّرا وأسعده الحظّ كثيرا، ومع ذلك فرّط في تاجه وانصرف إلى مباهج الحياة الخاصّة. وبعد زمن قصير، لمّا اقتضت شؤون الدولة أن يعود ويأخذ بزمام الأمور، أجاب من جاؤوا يلتمسون منه ذلك: «لو شاهدتم الترتيب الجميل للأشجار التي غرستها في حديقتي بنفسي، والبطيخ الجميل الذي زرعته، لما أقبلتم عليّ هكذا وحاولتم إقناعي بالرجوع إلى مشاغل السلطة».

23. حسب أناخرزيس (Anacharsis)، المجتمع الأكثر سعادة هو الذي، متى استوت كلّ الأشياء، يقاس فيه التفوّق بالفضيلة، والسقوط بالرذيلة.

24. لمّا بادر الملك بيروس (Pyrrhus) بالعبور إلى إيطاليا، أراد مستشاره الحكيم سينياس (Cynéas) أن يُشعره ببطلان طموحه فقال:

– ما هي الغاية، سيّدي، من وراء مبادرتكم العظيمة هذه؟

فأجابه: – حتّى أصبح سيّدا على إيطاليا.

- وبعد ذلك؟ استطرد سينياس.
أجابه: - سأمرّ إلى الغال وإلى إسبانيا.
- ومن بعد؟
- سأذهب لأستولي على إفريقيا، وأخيرا عندما يصبح العالم كلّه تحت إمرتي، سأركن إلى الهدوء وأعيش سعيدًا ناعم البال.
- أسألك لوجه الله، سيّدي، لماذا لا تختار العيش هكذا منذ الآن؟ لماذا لا تستقر من الآن حيث تريد ولا توفّر على نفسك كلّ المتاعب وكلّ المخاطر التي قد تُفرض عليك؟

«كان لا يعرف حدودًا لرغباته،
وكان جاهلًا لحدود ملذّاته»

[Lucrèce, V, 1431]

25. سأقفل حديثي هنا ببيت شعر قديم، أراه جميلا جدّا ومؤاتيا للغرض:

«إنّما الطّبع هو الذي يسطّر لكلّ إنسان مصيره»

[Cornelius Nepos, *Vie D'atticus*, II]



الفصل الثالث والأربعون

عن قوانين النّفقات الكمالية[1]

1. يبدو أن الطريقة التي تحاول بها قوانيننا تنظيم النفقات المفرطة والمشطّة على الأكل والملبس لها تأثير معاكس للغاية المطلوبة. ولعلّ الطريقة المثلى هي أن نستحثّ النّاس على ازدراء الحرير والذهب، باعتبارهما تافهين ولا ينفعان. عوض ذلك، ترانا نضخّم في اعتبارهما وقيمتهما، وهذه لعمري طريقة فاسدة إذا كانت غايتنا التنفير منهما.

فلو قلنا إنّ الأمراء وحدهم سيأكلون سمك التّرس ويرتدون ملابس مخمليّة وضفائر ذهبية، بينما يحرم الشعب من كلّ ذلك، ألن يزداد سحر هذه الأشياء وتتضاعف الرغبة في تناولها؟ ليتخلّى الملوك بجسارة عن هكذا علامات عظمة: إذ لهم ما يكفي من العلامات الأخرى! إنّ مثل هذا الإسراف قد يُغتفر عند أيّ إنسان ما عدا عند الأمير.

2. فلو نسجنا على منوال أمم أخرى كثيرة، لتعلّمنا طرقا أفضل للتميّز عن غيرنا وإبراز رُتبتنا (وهذا في اعتقادي أمر واجب بين الأهالي)، ولما اعتمدنا ذلك التهالك المتفاخر.

3. عجيب ما نراه، في مثل هذه الأمور التافهة، من قدرة التقليد على فرض سيطرته بسهولة تامّة. إذ ما كدنا نحمل غطاء حريريا مدّة سنة في بلاط الملك هنري الثاني حدادا على موته، حتّي أصبح الحرير، في نظر الجميع، أمرًا عاديًّا لدرجة أنّه ما إن نرى شخصا يرتديه حتى نظنّه من سكّان المدينة الأثرياء. ولم يبق هذا اللّباس رائجا إلّا عند الأطبّاء والجرّاحين. ورغم أنّ كلّ النّاس كانوا يرتدون تقريبا نفس اللّباس، فإنّ رتبتهم كانت تظهر بطرق مختلفة، وبطريقة جليّة.

---

(1) قوانين النفقات الكمالية (Les lois somptuaires): يعني القوانين المنظّمة للإنفاق على الكماليات. لقد وجدت مثل هذه القوانين في روما القديمة. وفي القرن السادس عشر، في إيطاليا أوّلا ثمّ في غيرها من البلدان الأوروبية، تعلّق ذوق العصر بالكماليات عموما وباللّباس بوجه خاصّ، فتطوّرت في سبيل ذلك النّفقات وتفاقمت الدّيون حتّى إنّ الملوك كانوا يتدخّلون بالقرارات والقوانين من أجل الحدّ من هذه الظّاهرة.

4. ألا نرى عند جيوشنا كيف عادت فجأة أقمصة القماش والجلد القذرة إلى الواجهة؟ وكيف أصبحت العناية بالملابس وثرائها تثير اللّوم وتولّد الاحتقار؟ ليبدأ الملوك فقط بالتخلّي عن نفقاتهم، وفي ظرف شهر ليس أكثر، دون إصدار قرار ولا أمر، سيتبعهم الجميع.

5. يجب أن يمنع القانون القِرمِز [اللون القرمزي] والصّياغة على الجميع، ما عدا على البهلواني والمومس. فبهذه الطريقة هذّب زيلوكوس (Zéleucos) أخلاق اللّوكريين (Locriens)؛ هذه بعض أوامره: ألّا تكون المرأة الحرّة مرفوقة بأكثر من وصيفة، إلّا إذا كانت سكرانة؛ ألّا تغادر المدينة ليلًا، أو تحمل مجوهرات، أو تلبس فستانًا مطرزًا، إلّا إذا كانت عاهرة؛ ألّا يسمح لأيّ رجل، إلّا إذا كان قوّادًا ووسيط بغاء، بأن يحمل في إصبعه خاتما من ذهب، أو أن يرتدي ثيابا رقيقة كالتي تُصنع من القماش المنسوج في ميليتوس (Milet). وهكذا، بفضل هذه الاستثناءات المخجلة، استطاع أن يَـنهى مواطنيه عن التفاهات وعن الفواحش.

كانت طريقة عمليّة جدّا لحثّهم على الطاعة والواجب، بزرع الطموح وحبّ المجد في نفوسهم.

6. عندما يتعلّق الأمر بإصلاحات خارجية كهذه، يكون ملوكنا قادرين على كلّ شيء: إنّ لِـرغبتهم قوّة القانون.

«فكلّ ما يفعله الأمراء، يبدو كأنّهم يأمرون به»

[Quintilien, *Declamationes*, III]

ينسج بقيّة أهالي فرنسا على منوال البلاط. فليتخلّى الملوك عن تلك القطعة القبيحة من اللّباس، التي تُظهر بوضوح أعضاءنا الحميميّة، وعن تلك الأقمصة الضخمة الثقيلة التي تجعلنا مختلفين تماما عمّا نحن عليه ولا تساعدنا على حمل السلاح، وعن ضفائر الشعر الأنثوية الطويلة، وعن عادة تقبيل ما نقدّمه لأصحابنا عندما نحيّيهم، كما عن عادة تقبيل أيادي بعضنا البعض، وهي عادة كانت تخصّ الأمراء دون غيرهم.

7. ليتخلّوا عن تلك العادة المتمثّلة في قدوم الرجل النبيل إلى المحفل مجرّدا من سيفه، مختلّ الهندام مفكوك الأزرار كما لو كان خرج من بيت الراحة؛ ولنترك رؤوسنا عارية، على عكس تقاليد آبائنا وسلوك نبلاء مملكتنا، مهما بعدنا عنهم وأينما وُجدوا؛ ليس فقط عندما يتعلّق الأمر بهم، بل بآخرين كثيرين أيضا، إذ كم لدينا من أنصاف الملوك وأرباعهم...

8. ليتخلّوا أيضا عن كلّ موضة قبيحة جديدة: وإذّاك سرعان ما ستتهاوى وتزول.

إنّها من قبيل الأخطاء البسيطة، لكنّها قد تكون نذير شؤم: إذ نعلم أنّ الجدار قد ينهار عندما يتشقّق طلاؤه وكلسه.

9. في كتاب القوانين، يرى أفلاطون أنّه لا شيء يعود بالضرر على المدينة أكثر من السماح لشبابها بأن يغيّروا ملابسهم وحركاتهم ورقصاتهم وتمارينهم وأغانيهم عند مرورهم من موضة إلى أخرى، وبأن يحكموا تارة بهذا الرأي وطورًا بذاك، وأن يلهثوا وراء كلّ جديد ويعبدوا من ابتكروه؛ إذ هكذا حقًّا تنحلّ الأخلاق وتصبح المؤسسات العريقة محقورة مهجورة.

10. في كلّ الأشياء، إلّا إذا كانت مستقبَحة، يجب أن نخشى التغيّر: تغيّر الفصول، والرياح، والأطعمة، والأمزجة. ولعلّ القوانين الوحيدة التي لها سلطة حقيقية هي تلك التي قرّرها ربّنا منذ قديم حتّى إنّه لا أحد يعلم متى ظهرت أو ما إذا كانت في وقت من الأوقات مختلفة.

الفصل الرابع والأربعون

عن النّوم

1. يطلب منّا العقل أن نسير دائما على نفس الدرب، لكن ليس ضرورةً بسرعة واحدة. وإذا كان لا بدّ للحكيم أن يمنع الأهواء الإنسانية من الخروج عن الصراط المستقيم، فإنّه مع ذلك يستطيع، دون الإخلال بالواجب، أن يتنازل من أجلها بالإسراع أو الإبطاء في خطواته، وألّا يبقى جامدًا كالتمثال لا ينفعل.

فلو كانت الفضيلة نفسها متجسّدة، لكان نبضها يدقّ بقوّة أشدّ، عند الهجوم والغارة، ممّا عند الخروج لتناول العشاء: في الحقيقة، يجب أن تحمى وتنفعل. وقد لاحظت في هذا المضمار أمرًا نادرًا: بعض العظماء، عندما تعترضهم أشدّ المشاكل وطأة وخطورة، يحافظون على سلوكهم العادي ولا يقلّلون حتّى من نومهم.

2. كان الإسكندر الكبير، في اليوم المعيّن لحربه الضروس ضدّ داريوس، يغطّ في نوم عميق، واستمرّ هكذا حتّى آخر الصباح، فاضطرّ بارمنيون أن يدخل عليه ويقترب من فراشه ويناديه باسمه مرّتين أو ثلاث ليوقظه، إذ حان الأوان للخروج إلى المعركة.

3. أمّا الإمبراطور أوثون (Othon)، فبعدما عزم على الانتحار، نهض ليلا وقام بترتيب أمتعته، ووزّع أمواله على خدَمه، وشحذ نصل سيفه الذي كان ينوي أن يضرب به نفسه، وبعد أن أيقن أنّ كلّ واحد من أصدقائه أصبح في مأمن، خلد إلى النّوم وبلغ شخيره مسمع خدمه.

4. يوجد شبَه كثير بين موت هذا الإمبراطور وموت كاتون العظيم، ولا سيّما في هذه النقطة: بينما كان يستعدّ لوضع حدّ لحياته، وفي انتظار أن يقع إخباره ما إذا كان وزراؤه قد غادروا بأمر منه ميناء أوتيك، خلد إلى النّوم العميق حتّى إنّ زفيره كان يسمع في الغرفة المجاورة؛ فأيقظه الشخص الذي أرسله إلى الميناء وأعلمه بوجود زوبعة منعت الوزراء من الإبحار بطريقة عادية، فأرسل الإمبراطور شخصا آخر وغرق من جديد في فراشه وغطّ في النّوم، إلى أن عاد رسوله وأخبره برحيلهم.

5. يمكن أن نقارن أيضا بسلوك الإسكندر ما أقدم عليه كاتون أيّام الزوبعة الخطيرة التي أحدثها تمرّد المحامي متلّوس (Metellus) الذي أراد أن يعلن أثناء مؤامرة كاتيلينا

(Catilina) عن قرار يدعو بومبي للعودة بجيشه إلى روما؛ كان كاتون المعارض الوحيد لهذا القرار، ممّا ولّد بينه وبين متلّوس مشادّات وتهديدات داخل المجلس. وقد حُدّد اليوم الموالي للإعلان عن القرار في الساحة العامة. كان متلّوس يتمتّع بمساندة الجمهور وكذلك بمساندة قيصر (الذي كان يتآمر لصالح بومبي)، وقصد الساحة مصحوبًا بعدد من العبيد الأجانب والمصارعين الأوفياء حتّى الموت، بينما لم يكن كاتون يملك سندًا سوى رباطة جأشه؛ بحيث كان أقرباؤه وخدمه والعديد من الأشخاص المحترمين يشعرون بالقلق عليه؛ وهناك منهم من قضّوا اللّيلة معه، دون أن يرغبوا في النّوم ودون أن يأكلوا ويشربوا، بسبب الخطر المحدق به. في بيته، كانت زوجته وأخواته لا تتوقّفن عن البكاء والانتحاب، بينما كان هو يواسي الجميع. وبعد أن تناول العشاء كالمعتاد، ذهب إلى فراشه وخلد إلى النّوم العميق حتّى الصباح، إلى أن جاءه أحد زملائه من المحامين وأيقظه للخروج ومواجهة محنته.

إنّ ما نعلمه عن عظمة هذا الإنسان وشجاعته وما تشهد به بقيّة حياته، دليل قويّ على أنّ موقفه هذا يعود إلى همّته ورفعته وتجاوزه لمثل هذه الأحداث، التي كان لا يعبأ بها أكثر ممّا بأحداث عادية.

6. لمّا كان أوغست يتأهّب لخوض المعركة البحرية التي ربحها ضدّ سكستوس بومبي في صقلّية، ران عليه النّعاس وكان على أصحابه أن يوقظوه كي يعطي إشارة المعركة.

اغتنم مارك أنطوان (Marc-Antoine) الفرصة كي يعيب عليه عدم الوقوف بشجاعة على رأس جيشه، وعدم الذهاب إلى جنوده قبل أن يأتي أغريبا (Agrippa) ليخبره بالانتصار على العدوّ.

7. أمّا ماريوس الأصغر(Marius Le Jeune)، فقد قام بأسوأ من هذا: ففي يوم معركته الأخيرة ضدّ سيلّا (Sylla)، وبعد أن أعدّ جيشه لخوض المعركة وأعطى إشارة الهجوم، استلقى تحت ظلّ شجرة لأخذ نصيب من الرّاحة، فنام نومًا عميقًا، وكاد لا يتفطّن إلى هزيمة جنوده وهروبهم: إنّه لم ير شيئا من المعركة.

يقال إنّه كان مرهَقًا جدًّا وبحاجة شديدة إلى النّوم، فأخذت الطبيعة حقّها. وفي هذا الصدد، ينبغي أن يخبرنا الأطبّاء ما إذا كان النّوم ضروريًا حتّى إنّه يهدّد حياتنا؛ إذ يروى أنّ الملك برسيوس المقدوني، لمّا سُجن في روما، أعدِم بحرمانه من النّوم؛ بينما قدّم بلينيوس من جهته أمثلة عن أناس عاشوا طويلا دون أن يناموا.

لقد تحدّث هيرودوت عن شعوب كان رجالها ينامون نصف سنة ثمّ يسهرون نفس المدّة. وحسب الذين كتبوا سيرة الحكيم إيبيمينيدز، فقد أخذه سبات عميق دام سبعا وخمسين سنة متواصلة.

الفصل الخامس والأربعون

عن معركة «درو»

1. شهدت معركة «درو» (Dreux)[1] أحداثا كثيرة جديرة بالملاحظة. ويؤكّد الذين لا تهمّهم كثيرا سمعة السيّد غيز (Guise)، دون مواربة، أنّه لا يمكن أن يُغفر له توقّفه وسعيه إلى كسب الوقت، بينما كانت قوى العدوّ تدكّ مواقع قائد الجيش السيّد الكونيتابل (Le Connétable)، إذ كان من الأفضل لو تجرّأ على مفاجأة العدوّ من جانبه عوض تحيّن الفرصة لمهاجمته من الخلف وتكبّد خسائر كبيرة.

ومع ذلك، فإنّ مصير المعركة قد أظهر أنّه كان على حقّ، فضلا عن أنّ كلّ من يفكّر في الأمر بتجرّد قد يتبيّن له بسهولة أنّ الغاية التي ينبغي أن يرمي إليها كلّ قائد، بل كلّ جنديّ، إنّما هي الانتصار التامّ، وأنّه لا ينبغي أن يلهيه عن ذلك أيّ حدث من الأحداث، مهما كانت الفائدة المرجوّة.

2. أرسل فيلوبويمان، خلال معركة ضدّ ماشانيداس (Machanidas)، فريقا من رماة السهام ورماة القذائف؛ دحرهم العدوّ، ثمّ شرع يلهو بمطاردتهم في اتّجاه جيوش فيلوبويمان. قرّر هذا الأخير عدم مغادرة موقعه وعدم مطارحة عدوّه مساعدةً لجنوده. بل على العكس، ترك أعداءه ينكّلون بهم أمام عينيه، وبادر بمهاجمة مُشاتهم إذ فقدوا حماية فرسانهم. ومع أنّهم كانوا من اللقيديمونيين فقد باغتهم وشتّتهم وتغلّب عليهم والحال أنّهم كانوا يظنّون أنفسهم قاب قوسين من الانتصار. وبعد ذلك بدأ في مطاردة ماشاديناس.

هذا المثال قريب من مثال السيد غيز.

3. في أثناء الحرب الضروس التي شنّها أجيزيلاس ضدّ البيوسيين(Béotiens)، والتي قال كزينوفون، إذ شارك فيها، إنّها كانت حربًا طاحنة أكثر من أيّ حرب أخرى، رفض أجيزيلاس الفرصة التي توفّرت له كي يترك ممرّا لجيش العدوّ قبل أن يهاجمه

(1) هي بلدية في مقاطعة «أُورْ وَلْوَار» (Eure-et-Loir) في شمال فرنسا، وقد نشبت فيها معركة سنة 1562، بين الكاثوليك والبروتستانت، وانتصر فيها الكاثوليك.

من الخلف ويكون الانتصار حليفه لا محالة، لأنّه رأى في هذا الانتصار من المهارة أكثر ممّا هو من البسالة. وآثر أن يهاجمهم وجها لوجه، دليلا على شجاعته الكبيرة وخصاله العسكرية. إلّا أنّه خسر المعركة وأصيب بجروح، وأجبر على التراجع. آنذاك غيّر موقفه الأوّل وفتح ممرّا لأعدائه، فلمّا عبروا في غير نظام وظنّوا أنفسهم في مأمن من الخطر، طاردهم وهاجمهم من جانبهم. لكنّهم لم يهربوا، بل تراجعوا رويدًا رويدًا، مكشّرين عن أنيابهم، حتى وصلوا إلى مكان آمن.

الفصل السادس والأربعون

عن الأسماء

1. مهما كان تنوّع الأعشاب، فإنّنا نطلق عليها عموما اسم «سلطة». وكذا الشأن فيما يتعلّق بالأسماء، وسأقدّم هنا مجموعة من الأمثلة.

2. هناك في كلّ أمّة بعض الأسماء التي لا تؤخذ مأخذا جيّدا؛ من بينها اسم جان (Jean)، وغِيوم (Guillaume)، وبونوَا (Benoît).

3. وكذلك يبدو أنّه يوجد، في سلالة الأمراء، بعض الأسماء المشؤومة: مثل بطليموس (Ptolémée) في مصر، وهنري (Henri) في إنجلترا، وشارل (Charles) في فرنسا، وبودوين (Baudoin) في فلاندر، وغِيوم في أكيتان القديمة، وقيل إنّ هذا الاسم الأخير قد اشتُقّ منه اسم «غِيان»؛ لكن لعلّه اشتقاق متهوّر مثلما يوجد عند أفلاطون نفسه[1].

4. ويمكن أن نذكر أيضا حادثة تافهة، إلّا أنّها مع ذلك تستحقّ الذكر، رواها شاهد عيان: أقام هنري، دوق نورموندي وابن ملك إنجلترا هنري الثاني، مأدبة بفرنسا، وكان عدد النبلاء فيها كبيرا لدرجة أنّه وقع توزيعهم، لغاية التسلية، إلى مجموعات بحسب أسمائهم، فكانت المجموعة التي يحمل أفرادها اسم غِيوم تعُدّ مائة وعشرة فرسانً، دون احتساب الأعيان والخَدَم.

5. ومثلما كانت الموائد تُوزّع، من باب التسلية، حسب الأسماء، كان الإمبراطور جِيتا (Géta) يتسلّى بعرض الأطعمة على الحاضرين بحسب الحرف الأوّل لأسمائهم: كان يُعرض مثلا على الذين يبدأ اسمهم بحرف «الميم» أطعمة يبدأ اسمها بنفس هذا الحرف، وهكذا.

6. وقد يرى بعضهم فائدة في أن يكون لهم «اسم جيّد»، اسم له وزنه وسمعته. إلّا أنّ الاسم الذي يكون مناسبا لنا حقّا هو ذلك الذي يتسنّى نطقه وحفظه بسرعة، لأنّه يجعل الملوك والأكابر ينتبهون إلينا ويتذكّروننا بسهولة. كما أنّ من بين الذين يكونون في خدمتنا، غالبا ما نستعين بأولئك الذين ننادي أسماءهم بأكثر سهولة.

---

(1) انظر أفلاطون، محاورة كراتيل.

كان الملك هنري الثاني يجد صعوبة في نطق اسم أحد النبلاء من جهة غاسكونيا؛ وكان يبدو له اسم إحدى جواري الملكة غريبا جدّا، فاقترح مناداتها بلقب عائلتها. وكان سقراط يرى أنّه من واجب الأب أن يعطي أبناءه أسماء جميلة.

7. يروى أيضا أنّ تأسيس نوتردام (سيّدتنا) الكبرى في مدينة «بواتيي» يعود إلى ما حدث لشابّ مستهتر كان يقيم بهذا المكان، حيث استقبل فتاة عاهرة وسأل عن اسمها فأجابت أنّها تُدعى «ماريا»، فانتابه فجأة شعور بالورع الشديد ورغبة في الخشوع أمام هذا الاسم المقدّس، اسم العذراء والدة مخلّصنا، فطرد الفتاة في الحال وتغيّرت حياته تماما. وعلى اعتبار هذه المعجزة، بُني في ذات المكان الذي يوجد فيه مسكن هذا الشاب مُصلّى يحمل اسم «سيّدتنا»، ثمّ شُيّدت الكنيسة التي نراها اليوم.

8. كان ذلك مثالا للتقوى التي تغمر الرّوح. إليكم مثالًا آخر من نفس النّوع، عن التقوى التي تغمر الحواسّ. كان فيثاغور صُحبة شُبّان، وأدرك أنّهم يخطّطون، تحت تأثير موسيقى المحفل، للاعتداء بالعنف على رجل طيّب من أسرة فاضلة، فطلب من العازفة أن تغيّر النّبرة وتقدّم لَحْنًا بطيئا ورصينا، فهدأوا شيئا فشيئا حتى سكنوا تماما كما لو كان ذلك بفعل السّحر.

9. لن تقول الأجيال القادمة إنّ الإصلاح الذي أنجزناه اليوم كان دقيقا وموفّقا؛ ذلك لأنّه لم يقتصر على محاربة الأخطاء والرذائل، وعلى ملء العالم ورَعًا وخشوعًا وطاعة وسلامًا وما إلى ذلك من الفضائل كلّها، بل ذهب إلى حدّ محاربة تلك الأسماء المعمودية القديمة مثل شارل، لويس، فرانسوَا، وتعويضها بمتوشالم (Mathusalem) وحزقيال (Ezéchiel) وملاخي(Malachie)، من أجل إعمار الدّنيا بأناس يفترض أنّهم أكثر تشبّعا بالإيمان والعقيدة.

كان رجل نبيل من جيراني يحكم على العادات القديمة بالقياس على عاداتنا، فلا يفوته أبدا أن يؤكّد على سموّ أسماء النبلاء وروعتها في ذلك العصر: دوم غرومدان (Dom Grumedan) وكدرغان (Quedragan) وأجيزلان (Agesilan)، وكان يزعم أنّه بمجرّد سماعها ندرك أنّها أسماء أشخاص مختلفين تماما عن وغييو وميشيل.

10. أنا ممتنّ حقّا لجاك آميو(Jacque Amyot) لإبقائه الأسماء اللاتينية على حالها في نصّ مترجَم إلى الفرنسية، إذ لم يشوّهها ولم يُفرنِسها. قد بدا الأمر في الأوّل شاقّا نوعًا ما، لكن سرعان ما أصبح مألوفًا، بفضل ما تعوّدنا عليه من خلال قراءتنا لــبلوتارخوس. وغالبا ما تمّنيت لو أنّ الذين يؤلّفون روايات باللاتينية يتركون أسماءنا على حالها؛ ذلك لأنّنا إذا حوّلنا اسم فودمونت (Vaudemont) إلى فالمونتانوس (Vallemontanus) وأضفينا عليه مسحة يونانية أو رومانية، لن نجد ضالّتنا وقد نفقد حتى ذكرى تلك الأسماء.

11. وفي النهاية: إنّها لعادة سيّئة، وقد تكون عواقبها وخيمة، أن نطلق على كلّ واحد اسم أرضه وضيعته. إنّها أكثر ما يجعلنا نخلط بين الأنساب ونجهلها. فإذا ورث مثلا الابن الأصغر لعائلة شريفة قطعة أرض وأصبح معروفا بها ويُدعى باسمها، فإنّه لن يتخلّى عن هذا الاسم بكلّ أريحية. لكن عشر سنوات بعد وفاته، قد يقتني الأرضَ رجل غريب ويُطلَق اسمها عليه: فكيف سنقف على الأمر بعد هذا؟

ولسنا بحاجة إلى البحث عن أمثلة أخرى غير التي نجدها في العائلة الملكية: حيث تظهر أسماء جديدة بقدر ما تكثر المقاسمة. وفي الإبّان، يغيب الاسم الأصلي، اسم السلالة.

12. بلغ التساهل ذروته في عصري، حتى أنّي لم أشاهد أحدًا شاءت الأقدار أن ترفعه إلى درجة عالية دون أن نسارع إلى منحه نسَبًا جديدًا – يفتقده أبوه – وأن نلحقه بغصن نبيل. وبالتأكيد يكون تزوير نسَب العائلات النكرة أسهل من غيرها. كم من النبلاء في فرنسا يزعمون أنّهم من سلالة ملكية؟ يبدو أنّهم أكثر ممّن يزعمون العكس...

13. أمتعني أحد أصدقائي بالرواية التالية: كان بعضهم يتناقشون بشأن خصومة جرت بين رجلين نبيلين، يمتاز أحدهما على الآخر بألقاب وأنساب أرقى درجة ممّا للنبالة العادية. وكان كلّ واحد من الحاضرين يرغب في إثبات امتياز نبالته، إمّا بالإحالة على أصله، أو على لقبه، أو على رموز أسرته، أو على أوراق عائلية قديمة. وكان أقلّ واحد فيهم يجد نفسه حفيدا بعيدا لأحد الملوك من وراء البحار...

14. ولمّا حان وقت العشاء، عوض أن يجلس صديقي في مقعده، سار منحنيا إلى الوراء وحيّا الحضور بخشوع ورجاهم أن يغفروا له جرأته، إذ صاحَبَهم كما لو كان ندًّا لهم، والآن وقد أخبروه بألقابهم العريقة فهو يريد أن يمجّدهم كما يستحقّون مع الاعتذار لهم عن مجالسته لهذا الكمّ الهائل من الأمراء. وبعد هذه المزحة، أنّبهم بهذه الكلمات القاسية:

«ارضوا، بالله عليكم، بما رضي به آباؤنا، وبما نحن عليه؛ فقد يكفي ما نحن عليه إذا أحسنّا حفظه. ومن غير أن ننكر نصيب أسلافنا ووضعهم، لنتخلّى عن تلك الادّعاءات الغبيّة التي قد تضرّ بكلّ من تكون له رقاعة التفوّه بها».

15. لا يمكن لشعار النّبالة (Les Armoiries) أن يمثّل حجّة، ولا الألقاب العائلية يمكنها ذلك. فأنا بنفسي أحمل ما يمثّل «سماء زُرعت من البِرسيم المذهّب، ومخلب أسد تتفرّع منه أفواه في الوجهة المقابلة». فبماذا تمتاز هذه الصورة حتى أبقيها في منزلي؟ إذ قد ينقلها نسيبي ويضعها عند عائلة أخرى؛ وقد يشتريها بعضهم ويجعل منها معطفه الأوّل للأسلحة. إنّه لا شيء يمكن تناقله ولا شيء يكتنفه اللّبس أكثر منها.

16. لكن يقودني هذا التفكير بالضرورة إلى تفكير آخر: فلنتأمّل الأمر عن كثب،

وبالله عليكم، لنبحث في القاعدة التي عليها نؤسّس هذا المجد وهذه السمعة الذَين قلبا نظام العالم... أين نضع هذه السمعة التي نسعى إليها ونبذل قصارى جهدنا للفوز بها؟ يحملها عموما بطرس أو غليوم، إذ تتعلّق به وتبقى تحت رعايته.

17. ما أنبل الأمل الذي، بشأن موضوع فانٍ وفي لحظة من الزمن، ينتحل الرحابة واللّاتناهي ويستعيض عن فاقة صاحبه بتملّك كلّ الأشياء التي يمكن أن يتصوّرها ويرغب فيها! هاهنا سلّمتنا الطبيعة لعبة ممتعة. وبطرس هذا أو غِيوم، فهل هو أكثر من كلمة؟ أم هو ثلاث أو أربع جرّات قلم قد يسهل تغييرها، ما يجعلني أسأل عن صاحب المجد وانتصاراته: أهو غِسكان أم غِلسكان أم غِيَكان؟ قد يوجد هنا مبرّر أكثر ممّا عند لوسيان (Lucien)[1] كي نرى« ∑ » يرفع قضيّة ضدّ « T » لأنّ

«الجزاء الذي ننتظر،
ليس تافها قليل القيمة»

[Virgile, *Énéide*, XII, V. 764]

18. لا بدّ أن يؤخذ الأمر مأخذ الجدّ! إذ يتعلّق بمعرفة جملة الحروف التي ينبغي أن يُنسب إليها كلّ حصار، وكلّ معركة وإصابة، وكلّ إقامة بالسجن، وكلّ خدمة أسداها إلى صاحب التاج ذلك الضابط الشهير... إنّ نيكولا دنيزو (Nicolas Denisot) لم يستعمل سوى حروف من اسمه وأعاد ترتيبها فكوّن منها اسم الكونت دي ألسينوَا (Le Conte D'alsinois) ونسب إليه الشهرة التي كسبها بشعره ورسومه الزيتية. أمّا سُويتون (Suétone)، فهو لم يخرج عن معنى اسمه؛ لقد أهمل اسم أبيه، لنيس (Lenis)، كما جعل من اسم ترانكيلوس (Tranquillus) موضع الشهرة التي كسبتها أعماله. من سيصدّق أنّ المجد الذي ناله القبطان بايار (Bayard) إنّما هو مستعار من مآثر بيار ترّاي (Pierre Terrail)؟ وأنّ أنطوان إسكلان (Antoine Escalin) أُخذت منه البعثات البحرية والبرّية ونُسبت إلى القبطان بولان (Poulin) والبارون دي لاغارد (De La Garde)؟

19. ثمّ إنّ جرّات القلم هذه إنّما هي شائعة عند آلاف العباد. إذ كم يوجد من الأشخاص، في كلّ عائلة، ممّن يحملون نفس الإسم ونفس اللّقب؟ وكم يوجد في كلّ العائلات، وكلّ القرون، وكلّ البلدان؟ يذكر التاريخ ثلاثة «سقراط»، وخمسة «أفلاطون»، وثمانية «أرسطو»، وسبعة «إكزينوفون»، وعشرين «دمتريوس»، وعشرين

(1) إشارة إلى لوسيان الساموساتي (Lucien de Samosate)، عاش من 120 إلى 180، وهو خطيب ومؤلّف هزلي من الأناضول، كان يكتب باللّغة اليونانية.

«ثيودور»... دون اعتبار الذين بقوا مجهولين. فما الذي يمنع سائس خيْلي من أن يطلق على نفسه اسم «بومبي العظيم»؟

وبعد كلّ هذا، فما هي العوامل والقوى التي قد تؤثّر في سائسي بعدما يتوفّى أو في بومبي بعدما دُقّ عنقه في مصر، حتّى يقع ربط شخصيهما بهذا الإسم المجيد وجرّات القلم هذه المشرّفة، وحتّى تُجنى من ذلك فائدة؟

«أتظنّون أنّ أرواح الموتى
تتأثّر بذلك وهي تحت اللّحود؟»

[Virgile, *Énéide*, IV, 34]

20. بماذا عسى أن يشعر أولئك الذين نذكرهم، إذ يحتلّون مكان الصدارة جنبا إلى جنب بفضل ما يتحلّون به من قيم إنسانية: إيبامينُنداس، وبيت الشعر ذاك الذي يتردّد على ألسُننا منذ قرون،

«بفضل مآثري انقطع مجدُ لقيديمونيا»

[Cicéron, *Tusculanes*, V, 17]

وأفريكانوس، وهذا البيت:

«من الشرق وإلى ما بعد البالوس ميوتيد[1]
لا أحد يضاهيني في مآثري»

[*Ibid*. 21]

21. أمّا الذين يبقون من بعدهم فقد تروق لهم هذه الكلمات؛ إلّا أنّهم، إذ تحرّكهم رغبة حسودة، ينسبون بسذاجة إلى الموتى ما يشعرون به هم أنفسهم؛ بل تراهم يتمنّون الشعور بمتعة كلّ ذلك بعد مماتهم. الربّ وحده يعلم!

غير أنّ جوفينال قد قال:

«ولعلّ ما يفسّر المآثم والمخاطر إنّما يعود إلى مواقف جنرالات الروم والإغريق والبربر، إذ تعطّش المرء إلى المجد يفوق تعطّشه إلى الفضيلة»

[X, V. 137]

(1) Palus Meotides هي محافظة قديمة في أوكرانيا.

الفصل السابع والأربعون

عن عدم يقين أحكامنا

1. وعدم اليقين هذا، هو المقصود في هذا البيت:

«توجد أوجه مختلفة للحديث عن كلّ شيء، أكان معه أم ضدّه[1]».

إليك هذا المثال:

«لقد كان النّصر حليف حنّبعل، غير أنّه لم يحسن الاستفادة من نصره»

[Pétrarque, Sonnet 82]

2. فلو شئنا أن نقف في صفّ الذين ينظرون إلى عدم الاستمرار في التوغّل، في مُنكونتور (Moncontour)، على أنّه خطأ، أو لو شاء بعضهم معاتبة ملك إسبانيا على فشله في استغلال تفوّقه علينا في سان كنتان (Saint-Quentin)، فإنّه يمكن القول آنذاك إنّ الخطأ إنّما يعود إلى روحٍ انتشت بحظّها الجميل وقلبٍ أسكره الفوز حتّى أصبح فاقدًا لكلّ رغبة في المواصلة، لكثرة انشغاله بذلك. إنّه على تمام الرضا بما حازه ولا يرغب في الأكثر، وقد لا يستحقّ حتّى ما أحظاه به القدر. إذ فعلا أيّ فائدة سيجني من انتصاره إذا ترك الفرصة لعدوّه كي يستعيد قواه؟ وهل من أمل في أن تبقى له الجرأة كي يهاجم عدوّه مجدّدا بعدما تركه يلملم أنفاسه ويرتّب عتاده ويستعدّ للانتقام والثأر، وبعدما فرّط في مطاردته لمّا أجبره على الفرار هلعًا؟ عندما كان المصير محرقًا والوضع مرعبًا؟

[Lucain, *La Pharsale*, VII, 734]

3. لكن ماذا يمكنه أن ينتظر أفضل ممّا خسر؟ فالأمر هنا ليس كمثل المبارزة بالسيف حيث يحدَّد الفوز بعدد «اللّمسات»؛ وطالما كان العدوّ واقفا على قدميه، فلا بدّ من إعادة الكرّة، ولن يتحقّق الانتصار إلّا إذا توقّفت معه الحرب.

في المناوشة التي دارت قرب مدينة أوريكوم ووجد فيها قيصر نفسه في وضع

(1) اقتطف مونتاني هذا البيت من «الإلياذة» (Iliade, XX, 249).

صعب، وجّه هذا الملك توبيخا لجنود بومبي وقال إنّ ما أنقذه من الهزيمة هو أنّ قائدهم لم يحسن الانتصار؛ ولمّا دارت الرياح وأصبح النّصر حليفه، أجبرهم قيصر على اللّوذ بالفرار.

4. لكن ألا يجوز قول العكس أيضا؟ وهو أنّ عدم وضع حدّ للطموح إنّما ذلك من سمات فكر مضطرب لا يشبع؛ وأنّه كفرٌ بنعمة الله أن نسعى إلى إخراجها من الحدود التي رسمها لها؛ وأنّ المخاطرة مجدّدا بعد النّصر إنّما فيها مجازفة بالنّصر ذاته؛ وأخيرا أنّ إحدى الحِكَم العظيمة في فنون الحرب تنصح بعدم دفع العدوّ إلى القنوط واليأس أبدا.

5. في أثناء الحرب الاجتماعية[1]، تغلّب سيلا وماريوس على المارسيين (Les Marses)، لكنّ فرقة من العدوّ، إذ أصابها اليأس، عادت إلى الهجوم كالحيوانات الهائجة، فرأى صاحبانا ألّا يبقيا في الانتظار. أمّا السيّد دي فوَا، فلو لم تدفعه حماسته إلى التصعيد بهمجيّة خلال انتصاره في معركة رافين (Ravenne)، لما لقي حتفه في النهاية. ولعلّ الاعتبار بهذه الحادثة هو ما سمح للسيّد دانغيان (D'enghien) بعدم الوقوع في مثل هذه الكارثة في سيريزول (Cérisoles).

6. من المجازفة أن تهاجم إنسانا لم تبقَ له من وسيلة للنجاة إلّا باللجوء إلى السلاح، لأنّ الضرورة مدرسة للعنف: «غائرة تكون لدغات الضرورة، عندما يقع استفزازها»
[Portius Latro, *Declamationes*]

«فمن يستفزّ عدوّه ويضع حياته في خطر
قد يدفع ثمن نصره باهظا»

[Lucain, *La Pharsale*, IV, 275]

7. لسبب كهذا لم يسمح فاراكس (Pharax) لملك لقيديمونيا، بعدما انتصر على المنطينيين (Mantinéens)، بأن يذهب لمواجهة ألْف من الأرجينيين (Argiens) الذين أفلتوا بعد ما انهزموا دون أن يلحقهم ضرر؛ فهو إذ تركهم يفلتون بحرّية، تجنّب ردّة فعلهم المتهيّجة اليائسة.

لقد استمرّ كلوديمير (Clodomir)، ملك أكيتان (Aquitaine)، في مطاردة غُندِمار (Gondemar)، ملك بورغونيا، حتى أرغمه على المواجهة: غير أنّ عناده حرمه من لذّة الانتصار، إذ لقي حتفه في المواجهة.

8. وكذلك، إذا كان لا بدّ من الاختيار بين فرقة مدجّجة بسلاح متطوّر متفاخر، وفرقة

(1) هي الحرب على شعوب إيطاليا التي كانت تخضع لسلطة روما ثمّ تمرّدت عليها.

تقتصر على الضروري منه، فإنّه لا بدّ من اختيار الأولى؛ كان هذا رأي سرتوريوس وفيلوبمين وبروتوس وقيصر وغيرهم، إذ رأوا أنّ الطريقة المثلى لاستثارة مشاعر المجد والشرف لدى الجنديّ وما يقوّي عزيمته في الحرب هو أن يكون فخورا بزينة عتاده، بحيث يسعى إلى إنقاذه من يد العدوّ ويعتبره ملكه الخاص وأمانة عنده.

9. وعلى حدّ قول كزينوفون، لعلّ هذا ما جعل الآسيويين يصطحبون معهم في الحرب نساءهم وجواريهم حاملة لأغلى المصوغ والجواهر. لكن قد يُعترض على ذلك، من جهة أخرى، بأنّ المطلوب من الجنديّ هو ألّا يعبأ كثيرا بحفظ حياته، لا أن يكون ذلك همّه الوحيد، لأنّه سيخشى المغامرة بقدر ما يكون عتاده ثريًّا ويمثّل غنيمة في نظر العدوّ الذي ستشتدّ رغبته في الانتصار. ولعلّ هذه الرغبة في الغنيمة هي ما شجّع الرومانيين في بعض الفترات من حربهم ضدّ السمنيتيين.

10. عرض أنتيوخوس أمام حنَّبَعل العتاد العسكري الرائع الذي أعدّه لمحاربة الرومانيين وسأله: «هل سيرضى الرومانيون بهذا الجيش؟ هل سيرضون؟ أجاب حنّبَعل، هذا ما لا شكّ فيه، مهما كان جشعهم».

11. وكان ليكورغ يمنع مواطنيه من عرض عتاد ثريّ متفاخر، بل أيضا من سلب أعدائهم المهزومين؛ كان يقول إنّه يريد «أن يجعل الفقر والقناعة لا يقلّان شرفا عن المعركة نفسها».

12. عند الاقتراب من العدوّ ومحاصرته كما في ظروف أخرى أيضا، يُسمح للجنود باستفزازه واحتقاره وسبّه بكلّ الطرق، ويبدو أنّ ليس في ذلك شطط. إذ الحاصل أنّهم سيفقدون هكذا كلّ أمل في النجاة وسيدركون أنّ التصالح لم يعد ممكنا بعد ما صدر عنهم من إساءة وأعمال شائنة، بحيث أصبح الحلّ الوحيد الآن إنّما يكمن في النّصر.

13. إلّا أنّ العكس هو ما حصل مع فيتليوس، عندما خاض معركة ضدّ أوطون إذ أصيب جنوده بالوهن بسبب جُبنهم وابتعادهم عن المعارك وتعوّدهم على ملذّات المدينة المميّعة، حيث أغضبهم فيتليوس بكلامه المهين واتهامه لهم بالجبن وبتعلّقهم بالنساء وبحفلات روما، وهو ما جعلهم هكذا يستعيدون جسارتهم بعد أن فشلت في ذلك كلّ الدعوات الأخرى. وهكذا فقد حثّهم هو نفسه على ما كان يتعذّر حثّهم عليه. وبالتأكيد فإنّ الإهانة إذا أصابت الهدف قد تجعل الذي يتوانى في المحاربة من أجل الملك يُقدم بكلّ حماسة على القتال من أجل نفسه.

14. وإذا ما اعتبرنا أهمّية أن يبقى قائد الجيش على قيد الحياة، وأنّ العدوّ يقصد إصابته هو بالذات لأنّ في ذلك ضربة لأتباعه، فإنّنا ندرك مغزى تخفّي وتنكّر كبار القادة خلال المواجهة. ومع ذلك فإنّ ما يُرتقب من هذا التنكّر ليس أفضل من عدمه: لأنّ الجنود لن

يتعرّفوا على قائدهم وسيفقدون حميّتهم وتزول الشجاعة التي يستمدّونها من نموذجه؛ سيفقدون رايته والعلامات التي تعوّدوا عليها ويظنّون أنّه هرب أو قُتل بعد أن فقد الأمل في الانتصار. تبيّن التجربة أنّ أحد الموقفَيْن ينجح تارة، وطورًا ينجح الموقف الآخر.

15. ويمكن أن نرى وجه الأمر وعكسه فيما حدث لبيروس في المعركة التي خاضها ضدّ القنصل لفينوس في إيطاليا. لقد أراد أن يتخفّى بفضل استبدال سلاحه مع ديموغاكلاس، فأنقذ حياته بلا شكّ، لكنّه كاد أن يخسر المعركة أيضا.

كان الإسكندر وقيصر ولوكولوس يرغبون في البروز أثناء المعارك حاملين بدلات وأسلحة مترفة لمّاعة. وعلى العكس من ذلك، كان أجيس وأجيزيلاس وجيليبوس العظيم يقصدون ساحة الوغى بلباس عادي ليس فيه بهرجة.

16. من بين ما تمّت مؤاخذته على بومبي في معركة فرسال (Pharsale)، كونه أمر جيشه بالوقوف في انتظار العدوّ بقدم ثابتة. أسوق لكم هنا كلام بلوتارخوس لأنّه أبلغ من كلامي: «لأنّ ذلك يضعف من عنف الضربات الأولى التي يقع تسديدها مع الجري، كما يحدّ من الاندفاع الذي يحمل المتحاربين بعضهم ضدّ بعض ويملؤهم عادة حماسةً وتهيّجًا أكثر من أيّ شيء آخر، عندما يتصادمون بقوّة ويزدادون بسالة تحت تأثير الصياح والهرولة؛ وعلى العكس فإنّ الجمود قد يحبط عزيمتهم ويضعف حماستهم».

17. هذا ما قاله بلوتارخوس عن هذا الموقف. لكن ماذا عسى أن نقول لو كُتبت الخسارة لقيصر؟ ألن نقول، على العكس، إنّ أقوى وضع وأشدّه هو الذي نظلّ فيه راسخين، وإنّ الذي يبقى ثابتا لا يتحرّك ويجمع قواه ويدّخرها قد يكون متفوّقا على من يتحرّك ويخسر نصف أنفاسه في الجري؟ هذا زيادة على أنّه يتعذّر على جيش يتكوّن من أفراد مختلفين أن يندفع بهيجان وأن يكون تحرّكه مع ذلك بصورة منتظمة وبانسجام تامّ، وألّا يصل أفضل جنوده إلى خطّ العدوّ قبل حتّى أن يلتحق بهم أصحابهم لمساندتهم.

18. خلال المعركة الرديئة التي جرت بين الأخوين الفارسيين سايروس وأرتاكزركزاس (Artaxerxès)، كان كلييارك (Cléarque) اللّقيديموني حليفا لسايروس وكان يقود اليونانيين في الحرب، فجعلهم يهجمون بهدوء ولا يتهوّرون، إلّا أنّه، قبل بلوغ الهدف بخمسين قدم، جعلهم يهرولون، أملا في ألّا يفقدوا، نظرا إلى قصر المسافة، نظامهم وأنفاسهم، وأن يمنحهم ذلك مزيدا من الشدّة والقوّة لهم ولأسلحة الرّمي التي يحملونها. ولقد وجد بعض القادة حلّا لهذه المعضلة كما يلي: إذا هاجمك العدوّ، انتظره بقدم ثابتة؛ وإذا بقي ثابتا في انتظارك، اهجم عليه دون هوادة.

19. عندما احتلّ الإمبراطور شارلكان منطقة بروفَنس، كان على الملك فرانسوا الأوّل أن يختار بين الذهاب لمواجهته في إيطاليا وبين البقاء في انتظاره في أراضيه.

كان يعلم كم من المفيد أن يحافظ على بلده من قلاقل الحرب، حتى يقتصد كامل قواه ويوفّر له ما يحتاج من المعونة والأموال باستمرار. وكان يعلم أنّ الخراب من ضرورات الحرب، وأنّنا لا نقبل به في ما نملك؛ وأنّه يسهل على الفلّاح أن يتحمّل الخراب الذي يتسبّب فيه العدوّ، لكن لا يتحمّل الذي يتسبّب فيه أهله، وأنّه من السهل في هذه الحالة الأخيرة إحداث الاضطرابات والقلاقل؛ وأنّ السرقة والنّهب لا يسمح بهما في أراضينا الخاصة بينما يكونان نافعين جدّا للجنود في محنة الحرب، لأنّه يصعب على من لا مورد له سوى راتبه أن يلتزم بواجبه عندما يكون على مقربة من بيته وزوجته؛ وأنّ من يفرش المائدة يتحمّل دائما المصاريف؛ وأنّ الهجوم يكون أكثر إثارة من الدفاع؛ وأنّ الرجّة التي تحدثها في أحشائنا خسارة المعركة قد تكون عنيفة لدرجة أنّها تمسّ الجسم كامله، إذ لا يوجد انفعال أكثر عدوى من الخوف وأسهل منه انتشارًا؛ وأنّ المدن التي تطرق العاصفة أبوابها، بعد أن يعود إليها قادتها وجنودها يرتعشون فاقدين لأنفاسهم، قد يخطر لها، عندما يحمى وطيس المعركة، أن ترمي بنفسها في الخطر.

20. ومع أنّه كان يعلم كلّ هذا، فقد قرّر أن يستدعي جنوده المستقرّين وراء الجبال وأن يبقى في انتظار العدوّ. وذلك لأنّه رأى أنّه طالما بقي في محلّه بين أصدقائه، لن ينقصه شيء وسينعم بمزايا مختلفة: ستكون الأودية والممرّات تحت تصرّفه وتحمل له الأموال والمؤن بكلّ أمان ودونما حاجة إلى حراسة؛ وسيكون رعاياه أكثر وفاء بقدر ما يكون الخطر أقرب مسافة؛ ولمّا كان يملك عددا من المدن والأسوار لتحقيق أمنه، سيكون هو صاحب القرار والمبادرة في الحرب في اللحظة التي يراها مناسبة؛ فإذا أراد المماطلة، وكان في مأمن، سيشاهد عدوّه يتقلّى وينحر نفسه. أمّا هذا العدوّ فإنّه سيجد نفسه أمام صعوبات جمّة بعدما غامر بنفسه في بلاد عدوّة يتصدّى فيها للهجمات من كلّ حدب وصوب، دون أن تكون لديه أيّة وسيلة لتجديد جيوشه أو تعزيز صفوفها إذا ما انتشر فيها وباء، ولا لوضع الجرحى في مأمن، ولا لأخذ قسط من الراحة واسترجاع أنفاسه، كما لن تكون لديه معرفة بالأماكن والقرى التي قد تجنّبه الوقوع في المزالق والكمائن، وإذا خسر معركة، لن يجد طريقة لإنقاذ بقايا جيشه.

21. ولم يكن تنقصه أمثلة على سلامة هذا الحلّ أو ذاك.

فهذا سكيبيو قد رأى من الأفضل أن يذهب لمهاجمة أراضي عدوّه في إفريقيا بدل الدفاع عن أراضيه الخاصة ومحاربة هذا العدوّ في إيطاليا، وهو بذلك قد أحسن الاختيار. لكن على العكس، خلال هذه الحرب نفسها، بُلي حَنَّبَعل بالخسارة إذ توقّف عن غزو بلد أجنبيّ وذهب للدفاع عن بلده.

ولقد ترك الأثينيون أعداءهم في أراضيهم وذهبوا للعبور إلى صقلّية، فلم يحالفهم

الحظّ. لكن كان الحظّ حليف أغاثُكلاس (Agathoclès) عندما عبر إلى إفريقيا وترك الحرب في بلده.

وعلى كلّ هذا يجوز القول إنّ ما ترجع إليه الأحداث إنّما يتوقّف في الأصل، ولا سيّما أوقات الحرب، على الصُّدف، وهذه الصُّدف لا تخضع للعقل ولا للحكمة، مثلما تصدح به هذه الأبيات:

«غالبا ما ينتصر الأخرق ولا ينتصر الحكيم،
ويبقى الحظّ عصيّا على المقاصد النبيلة،
فيجول كالأعمى في أيّ مكان،
لأنّ قوّةً تُرضخنا وتسيّرنا،
وتقود العباد حسب قوانينها»

[Manilius, IV, 95-99]

22. ويبدو، على هذا الاعتبار، أنّ قراراتنا ومشاريعنا تخضع هي أيضا للصّدف التي تولّد في أحكامنا الشكّ والاضطراب.

تقوم أحكامنا على المغامرة والمجازفة، كما قال طيماوس في محاورة أفلاطون، لأنّها تخضع للصّدفة مثلنا.

الفصل الثامن والأربعون

عن الخيل

1. ها أنّي قد أصبحت نحويًّا، مع أنّي لم أتعلّم لغة من اللّغات بغير ممارستها، ولا أعرف بعدُ ما هو النّعت، وصيغة النصب، والمفعول به. إذ روي لي أنّ الرّومانيين كانوا يملكون أنواعا من الأحصنة يطلقون عليها اسم « Funales » أو« Dextrarios »، يقودونها باليد اليمنى أو يستعملونها بالتناوب حتى تكون على تمام الاستعداد وقت الحاجة إليها. ومن هنا أُطلق إسم «جِياد» « Destriers » على أحصنة الشغل. ونجد في روايات الفروسية عموما استعمال لفظ « Adestrer » («سار على يمين...») في معنى «صاحب». كما كانوا يطلقون أيضا اسم « Desultorios Equos » على الأحصنة التي تُروَّض بطريقة تجعلها، عندما تركض أزواجا بكلّ ما أوتيت من جهد، بغير عِنان ولا سرج، تسمح لراكبيها من نبلاء الرومان، وإن كانوا مثقلين بالسلاح، بالانتقال من الواحد إلى الآخر أثناء العدو.

2. وكان حاملو السّلاح من النوميديين يقودون بالعنان جوادًا ثانيا كي يمتطوه عندما يحمى الوطيس:

«لقد تعوّدوا، كمروّضي الجياد في ربوعنا، على القفز خلال المعركة من جواد إلى آخر مدجّجين بالسلاح، منتقلين من الجواد الملتهب الحافر إلى الجواد الذي يكون في أفضل حال، بفضل خفّتهم الكبيرة وانصياع مطاياهم»

[Tite-Live, XXIII, 29]

3. هناك خيول تُروَّض لمساعدة أسيادها، وللانقضاض على من يُشهر في وجهها سيفا، وللارتماء ركلًا وعضًا على من يقف في وجهها ويهاجمها. إلّا أنّ ما يحصل في العادة هو أنّها تضرّ بأصحابها أكثر ممّا بأعدائها. زد على ذلك أنّها لا ترخي قبضتها عن العدوّ وتُبقيك رهن المعركة.

4. لقد لقي الجنرال الفارسي آرتيبي حتفه على إثر مبارزته لأونيزيل (Onésile)، ملك سالامين، إذ كان يمتطي جوادًا من هذه الطّينة: أصابه أونيزيل بسيفه بين الكتفين، بينما شبّ جواده ضدّه.

5. يروي الإيطاليون أنّ جواد ملك فرنسا شارل الثامن استطاع، في معركة فورنو، أن يتخلّص بفضل حرونه وركله للأعداء المحاصرين له، ولولا ذلك للقي الملك حتفه. لو صدقت هذه الرواية، فلعلّ ذلك كان من قبيل الصدف السعيدة.

6. يفتخر المماليك[1] بأنّهم، من بين حاملي السلاح، يملكون أكثر الجياد مهارة في العالم. تستطيع هذه الجياد، بطبعها أو بالتعوّد، أن تميّز العدوّ الذي ينبغي أن تنقضّ عليه عضًّا وحرونًا بأمر من سيّدها أو إشارة منه. وهي تستطيع أيضا أن تجمع بأشداقها الرّماح والسّهام وأن تقدّمها لسيّدها بأمر منه.

7. يروى أنّ قيصر، وكذلك بومبي، كانا فارسين ماهرين، فضلا عمّا يتميّزان به من مهارات أخرى. قيل عن قيصر مثلا إنّه كان في شبابه يركب فرسه بلا سرج ولا عنان، ويدفعه إلى الركض واضعا يديه وراء ظهره.

8. يبدو أنّ الطبيعة، إذ جعلت من قيصر والإسكندر قائدين عبقريّين في الفنّ العسكري، أرادت أيضا أن تسلّحهما بطريقة رائعة. فالجميع يعلم أنّ حصان الإسكندر، بوسيفال (Bucéphale)، وكان رأسه بحجم رأس الثّور، ولا يتقبّل أن يركبه شخص آخر غير سيّده ولا يقبل أن يروّضه أحد آخر غيره، وتمّ تمجيده بعد موته وبُنيت مدينه تحمل اسمه.

أمّا قيصر فكان حصانه يملك ساقين أوّلين بشكل ساق الإنسان، بحافرين منقسمين في شكل أصابع، وكان لا أحد يركبه أو يروّضه غيره، كما رفع له تمثالا بعد موته، أهداه إلى فينوس.

9. عندما أمتطي حصانًا، لا أرغب في النزول، لأنّني هكذا أكون في أفضل وضع، أكنتُ مريضا أو في صحّة جيّدة. كان أفلاطون يشجّع على ذلك لأنّه أمر صحّي؛ وقال بلينيوس هو الآخر إنّها وضعيّة مفيدة للمَعدة والمفاصل. لنواصل إذن في هذا الموضوع ما دُمنا طرقناه.

10. يُطلعنا كزينوفون على وجود قانون {لسايروس} يمنع كلّ من يملك حصانا من السّفر على الأقدام. وقال طروغوس وجوستينوس إنّ البارتيين (Parthes) قد تعوّدوا ركوب الحصان لا فقط وقت الحرب، بل أيضا لقضاء شؤونهم العامة والخاصة، وللتجارة والمداولة والمحادثة والتّجوال؛ وإنّ أبرز ما يفرّق بين الأحرار والعبيد هو أنّ أولئك يمتطون الحصان وهؤلاء يسيرون على الأقدام. وقد نشأ هذا العُرف في زمن الملك سايروس.

11. وهناك في التاريخ الروماني أمثلة عديدة (وقد لاحظ سُويتون Suétone ذلك

---

(1) عبيدٌ من الأتراك أو الجراكسة استخدمهم الأيّوبيون في مصر، واشتهروا بفروسيّتهم وبسالتهم.

خاصّة عند قيصر) عن قادة جيش كانوا يأمرون فرسانهم بالنزول على الأرض عندما تعترضهم صعوبة، كي يمنعوهم من كلّ أمل في الإفلات، وكي يستعيدوا تفوّقهم في هذا النوع من المعركة *«التي يَبرز فيها الرومانيون بالتأكيد»*، كما قال تيتوس ليفوس.

12. وفي جميع الأحوال كانوا، بداعي الاحتياط من تمرّد الشعوب حديثة الاستسلام، ينتزعون منها سلاحها وخيولها. لذلك غالبا ما نجد قيصر *«يأمر بنزع السلاح، ومصادرة الخيول، واحتجاز الرهائن»*. وإنّ السلطان التركي اليوم لا يسمح لا للمسيحي ولا لليهودي اللّذين يعيشان تحت إمرته بامتلاك جواد خاصّ.

13. كان أسلافنا، ولا سيّما زمن الحرب ضدّ الإنجليز[1]، في المبارزات الهامّة والمعارك المخطَّطة، غالبا ما يضعون أقدامهم على الأرض ويجازفون بشرفهم وحياتهم، لا يثقون إلّا ببأسهم وبسالتهم وشدّة أطرافهم. ذلك لأنّك، مهما قال خريزنتاس (Chrysanthas) في مؤلَّف كزينوفون، تأتمن حصانك على قيمتك ومصيرك: فإن أصيب ومات، مُتّ بالتالي معه؛ وإن كان يكرّ أو يفرّ، كنتَ باسلا أو جبانًا مثله؛ وإن لم يُطع كلامك أو منخاسك، وُضع شرفك في الميزان. فلا عجب إذن أن كانت المعارك المذكورة أعلاه تُحسم بجأش أشدّ من التي تدور بين الفرسان.

«كانوا يفرّون معا، ويهجمون معا؛ وكان لا أحد منهم، هازمًا أو مهزومًا، يرضى بالهرب»

[Virgile, *Énéide*, X, 756]

14. كانت المعارك في الماضي تجري على أحسن وجه؛ واليوم أصبحتَ لا ترى فيها سوى الهزيمة والفرار: *«تُحسم المعركة منذ الصّيحات الأولى والهجوم الأوّل»*[Tite-Live, XXV, 46] . لا ينبغي أن نجازف إلّا بحسب المبادرة؛ ولذا فإنّي أنصح باختيار أقصر الأسلحة، بل الأسلحة التي نثق بها أكثر. قد نثق بالسّيف أكثر ممّا بالرّصاصة التي يطلقها المسدّس الذي يتركّب من أجزاء كثيرة: البارود والقدّاحة والزّند؛ لأنّه إذا فسد بعضها، قُضي أمرك.

15. لا نكون على يقين أبدا من الضربة التي نسدّدها، إذا كان الهواء هو الذي يحملها،

«إنّهم يكلّفون الهواء بحمل الضربة إلى الهدف،
إلّا أنّ السّيف هو الذي يملك القوّة،
فكلّ شعب محارب يستخدم الحُسام في معاركه»

[Lucain, *La Pharsale*, VIII, VV. 384-385]

---

(1) «حرب المائة عام» بين انجلترا وفرنسا، دامت 116 سنة، من 1337 إلى 1453.

16. فيما يتعلّق بالمسدّس، سوف أتحدّث عنه بإسهاب عندما أقارن بين الأسلحة القديمة وأسلحتنا. وبقطع النظر عن دويّه المُصِمّ الذي تعوّدت عليه الآن آذاننا، أعتقد أنّه سلاح بلا جدوى حقيقية، وأتمنّى أن نستغني عنه في يوم من الأيّام.

17. كانت الأسلحة التي يستعملها الإيطاليون، من أسلحة رماية وأسلحة ناريّة، مرعبة أكثر. كانوا يطلقون اسم «فالاريكا» « Phalarica » على حربة تحمل حديدًا طوله ثلاثة أقدام قادر على اختراق درعٍ من جهة إلى أخرى. كانت تُرمى تارة بدفع اليد في الأماكن المنبسطة المكشوفة، وطورا بفضل الآلات التي تستعمل في الدّفاع عن الأماكن المحاصرة: قضيب يغطّيه كتّان وقطران وزيت، يشتعل أثناء رميه ويتشبّث بالجسم أو الدرع ويُفقد المرء كلّ قدرة على تحريك سلاحه وأطرافه. ومع هذا يبدو لي هذا القضيب مزعجًا لكلا الطرفين المتحاربين، عندما يتبارزان ويتصارعان في ساحة الوغى التي تنتشر فيها تلك القِطع المحترقة.

«محدثةً دويّا مُصرصرًا،
مدفوعةً بكلّ قوّة،
تَسقط الفالاريكا كالصاعقة»

[Virgile, *Énéide*, IX, 704]

18. كانوا يملكون أيضا وسائل أخرى مهروا في استعمالها، وإذا بدت لنا غريبة فلكوننا لم نجرّبها؛ وكانوا يستعيضون بها عن البارود والقنابل التي نملكها. كانوا يرمون رماحهم بقوّة كبيرة حتّى إنّها تخترق بضربة واحدة شخصين معًا، يحملان تُرسا ودِرعا. ولم تكن مقاليعهم أقلّ دقّة وأقلّ قطعا للمسافات:

«تعوّدوا على رمي الحجارة في البحر بالمقلاع، وعلى تمريرها عبر دوائر ضيّقة وضعت بعيدًا جدّا، فأصبحوا لا يصيبون عدوّهم في الرأس فقط، وإنّما في المكان الذي يريدون من الرأس»

[Tite-Live, XXXVIII, 29]

19. كان دويّ الآلات الحربيّة وتأثيرها لا يقلّان عن آلاتنا:

«أحدثَ دكُّ الأسوار دويّا مرعبًا، فأصاب المحاصَرين الخوف والهلع»

[Tite-Live, XXXVIII, 5]

كان الغاليون، أقاربنا في آسيا، يكرهون تلك الأسلحة الغدّارة التي تطير، إذ كانوا يتدرّبون على المبارزة المباشرة التي تتطلّب شجاعة أكثر.

«لم يكن يخيفهم أن تكون جروحهم عريضة، متى كان عرضها أكثر من عمقها، بقدر ما كانوا يفخرون بذلك. لكن عندما ينغرس السّهم أو رصاصة المقلاع في لحمهم دون أن يظهر أثر، آنذاك ينتابهم غضب شديد ويشعرون بالخزي ويتمرّغون في التّراب، لأنّ موتهم سيكون بسبب جرح بسيط»

[Tite-Live, XXXVIII, 21]

هذا الوصف شبيه بوصف الجروح التي تتسبّب فيها طلقات البندقية.

20. أثناء تقهقرهم وانسحابهم الطويل الشهير، وجد عشرة آلاف من اليونانيين أنفسهم وجها لوجه مع جماعة تسبّبت لهم في أضرار فادحة، بما كانت تملكه من أقواس ضخمة عتيدة، وسهام طويلة جدّا كانت تُمسَك وتُرمى كالرّماح فتثقب دروع العدوّ. كما كانت الآلات التي اخترعها دونيس في سيراكيوز لرمي سهام ثقيلة جدّا وحجارة ضخمة مرعبة بقوّة كبيرة وعلى مسافة بعيدة، مماثلة جدّا لاختراعاتنا.

21. أريد أن أذكر هنا السلوك الطريف للأستاذ بيار بول (Pierre Pol)، الدكتور في علم اللّاهوت، إذ تعوّد، على حدّ رواية مونسترولي (Monstrelet)، التفسّح في باريس ممتطيا بغله على الطريقة الأمازونية، يعني كالنّساء. وتحدّثَ الرّاوي نفسه أيضا عن الغاسكونيين الذين كانوا يملكون جيادا مدهشة تمّ ترويضها كي تعود القهقرى وهي تركض، الأمر الذي أدهش كثيرا الفرنسيين والبيكارديينوالفلَمنديينوالبرابنسونيين (Brabançons– البلجيكيين)، *«لأنّهم لم يتعوّدوا على رؤية ذلك»*، حسب قوله.

22. قال قيصر، متحدّثا عن السويفيين[1]: «كانوا، عندما يمتطون خيولهم في الحرب، غالبا ما يترجّلون للمبارزة على الأرض، فتمكث جيادهم دون حركة ثمّ يركبونها منطلقين بسرعة عند الحاجة. وحسب تقاليدهم، لا شيء يكون أكثر جُبنًا وقبحًا من استعمال السرج والغطاء، وكانوا يحتقرون من يستعملهما. وحتّى إذا كان عددهم قليلا، كانوا لا يخشون مهاجمة أعداء كثيرين.

23. كنت في الماضي لا أخفي إعجابي بمن يستطيع ترويض حصانه ويقوده بشتّى الطرق، بمجرّد عصا ودون استعمال العنان؛ رغم أنّ الأمر كان مألوفًا عند الماسيليين «Massyliens» إذ كانوا يركبون خيولهم دون سرج ولا عنان.

«كان الماسيليون يركبون خيلهم بلا سرج،
يقودونها بعصا ولا يكبحونها»

[Lucain, IV, 682]

(1) السويفيون (Suèves) قبيلة كانت تعيش بين نهري الراين والدانوب.

«والنوميديون أيضا يركبون خيلهم دون لجام»

[Virgile, *Énéide*, IV, 41]

«جيادهم لا تحمل لجامًا، وليست على أحسن هيئة،
عنقها صلب ورأسها مشرئبّ كما في السباق»

[Tite-Live, XXXV, 2]

24. وكان الملك ألفونس، الذي أسّس في إسبانيا مجموعة فرسان اللفافة أو الوشاح، يفرض عليهم ألّا يمتطوا بغلا ولا بغلة وإلّا دفعوا خطيّة بمارك من الفضّة. علمتُ ذلك من خلال رسائل غيفارا (Guevara)، وإنّ الذين وسموها «بالذّهبية» (حكيمة) إنّما كانوا يطلقون عليها حُكمًا مختلفًا تمامًا عن حكمي.

25. يخبرنا كتاب «رجل البلاط»[1] أنّه كان يُستقبح في الماضي امتطاء الرجل النبيل لمثل هذه الدّواب. أمّا عند الأبيسينيين (Abyssins)، فالأمر كان على عكس ذلك: إذ بقدر قربهم من أميرهم «الكاهن يوحنّا» {النجاشي (امبراطور الحبشة)، Le Négus}، كانوا يسعون إلى ركوب بغال كبيرة، للمجد والكرامة.

26. روى كزينوفون أنّ (الأشوريين Assyriens) كانوا يحبسون جيادهم دائما، بسبب طبعها الغليظ المتوحّش. كان فكّ قيودها وإلباسها السروج يتطلّب وقتا طويلا، فكانوا، تجنّبا لكلّ طارئ قد ينتج عن هذا البطء إذ قد يفاجئهم العدوّ، لا يحطّون الرحال في أيّ معسكر دون أن يبنوا له الخنادق والأسوار.

27. كان سايروس ماهرا جدّا في فنّ الفروسية، وكان يعامل جياده كأصدقائه، ولا يطعمها إلّا إذا استحقّت ذلك بعد تمارين مجهدة.

28. وكان السيثيون (Scythes)، عندما تدفعهم المجاعة إلى خوض الحروب، يرتوون من دماء جيادهم ويتغذّون بها.

«وكذلك السارماتيّ، إذ يتغذّى بدم حصانه»

[Martial, *Des Spectacles*, II, 4]

29. لمّا حاصر متلّوس الكريتيين (Crétois) ولم يترك لهم فرصة للارتواء، اضطرّوا إلى إطفاء ظمئهم ببول خيلهم.

30. إليكم دليل آخر على أنّ الجيوش التركية تقتنع بالقليل، على خلاف جيوشنا.

---

(1) هو كتاب Del Corteggiano، لصاحبه ب. دي كاستيليوني (B.. de Castiglione)، وقد كان معروفا جدّ في القرن السادس عشر، حيث نشر في مدينة البندقية سنة 1528.

يقال إنّ الجنود الأتراك لا يشربون سوى الماء، ولا يأكلون سوى الأرز واللّحوم المملّحة المسحوقة؛ بحيث كان يسهل على كلّ واحد أن يحمل معه مؤونة شهر كامل. لكن كانوا قادرين أيضا على التغذّي بدماء خيولهم، بتمليحها مثلما كان يفعل التّتار وأهالي موسكو.

31. عندما وصل الأسبان إلى جزر الهند الغربية، استقبلتهم الشعوب على أنّهم، مع خيولهم، آلهة أو حيوانات متفوّقة عليهم وأشرف منهم. وكان أن تقدّم بعض المهزومين لطلب السّلم والمغفرة، فعرضوا الذهب واللّحوم على المنتصرين، وقاموا بالشيء نفسه مع الخيول إذ توجّهوا لها بنفس الخطاب، ظنّا منهم أنّ صهيلها يعبّر عن استعدادها للتفاهم والهدنة.

32. وفي الهند الشرقية، كان ركوب الفيل شرَفًا ملكيّا عظيمًا؛ ثمّ تلاه شرف ركوب عربة تجرّها أربعة أحصنة؛ ثمّ شرف امتطاء جمل. وكانت آخر درجة وأدناها في سلّم الشرف تتمثل في ركوب حصان أو عربة يجرّها حصان واحد. روى أحد معاصرينا أنّه شاهد في ذلك البلد مناطق يمتطي أهلها ثيرانا مبردَعة، لها ركاب وعنان، وقال إنّه استحسن هذه الوسيلة للتنقّل.

33. عندما كان كوينتوس فابيوس ماكسيموس روتليانوس (Quintus Fabius Maximus Rutilianus) يحارب السامانيين، وأدرك أنّ فرسانه، رغم هجومهم ثلاث مرّات أو أكثر، لم ينجحوا في اختراق كتائب العدوّ، قرّر ما يلي: أن يطلقوا العنان لمطاياهم وينخسوها بكلّ شدّة حتّى لا يوقفهم أيّ حاجز؛ وهكذا استطاعوا أن يدحروا العدوّ وأن يفتحوا الطريق أمام المشاة الذين واصلوا تحقيق النّصر.

34. وهذا ما فعله أيضا كوينتوس فولفيوس فلاكوس (Quintus Fulvius Flaccus) ضدّ السلتباريين (Celtibères):

«سيكون الاصطدام أشدّ إذا أطلقتم العنان لجيادكم أثناء هجومكم على العدوّ؛ فهذه الطريقة قد نجحت كثيرا في الماضي وحقّقت المجد للفرسان الرومانيين. فبعد إطلاق عنانها، اخترقت الجياد صفوف العدوّ مرّتين، تكرّ وتفرّ، مكسّرة الرماح متسبّبة في مجزرة»

[Tite-Live, XI, 40]

35. في غابر الزمان، كان دوق موسكو يظهر هذا الوجه من الاحترام للتّتار: كان عندما يرسلون إليه سفراءهم، يسير نحوهم مشيًا على الأقدام، ويقدّم لهم كوبًا من حليب الفرس (وهو شراب لذيذ عندهم)؛ فإذا سقطت بعض القطرات على شعر الفرس، وجب أن يلعقوها بلسانهم.

36. اعترضت الجيش الذي أرسله بايزيد الثاني (Bajazet II) إلى روسيا عاصفة ثلجيّة شديدة لدرجة أنّ بعضهم فكّروا في الاحتماء منها ومقاومة البرد بقتل أحصنتهم وفتح بطونها والجثوم فيها للاسفادة من دفئها.

37. بعد المعركة العنيفة التي انهزم فيها أمام تيمور لنك، فرَّ بايزيد الأول (Bajazet 1Er) على حصانه العربيّ لا يلوي على شيء، ولمّا كان بصدد عبور بعض الوديان، اضطرّ إلى تركه يشرب دون حدٍّ، فأصبح رخوًا ليّنًا، فسهل على العدوّ الالتحاق به. قيل إنّ الحصان إذا تبوّل ارتخى؛ وفي رأيي أنّه إذا أطفأ عطشه، انتعش.

38. بينما كان يعبر قرب مدينة سارد (Sardes)، وجد كريزوس (Crésus) مراعي تكاثرت فيها الثعابين، فأخذت أحصنته تلتهمها بشراهة - وكان ذلك، حسب هيرودوت، فألا سيّئا لأعماله.

39. نسمّي «حصانًا كاملًا» ذلك الذي يملك أذنين وشعرًا على رقبته. عندما انتصر اللاقيديمونيون على الأثينيين في صقلّية، وعادوا محتفلين إلى مدينة سيراكوزا، تبجّحوا بجزّ أحصنة المهزومين وعرضوها في محفلهم.

40. لقد حارب الإسكندر شعبًا من السّيث، يُدعى داهي (Dahes)، كان جنوده يتنقّلون بأسلحتهم أزواجًا على ظهر الحصان نفسه. لكن خلال المعركة كان كلّ زوج يترجّل أحدهما تارة والآخر طورًا، وكانت المعركة تجري تارة على الحصان وطورا على الأقدام.

41. لا أظنّ أنّ شعبًا من الشعوب يتفوّق علينا في الفروسية وركوب الخيل. ومع ذلك فإنّ عبارة «فارس جيّد» تشير إلى الفارس المقدام أكثر ممّا تشير إلى فارس ماهر. إنّ أفضل فارس عرفته، والأكثر شدّة وتحكّما في فرسه، هو في رأيي السيّد كرنفالي (Carnavalet)، الذي كان في خدمة مَلكنا هنري الثاني.

42. شاهدت جوادا يركض بكلّ سرعة، مطلَق العنان، وكان سيّده واقفا فوقه، يتناول السرج تارة ويرميه على الأرض، ويعود طورا ليخطفه ويضعه تحته ويجلس عليه؛ مرّ فوق قبّعة فرماها من خلف بسهام قوسه؛ وكان يجمع ما يريد من الأرض، من دون أن تغادر قدَمه الرّكاب. وكان يستعرض ألعابًا بهلوانية أخرى، في سبيل أن يقتات.

43. في زمن مضى، في القسطنطينية، شوهد رجلان يركبان حصانهما معا ويدفعانه إلى الركض، ثمّ يترجّلان الواحد تلو الآخر ويعودان فوق السرج؛ وشوهد آخر يُلبِس الحصان لجامه وسرجه مستعملا أسنانه فقط؛ وآخر يقف بين حصانين يركضان بأقصى سرعة، واضعا كلّ ساق من ساقَيْه على سرج، حاملا إليه رجلا بذراعيه، فإذا استعدّ هذا الأخير، رمى بسهامه نحو هدف بينما يستمرّ الحصان في الركض؛ وآخرون يركضون

بأقصى سرعة، أرجلهم إلى فوق ورؤوسهم إلى أسفل محاذية لنصول السّيوف المعلّقة بالسّرج.

44. وفي طفولتي شاهدت أمير سلمون، في مدينة نابولي، يلعب بجواده الجموح ألف لعبة، ماسكًا تحت ركبتيه وبين أصابع قدميه قطعا نقديّة كما لو كانت مسمّرة فيها، حتّى يُظهر لنا ثبات توازنه.

الفصل التاسع والأربعون

عن التقاليد القديمة

1. أفهم جيّدا كون أهالينا لا يقتدون إلّا بعاداتهم وتقاليدهم ولا يَنصاعون لغيرها؛ ذلك لأنّ العيب الحاصل، لا عند العامّة فحسب، بل عند معظم النّاس، هو أنّهم لا يدور بخلَدهم أن يسلكوا على خلاف السائد في الربوع التي وُلدوا فيها. قد لا أمانع أن تحكموا بالتوحّش على سلوك فابرسيوس وليليوس وعلى هيئتهما، لكونهما لا يرتديان ثيابا مرتّبة وفق ذوقنا؛ لكن قد أستاء ممّن أراهم ينخدعون بسرعة وينطلي عليهم السائد لدرجة أنّهم يغيّرون من مواقفهم وآرائهم كلّ شهر وكلّما اقتضت موضة العصر، رغما عن كلّ شيء.

2. عندما كانت الأسلاك التي تَمسك الصّدرية تقع على مستوى الصّدر، كان ذلك يُعلَّل بأسباب كثيرة. بعد سنوات، أصبح موضعها بين الفخذين، وأصبحنا نتهكّم الآن من الاستعمال القديم ونراه أخرق ولا يُطاق. إنّ طريقة اللّباس الجديدة تجعلنا نزدري الطريقة القديمة، وقد نكون واثقين من رأينا متأكّدين منه، كما لو أصابنا مَسّ من الجنون.

3. لمّا كانت تقلّباتنا في هذا المجال سريعة جدّا ومفاجئة، وكان خيال كلّ الخيّاطين في العالم لا يفي بإبداع الجديد، فإنّ ما يحصل في الغالب هو أنّ الأشكال التي نحتقرها قد يعود مجدها، والأشكال التي نعجب بها قد تصبح موضوع احتقار. إنّنا نقف، في مدّة خمسة عشر سنة أو عشرين سنة، على رأيَيْن أو ثلاثة آراء لا تكون مختلفة فيما بينها فحسب، بقدر ما تكون متناقضة تماما، ونبقى متقلّبين هكذا بصورة هوجاء. وتنطلي هذه الخزعبلات على من هو أكثر فطنة فينا، وينبهر بصره وبصيرته من دون أن يشعر.

4. أريد أن أعدّد هنا ما أتذكّره من التقاليد القديمة، المماثلة لتقاليدنا والمغايرة، وأن أستحضر ذلك التغيّر المستمرّ لأحوال النّاس، حتى يكون حكمنا أكثر وضوحا وثباتا.

5. كانت «معركة العباءة والسّيف»، كما يُطلق عليها، معركة مألوفة عند الرومانيين، حسب قيصر: «كانوا يلفّون معاطفهم حول أذرعهم اليسرى ويستلّون سيوفهم» (قيصر، الحرب الأهليّة، I، 175). وقد لوحظ مثل هذا السلوك عندنا، حيث ترانا نعترض المارّة ونرغمهم على التصريح بهويّتهم، ونعتبر إمساكهم عن الجواب إهانة ودافعا للشجار.

6. كان القدامى يستحمّون كلّ يوم قبل الأكل، وكانوا يفعلون ذلك مثلما نغسل نحن

أياديناء كانوا في الأوّل يقتصرون على غسل الذراعين والساقين، ثمّ جرت العادة طيلة قرون عديدة، في معظم بلدان العالم، أن يغتسلوا عراة تماما بماء معطّر، فكانوا يعتبرون من البساطة بمكان أن يغتسل المرء بالماء العادي. كان أكثرهم رقّة وتهذيبا يعطّرون أجسامهم ثلاث مرّات أو أربع في اليوم على الأقلّ. وكانوا غالبا ما ينتفون شعرهم بالملقط، على منوال النّساء الفرنسيّات اللّائي تعوّدن منذ زمنٍ على نتف الجبين،

«منتّفًا صدرك وذراعيك وساقيك...»

[Martial, *Épigrammes*, II, LXII, 1]

رغم توفّر المراهم التي جُعلت للغرض:

«تدهن بشرتها بالمراهم أو تدلكها بالطباشير»

[Martial, *Épigrammes*, VI, XCIII, 9]

7. كانوا يحبّون الارتخاء على فراشٍ ناعم، ويعتبرون النّوم على حشية دليلًا على الاحتمال والصّبر. وكانوا يتناولون طعامهم متّكئين على الفراش، على منوال الأتراك اليوم.

«ثمّ من أعلى فراشه، شرع إيني الجليل في الكلام»

[Virgile, *Énéide*, II, 2]

ويروى عن كاتون الشاب أنّه، منذ معركة فرسال (Pharsale)، وبعد حداده بسبب الحالة السيّئة التي أضحت عليها الشؤون العامّة، كان يتناول طعامه جالسًا، ويعيش متقشّفًا.

8. وكان القدامى يقبّلون أيادي العظماء إجلالًا لهم وتملّقًا. كما كانوا، فيما بين الأصدقاء، يحيّون بعضهم بعضا بالقُبلات، مثلما يفعل سكّان البندقيّة.

«عندما أهنّئك، سأقبّلك
وأقول لك كلامًا لطيفًا»

[Ovide, *De Ponto*, IV, 9]

9. وعندما يؤدّي بعضهم التحيّة لشخصيّة مرموقة أو يطلب منه خدمة، كان يلمس ركبتيه. يروى أنّ الفيلسوف باسيكلاس (Pasiclès)، شقيق كراتاس، عوض أن يوجّه يده إلى ركبتي الشخص الذي كان يتحدّث إليه، وجّهها صوب أعضائه التناسلية، فنهره بشدّة، فقال له: «ماذا؟ أليس هذا الجزء لك، كالجزء الآخر؟»

10. كانوا مثلنا يتناولون الفاكهة عندما ينتهون من الأكل. وكانوا يمسحون دُبورهم

(دعوا النّساء يستأن وحدهنّ من الكلام الفجّ) بإسفنج: ولهذا أصبحت كلمة «إسفنج» «Spongia» كلمة قبيحة في اللاتينية. وكان الإسفنج يُربط في طرف عصا، كما تشهد بذلك قصّة الرجل الذي وُضع في حلبة كي تفترسه السباع أمام المتفرّجين، فاستأذن للذهاب والقيام بحاجة بشريّة، فلمّا لم يجد طريقة للانتحار، حشا العصا والإسفنج في حلقه فاختنق ومات.

وكانوا أيضًا يمسحون «الأشياء» بعد الاستعمال بصوف معطّر،

«أنت، لن أفعل لك شيئا؛ لكن
بعد أن أمسح ذَكَري بالصّوف...»

[Martial, XI, 58] 11.

11. كان يوجد في مدينة روما، في مفترق الطّرقات، آنية وأحواض كي يتبوّل فيها المارّة:

«وغالبا ما يحلم الأطفال النّيام
أنّهم يرفعون ثيابهم أمام آنية البول».

[Lucrèce, IV, 1020-21]

12. كانوا يتناولون أُكلة خفيفة بين الوجبات. وكان هناك في الصّيف باعةُ ثلج لتبريد النّبيذ؛ لكن حتّى في فصل الشتاء، كان هناك من يستحقّ الثلج لمزيد التبريد. كان لكبار القوم من يسقيهم الخمر، وموظّف معه سكين حاد (Écuyer Tranchant)(1) لقطع اللّحم. كان لهم أيضا «مهرّجون» لتسليتهم. وفي الشتاء، كانت اللّحوم تُقدَّم لهم على مدفأة فوق الطاولة؛ وكان عندهم نوع من المطابخ المحمولة، رأيتُ مثلها، تحتوي على كلّ الأدوات اللازمة للعمل،

«اتركوا الأطباق لأنفسكم، يا مجتمع الأثرياء،
فنحن لا نتحمّل تلك المطابخ المتنقّلة»

[Martial, VII, XLVIII, 4]

13. وفي الصّيف، في القاعات السّفلية، كانوا غالبا ما يسيّلون مياهًا عذبة نقيّة في قنوات توجد فيها أسماك حيّة، يختار الحاضرون من بينها ويمسكونها بأيديهم ويقدّمونها للإعداد كلٌّ حسب ذوقه. إنّ ما يميّز السمك دائما، حتّى اليوم، هو أنّ كلّ

---

(1) هو مأمور يتكلّف بقطع اللّحوم على مائدة الأمراء، وبإعداد الأكل والشرب للملك في المناسبات الكبيرة.

واحد من الأكابر يتشدّق بمعرفة طبخه؛ وإنّ طعمه بالتأكيد ألذّ من طعم اللّحم، على الأقلّ هذا ما أراه.

14. وفي الحقيقة فإنّنا، في كلّ أنواع البذخ والفسق والملذّات والشهوات والنعومة والكماليات، لا نكاد نتجاوز القدامى. ذلك لأنّ همّتنا، وإن كانت لا تقلّ فسادًا عن همّتهم، تنقصها القدرة، فهي أضعف من قدرتهم؛ إنّ قدرتنا لا تضاهي قدرتهم، في الفساد كما في الفضيلة؛ لأنّ الفساد والفضيلة يتأصّلان في قوّة عقولهم التي كانت، دون وجه للمقارنة، أعظم كثيرا من قوّة عقولنا. فبقدر ما تكون النّفس أقلّ بأسا، تكون لها وسائل أقلّ لفعل الخير أو لفعل الشرّ.

15. كان مكان الشرف على المائدة، عند القدامى، هو الوسط. وفي الحديث أو الكتابة، لم يكن مهمّا أو حاملًا لأيّ دلالة أن يُذكر أحدٌ قبل الآخر أو بعده، مثلما نرى بوضوح في كتاباتهم حيث كانوا لا يرون فرقا بين أن يقولوا «أوبيوس وقيصر» أو «قيصر وأوبيوس»، وكذلك بين أن يقولوا «أنا وأنت» أو «أنت وأنا».

16. وهكذا فقد لاحظت في الترجمة الفرنسية لكتاب بلوتارخوس «سيرة فلامنيوس» (Vie De Flaminius) أنّ المؤلّف، عندما يتحدّث عن الحسد الذي نشأ بين الإيتوليين (Etoliens) والرومانيين بشأن شرف الانتصار في معركة خاضوها وربحوها معًا، يعطي بعض الأهمّية إلى كون الأناشيد الإغريقية تَذكر الإيتوليين قبل الرومانيين. وإلّا فقد يكون هناك بعض اللُّبس في الترجمة الفرنسية!

17. وكانت السيّدات، في الحمّامات، يستقبلن الرجال، وتيستخدمن عبيدهنّ لدلكهنّ وطليهنّ بالمراهم.

«ينتظر العبد أوامرك، على حزامه فوطة،
عندما تظهرين عُريَك في الحمّام الدافئ».

[Martial, VII, 35]

وكنّ يرششن بعض المساحيق على أجسامهنّ لتجفيف العرق.

18. كان الغاليّون القدامى، حسب سيدوان أبولينار (Sidoine Apollinaire)، يتركون شعرًا طويلا في مقدّمة الرأس ويحلقون آخره؛ وقد تكرّر هذا التقليد في موضة عصرنا المخنَّثة والمتسيّبة.

19. كان الرومان يدفعون ما ينبغي دفعه لأصحاب المراكب حال ركوبهم، بينما نحن ندفع فقط حال وصولنا إلى الميناء.

«تمرّ ساعة كاملة في ربط البغل وخلاص الرحلة»

[Horace, *Satires*, I, 5]

20. كانت المرأة تنام على السرير من جهة الزقاق Du Lit Ruelle الذي يفصل السرير عن الحائط [أي الممر بين الحائط والسرير]. ولهذا كان يطلق على قيصر «زقاق الملك نيكوماد»[1].

21. كانوا يستعيدون أنفاسهم وهم يشربون. وكانوا يخفّفون نبيذهم بالماء،

«أيّ صبيّ سيخفّف
من حرارة شراب الفالرن
بهذه المياه التي تجري بالقرب منّا؟»

[Horace, *Odes*, II, XI, 18-20]

وكانت جرأة خدمنا تظهر حتى في تلك الأزمنة.

«يا جانوس، لا أحد يستبلهك من خلف،
ولا أحد يحرّك يدين بيضاوين،
ولا لسان كلب أبولي المتدلّي عطشًا»

[Perse, I, 58-60]

22. كانت سيّدات آرغوس (Argos) والسيّدات الرومانيات يرتدين الأبيض حِدادا، مثلما كانت تفعل سيّداتنا في الماضي ومثلما كان عليهنّ أن يواصلن، حسب اعتقادي. لكن توجد مؤلّفات كاملة في هذا الموضوع.

---

(1) كانت علاقة يوليوس قيصر بالملك نيكوماد الرابع علاقة لواط؛ انظر سويتون، «حياة يوليوس الإلهي» (*Suétone, Les Douze Césars, Jules César, édition le Livre de Poche, Paris 1973 chapitre 49*).

الفصل الخمسون

عن ديمقريطس وهيرقليطس

1. الحُكم أداة تنفع في كلّ موضوع؛ لذلك أتحيّن الفرصة دائما لتوظيفه في هذه «المقالات». فإذا تعلّق الأمر بموضوع أجهله، حاولتُ أن أختبره فيه: أسبر غور النهر من بعيد، فإذا وجدته عميقا بالنسبة إلى حجمي، بقيت على الحافة. كوني أعترف بعجزي عن العبور، فهذا دليل على ميزة حكمي الذي يستحق أن أفخر به. أطبّقه تارة في مسألة جوفاء خاوية من كلّ معنى، حتى أرى ما إذا كان قادرًا على دعمها وتأثيثها، وأوجّهه تارة أخرى نحو موضوع مرموق ومطروق لا يمكنه أن يقدّم فيه إضافة... وقد يحلو له آنذاك أن يختار الطريق الذي يبدو له الأفضل، مفضّلا هذا أو ذاك من بين آلاف السبل الممكنة.

2. إنّي أتناول أوّل موضوع يتبادر إلى ذهني: إذ تتساوى عندي كلّ المواضيع، ولا أسعى أبدا إلى معالجتها بكاملها، لأنّني عاجز عن الإلمام بأيّ أمر من الأمور. وحتى الذين يعِدوننا بذلك إنّما هم عاجزون أيضا. ومن بين الوجوه والأطراف العديدة لشيء ما، أركّز على أحدها، فألمسه أحيانا وألحسه فحسب، وأحيانا أقرضه حتى العَظم. أغرس فيه مشرطي ليس بالعَرْض وإنّما بأعمق ما يمكن. وفي الغالب أحبّ أن أدرك الأمور من جهة طرافتها.

3. لو كنت لا أعرف نفسي بما يكفي، وكنت مغرورا في تحديد قدراتي، لجازفت بمعالجة بعض المواضيع بعمق. لأخذتُ كلمة من هنا وأخرى من هناك وقدّمتُ عيّنات خارج إطارها، دونما غاية تذكر ودونما وعدٍ وعدتُ به قارئي، ولما وجدت نفسي ملزَمًا باستخلاص نتيجة ولا بالبقاء على الأمر نفسه دون أن أغيّر من رأيي عندما يحلو لي ذلك؛ ولاستسلمتُ للارتياب والتشكّك، بل للحالة التي تغلب عليّ: حالة الجهل.

4. كلّ حركة تكشف عنّا. تتجلّى روح قيصر عند الترتيب لمعركة فارسال وعند قيادتها مثلما تتجلّى أيضا من خلال الترتيب لأمور دقيقة ولا غاية لها... قد نحكم على الخيل لا فقط عند ركوبها، بل أيضا عندما نشاهدها تسير الهُوَيْنى وعندما تخلد للراحة في الإسطبل.

5. للنّفس وظائف دنيئة، ونحن لا نعرفها حقّ المعرفة ما لم ننظر إليها من هذه الزاوية. وقد تكون رؤيتنا لها أفضل إذا كانت على ما هي عليه. تغمرها الأهواء وتطغى خاصة على استعداداتها النبيلة. فضلا عن كونها تتعلق بكلّ هوى ولا تركّز على أكثر من واحد في كلّ مرّة. كما أنّها لا تتعامل مع الهوى لما هو في ذاته وإنّما بالنظر إلى رأيها فيه. قد يكون للأشياء ثقلها وأبعادها وخصائصها، لكن في داخلنا وفي باطننا، تعيد النّفس صقلها كما يحلو لها.

6. في نظر شيشرون، الموت رهيب؛ وهو عند كاتون مرغوب فيه؛ أمّا سقراط فهو لا يكترث به. الصّحة والضمير والسلطة والمعرفة والثروة والجمال – ومقابلاتها – تخلع ثيابها عندما تُقبل على النفس، التي تمنحها بدلة جديدة مع اللّون المناسب: بنّي، أخضر، فاتح، داكن، صارخ، ناعم، عميق، سطحي... وتقرّر كلّ نفس النمط الذي تريد، لأنّ النفوس لا تشترك معا في تحديد أساليبها وقواعدها ونماذجها: فكلّ نفس إنّما هي سيّدة بيتها.

7. وعليه يجب ألّا نتذرّع بالسمات الخارجية للأشياء: بل يجب أن نحاسب أنفسنا لا غير؛ خيرُنا وشرّنا يتوقّفان على أنفسنا لا غير. علينا أن نقدّم هدايانا ودعواتنا إلى أنفسنا، لا إلى «القدر»: فهو لا قدرة له على طبعنا؛ بل إنّ طبعنا هو الذي، على العكس، يجرّه وراءه ويمنحه صورته.

8. تُرى لماذا لا أحكم على الإسكندر وهو على المائدة يتحدث ويشرب الخمر؟ أو بينما هو يلعب الشطرنج؟ ما الذي جرى لفكره بسبب هذه اللّعبة الغبيّة والصبيانية؟ (لعبة أكرهها وأنفر منها، لأنّها ليست لعبة بحقّ بقدر ما تجعلنا نلهو بشكل جدّي للغاية: إنّي أخجل من الاهتمام بها عوض الاهتمام بشيء أفضل). لم يكن الإسكندر، عند استعداده للعبور الشهير إلى الهند، منهمكًا أكثر ممّا في لعبة الشطرنج. ولا الآخر الذي يدأب على استجلاء معنى آية يتوقّف عليها خلاص الإنسانية !

9. انظروا كم تغيّر النّفس هذا اللّهو التّافه، كم تنفخ فيه وتضخّمه، وكم تشتدّ أوتارها. وكم تقدّم لكلّ واحد الفرصة والمناسبة لمعرفة نفسه والحكم على نفسه حقّا! لا أرى مناسبة أفضل لمعاينة نفسي وفحصها بصورة أكمل؛ فأيّ انفعال يحرّكها؟ إنه الغضب، والخيبة، والكره، ونفاد الصبر، والرغبة الشديدة في الانتصار، في مجال قد يُعذر فيه من يأمل في الهزيمة. ذلك لأنّ التفوّق الخارق في نشاط سخيف تافه لا يليق برجل صالح. وإنّ ما أقوله هاهنا يصدق في كلّ ظرف آخر. فكلّ جانب في الإنسان وكلّ عمل من أعماله يكشف عنه ويعرّيه.

10. من بين الفيلسوفين ديمقريطس وهيرقليطس، كان أوّلهما يصف وضع الإنسان

بالسخف والتفاهة، فلا ترى على وجهه سوى الابتسامة الساخرة، بينما كان الثاني يشعر، تجاه هذا الوضع نفسه، بالعطف والشفقة، ويبدو دائما حزينًا وعيناه مغرورقتان بالدموع.

«حالما تطأ أقدَامهما خارج البيت
يشرع أحدهما في الضحك والآخر في البكاء»

[Juvénal, X, 28]

11. أفضّل الموقف الأوّل، ليس لأنّ الضحك ممتع أكثر من البكاء، وإنّما لكونه أكثر استخفافا بنا وأشدّ قسوة علينا. إذ يبدو لي فعلا أنّه لا يمكن احتقارنا أبدا بقدر ما نستحقّ. فالشفقة والرحمة تفترضان بعض التقدير للشيء الذي نشفق عليه، بينما ترانا لا نعطي أيّة قيمة للشيء التي نسخر منه. لا أعتقد أنّ شقاءنا يفوق طيشنا، وأنّ شرّنا يفوق حُمقنا؛ إنّ شرّنا أقلّ من تفاهتنا، وتعاستنا لا تصل إلى درجة مكرنا.

12. ولذلك فإنّ ديوجانس، إذ كان يتسكّع دافعا برميله كما يحلو له، وإذ كان يسخر من الإسكندر، ويعتبرنا كلّنا بمثابة الذباب أو القِرَب المملوءة هواء، قد كان حكمه أشدّ قسوة وأكثر حدّة، وكان بالتالي، في رأيي، أكثر صدقا وصحّة من تيمون الذي أُطلق عليه اسم عدوّ الإنسانية. ذلك لأنّ ما نكرهه يبقى قريبا من قلوبنا. وقد كان تيمون يضمر لنا الشرّ، ويرغب في هلاكنا بشدّة، وينفر من اجتماعنا ويرى فيه اجتماع أشرار فاسدين يشكّلون خطرًا عليه. أمّا الآخر، فهو على العكس لا يقدّرنا بالمرّة حتّى إنّنا لا نعني في نظره شيئا ولا نزعجه ولا نؤثّر فيه، فإذا نفرَ من صحبتنا كان ذلك احتقارًا لنا وليس خوفا منّا: فنحن في تقديره لا ننفع ولا نضرّ.

13. كانت إجابة ستاتليوس على اقتراح بروتوس بأن ينضمّ إليه للانقلاب على قيصر، على نفس المنوال: لقد وجد المبادرة عادلة وطيّبة، إلّا أنّ البشر لا يستحقّون أن نخاطر من أجلهم. وهكذا فقد امتثل لمذهب هيجزياس الذي قال إنّ كلّ ما يفعله الحكيم ينبغي أن يفعله لنفسه، لأنّه وحده يستحقّ أن يُفعل شيء له. وكذلك امتثل لرأي ثيودور إذ كان يزعم أنّه ليس من العدل في شيء أن يخاطر الحكيم بحياته في سبيل بلده، وأن يضع هكذا الحكمة في خطر من أجل مجانين البشر.

لئن كان وضعنا الفردي سخيفًا تافهًا، فهذا ما قد يجعلنا نسخر منه.



الفصل الحادي والخمسون

عن التبجّح في الكلام

1. كان أحد الخطابيين القدامى يقول إنّ مهنته تتمثّل في جعل الأمور البسيطة تبدو عظيمة؛ شأنه شأن الإسكافي الذي بوسعه أن يصنع حذاء كبيرا من أجل قدم صغيرة. لو كان في إسبرطة لجُلِدَ لتبجّحه بممارسة فنّ يقوم على الخداع والكذب. وأظنّ أنّ ملك هذه المدينة، أرخيدامـوس «Archidamus»، كانت دهشته كبيرة لمّا سمع جواب توسيديد «Thucydide» [1] على سؤاله عمّن كان الأقوى في المصارعة، هو أم بيريكلاس «Périclès»، إذ قال: «من الصعب أن أحدّد ذلك، لأنّني كلّما طرحته أرضًا، أقنعَ كلّ المشاهدين بأنّه لم يسقط، وبالتالي فهو الذي يفوز».

2. إنّ النّساء اللّائي يتزيّنّ بالمساحيق لا يفعلن بنا شرًّا عظيمًا، لأنّنا لا نخسر الكثير إذا لم نراهنّ على طبيعتهنّ، بينما يسعى الآخرون، لا إلى مغالطة أنظارنا، وإنّما إلى مغالطة أحكامنا، وإلى إفساد الأشياء في ماهيتها بالذات. إنّ الدّول التي طال حكمها وظلّ مستقرّا، مثلما في كريت أو لقيديمونيا، لم تُعر خطباءها بالغ الاهتمام.

3. لقد عرّف أرسطون فنّ الخطابة بأنّه فنّ إقناع الجمهور. وهو عند سقراط وأفلاطون فنّ المغالطة والتملّق. ومع أنّ بعضهم يزعمون عكس هذا التعريف، إلّا أنّهم يثبتونه في كامل مبادئهم.

4. ولقد منع المسلمون تلقينه للأطفال ولم يروا فيه منفعة. أمّا الأثينيون، فبعدما تبيّنوا سوء استعماله، ورغم المكانة التي كان يحظى بها في مدنهم، إلّا أنّهم أمروا بإلغاء أهمّ قسم من أقسامه إذ يتمثل في تهييج الأهواء، كما بالاستغناء عن المداخل والخواتم.

5. الخطابة آلة تمّ اختراعها من أجل تهييج الجمهور المتمرّد، وهي لا تستعمل إلّا في الدول المريضة، كالطبّ بالنسبة إلى الأبدان. في البلدان التي صعد فيها الرّعاع والجهّال والنّاس عموما إلى سدّة الحكم، مثلما في أثينا ورودس وروما، أقبل الخطباء

---

(1) هو ليس توسيديد المؤرّخ، وإنّما رئيس الحزب الأرستقراطي المعارض لبيريكلاس، حسب ما رواه بلوتارخوس في مؤلّفه «بيريكلاس»، الفصل الخامس.

وفودا. وبالتأكيد، قلّة من الناس كان لهم في هذه الدول تأثير عظيم دون مساعدة من البلاغة: فبومبي وقيصر وكراسوس ولوكولوس ولنتولوس ومتلّوس قد نهلوا منها ما أفادهم للصعود إلى الدرجة التي أصبحوا أخيرا عليها؛ بل لعلّها أفادتهم أكثر من السلاح حتّى، على خلاف ما يحدث في الأزمنة التي تشهد أقلّ اضطرابا.

6. إليكم ما قاله ل. فولمنيوس (L. Volumnius) مخاطبًا الجمهور بمناسبة انتخاب ك. فابيوس (Q. Fabius) وب. دسيوس (P. Decius) في القنصلية: «هذان الشخصان وُلدا للحرب وللأعمال المجيدة، ولا يتقنان الهذر: إنّهما عقلان قنصليان بالتأكيد. أمّا المتمحّكون والبلغاء والعلماء فإنّهم يصلحون في المدينة، حيث يكونون قضاة ويحكمون بالعدل».

7. لقد ازدهرت البلاغة في روما كلّما فسدت أوضاعها العامة وهزّتها عواصف الحرب الأهلية؛ وذلك على نحو ما تنمو الأعشاب القويّة في الأرض البور التي أُهملت ولم تُزرع. وعليه يجوز القول إنّ المجتمعات التي تخضع لحكم ملك تكون حاجتها للبلاغة أقلّ من غيرها، لأنّ الشعب الغبيّ الضعيف يملك آذانا تجعله عرضة للتحريض والإثارة. إنّه ينصاع للخطب المنمّقة الموجّهة إليه، ولا يكلّف نفسه مشقّة تقدير الأمور ومعرفة حقيقتها بطريقة معقولة. لكنّ هذا الوضع لا يصدق دائما على الفرد، إذ تسهل وقايته من هذا السمّ بفضل تربية سليمة ومبادئ جيّدة. لم يحدث أن ظهر خطيب شهير في مقدونيا أو في بلاد فارس!

8. إن كنت ذكرت الخطابة، فمن أجل أن أذكر رجلا إيطاليا تحادثت معه وكان كبير الخدم في منزل المرحوم الكاردينال كاراف (Caraffe) حتى وفاته. سألته عن وظيفته، فقدّم لي عرضًا حول علم التغذية بحزم ووقار شديدَيْن، كما لو كان يحدّثني عن مسألة هامّة من مسائل اللاهوت...

9. شرح لي مختلف أنواع الشهيّة: الشهيّة بعد الصّوم، والشهيّة بعد الطبق الثاني والطبق الثالث؛ كما تطرّق إلى وسائل إخمادها أو إيقاظها وإثارتها؛ وحدّثني عن ترتيبه لأنواع الصلصة عمومًا، ثمّ عن خصوصياتها ومكوّناتها؛ وعن أنواع السّلَطة واختلافها حسب الفصول؛ أيّها ينبغي تسخينها وأيّها تُقدَّم باردة، وطريقة تزيينها وتجميلها كي تعشقها العين. وبعد ذلك انتقل للحديث عن ترتيبه لشغله وعن مميّزاته الهامة.

«من الأهمّية بمكان أن نحسن التمييز
بين قَطع لحم الأرنب وقَطع لحم الدجاج»

[Juvénal, V, 123]

10. كان حديثه مثريًا رائعًا، وكانت كلماته نفس الكلمات التي تستعمل في وصف سياسة الدولة! وفي هذا المضمار، احتفظت بهذا التذكار:

«هذا مالح جدّا، وهذا احترق؛
وهذا لا طعم له، وهذا لذيذ:
تذكَّره في المرّة القادمة...
أُعلّمهم ما أمكَنَ، ما أعلم.
وفي الأخير أدعوهم، يا «ديميا»،
إلى رؤية وجوههم في الأواني
منعكسة كما في المرايا،
وأشير لهم بكلّ ما سيفعلون».

[Térence, *Adelphes*, III, 3]

11. والحقيقة أنّ اليونانيين أنفسهم قد بالغوا في مدح الطريقة التي رتّب بها بول-إميل المأدبة التي أعدّها لهم إثر عودتهم من مقدونيا. لكن موضوع حديثي هنا ليست الأشياء الواقعية وإنّما هي الكلمات فحسب.

12. لا أدري هل أنّ الآخرين يفكّرون مثلي؛ لكن عندما أسمع المهندسين المعماريين يتغرغرون بهذه المصطلحات الفخمة، «أعمدة»، «عتبات»، «أفاريز»، «عمل كورِنثي ودوريكي»، ومفردات مبهَمة أخرى من هذا القبيل، لا أتمالك نفسي عن تخيّل قصر أبوليدون (Apollidon) ذاته... وبعد ذلك أتبيّن أنّ المقصود لا يعدو أن يكون إلّا الأجزاء الحقيرة لباب مطبخي !

13. عندما تستمع إلى بعضهم يحدثونك عن «المجاز المرسل»(Métonymie) وعن «الاستعارة»(Métaphore) وما إلى ذلك من المصطلحات النحويّة، ألا يُخيّل إليك أنّ الأمر يتعلّق بلغة أجنبية نادرة؟ ومع هذا فالأمر يتعلّق بلغة خادمتك الثرثارة!

14. هناك خدعة مماثلة للّتي تقدَّمَ ذكرها، تتمثّل في توصيف وظائف الدولة بالعناوين المهيبة التي كان يطلقها عليها الرومانيون، إذ لا يوجد أيّ وجه للمقارنة بينها وبين ما كانت تتحمّله الوظائف الرومانية من أعباء، ولا حتى في ما يتعلق بالسيادة والسلطة.

15. وهذه خدعة أخرى قد يُعاب أمرها على عصرنا يوما ما: هي أنّنا نطلق، على من نشاء ودونما استحقاق، أرقى ألقاب المجد التي أطلقها القدامى على نفر أو نفرين خلال قرون عديدة. لقد حصل أفلاطون على لقب «الإلهي» بإجماع كلّ النّاس، ولم ينازعه أحد في ذلك. وها أنّ الإيطاليين، إذ يفخرون بنباهتهم وسلامة طويّتهم أكثر من

أيّ شعب آخر في زمانهم، قد منحوا هذا اللقب لبيترو أريتينو[1] ! ومع ذلك، فباستثناء أسلوب منتفخ يزخر بالمُلحات، أسلوب ذكيّ، دون شكّ، لكنّه غريب ومفتعَل، وباستثناء بلاغته، مهما كانت قيمتها، فإنّي لا أرى ما يجعله متفوّقا على المؤلّفين العاديين في عصره. فهيهات أن يبلغ مستوى أفلاطون «الإلهي»!

16. أمّا لقب «الكبير»، فقد نطلقه على أمراء لا تتجاوز قامتهم القامة العادية.

(1) بييترو أريتينو (Pietro Aretino - Pierre l'Arétin) ولد في 1492 وتوفي في 1556. وهو شاعر وكاتب إيطالي من أبرز أدباء عصر النهضة، وقد ذاع صيته واشتهر بهجائه اللاذع لأصحاب السُلطة في زمانه.

الفصل الثاني والخمسون

عن شحّ القدامى

1. كتب أتليوس رغولوس (Attilius Regulus)، الجنرال في الجيش الروماني بإفريقيا، وهو في قمّة المجد والانتصار على القرطاجيين، إلى أصحاب السلطة العامّة لإعلامهم بما اقترفه خادم مزرعة كلّفه بإدارة أملاكه - جملتها سبعة فدادين من الأرض - فهرب حاملا معه أدوات الحراثة. طلب الإذن بالرجوع إلى دياره لمعالجة الأمر، خوفا من أن ينعكس ذلك سلبا على زوجته وأبنائه. فكلّف مجلس الشيوخ شخصا آخر لإدارة أملاكه، واستردّ ما سُرق منه، كما أمر بإعالة زوجته وأبنائه على نفقة الدولة.

2. لمّا همّ كاتون الأكبر (Caton L'ancien) بالرجوع من إسبانيا حيث كان يشتغل قنصلا، باع حصانه كي يدّخر ثمن العودة بحرًا إلى إيطاليا. ولمّا كان واليًا على سردينيا، كان يقوم بعمليات التفقّد مشيا على أقدامه، مصحوبًا فقط بموظّف حكومي ليحمل له أغراضه ووعاء للأضاحي؛ وكان في الغالب يحمل حقيبته بنفسه. كان يفتخر بأنّه لم يكسب من الثياب أبدا ما فاق ثمنه عشرة دنانير، وأنّه لم ينفق في السوق أبدا أكثر من عشرة دراهم في اليوم. أمّا عن دياره في البادية، فهو لم يقم بطلاء الوجه الخارجي لأيّ منها.

3. لمّا عُيّن سيبيون إميليان (Scipion Emilien) سفيرا، بعدما اشتغل قنصلا وفاز بانتصارين اثنين، لم يتّخذ من الخدم المرافقين له إلّا سبعة. ويُروى أنّ هوميروس لم يتّخذ أبدا أكثر من واحد، وأفلاطون أكثر من ثلاثة. أمّا زينون، شيخ المدرسة الرواقية، فلم يكن له أيّ خادم.

4. ولم يخصَّص لتيبريوس غراخوس (Tiberius Gracchus) سوى خمسة فُلوس ونصف يوميّا، مع أنّه كان الممثّل الأوّل لرُوما عندما أُرسل في مهمّة حكومية.

الفصل الثالث والخمسون

عن كلمة قالها قيصر

1. لو دأبنا على تأمّل أنفسنا وتعمّقنا في سبر أغوارنا بدل أن نسعى إلى التحكّم في غيرنا وإلى معرفة ما يدور خارجا عنّا، لشعرنا بضعف القِطع المؤلّفة لكينونتنا الحميمية وعيوبها.

2. أليس الدّليل على نقصنا هو أنّنا لا نرضى بشيء، ونعجز، تحت وطأة أهوائنا ومخيّلتنا، عن تمييز ما ينفعنا؟ ولعلّ ما يشهد على ذلك هي الخصومة الكبيرة التي تندلع باستمرار بين الفلاسفة بشأن الخير الأعظم للإنسان: فهي لا تزال قائمة، وسوف تدوم إلى الأبد دون أن يجدوا حلّا ويحصل بينهم اتّفاق.

«هل يفلت موضوع رغبتنا منّا؟
إنّنا نفضّله على أيّ شيء آخر.
وعندما نحصل عليه، نريد غيره،
ويبقى عطشنا هو عينه لا يروى».

[Lucrèce, III, 1082-1084]

3. مهما كان ما ندركه ونقدر عليه، فإنّنا نشعر بأنّ أمرا ما ينقصنا، فنلهث دائما وراء المستقبل، لأنّنا لا نشبع من الحاضر. والسبب في رأيي ليس أنّ الحاضر لا يملك ما يرضينا، بقدر ما لا نحسن رؤيته.

«تبيّن له أنّ كلّ ما كان للعيش ضروريًا،
كان أو كاد أن يكون للبشر مُهدًى.
العظماء تفيض أموالهم وأمجادهم،
ويفخرون بالسمعة الطيبة لأبنائهم،
لكن لا أحد بقي صامدًا في داخله،
لا أحد لم يساوره القلق والاضطراب، فأدرك أنّ الشرّ إنّما مصدرهُ الوعاء نفسه،
وأنّ العيوب التي بداخله هي التي تُفسِد

مايُسكَب فيه مهما كان جيّدًا».

[Lucrèce, VI, 9-17]

4. رغبتنا متردّدة متبدّلة، لا تحسن المحافظة على أيّ شيء ولا التمتّع كما ينبغي بأيّ شيء. نعزو ذلك إلى عيب في الأشياء التي نملكها، ونتغذّى حتى نتخم بالأشياء التي لا نعلمها ولا نفهمها والتي ننسب إليها رغباتنا وآمالنا.

5. وكما قال قيصر: «إنّه لخطأ طبيعي شائع لدى الإنسان أن يشعر بالثقة المتعاظمة أو الرعب المتزايد إزاء وضع جديد مجهول» [César, *De Bello Civili*, II, 4].

الفصل الرابع والخمسون

عن التحذلق بلا جدوى

1. يسعى بعضهم أحيانا إلى البروز بفضل التأنّق التافه المبتذل؛ كالشعراء الذين يؤلّفون دواوين شعرية كاملة تبدأ أبياتها بنفس الحرف، أو كاليونانيين الذين كانوا يرسمون بَيضًا وكرات وأجنحة وحتى سواطير بالتمديد أو التقليص في الأبيات الشعرية ويشكّلون هكذا بعض الصّور. في مثل هذا السياق حاول بعضهم أن يضبط الوجوه المختلفة التي يمكن أن تُرتّب بها الحروف الأبجدية، فبلغ ذلك العدد المدهش الذي ذكره بلوتارخوس.

2. إنّي أستحسن رأي ذلك الرجل الذي طُلب منه، بعدما شاهد شخصًا تمرّن على رمي حبّة دخن بكامل الدقة بحيث تمرّ دائما عبر ثقب إبرة، أيّ هديّة ينبغي أن تقدّم له جزاء مهارته، فأجاب مازحًا، بجوابٍ حصيفٍ في نظري، أن يُهدى كيسين من الحبوب أو ثلاثة كي يثابر على مهارته ولا يضيّع فنّه.

3. لا شيء أدلّ على ضعف حُكمنا من أن نمنح قيمة إلى الأشياء بالنظر إلى ندرتها وجدّتها أو حتى صعوبتها، بغضّ النظر عن جودتها وفائدتها.

4. كنّا نلهو في بيتي بالبحث عن أكثر عدد من الألقاب التي تلتقي في أقصاها، مثل: «مولاي»، وهذا اللّقب يُعطى للشخص الذي يتصدّر أعلى مرتبة في المجتمع، وهو الملك، كما يعطى أيضا لبعض عامّة النّاس كالتّجار، بينما لا يطلق على من يكونوا في مرتبة وسطى. ويطلق على المرأة من الطراز الرفيع اسم «سيّدة»، وعلى التي في مرتبة وسطى اسم «آنسة»، وعلى التي توجد في أسفل السلّم اسم «سيّدة» مرّة أخرى. وكذلك فإنّ لعبة النرد لا يُسمح بها إلّا في ديار الأمراء وفي الخمّارات.

5. قال ديمقريطس إنّ حواسّ الآلهة والدّواب تفوق حدّة حواسّ البشر الذين يبقون في مرتبة وسطى. وكان الرومانيون يرتدون الثياب نفسها أيّام الحزن والحداد وأيّام الفرح والاحتفال. وإنّ البطن ينقبض ويرتخي بسبب الخوف الشديد كما بسبب الشجاعة المفرطة.

6. وإنّ كنية «المرتعش» التي ألصقت بسانشو، ملك نافار (Navarre) الثاني عشر،

تعلّمنا أنّ الشجاعة قد تجعلنا نرتعش، شأنها شأن الخوف. كان الذين يساعدونه على مسك السلاح ويشاهدونه مرتعدًا يحاولون طمأنته والتقليل من الخطر الذي سيواجهه. قال لهم «إنّكم لا تعرفونني جيّدا. فلو كان جسدي يعلم إلى أيّ مدى ستقوده شجاعتي بعد حين، لسقط على طول الأرض».

7. قد يكون سبب العجز الجنسي البرود والنفور من ممارسة الجنس، وقد يكون أيضا الرغبة العنيفة والحماسة المفرطة. وقد يتمّ الطبخ والطّهو بالحرارة القصوى كما بأقصى البرد. قال أرسطو إنّ سبائك الرصاص قد تذوب بالحرارة الشديدة، وقد تذوب في برد الشتاء القارس. وإنّ الرغبة والإشباع يؤلمان بالإفراط في المتعة وكذلك بالتفريط فيها.

8. عندما يتعلّق الأمر بالموقف الذي ينبغي اتخاذه إزاء نكبات الدهر، تلتقي الحكمة والحماقة في نفس النقطة: الحكماء يقفون في وجه الشرّ ويتغلّبون عليه، والآخرون يتجاهلونه. هؤلاء ينظرون من تحت إلى الأحداث المؤلمة، بينما ينظر أولئك إليها من فوق، حيث يزِنونها ويقوّمونها ويقيسونها ويحكمون عليها، ثم بفضل شجاعتهم يتجاوزونها. إنّهم يستخفّون بها ويدوسون عليها بالأقدام، لأنّ نفوسهم قويّة شديدة، ولأنّ السهام التي تصوّبها الصدفة نحوها لا تستطيع أن تخترقها فتعود القهقرى. يقف النّاس عادة في وضع وسط بين هذين الطرفين: أولئك يدركون المصائب ولا يستطيعون تحمّلها.

9. الطفولة والهرم يلتقيان بسبب نفس الوهن الذي يصيب الدماغ؛ والجشع والتبذير بسبب نفس الرغبة في الجلب والكسب.

10. يجوز القول أيضا، بمعنى ما، أنّ هناك جهل «أبجدي» قبل المعرفة، وجهل «حكيم» بعد المعرفة. وإنّ المعرفة نفسها هي التي تنتج هذا الأخير، بنفس الحركة التي بها تقضي على الأوّل وتبدّده.

11. يكون المسيحيون الصالحون ذوي عقول بسيطة، قليلي الفضول وقليلي المعرفة، يقتصرون على مجرّد الإيمان والخشوع وطاعة القوانين. أمّا الآراء الباطلة فهي تنشأ في العقول المتوسطة النشاط والفَهم: فهي تنصاع لأوّل معنى تراه، وتظنّ بحقٍّ أنّه من السذاجة والبلاهة أن نتشبّث بالتأويلات القديمة، باعتبار أنّنا لم نفحص هذه الأمور بما يكفي.

12. وأمّا العقول العظيمة، إذ تكون أكثر حكمة وبُعد نظر، فهي تمثّل صنفا آخر من المؤمنين الصالحين: فهي بالبحث الصَبور الطويل، تتوغل أكثر في أعماق الكتب المقدّسة الغامضة وتستشعر السرّ الربّاني الملغِز لمؤسّستنا الكنسيّة.

13. إلّا أنّ بعضهم بلغوا هذه الدرجة القصوى مرورا بالثانية، بثبات ونجاح مرموقين، كما لو كانوا قد بلغوا الحدود القصوى للفهم المسيحي. إنّهم يستمتعون بانتصارهم وبما يأتونه من أعمال جليلة وبإصلاح سلوكهم والالتزام بالخشوع والتواضع. وإنّي لا أضع في هذا الصنف أولئك الذين يسعون إلى إخفاء ذنوبهم وإلى طمأنتنا، فيبالغون في مساندتنا ويتشدّدون ويَظلمون، ويسيئون إلينا بأعمالهم البغيضة.

14. يتحلّى الفلّاحون البسطاء بسداد الرّأي والحسّ السليم؛ وكذلك الفلاسفة أو، كما يطلق عليهم الآن، أصحاب الطبائع القوية الشديدة والغنيّة بمعرفة العلوم المفيدة... إنّ الذين ينتمون إلى هؤلاء وإلى أولئك، واستخفّوا بالدرجة الأولى، درجة الأمّيين، لكن لم يفلحوا في بلوغ الدرجة الثانية (إنّهم يضعون «دبرهم بين سرجَيْن»، مثلي أنا بالذات وآخرين كثيرين) إنّما يشكّلون خطرا، بل هم عاجزون ومزعجون؛ إنّهم يفسدون نظام الأشياء... أمّا أنا فإنّي أسعى قدر المستطاع إلى البقاء على الحالة الأولى، الأقرب إلى الطبيعة، حيث لم أنجح في مغادرتها.

15. يملك الشعر الشعبي والطبيعي المحض من السذاجة والرونق ما يخوّل مقارنته بالشعر «الكامل» الذي يحترم القواعد. يمكن أن نرى ذلك في القصائد من نوع «فيلانلّات» (Villanelles) غاسكونيا، وفي الأغاني التي وصلتنا من بلدان ليس لها معارف علمية ولا تعرف حتى الكتابة. الشعر الأوسط، الذي يبقى بين الإثنين، يُستخَفّ به ويبقى فاقدًا للقيمة والمجد.

16. لكن عندما فُتح الباب أمام العقل، وجدتُ، كما في الغالب، أنّ ما كنّا ننظر إليه على أنّه تمرين عسير ويتعلّق بموضوع نادر، لم يكن هكذا إطلاقا. عندما يحتدم خيالنا، نكتشف عددًا لا محدودًا من النماذج المماثلة، ولن أقدّم إلّا نموذجًا واحدًا: فإذا كانت هذه المقالات تستحقّ أن نقيّمها، فهي في رأيي قد لا تنال إعجاب عقول العامة البسيطة، ولا عقول النخبة الممتازة. فتلك لن تفهمها كما ينبغي، وهذه ستفهمها فوق اللّازم. وبالتالي فهي قد تجد حظّها في منطقة العقول المتوسطة...

الفصل الخامس والخمسون

عن الروائح

1. يروى أنّ بعض النّاس، مثل الإسكندر الكبير، تفوح عنهم رائحة عرق لذيذة، بسبب بنية طبيعية نادرة جدّا، بحث في أصلها بلوتارخوس وغيره. أمّا بالنسبة إلى عموم النّاس، فالعكس هو ما يحصل، ولعلّ أفضل ما يمكن أن يتمنّونه هو ألّا تصدر عنهم رائحة. لكن يكون النّفَس النقيّ ممتعا أكثر عندما يكون بلا رائحة مزعجة، كنفَس الأطفال موفوري الصحّة.

2. لذلك قال بلاوتوس (Plaute)،

«أذكى رائحة للمرأة
عندما لا تفوح منها رائحة»

[Plaute, *Mostellaria*, I, 3]

{كقولنا إنّ أفضل رائحة لأعمالنا هي ما يبقيها خفيّة صامتة...}

3. ولن نحيد عن الصواب إذا اشتبهنا في الذين يستخدمون روائح ذكيّة غير طبيعية ورأينا في ذلك محاولة لإخفاء بعض العيوب الطبيعية. من هنا جاءت تلك المُلحات للشعراء القدامى، كقولهم «إنك تكون نتنًا متى فاحت منك رائحة طيّبة».

«تسخر منّي، يا كورينوس، لأنّي بلا رائحة.
بيْد أنّي أفضّل أن أكون بلا رائحة على أن تفوح منّي رائحة طيّبة»

[Martial, IV, 55]

وقال أيضا:

«يا بوستموس، إنّ من تفوح منه دائما رائحة طيّبة، لا تكون رائحته طيّبة»

[Martial, II, 12]

4. ومع هذا فإنّي أحبّ جدّا الروائح الطيّبة، وأكره الروائح النتنة إذا اشتمّها من مسافة بعيدة أكثر من أيٍّ كان:

«لأنّ حاسّة شمّي من نوعها فريدة،
«بها أشتمّ أورام أنفي الحميدة،
أو رائحة إبطتين نتئين كالماعز،
أفضل من كلب يكشف عن مخبإ خنزير»

[Horace, Épodes, XII, 4]

5. أفضل الروائح عندي البسيطة والطبيعية، ولا سيما رائحة المرأة. في أكثر المناطق توحّشا، تُقدِم النساء السيثيات على الاغتسال وعلى رشّ أجسامهنّ ووجوههنّ بمادّة فائحة من بلدهنّ. وعندما يقتربن من الرجال يتجرّدن من مساحيقهنّ وتبقى أجسامهنّ ناعمة عطِرة.

6. أيًّا كانت الرائحة، يبقى أمر التصاقها بي ونقعها لجلدي أمرًا مدهشًا. وإنّ الذي يتذمّر من كون الطبيعة حرمت الإنسان من وسيلة لحمل الروائح حتى أنفه إنّما هو مخطئ: إذ تنتقل الروائح إليه بنفسها. أمّا فيما يتعلّق بي شخصيّا، فإنّ شواربي الكثيفة تتكفّل بذلك. فإذا قرّبت منها قُفّازي أو منديلي بقيت فيهما الرائحة طوال النهار: شواربي تدلّ على المكان الذي جئتُ منه.

7. في الماضي كانت تنقعها قبلات الشباب المحمومة اللذيذة الشّرهة اللّزجة لمدّة ساعات. ورغم ذلك فقلّما أصابتني أكثر الأمراض انتشارا بين النّاس وانتقالا عبر الهواء. لقد أعفتني أمراض عصري، إذ تفشّت بمختلف أنواعها في مدننا وجيوشنا. يروى أنّ سقراط، رغم أنّه لم يغادر مطلقا أثينا كلّما أصابها الطاعون، ظلّ معافى بمفرده هو وحده.

8. في اعتقادي، قد يجني الأطباء من الروائح أكثر فائدة ممّا يفعلون، إذ غالبًا ما لاحظت أثرها في نفسي وتأثيرها في مزاجي. ولعلّ هذا ما يجعلني أصدّق ما يقال، من كون اختراع البخور والعطور واستعمالها في الكنائس باعتبارها عادة جدُّ قديمة ومنتشرة في كلّ بلدان العالم، إنّما الغاية منه أن ننعم بالبهجة وأن تنهض حواسّنا وتتطهّر، ما يؤهّلنا أكثر لحياة التأمّل.

9. وددتُ لو شاركتُ، حتى أستطيع الحُكم، في عمل أولئك الطّهاة الذين يحسنون ملاءمة العطور الأجنبية بطعم المأكولات، مثلما لوحظ بوجه خاص في خدمة ملك تونس، الذي نزل هذه الأيام في مدينة نابُلي لملاقاة الإمبراطور شارلكان[1]. قُدِّمت له لحوم محشوّة بعقاقير معطّرة، في مأدبة فاخرة لدرجة أنّ إعداد طاووس ودُرّاجين

(1) قاد شارلكان عام 1535 حملة عسكرية ضدّ تونس، خرج منها منتصرًا.

حسب تقاليد البلد كلّف مائة دوكات. وبينما كانت هذه الطيور تُقطع، كانت تفوح منها، في القاعة الكبيرة، بل في كلّ قاعات القصر أيضًا وفي الأنهج المحاذية، رائحة ذكيّة جدًّا استمرّت طويلا.

10. عندما أبحث عن مسكن، يكون همّي الأوّل هو الابتعاد عن الهواء الثقيل العفن. قد تفقد مدن جميلة، مثل البندقية أو باريس، حظوتها عندي بسبب رائحتها المقرفة الصادرة عن المستنقعات بالنسبة إلى الأولى وعن الأوحال بالنسبة إلى الثانية.

الفصل السادس والخمسون

عن الصّلوات

1. أقدّم هنا أفكارًا ملتبسة وغير مؤكَّدة، على نحو ما يفعل أولئك الذين يطرحون في المدارس قضايا مثيرة للجدل، ليس إقرارًا للحقيقة وإنّما تقصّيًا لها. وإنّي أعرضها أمام أنظار أولئك الذين من شأنهم أن يحكموا لا فقط على أعمالي، بل كذلك على أفكاري. وسواء قُبلت أو رُفضت، سأرضى بالأمر وأستفيد منه؛ وسأعتبر من قبيل العبث والكفر كلّ ما سيتضمّنه هذا الكتاب المرتجل، بسبب الجهل أو الإهمال، ممّا يتناقض مع الأوامر والقواعد المقدّسة للكنيسة الكاثوليكية، الرسولية والرومانية، التي في أحضانها وُلدت وبين يديها سأموت. ورغم أنّي أخضع لسلطتها وأقبل برقابتها، فقد أجازف بالتطرّق إلى شتّى المواضيع، مثلما هاهنا.

2. قد أكون مخطئًا، لكن لمّا كان الربّ قد أحظانا بكرمه وأملى علينا بنفسه واجب الصّلاة، يبدو أنّه علينا أن نواظب على هذا الواجب. بل، لو أخذتم برأيي، علينا بذكر الله دائما، في بداية الأكل ونهايته، عندما نستيقظ وعندما نخلد للنّوم، وعموما عندما نقدم على كل الأعمال التي نربطها عادة بالصّلاة.

3. قد تطلب الكنيسة أن نكثر من الصّلوات وأن ننوّعها، لغاية أن نتدرّب عليها؛ لكن أعلم أنّ جوهرها واحد. وإنّي أفضّل الآية التي تبدأ دائما بذكر الله، وأن يكون اسم الله باستمرار على أفواه الجميع؛ ذلك لأنّ ذكره يناسب كلّ الظروف ويغني عن كلّ شيء. إنّها صلاتي الوحيدة، وإنّي أردّدها ولا أبحث عن غيرها. لذلك لا يوجد في ذاكرتي ما حفظته أكثر منها.

4. إنّي أتساءل من أين جاءتنا تلك العادة السيئة المتمثلة في الاستنجاد بالله في كلّ مبادراتنا وكلّ مشاريعنا، بمناسبة ومن دون مناسبة، كلّما ضعف حالنا واحتجنا إليه، دون أن نتساءل ما إذا كان يحقّ لنا ذلك في ظرفنا الراهن، وفي ذكر اسمه وجبروته مهما كان وضعنا فاسدًا.

5. هو بالتأكيد حامي حمانا الوحيد، وهو القادر على مساعدتنا. وعلاوة على ما قد ينعم به علينا من لطف عناية أبوية، فهو عادل بقدر ما هو طيّب وقدير، ويعمل على نشر عدله أكثر من جبروته: إنّ فضله يقترن بعدله، لا بما نرغب فيه.

6. لقد ميّز أفلاطون، في كتاب القوانين، بين ثلاثة أنواع من الآراء المهينة للآلهة: أن ننكر وجودها، وكونها لا تتدخّل في شؤوننا، وكونها تستجيب دائما لأمنياتنا وقرابيننا وأضاحينا. وفي رأيه أنّ الخطأ الأوّل لم يبق ثابتا أبدا عند أيّ إنسان طوال حياته. أمّا الثاني والثالث فقد يستمرّان.

7. في الذات الإلهية، العدل والقدرة لا ينفصلان. لا فائدة من رجائه لمساعدتنا على السّوء: إذ يجب أن تكون أنفسنا طاهرة، على الأقلّ لحظة دعائه، وأن تكون خالية من الانفعالات القبيحة؛ وإلّا فإنّنا نعطيه بأيدينا السِّياط التي بها سيجلدنا. وعوض أن نصلح خطأنا، فإنّنا نضاعفه، إذ نُبدي، أمام من ينبغي أن نطلب العفو منه، مشاعر الكره والضغينة.

8. لسبب كهذا لا تروق لي رؤية أولئك الذين يعبدون ربّهم باستمرار دون أن تتغيّر لأجل ذلك أعمالهم أو تتطوّر.

«إن كنتَ تسعى إلى الزّنا ليلاً،
فتغطّي رأسك بقلنسوة راهبٍ...»

[Juvénal, VIII, V. 144]

9. يبدو لي أنّ الإنسان التقيّ، والذي يأتي مع ذلك أعمالا بشعة، إنّما يستحقّ الإدانة أكثر من ذلك الذي يكون منسجمًا مع نفسه ويقضي حياته في الفساد والانحلال. بيد أنّ كنيستنا ترفض كلّ يوم أن ينضمّ إليها أولئك الذين لا يزال سلوكهم يشهد بعض الفساد.

10. إنّنا نعبد ونصلّي بموجب العادة والتقليد؛ بل إنّ الصّلاة إن هي إلّا مسرحيّة تنكّرية. من المقرف أن أرى بعضهم يقوم بعلامة التثليث قبل الأكل وبعده، وفيما بقي من الوقت يفيض قلبه كراهية وحسدًا وظلمًا. ويقرفني ذلك أكثر باعتبارها علامة أحترمها وأستعملها كثيرا، حتى عندما أتثاءب... كما لو كان يوجد وقت جُعل للرذائل وآخر نخصّصه للإله تعويضًا عمّا اقترفناه. قد نستغرب حقًّا ممّا نراه من تعاقب مستمرّ لأعمال مختلفة كلّ هذا الاختلاف، دون أن يظهر عليها التغيّر والانقطاع على مستوى حدودها وعند المرور من بعضها إلى بعض.

11. كم هو عجيب ذلك الضمير الذي يجد راحته في خدمة كلٍّ من المجرم والقاضي، بهدوء ودونما تصادم! وذلك من يتحكّم فُسوقه في عقله، ثمّ يقضي ببشاعة ما يفعل، ماذا عساه أن يقول لربّه يوم الحساب؟ إنّه يلتفت نحو الخير، ثمّ يسقط من جديد.

12. لو جازاه ربّه عمّا يفعل، فإنّه مهما كان ندمه قليلا سيدفعه الخوف دون هوادة

إلى محاولة التحكّم في الرذائل التي باتت قائمة فيه وانغرست. بيد أنّه يوجد من النّاس من يقطفون حياتهم كلّها من ثمار الخطيئة مع أنّهم يعلمون أنّها زائلة.

13. كم يوجد من المهن والحرف التي، مع أنّها مقبولة، تبقى في جوهرها فاسدة؟ لقد أسرّ إليّ بعضهم أنّه ظلّ طوال حياته يمارس ديانة ملعونة في رأيه، مناقضة للّتي يحملها في قلبه، كي يحافظ على وضعه ومجده في المجتمع... كيف استطاع أن يتأقلم مع هذا الوضع؟ وبأيّ وجه سيقابل هو وأمثاله ربّهم؟ يجب أن تبرز توبتهم من خلال أعمال صالحة ظاهرة وملموسة، إلّا أنّهم يفقدون تجاه ربّهم وتجاهنا نحن حقّ الاعتزاز بها.

14. هل يملكون من الجرأة ما يجعلهم يطلبون الغفران دون أن يظهروا توبتهم وندمهم؟ في رأيي أنّ أمرهم لا يختلف عن أمر أولئك الفسّاق الذين ذكرتُ أعلاه؛ إلّا أنّ تعنّتهم لا يسهل التغلّب عليه مثلهم. فقد يبدو لي تناقض آرائهم وتقلّبها المفاجئ العنيف أمرا خارقا مدهشا. إنهم يمثّلون صراعا يتعذّر فهمه.

15. في السنوات الأخيرة، وُجد من النّاس من لا يرى غير النّفاق عند الذين يبان عليهم الفهم والذكاء ويؤمنون مع ذلك بالديانة الكاثوليكية. وكنت أرى في الأمر مغالطة: إذ كانوا يرغبون في الرّفع من شأنهم ويزعمون حتى أنّهم، مهما قالوا وأظهروا، يؤمنون في قرارة أنفسهم بعقيدة الإصلاح. يا له من مرض مزعج أن تكون مؤمنا لدرجة أن تظنّ أنّه لا يوجد إيمان معارض لإيمانك! ويكون مزعجًا أكثر ذلك من يظنّ أنّ بعضهم قد يقدّم مصيره في الدّنيا على مصيره في الآخرة! ليصدّقوني: لو كان يوجد ما أغراني في شبابي، فلا ريب أنّه التّوق إلى ما في العقيدة الجديدة من صعوبة ومجازفة.

16. تبدو الكنيسة على حقّ عندما تمنع الاستعمال العشوائي المستمرّ للأناشيد والمزامير الإلهية المقدّسة التي أملاها الرّوح القدس على داود. يجب أن نطلب رحمة الله بخشوع واحترام. فتلك الأناشيد إنّما هي إلهية بدرجة أنّها لا تستحقّ أن نجعل منها مجرّد وسيلة لتدريب رئتينا وإمتاع أذنينا: بل ينبغي أن يكون مصدرها ضميرنا، ليس لساننا. فلا يحقّ لطفل صغير أن يستمتع بذلك ويجعل منه مجرّد لعبة، في خضمّ تخميناته المبتذلة التافهة.

17. ومن المنكر أيضا أن نحمل بين أيدينا الكتاب المقدّس المتضمّن لأسرار العقيدة وأن نتجوّل به بين المطبخ وقاعة الجلوس. كانت في الماضي تُعتبر أسرارًا... أمّا الآن فهي لم تعُد سوى لهو ولعب. يجب ألّا نتناول باستخفاف أمرًا جدّيا كهذا، أمر دراسة الكتاب المقدّس؛ بل يجب أن يتمّ ذلك بهدوء ورويّة، مع إضافة توطئة الشعيرة الدينية «لنرفع قلوبنا» «Sursum Corda»، وأن يكون جسدنا على هيئة تدلّ على الخشوع والانتباه.

18. لا يقدر كلّ النّاس على أمر هذه الدراسة، بل يقدر عليها فقط من كان مدعوًّا من ربّه إليها؛ أمّا الأشرار والجهّال، فإنّهم إذا أقدموا عليها أصبحوا أكثر سوءًا. إذ لا يتعلّق الأمر برواية تستدعي السّرد، بقدر ما تستدعي الخشوع والخشية والعبادة. يضحكني أولئك الذين يظنّون أنّهم يضعونها في متناول الجمهور عندما يترجمونها إلى اللّغة الدارجة! أن نفهم كلّ ما كُتب فيها، فهذه ليس فقط مسألة كلمات. هل عليّ أن أضيف؟ إنّهم إذ يريدون وضعها في متناول الأفهام قليلا، يبعدونها عنها في الواقع. وقد يكون الجهل المطبق الذي يجعلنا نسلّم أمرنا لغيرنا أفضل لخلاصنا، بل هو أفضل حتّى من علم الكلمات وتأويلها الباطل المتغطرس.

19. أعتقد كذلك أنّ الحرية الممنوحة لكلّ واحد كي ينشر في عدد كبير من اللّهجات كلامًا بمثل هذا العمق والأهمّية قد تُشكّل خطرًا أكثر ممّا تفيد. لقد قدّس اليهود والمسلمون وغيرهم اللّسان الذي جاءت به أديانهم في الأصل، وحرّموا تحريفه وتغييره، ويبدو أنّهم كانوا على حقّ.

20. هل من المؤكّد أنّ في إقليم الباسك وفي منطقة بروتاني يوجد قضاة قادرون على إعداد ترجمة إلى لغتهم؟ قد تجد الكنيسة الكونية صعوبة كبيرة في الإدلاء برأيها والحسم في الموضوع: لأنّ في الكلام والموعظة، يكون التأويل حرًّا وغامضًا ومتبدّلًا، فضلًا عن أنّه يتعلّق بجزئيات منفردة؛ أمّا في الترجمة، فالأمر يكون مختلفًا.

21. لام أحدُ مؤرّخينا اليونانيين بني عصره على ما نشروه في السّاحة العامّة من أسرار الديانة المسيحية وعلى وضعها بين أيادي الرعاع، حتى أصبح بوسع كلّ واحد أن يناقشها ويؤوّلها مثلما يحلو له. كان يرى عارًا علينا، نحن من أحظانا الربّ بمتعة التقوى الطاهرة، أن نترك هذه الأسرار حديث النّاس من سوقة ودهماء، والحال أنّ الوثنيين كانوا يمنعون حتى سقراط وأفلاطون وأعظم الحكماء من الكلام والبحث في أمور هي من مشمولات الكهنة في معبد «دالف».

22. قال أيضا إنّه عندما يتعلّق الأمر باللّاهوت، لا يكون الحماس سلاح الأمراء، بل إنّهم يتسلّحون بغضبهم؛ وإنّ الحَميّة الدّينية، إذ ترتبط بعقل الله وعدالته، ينبغي أن تتّسم بالاعتدال والرويّة؛ أمّا إذا خضعت للهوى، فقد تتحوّل إلى حسد وكراهية، وقد تُنتج زؤانا وقُرّاصا بدل القمح والعنب.

23. وقال آخر، هو مستشار الإمبراطور ثيودوز، إنّ الخصومات اللّاهوتية لا تقضي على الشقاق بقدر ما تُنتج البدع؛ وإنّه ينبغي أن ننفر من كلّ الخصومات والمماحكات الجدلية وأن نعود بكلّ بساطة إلى أوامر العقيدة وقواعدها كما نقلها القدامى.

24. شاهدَ الإمبراطور أندرونيكوس في قصره شخصَيْن مرموقَيْن يناقشان

لابوديوس (Lapodius) في مسألة هامّة من مسائل العقيدة، فلامهما على ذلك، بل هدّدهما برميهما في النّهر إذا واصلا.

25. في أيّامنا هذه، أصبح حتى الأطفال والنّساء يلقّنون الشيوخ، ذوي الخبرة، دروسًا في فهم القوانين الكهنوتية، والحال أنّ أوّل «قوانين» أفلاطون يمنعهم حتى من مناقشة القوانين المدنية إذ ينبغي اعتبارها بمثابة الأوامر الإلهية. كان يسمح للقدامى أن يتناقشوا حولها فيما بينهم، ومع قضاة المدينة؛ لكن كان يضيف: «بشرط ألّا يكون ذلك في حضور الشبّان والعامّة»

26. كتَب أُسقف أنّه توجد في جهة نائية من المعمورة جزيرة أطلق عليها القدامى إسم ديوسكوريد (Dioscoride)، كانت خصبة بأشجارها وثمارها ومتميّزة بهوائها النقيّ. أهلها مسيحيون، يملكون كنائس وأجنحة يقيمون فيها الصلاة، لا تكسوها غير الصُّلبان وخالية تماما من الصّور. يصومون ويحتفلون بانتظام، ويدفعون العُشُور للكاهن دون أن يتخلّفوا، ويعيشون عَيْشًا طاهرا حتى إنّهم لا يعاشرون أكثر من امرأة واحدة في حياتهم. ومع كلّ ذلك كانوا راضين بوضعهم، يعيشون في جوار البحر ويجهلون استعمال السّفن، ويتعاملون مع عقيدتهم بكلّ بساطة حتى إنّهم كانوا يراعونها باحترام شديد ولا يفقهون منها كلمة واحدة. هذا أمر غريب في نظر من لا يعلم أنّ الوثنيين، رغم ورعهم الشديد، لا يعرفون من آلهتهم غير أسمائها وتماثيلها.

27. تبدأ مسرحية ميناليب (Ménalippe)، في تراجيديا يوريبيدوس (Euripide)، كما يلي:

«أيا جوبيتير، لا أعرف عنك شيئا،
لا أعرف شيئا عدا اسمك لا غير»

28. شاهدتُ كذلك أناسا يتذمّرون من بعض الكتابات لكونها إنسانية وفلسفية بحتة، دون أيّ إضافة لاهوتية. لكن من يزعم العكس لا يكون مع ذلك مخطئا. إذ لا شكّ أنّ منزلة المذهب الإلهي تفرض سيطرته وسيادته على كلّ شيء، وأنّه ينبغي أن يكون في الصدارة دائما، لا أن يكون في درجة دنيا وثانوية. لكن قد يكون أقرب إلى الصّواب، فيما يتعلّق بعلوم النّحو والخطابة والمنطق، أن نأخذ أمثلة من مجال آخر غير مجال مقدّس كهذا، كما فيما يتعلّق بحجج المسرح والألعاب والعروض العمومية: فلا بدّ من تقديس قرارات الإله في أسلوبها باعتباره أسلوبا فريدا من نوعه ولا يشبه أسلوب الإنسان.

29. قد يكون خطأ الإفراط في الكتابة بأسلوب إنساني متواترا أكثر عند اللّاهوتيين،

ممّا يكون خطأ الإفراط في الكتابة بأسلوب لاهوتي عند الإنسانيين. إنّ الفلسفة، كما قال القدّيس خريزُستوم (Saint Chrysostome)، قد أُقصيت منذ زمن بعيد من التعليم المقدّس، لأنّها خادمة لا تَصلح، ولا تستحقّ أن ترى، ولو بنظرة خاطفة ومن الباب، مزار كنوز المذهب السماوي.

30. أمّا اللّغة الإنسانية فهي تكون أخسّ، ولا وجه للمقارنة بينها وبين كلام الله العليّ العظيم. وأمّا أنا فإنّي أكتفي باستعمال الكلمات التالية («كلمات لا تحظى بالموافقة»): «صدفة»، «قدَر»، «حادث»، «سعادة»، «تعاسة»، «الآلهة»، وألفاظ أخرى متداولة.

31. إنّي أعرض أفكاري الشخصية والإنسانية على أنّها فقط أفكار إنسانية، وباعتبارها أفكارا جزئية، لا باعتبارها تعلَّل بمشيئة الله وعنايته بحيث لا تحتمل الشكّ أو المناقشة. فهي إذن مجرّد مادّة للتفكير وليست من قبيل العقائد الإيمانية. إنّها ممّا أفكّر فيه، لا ممّا أؤمن به بفضل الله. إنّها صادرة عن رجل لائيكي، لا عن رجل دين؛ مع أنّها تصدر دائما بورع شديد. إنّي أعرضها مثلما يعرض الأطفال أبحاثهم، يعني للتعلّم وليس للتعليم.

32. ويجوز القول إنّ الدعوة إلى توخّي الحذر عند الكتابة في الدّين قد تكون عادلة ومفيدة بالنسبة إلى كلّ الذين ليس هذا من شغلهم. وحتّى أنا فقد يكون من صالحي أن ألتزم الصمت.

33. أخبرني بعضهم أنّه حتى الذين ليسوا من أتباعنا[1] يمنعون استعمال إسم «الله» في كلامهم اليومي: لا يريدون استعماله للتعبير عن الدهشة أو التعجب، ولا للاستشهاد به أو المقارنة. وأرى أنّهم في ذلك على حقّ. وفي جميع الحالات، فإنّنا عندما ندعو ربّنا ونتوسّل إليه، ينبغي أن يكون ذلك بخشوع وورع.

34. يوجد، عند كزينوفون، مقطع يبيّن فيه أنّه ينبغي أن نقلّل من الصّلاة؛ سيّما أنّه ليس من السهل أن نهيّئ أنفسنا إليها، تماسكًا واعتدالًا وورعًا، وإلّا كانت صلاة باطلة لا فائدة منها ولا جدوى. نقول: «أغفر لنا، كما نغفر لمن أساؤوا إلينا». أليس معناه أنّنا نسلّمه أرواحنا خالية من الثأر والحقد؟ ومع هذا ترانا نتوسّل إليه بأن يغفر لنا أخطاءنا، ونطلب منه هكذا ألّا يكون عادلا!

«تلك الأمور التي لا يمكن أن نبوح بها
إلى الآلهة إلّا ســرًّا»

[Perse, *Satires*, II, 4]

---

(1) يعني البروتستانت.

35. يدعو البخيل ربّه كي يحفظ له كنوزه الزائدة التافهة؛ ويدعوه الطَّموح ليساعده في انتصاراته ومبادراته؛ واللّص ليعاونه على تجاوز الصعوبات والمخاطر التي تحول دون تنفيذ أعماله الدنيئة، أو شكرًا له على ما وجده من سهولة في ذبح أحد المارّة... يدعونه ويصلّون له وهُم بأسفل المنزل الذي ينوون تسلّقه أو تفجيره، فتكون مقاصدهم وابتهالاتهم مفعَمة بالقسوة والرذيلة والجشع.

«ما تريد أن تطلبه همسًا في أذن جوبيتر، قُله لـستايوس. وسيصدح ستايوس: «جوبيتر، أيا جوبيتر الطيّب!» فهلّا يقول جوبيتر مثل هذا؟».

[Perse, *Satires*, II, 21-23][1]

36. تتحدث الملكة مارغريت دي نافار (Marguerite De Navarre) عن أمير شابّ لا تذكر إسمه، لكن يمكن أن نعرف من يكون، بسبب رتبته العالية. كان كلّما ذهب إلى موعد لمضاجعة زوجة محام من باريس، يمرّ أمام كنيسة في طريقه، فلا يتوانى في الذهاب كما في الإيّاب عن التّوقّف للصّلاة والعبادة. أتركِكم تخمّنون، باعتبار ما كان إذّاك يملأ قلبه، فيما كان يطلبه من ربّه. ومع هذا كانت الملكة ترى في ذلك علامة على التقوى. لكن ليست هذه حجّة كافية للتأكيد أنّ المرأة عاجزة عن معالجة مسائل لاهوتية.

37. لا تكون الصّلاة صادقة، ولا تحصل مصالحة بين الإنسان وربّه، طالما لم تتعفّف النّفس ولم تتحرّر من سيطرة الشيطان. ولا فرق بين من يستغيث بربّه وهو منغمس في الرذيلة، ومن يستنجد بالعدالة وهو من قطّاع الطّرق. أو بينه وبين من يحلف بالله وهو يكذب:

«بصوت خافت جدّا
نهمس دعاء مُشينًا»

[Lucain, *La Pharsale*, V, V. 104]

38. قليل من النّاس يجرؤون على الإعلان جهرًا عمّا يطلبونه من الله سرّا:

«لا يستطيع الجميع أن يرفعوا صوتهم

---

(1) مقطع لاتيني غامض، حتّى في ترجماته الفرنسية المختلفة، ولا يسعنا إلّا أن نقدّم النصّ اللّاتيني كما أورده مونتاني:

Hoc ipsum quo tu Jovis aurem impellere tentas, Dic agedum, Staio, pro Juppiter, ô bone clamet, Juppiter, at se se non clamet Juppiter ipse.

وأن يقيموا الصّلاة جهرًا،
بدل أن يهمسوا في المعبد ويهمهموا»

[Perse, II, 6-7]

39. لهذا أراد الفيثاغوريون أن تكون العبادة جهرًا حتى يسمعها الجميع، وحتى لا يلجأ بعضهم إلى ربّهم لطلب أشياء لا أخلاقية وآثمة، كهذا الذي:

«علا صوته ونادى بإسم أبولون،
ثمّ حرّك شفتيه ومهمه خشية أن يُسمع:
اسمحي لي، أيا لافرن الجميلة، أن أخون وأبدُو طيّبًا عادلًا،
أسدلْ اللّيل على ذنوبي واخْفِ طيراني بالسُّحب»

[Horace, *Épîtres*, I, XVI, 59-62]

40. عاقبت الآلهة أوديب بقسوة على أمنياته الجائرة، فحقّقتها له. كان أبناؤه يتخاصمون على عرشه، فطلب أن يكون حسم الخلاف بينهم بالسّيف، فكان له ذلك، وحزن حزنًا شديدًا. يجب ألّا نطلب أن تسير الأمور حسب ما نشاء، وإنّما حسب ما تشاء الحكمة.

41. وفي الحقيقة يبدو أنّنا نستعمل الصّلاة لمجرّد الدّعاء البسيط، شأننا شأن من يستخدم كلام الله المقدّس في أعمال السّحر والشعوذة، فننتظر نتيجة ما من طريقة ترتيبنا وترنيمنا له أو من موقفنا منه. ذلك لأنّ نفوسنا تفيض شبَقًا ولا تعمرها التّوبة، ونتضرّع إلى الله بما نستحضره من كلمات للتكفير عن ذنوبنا.

42. لا شيء يكون أهون وألطف وأكثر خدمة لنا من شرع الله: إنّه يخاطبنا وينادينا، مهما كانت خطايانا ومهما كنّا نستحقّ الكره. إنّه يمدّ لنا يده ويضمّنا إلى حضنه مهما كانت دناءتنا وقذارتنا ومهما تلطّخنا بالوحل إن حاضرًا أم مستقبلًا. لكن لا بدّ في المقابل أن نجلّه، وأن نتقبّل الغفران بما هو نعمة، وأن نخاطبه بنفس تائبة، فيقف ضدّ الأهواء التي دفعتنا إلى التمرّد عليه. ذلك لأنّه، كما قال أفلاطون، لا الآلهة ولا الأخيار يقبلون الهدايا من رجل شرّير.

«فإذا كانت اليد التي تلمس المذبح بريئة،
استطاعت دونما حاجة إلى ضحيّة ثمينة،
أن تخفض من عداوة آلهة البيت
بكعكة من القمح وحبّة ملح متلألئ».

[Horace, *Odes*, III, 23]

الفصل السابع والخمسون

عن العمر

1. إنّي لا أقبل الطريقة التي تقاس بها مدّة الحياة. وأرى أنّ الحكماء يقلّصونها كثيرا بالمقارنة مع تصوّرنا لها.

2. قال كاتون الأوتيكي مخاطبا الذين أرادوا منعه من الانتحار: «كيف؟ هلّا أزال في سنّ يجعلكم تؤاخذونني على مغادرة الحياة مبكّرًا؟!» ومع أنّه لم يتجاوز الثامنة والأربعين، كان يقدّر أنّه في سنّ النضج، بل إنّه أصبح طاعنا في السنّ، إذ لا يبلغ عمره سوى قلّة من النّاس.

3. إنّ الذين يستمتعون «بمجرى» حياة يزعمون أنّه «طبيعي» ويضيف إلى عمرهم، قد يجوز أن يبلغوا مرامهم لو أمكنهم الإفلات من الكمّ الهائل من الحوادث التي نتعرّض لها كلّنا بشكل... طبيعي، والتي من المحتمل جدّا أن تقطع «المجرى» الذي يعِدون به أنفسهم.

4. ما أغبى أن نتوقّع أن نموت هرمًا بسبب الشيخوخة، وأن نرى في ذلك نهاية حياتنا، والحال أنّه أقلّ الميتات حدوثًا وانتشارًا! إنّه الموت الوحيد الذي نسمّيه «طبيعيا»، كما لو كان من «غير الطبيعي» أن يموت من يُدقّ عنقه أو من يغرق أو من يصاب بالطاعون أو بذات الجنب، وكما لو أنّنا لسنا عرضة، في أوضاعنا العادية، لكلّ هذه المخاطر!

5. لا تغرّنّنا تلك الكلمات الرنّانة؛ ربّما يجب أن نسمّي «طبيعيا» ما يكون عامّا ومشتركا وكلّيا. إنّ الموت هرمًا موت نادر، اسثنائي، بعيد عن المألوف، وبالتالي فهو أقلّ طبيعية من الميتات الأخرى. إنّه آخر طريقة للموت، الطريقة القصوى، ونحن لا نأمله كثيرا، لابتعاده عنّا: فهو الحدّ الذي لا نتخطّاه، الحدّ الذي يمنعنا القانون الطبيعي من تجاوزه. هذا القانون، إذ يسمح لنا بالبقاء إلى أن نموت، إنّما ينعم علينا بحظوة نادرة. إنّه امتياز استثنائي يُمنح لشخص واحد مرّة كلّ قرنَيْن أو ثلاثة ويسمح له بتجاوز العراقيل والحواجز والصعوبات التي زرعها بنفسه في طريقه الطويل.

6. في رأيي إذن أنّ العمر الذي نكون بلغناه لا يبلغه الكثيرون. وبما أنّ المجرى الطبيعي للحياة لا يسمح للنّاس ببلوغه، فهذه علامة على كوننا تجاوزناهم إلى الأمام

كثيرا. وبما أنّنا تجاوزنا الحدود الطبيعية التي تقاس بها حياتنا حقّا، يجب ألّا نأمل في المضيّ قُدما. فبعد أن أفلتنا من الموت مرارًا، بينما لم يفلت منه الكثيرون، لا بدّ من الاعتراف بأنّ حظّا جميلا كهذا الذي يُبقينا قيد الحياة على غير ما هو مألوف لا يمكنه أن يستمرّ طويلا.

7. من عيوب قوانيننا أنّها لا تعترف بهذه الأمور: فهي لا تسمح لرجل لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره بأن يتصرّف بكامل الحرّية في أملاكه، مع أنّه بالكاد يستطيع أن يبقى حيّا حتى هذا العمر. لقد حذف أوغست خمس سنوات من الأحكام القانونية الرومانية القديمة، وأعلن أنّه يكفي أن يبلغ المرء سنّ الثلاثين حتى يسمح له بامتهان القضاء. كما أعفى سرفيوس توليوس (Servius Tullius) من أعمال السُّخرة في الحرب الفرسان الذين تجاوزوا سنّ السابعة والأربعين. وقد ردّها أوغست إلى الخامسة والأربعين.

8. يبدو لي من غير المعقول أن نُرجع النّاس إلى ديارهم قبل سنّ الخامسة والخمسين أو قبل الستّين. قد أوافق على التمديد في مدّة وظيفتنا ونشاطنا قدر الإمكان. لكن من جهة أخرى أرى أنّه من غير المعقول ألّا نشرع في العمل مبكّرا. إنّ ذلك الذي أصبح في سنّ التاسعة عشر سيّدًا على العالم قد قدَّر مع ذلك أنّه ينبغي على المرء أن يبلغ سنّ الثلاثين كي يضبط المكان الذي يجب أن يوضع فيه المزراب.

9. أمّا في تقديري الشخصي فإنّ النّفس تبلغ أوج نموّها في سنّ العشرين، وهي تعطي آنذاك كلّ ما بوسعها. ولم يحدث أبدا أن أنجزت نفسٌ، في عمر متقدّم، ما لم تبرهن على قدرتها عليه في فترة شبابها. إنّ الخصال والفضائل الطبيعية تظهر مبكّرا، وإلّا فلن تظهر أبدًا، بما تملكه من عنفوان الشباب وجماله.

«إذا لم تنخس الشوكة في بداية نموّها، فهي لن تنخسنا أبدا »،

كما يقال في الدوّفيني (Le Dauphiné) [1].

10. من بين كلّ ما أعلمه من الأعمال الإنسانية الجميلة، مهما كان نوعها وسواء وجدت في غابر الزمان أم في عصرنا هذا، أعتقد أنّ معظمها قد تحقّق قبل سنّ الثلاثين ليس بعد. وهذا ما يحصل أيضا في حياة كلّ فرد. ألا يصدق ذلك حقّا عن حنّبَعل وعن خصمه الكبير سكيبيو؟ لقد قضّيا نصف حياتهما على أمجاد شبابهما، وكانا في الآخر رجلين عظيمَيْن مقارنة بسائر النّاس، لا بما كانا عليه من قبل.

(1) الدّوفيني (Dauphiné) مقاطعة فرنسية قديمة موجودة في جنوب شرقيّ فرنسا.

11. أمّا أنا فأعتقد بكلّ يقين أنّني منذ هذا العمر بدأ عقلي وجسمي يتراجعان لا يتقدّمان، يضعفان لا يتعزّزان. لعلّ الذين يستغلّون وقتهم بإحكام قد تنمو معرفتهم وخبرتهم خلال حياتهم، إلّا أنّ الحيويّة واليقظة والحزم وصفات جوهرية أخرى أشدّ حميمية لا بدّ أن تذبل وتخور.

«عندما تكبح ويلات الزمان جماح الجسد،
وعندما تفقد الأطراف قوّتها،
يبدأ الفكر في العرج،
ويشرع اللّسان في الهذر»

[Lucrèce, III, V. 451-453]

12. أحيانًا يصاب الجسم هو الأوّل بهرم الشيخوخة، وأحيانا تصاب النّفس. ولقد شاهدت الكثيرين ممّن ضعف عقلهم قبل معدتهم وأرجلهم. وبما أنّ هذا الضعف يكاد يكون غير محسوس ولا يسهل التفطّن إليه، فهو لذلك يكون أشدّ وطأة.

13. وبالمناسبة فإنّي مستاء من القوانين، ليس لكونها ترغمنا على البقاء طويلًا في الشغل، وإنّما لكونها لا ترغمنا عليه مبكّرا. إذ لو أخذنا في الاعتبار ضعف حياتنا وكثرة الحواجز الطبيعية التي تعترضها، لما قبِلنا بالتفرّغ، في جزء كبير منها بعد الولادة، للّهو والتعلّم.

انتهى الجزء الأوّل

مختارات

(من الجزأين الثاني والثالث)

1 - في نسبيّة الأشياء

يجب أن يكون للحقيقة وجهٌ واحدٌ باستمرار، وجهٌ كونيٌّ؛ فإذا رأى أحدُهم الاستقامة والعدل متجسّدَيْن في الواقع، يجب ألّا يربطهما بتقاليد قطر من الأقطار؛ فالفضيلة لا تستمِدّ شكلها من خيالات الفُرس أو الهنود، ولا شيء يخضع للتغيّر المستمرّ أكثر من القوانين. منذ أن وُلدتُ، شاهدت قوانين أجوارنا الإنجليز وقد تغيّرت ثلاث أو أربع مرّات، لا فقط في مجال السياسة، حيث لا يوجد استقرار، وإنّما أيضًا في أخطر المجالات وأهمّها: مجال الدّين.

وقد أشعرُ بالاستياء والخجل، لأنّهم قوم تربطنا بهم عُرى وثيقة، حتّى إنّه لا يزال يوجد في منزلي بعض العلامات على قرابتنا القديمة. وفضلًا عن ذلك فقد شاهدتُ عندنا، ها هنا بالذات، جرائم تستحقّ الحكم بالإعدام، ثمّ تحوّلت إلى أمور مشروعة. وإنّنا إذ نعتبر أمورًا أخرى على أنّها مشروعة، قد نُتّهم بشأنها يومًا، بسبب ما يطرأ من التقلّبات، بجريمة القدح في الذّات الإلهيّة والذّات الإنسانية، بعد أن تقع عدالتنا في قبضة الظالمين وتتّخذ، في بضع سنوات، دلالة مختلفة. هل كان بإمكان ذلك الإله القديم[1] أن يؤكّد بأكثر وضوح على غياب الإلهي في المعرفة الإنسانية، وأن يعلّم النّاس أنّ دياناتهم إنّما هي من اختراعهم وأنّ الغاية منها هي تحقيق الانسجام في المجتمع، هل كان بإمكانه ذلك من دون أن يُعلن، مثلما فعل أمام الذين كانوا ينتظرون تعاليمه، أنّ العبادة الصّادقة، بالنّسبة إلى كلّ فرد، تكون على منوال ما يألفه في تقاليد بلده؟ ألسنا نُدين إلى رحمة خالقنا وعطفه علينا، إذ شذّب إيماننا من تلك العقائد المتعدّدة المتعسّفة، وأقامه على القاعدة السرمدية لكلامه المقدّس؟

ماذا عسى أن تقول الفلسفة هنا؟ أن نتبع قوانين بلدنا، أي ذلك البحر المتقلّب من الآراء التي وضعها الأمير، أو وضعها النّاس، فرسموا العدالة بألوان متبدّلة وأوجه مختلفة بقدر اختلاف أهوائهم وتبدّلها. إنّي لا أرضى بالأحكام المنثنية الليّنة؛ إذ ما عسى أن تكون قيمة الشيء، إن كان بالأمس يحظى بالثقة والتّصديق، ويوم غدٍ يفقدهما؟ أو كان يتحوّل، بمجرّد عبور نهرٍ، إلى جريمة؟ أيّ حقيقة هذه التي تصبح كذبًا في ما وراء الجبال؟

(من الجزء الثاني، الفصل الثاني عشر، تقريظ ريمون سيبوند *Apologie de Raymond Sebond)*

---

(1) أبولون (Apollon).

2 – يتعذّر التواصل مع الكيان

فالحاصل إذن أنّه لا شيء يبقى ثابتا، أتعلّق الأمر بكياننا أو بكيان سائر الموجودات. فنحن، وأحكامنا، وكلّ الأشياء الفانية، في حركيّة دائمة وسيلان مستمرّ. ولذلك فإنّه لا يمكن الإجماع على أمر يقينيّ، لأنّ الذات التي تحكم وموضوع الحكم يتحوّلان باستمرار.

إنّه يتعذّر علينا التواصل مع «الكيان»، لأنّ الطبيعة الإنسانية تكون دائما في منتصف الطريق بين الولادة والموت، ولا يمكنها أن تقدّم عن نفسها إلّا صورة غامضة متحجّبة وفكرة ضعيفة غير يقينيّة. فإذا أردتَ التركيز على هذه الطبيعة كي تدرك ماذا عساها أن تكون، كان ذلك كما لو كنت تحاول أن تمسك الماء بقبضتك: فبقدر ما تضغط عليه وتعصر، يفلت من بين أصابعك ويتسرّب. وبالتالي فلمّا كانت كلّ الأشياء قابلة للانتقال من حالة إلى أخرى، فإنّ العقل الذي يبحث فيها عن الثبات الحقيقي قد يخيب انتظاره: فكلّ شيء إمّا يكون في طور الوجود، وإمّا أنّه ليس موجودًا بعدُ، وإمّا أنّه بدأ يموت حتّى قبل أن يولد.

(من الجزء الثاني، الفصل الثاني عشر، تقريظ
ريمون سيبون *Apologie De Raymond Sebond*)

3 - في العلاقة بين الآباء والأبناء

إن وُجد قانون طبيعي شامل للحيوان وللإنسان على حدّ سواء، فهو في رأيي، بعد غريزة البقاء والنفور من كلّ أذى، تعلّق كلّ والدٍ بنسله... وفي المقابل، يكون تعلّق الأبناء بآبائهم تعلّقا أقلّ.

قال أرسطو في هذا الصّدد إنّ من يحسن إلى الآخر إنّما هو يحبّه أكثر ممّا يحبّه الآخر؛ وإنّ ما ندين به إلى الآخر يشهد بحبّه لنا أكثر ممّا يشهد بحبّنا له. إنّ من ينجز عملا فهو يحبّ عمله، وليس العكس. ولأنّنا نعشق الوجود، والوجود إنّما هو حركة وعمل، فإنّ كلّ واحد يكون حاضرا في ما يعمل. من عمل خيرا، كان عمله جميلا ومشرّفا؛ ومن لقي خيرا، كان ذلك نافعًا له. بيد أنّ الشيء النافع يكون جديرا بمحبّتنا أقلّ من الشيء المشرّف. فالشيء المشرّف يكون ثابتا باستمرار، ويمنح صاحبه رضاء دائما. أمّا الشيء النافع، فهو على العكس سرعان ما يزول ويدخل طيّ النسيان، وتفقد ذكراه جدّتها ونعومتها. فالأشياء تكون ثمينة بقدر ما تكلّفنا، والعطاء يكلّف أكثر من الأخذ (...)

(...) على المرء أن يجعل نفسه محترما بقيمته وقدراته، وأن يجني محبّة الآخرين بطيبة قلبه ولطف سلوكه. وعندما تكون المادة غنيّة، فحتّى رمادها يكتسب قيمة: إنّنا نقف باحترام وخشوع حتّى أمام عظام وبقايا الأشخاص الذين يستحقّون الإجلال.

إنّي أدين كلّ عنف في تربية الروح الرقيقة التي نريد إعدادها لحياة الشرف والحرّية. ثمّة شيء من الوضاعة في الإكراه والقسوة؛ وفي رأيي أنّ ما لا يستطيعه العقل والحكمة والمهارة، لن تستطيعه القوّة أبدا. (...) ولعلّ كلّ ما ينجح السّوط في تحقيقه هو أن يجعل النّفوس أكثر جبنًا أو أشدّ عنادًا.

هل نريد أن يحبّنا أبناؤنا؟ هل نريد أن نقطع الأسباب التي تجعلهم يتمنّون موتنا؟ لنفعل ما بوسعنا كي نيسّر لهم حياتهم بشكل معقول...

وإنّه من الظلم والجنون أن يُحرم الأطفال إذا كبروا من أُلفة آبائهم، وأن يعاملهم هؤلاء بقسوة واحتقار كي يحافظوا على هيبتهم وتُطاع أوامرهم. فهذه لعمري تمثيلية تافهة، تجعل الآباء مزعجين لأبنائهم، بل أكثر: تجعلهم تافهين في نظرهم... أمّا أنا، فحتّى إن كنت مهابًا، فإنّي أفضّل أن أكون محبوبًا.

(من الباب الثاني، الفصل 8، عن *عطف الآباء على أبنائهم* *De l'affection des pères aux enfants*)

4 ـ عن وفاة الأزواج

إنّ محَكّ الزواج الطيّب والشاهد عليه هو دوام العشرة، سيّما إذا كان التعامل باللّين والمعروف والبهجة. وفي عصرنا، أصبحت الزوجات تفخرن بالولاء لأزواجهنّ وبمدى عطفهنّ عليهم، لكن بعد مماتهم. آنذاك ترغبن في التعبير عن نيّتهنّ الحسنة، بشهادة متأخّرة جاءت بعد فوات الأوان... ولعلّ كلّ ما يشهدن به هو أنّهنّ لا يعشقن أزواجهنّ إلّا أمواتا... وإنّي أذكر دائما هذه القولة البليغة: «بقدر ما يقلّ الألم، يكثر البكاء». ويكون تجهّمهنّ كريها في نظر الأحياء، وبلا معنى بالنسبة إلى بالأموات... ألا يهزّني الغضب ويجعلني أحيا بعد الموت، إذا كان من بصق على وجهي وأنا على قيد الحياة جاء ليلحس قدمي بعد أن فارقت الحياة؟

(من الباب الثاني، الفصل 35، عن ثلاث زوجات صالحات De trois bonnes femmes)

5 - في مدح المحادثة

المحادثة، في نظري، هي أكثر التمارين المثمرة وأقربها إلى طبيعة عقولنا. أجد هذا النّشاط أحلى من أيّ نشاط آخر في حياتنا. ولهذا فلو كنت مرغَمًا على الاختيار، لفضّلت أن أفقد بصري، وأن أحتفظ بحاسّة السّمع وبقدرتي على الكلام. لقد احتلّ هذا النّشاط مكان الصدارة في الأكاديميات الأثينيّة والرّومانية. وفي عصرنا، احتفظ الإيطاليون ببعض آثاره، وكان ذلك في صالحهم: هذا بيّنٌ عندما نقارن فكرهم بفكرنا. إنّ دراسة الكتب نشاط يتّسم بالهدوء والاطمئنان وليس فيه إثارة؛ أمّا المحادثة فهي تجعلنا نتعلّم ونتمرّن معا. فإذا تحاورتُ مع فكر قيّم ومجادل خطير، ضغطَ عليّ من كلّ جانب ونخسني يمينا ويسارًا، وحفّزتْ أفكاره أفكاري. إنّ الحسد، والتّوق إلى المجد، والمنافسة، كلّ هذا يحفّزني ويدفعني إلى التفوّق. أن تجري المحادثة على رأي واحد، فهذا مملّ إلى أقصى حدّ.

لئن كان فكرنا يقوى بمخالطة العقول الشديدة القويمة، فهو على العكس يضعف ويفسد بالمخالطة المستمرّة للعقول الواهنة المريضة. وما من عدوى تنتشر بسرعة أكبر من هذه. ولديّ من التجربة ما يجعلني على بيّنة من هذا الخطر. أحبّ المناقشة والجدل، لكن مع قلّة من النّاس، ولغاية شخصيّة؛ أمّا أن تعرض نفسك أمام الأكابر وأن تتبجّح بآرائك وتتغطرس، فهذا سلوك لا يليق برجل شريف.

(من الجزء الثالث، الفصل الثامن، في *فنّ المحادثة*
(*De l'art de conférer*

6 - في تقلّب أطوارنا

لعلّ أعظم صعوبة يجدها أولئك الذين يدأبون على تأمّل الأعمال الإنسانية إنّما تتمثّل في جمع هذه الأعمال وعرضها تحت ضوء واحد معًا؛ ذلك لأنّها قد تكون متناقضة فيما بينها لدرجة أنّه يبدو من المحال أن تكون مرجعيّتها واحدة. هكذا كان ماريوس في شبابه تارة ابن مارس وطورًا ابن فينوس.

قيل إنّ البابا بونيفاس الثامن (Boniface VIII) كان ثعلبًا حين فاز بمنصبه، وأسدًا لمّا اضطلع بمهامّه، وكلبا عندما وافاه الأجل. أمّا نيرون، رمز القسوة والتوحّش، فمن سيصدّق أنّه رفع صوته قائلا، لمّا طُلب منه، كما هو مألوف، أن يمضي على قرار حكم بالإعدام، وقد تفتّت قلبه لكونه سيقضي بقتل إنسان: «لماذا لم يشأ الربّ ألّا أحسنَ الكتابة أبدا!»

الأمثلة من هذا النّوع هي من الكثرة بمكان، وقد يجد المرء الكثير منها عن نفسه، حتّى إنّي استغرب أحيانا من سعي أناس أذكياء إلى التوفيق بينها، إذ يبدو لي أنّ عدم الوقوف على قرار إنّما هو العيب الأكثر شيوعًا والأشدّ بروزًا في طبيعتنا الإنسانية. هذا ما يشهد به ذلك البيت الشهير للمؤلّف الهزليّ بوبليوس سايروس (Publius Syrus):

«يا له من قرار سيّء، ذلك الذي لا نقدر على تغييره».

يبدو من المعقول أن نحكم على إنسان بالنّظر إلى ما ألفناه في طبيعته؛ إلّا أنّ ما تشهده طبائعنا وآراؤنا من تغيّرات قد يجعلني أجزم بأنّ كبار المؤلّفين أنفسهم ليسوا على حقّ عندما ينظرون إلى الإنسان على أنّه كائن جامد لا يتغيّر. إنّهم يختارون مثالا كلّيا يقيسون عليه كلّ أعمال الفرد، تصنيفًا وتأويلاً، وإذا تعذّر عليهم ذلك، رأوا في الأمر تخفّيا وتستّرا. لكن يبدو أنّ أوغسطس قد خرج عن مألوفهم، إذ كان لهذا الرّجل، طوال حياته، من المواقف المتنوّعة وغير المتوقّعة ما أصاب بالإحباط أشدّ القضاة جرأة، بحيث ظلّ ملفّ قضيّته مفتوحا. أعتقد أنّ أقلّ صفة تصدق على الإنسان هي ثبات النّفس، وأنّ أكثر صفة تنطبق عليه هي تقلّب أحوالها. إنّ من يتأمّل أعمال الإنسان في أدقّ جزئياتها، قد يحالفه الحظّ ويقارب الحقيقة.

يصعب أن نجد، في كامل العصور القديمة، أكثر من اثني عشر نفرا نظّموا حياتهم على أساس مشروعٍ ثابتٍ دقيق، مع أنّ هذه هي الغاية الرئيسية للحكمة. فحتّى نختزلها

كلّها في عبارة واحدة تكون شاملة لكامل قواعد حياتنا، يجوز القول مع أحد القدامى إنّها تتمثّل في أن نريد ولا نريد باستمرار الشيء نفسه. قال: «ليس لي ما أضيف، بشرط أن تكون الإرادة عادلة؛ فإن لم تكن عادلة، امتنع عليها أن تكون واحدة على الدوام» Sénèque [96] II, 20. وفي الحقيقة، فقد سبق أن عاينتُ ما في الرذيلة من تهوّر واضطراب. وبالتالي فمن المحال أن يكون ثبات النّفس مقترنًا بها.

قال ديموستان (Démosthène) إنّ التفكير والتداول هما بداية كلّ فضيلة، وإنّ الثبات هو غايتها وكمالها (...).

إنّنا نسير في العادة وراء رغباتنا المتقلّبة، يمينا ويسارًا، إلى الأعلى وإلى الأسفل، كالريشة في مهبّ الرياح. وإنّنا نفكّر في ما نريد، فقط عندما نريد، ونتغيّر مثل ذلك الحيوان الذي يتّخذ لون المكان الذي نضعه فيه. وإنّ ما نعقد العزم على القيام به فورا، سرعان ما نتراجع فيه، ثمّ سرعان ما نعود على أعقابنا (...).

نحن لا نتحرّك من تلقاء أنفسنا: هناك ما يدفعنا، كمثل الأشياء التي تطفو، تارة بلطف وطورًا بعنف، على سطح المياه الهائجة أو الهادئة.

في كلّ يوم فكرة جديدة: يتغيّر مزاجنا بمرور الزمن، بحرّية، لا شيء يحدث على وجه الإطلاق، لا شيء يحدث باستمرار.

إنّ الذي يستطيع بعقله أن يفرض على نفسه نظامًا وقواعد واضحة، يكون معتدلًا في سلوكه منتظمًا على الدوام وتكون مبادئه مطابقة لواقع الأشياء. لقد لاحظ أمباذوقليس على العكس من ذلك، عند أهالي أغريجنته، هذا التناقض: كانوا يلهثون وراء ملذّات الدّنيا كما لو أنّهم سيموتون غدا، وكانوا في المقابل يبنون ويشيّدون كما لو أنّهم لن يغادروا الدّنيا أبدا (...).

لا تستغربوا إذا رأيتم شخصًا كان بالأمس في قمّة الشجاعة وأصبح اليوم في منتهى الجبن: فلعلّ ما نفث الشجاعة في قلبه هو الغضب، أو الضرورة، أو من كان برفقته، أو الخمر، أو حتى النّفخ في النّفير. لم تكن شجاعته متأتّية من العقل وإنّما من الأوضاع والظروف. فلا عجب إذن أن يتغيّر بتغيّر الظروف.

ليست الأحداث فقط هي التي تحرّكني في الاتّجاه الذي تريد، بل أتحرّك أيضا وأنفعل بدافع وضعي غير المستقرّ، وإنّ من يتأمّل نفسه لن يجدها على نفس الحال مرّتين. تارة أتقمّص شخصيّة، وطورا أتقمّص أخرى، حسب ما تقتضيه الأوضاع. وإن كنتُ أتحدّث عن نفسي بأوجه مختلفة، فذلك لكوني أعتبرها من زوايا مختلفة. كلّ التناقضات تجد مرتعًا في نفسي، بصفة أو بأخرى: فتراني خجولًا ووقحًا، متعفّفًا وفاجرًا، مهذارًا وسكوتًا، نشيطًا وخاملًا، ذكيًّا وأخرق، كئيبًا ومرحًا، كاذبًا ونزيهًا،

عالمًا وجاهلًا، مبذّرًا وشحيحًا... إنّي أرى كلّ هذه الصّفات في نفسي، بحسب الزاوية التي أنظر منها. كلّ من يتأمّل نفسه عن كثب يجدها متقلّبة متناقضة حتّى في أحكامها. لا أستطيع أن أقول عن نفسي قولًا مطلقًا، بسيطًا وصحيحًا، خاليًا من الاضطراب والاختلاط، لا يتجاوز كلمة واحدة (...).

يجب ألّا نستخلص من السّلوك الشّجاع أنّ صاحبه شجاع: فالشّجاع حقّا هو الذي يكون شجاعًا دائمًا، في كلّ الظروف. إذا كان بعضهم شجاعًا بطبعه، وليس عرضًا، كان مستعدّا لكلّ طارئة، أكان بمفرده أم مع رفاقه، في مكان مغلق أم في ساحة الوغى، ذلك لأنّه مهمًا قيل، لا توجد شجاعة للمدينة وشجاعة للحرب؛ وكان قادرًا أيضا على تحمّل المرض في فراشه بنفس الشجاعة التي يتحمّل بها الجروح في الحرب، فلا يخشى أن يموت في داره مثلما لا يخشى أن يلقى حتفه في معركة. لن نرى نفس الرّجل يخترق ببسالة صفوف العدوّ، ثمّ ينتحب كالمرأة على فقدان ابنه أو خسارته لدعوى قضائية.

عندما نرى بعضهم يقف متهيّبًا من العار حازمًا أمام الفقر، ضعيفًا أمام مشرط الجرّاح مقدامًا أمام سيف العدوّ، ينبغي أن يكون مدحنا للأعمال وليس لأصحابها (...).

لا توجد شجاعة أعظم من شجاعة الإسكندر؛ إلّا أنّها نوع من الشجاعة، فلا هي كاملة ولا هي كلّية. فعلى الرغم من أنّها فوق كلّ مقارنة، إلّا أنّها لا تخلو من الشوائب: إذ يلحقه اضطراب شديد كلّما خامرَته أبسط الشكوك تجاه المقرّبين منه الذين قد يرغبون في اغتياله، فيتقصّى الأمر بعنف وظلم شديدَيْن، بدافع الخوف الذي يفقده صوابه. وكذا أمر الخرافات التي كان شديد التّصديق بها، فهي تقدّم عنه صورة رجل جبان رعديد. ويشهد كذلك على طبعه المتقلّب ندمه الشديد على اغتياله لكليتوس (Clytus) (...).

الفضيلة تُطلب لذاتها؛ وإذا استعرنا قناعها أحيانا لغاية أخرى، انتزعته توًّا من وجهنا (...). ولكي نحكم على إنسان، يجب أن نقتفي أثره طويلًا؛ فإذا لم يستقرّ بنفسه على أمر، وجعلته الظروف يغيّر من خطواته... اتركوه في سبيل حاله، لأنّه كالريشة في مهبّ الرّياح.

ليس من الغريب، كما قال سينيكا (Sénèque)، أن تؤثّر فينا الصّدفة أيّما تأثير، لأنّنا نعيش على وقعها. إنّ من لا يحدِّد وجهة حياته إجمالا من الأوّل، لن يستطيع تنظيم أعماله بدقّة. ومن كان ذهنه خاليا من خطّة شاملة، تعذّر عليه رصد عناصرها. فما الفائدة من خزن الموادّ الملوّنة إن كنّا لا نعلم ماذا سنرسم؟ لا أحد يضع مخطّطًا عامًّا لحياته: نحن نفكّر في ذلك مرحلة تلو الأخرى. يجب على الرّامي أن يعلم أوّلا مكان التصويب، كي يضع يده بشكل صحيح ويمسك جيّدًا القوس والحبل والسّهم ويعطي الدّفع المناسب.

تفشل مشاريعنا عندما تكون لا وجهة لها ولا هدف. ولا توجد رياح مواتية لمن ليس لديه ميناء يقصده. وإنّي لا أقف في صفّ الذين ساندوا سوفوكليس ضدّ ابنه الذي كان يوجّه له اللّوم، لأنّ مسرحيّات سوفوكليس القيّمة لا تدلّ على أنّه كان كفؤًا في تدبير شؤون بيته (...).

نحن نتكوّن من قطع وأجزاء متنوّعة الترتيب ومتبدّلة الأشكال، حيث يلعب كلّ عنصر دوره في كلّ لحظة. إنّ الفرق بيننا وبين أنفسنا ليس أقلّ من الفرق بيننا وبين غيرنا.

(من الجزء الثاني، الفصل الأوّل، في تقلّب أطوارنا
(De L'inconstance De Nos Actions

7 - فيما يكون نافعا وما يكون نزيها صادقا

تزخر مؤسّساتنا، العامّة والخاصّة، بالعيوب والنقائص؛ أمّا مؤسّسة الطبيعة فلا شيء ممّا تحتويه فاقد للمنفعة، بل إنّها لا تعرف عدم المنفعة؛ ولا شيء ممّا يوجد في الكون إلّا ويحتلّ مكانه المناسب. إنّ تركيبة كياننا تمسكها استعدادات مرَضيّة: فالطموح والغيرة والحسد والثأر والخرافة واليأس انفعالات قائمة فينا بطبعها، بل إنّها قائمة في الحيوانات أيضا. أمّا القسوة فهي ليست طبيعية؛ غير أنّنا، عندما نشعر بالشّفقة، قد يختلط هذا الشعور بنوعٍ من الإحساس الحلو والمرّ معًا، إحساس بالمتعة غير الصحّية في رؤية الآخرين يتعذّبون. فحتّى الأطفال يشعرون بذلك.

«عندما تعصف الرياح وتحرث مياه البحر، ما أحلى
أن نشاهد من الشاطئ معاناة الآخرين بين الأمواج» (لوكريسيوس)

لو قضينا في الإنسان على بذور انفعالاته، لقضينا في نفس الوقت على شروط حياته الأساسية. وكذا شأن كلّ مجتمع: فهناك وظائف ضرورية مقرفة، بل فاسدة، حيث ترتع الرذائل وتلعب دورها في المسك على وحدة المجموعة، كالسّموم التي تُستعملِ في حفظ صحّتنا. ولئن كانت تُغتفر لكوننا نحتاج إليها ولكون المصلحة العامّة قد تلطّف من طبيعتها الحقيقية، فلا بدّ أن نترك حملها على عاتق المواطنين الأشدّ بأسًا والأقلّ جبنًا، كي يضحّوا بسببها بشرفهم وضميرهم، مثلما ضحّى أجدادنا بحياتهم في سبيل الوطن. أمّا نحن الضعفاء، فلنقتصر على أدوار أكثر سهولة وأقلّ خطرًا؛ قد تقتضي المصلحة العامّة أن نخون ونغدر، وأن نكذب ونقتل: فلنترك هذا الشغل لمن هم أكثر منّا تطوّعًا ومرونة (...).

في المفاوضات القليلة التي أجريتها للتّأليف بين قلوب الأمراء، بسبب الانقسامات التي أضحت تمزّقنا اليوم، تجنّبتُ بعناية تامّة أن يسيئوا بي الظنّ وأن ينخدعوا بمظهري. إنّ الذين يمتهنون السياسة يكتتمون قدر الإمكان ويتظاهرون بالتفهّم والاعتدال. أمّا أنا فإنّي على العكس أعبّر عن آرائي بكلّ حزم وأعرض نفسي بكلّ شفافية. إنّي لا أزال ليّنا ومبتدئًا في عمليّة التفاوض، لكنّي أفضّل أن أفشل في مهمّتي على أن أخون ضميري. ومع هذا فقد كُلّلت مبادراتي حتّى الآن بالنجاح {وإن حالفني الحظ في ذلك كثيرا}،

ويندر أن تجد من تنقّل مثلي بين الأمراء دون أن يدفعهم ذلك إلى الارتياب منّي ودون أن أحظى بحسن القبول والضيافة (...).

والحاصل أنّني لا أشعر بالكراهيّة ولا بالمحبّة تجاه عظماء هذا العالم؛ فأنا لم تصلني منهم شتيمة ولا إهانة، كما أنّي لا أدين لهم بشيء. إنّي أنظر إلى ملوكنا بعطف وإخلاص واحترام، لا تحدوني في ذلك أيّة مصلحة شخصيّة. ولا أهتمّ بالقضايا العامّة العادلة إلّا باعتدال ودون حماسة مفرطة. لست من أصحاب الالتزامات الكبرى التي ترتهن صميم كياننا. الغضب والكره لا يقومان في حدود واجب العدل، فهذان الانفعالان يفيدان فقط أولئك الذين لا يكفي العقل وحده كي يحضّهم على واجباتهم.

تكون كلّ النّوايا المشروعة معتدلة بذاتها، وإلّا فسدت وفقدت شرعيّتها وأثارت الفتنة. لهذا تراني أجول في كلّ مكان رافع الرّأس منبسط الأسارير دافئ القلب.

(من الجزء الثالث، الفصل الأوّل، فيما يكون نافعا
وما يكون نزيها صادقا *De l'utile et de l'honnête*)

8 – في تطوّر المعرفة

قال ثيوفراستوس إنّ المعرفة الإنسانية التي تقوم على الحواسّ قد تستطيع، إلى حدّ ما، أن تحكم على الأشياء، لكنّها عندما تصل إلى العلل الأولى والنهائية، لا بدّ أن تكلّ وتتوقّف، بسبب ضعفها واستغلاق تلك الأشياء. لا شكّ أنّ الاعتدال والأريحيّة يجعلاننا نظنّ أنفسنا قادرين فقط على المُضيّ في معرفة بعض الأشياء، وأنّ هذه المعرفة تملك حدودا لا ينبغي أن نجازف بتخطّيها؛ فهذا رأي مقبول، أقرّ به أناس موفّقون. إلّا أنّه يبدو من الصّعب أن نضع للعقل حدودًا: فهو محبّ للاطّلاع شديد النّهم، ولا يرى داعيًا كي يتوقّف بعد ألف خطوة أكثر منه بعد خمسين.

علّمَتني التجربة أنّ ما يفشل فيه بعضهم، قد ينجح فيه بعضهم الآخر؛ وأنّ ما يجهله عصر، قد يكتشفه العصر الموالي؛ وأنّ العلوم والفنون لا تخرج من قوالب جاهزة، وإنّما هي تتشكّل وتبرز تدريجيا، بمعالجتنا لها وتهذيبها باستمرار، كالدّببة التي تُشكّل صغارها بلحسها كلّ يوم. إنّ ما أعجز عن أدائه بمحض قوّتي، لا أنقطع مع ذلك عن اختباره ومحاولة فعله: أجسّ المادّة الجديدة وأعجنها، أعالجها وأستثيرها من جديد، وأقدّم لمن سينوبني ما سيسهّل عليه العمل ويجعله أكثر مرونة وأشدّ متعة.

(من الجزء الثاني، الفصل الثاني عشر، تقريظ ريمون سيبون *Apologie De Raymond Sebond*)

9 - عن الطبّ والأطبّاء

ليغفر لي الأطبّاء صراحتي: إنّ نفوري من فنّهم وازدرائي لعلمهم يعود إلى عامل الوراثة. فوالدي قد بلغ من العمر أربعة وسبعين، وجدّي تسعة وستّين، وجدّي الأكبر حوالي الثمانين، وذلك دون أن يتناولوا أيّ دواء... فالطبّ قد تكوّن بفضل الأمثلة والتجارب، هذا رأيي. لكن أليس ما رويته الآن من قبيل التجربة الواضحة والمقنعة؟ لا أظنّ أنّ الأطبّاء سجّلوا يوما في دفاترهم مثال ثلاثة أشخاص من نفس الأسرة، وُلدوا وتربّوا وماتوا تحت سقف واحد، انصاعوا لأوامرهم وتقيّدوا بتعليماتهم فعاشوا طويلا.

(...) الصحّة شيء ثمين، وهي الشيء الوحيد الذي يستحقّ أن نضحّي بأوقاتنا وأموالنا من أجله... غير أنّي أقف محترزا من كلّ شيء... ولعلّ تجربتي في الحياة هي السبب في ذلك: فهي قد علّمتني أنّ كلّ من استسلم لحُكم الطبّ إلّا ومرض مبكّرا وشفي متأخّرا... فالأطبّاء، بما يفرضونه من أنواع الحِمية، لا يكتفون بالسيطرة على المرض وإنّما يسلّطون المرض على الصحّة نفسها، حتى لا يفلت أحد من نفوذهم. ألا يرون في الصحّة المزدهرة ما يُنبئ بمرض قادم كبير؟ لقد عانيت من أمراض كثيرة، واشتدّت وطأتها عليّ أقلّ ممّا لو كانوا ساعدوني، كما أنّها دامت أقلّ ممّا عند أيّ شخص آخر. وعلى أيّة حال فإنّي لم أضف إليها مرارة عقاقيرهم. فالصحّة عندي تكون حرّة وبلا قواعد، ويقوم نظامها الوحيد على عاداتي ورغباتي... وإنّي لا أخشى غياب الطبيب والصيدلاني وفقدان كلّ مساعدة، بينما أرى معظم النّاس يُذعرهم ذلك أكثر ممّا يُذعرهم المرض نفسه. عجبًا ! فهل تشهد حياة الأطبّاء أنفسهم على السعادة وطول العمر ما يكفي كي نرى في ذلك دليلا واضحا على علمهم؟

ومع هذا فأنا أبجّل الأطبّاء... إذ يستحقّون في معظمهم التبجيل. فأنا لا ألومهم بقدر ما ألوم «فنّهم»، ولا أوبّخهم على استفادتهم من حماقتنا، إذ يستفيد منها معظم النّاس؛ فهناك مِهن أقلّ نُبلا أو أكثر، لا أساس لها ولا متّكأ إلّا في حماقة العوامّ...

كم من الأطبّاء يسلكون مثلي ويرفضون التطبّب لأنفسهم ويفعلون عكس ما يفرضونه على مرضاهم؟ أليس هذا استغلالا لسذاجتنا؟ ذلك لأنّهم، إذ يتعلّقون بالحياة والصحّة مثلنا، فلو لم يكونوا على بيّنة من بطلان علمهم لكانوا يسلكون على مقتضاه.

(...) لو لم يدفعني إلى ذلك علماء الطبّ أنفسهم، لما تجرّأت على تفكيك

أسرار فنّهم. أعتقد أنّه يوجد منهم اثنان فقط عند اللاتينيين: بلينيوس الأكبر (Pline l'Ancien) وسلسوس (Celse). لو قرأتم يوما هذين المؤلّفين، لوجدتم عندهما أكثر منّي غلاظة في التعامل مع فنّهما: فأنا قرصته فقط، بينما هما نحَراه. من بين الأشياء التي كان بلينيوس يسخر منها، يذكر طريقتهم الجميلة، عندما تنفد جميع وسائلهم وبعدما ينتهوا من رجّ مرضاهم وتعذيبهم بمختلف الأدوية والحِمية، المتمثّلة في دعوة بعضهم للاستعانة بالمناجاة والمعجزات، وفي إرسال بعضهم الآخر إلى الحمّامات المعدنية.

أظنّ أنّ بيركليس (Périclès) هو الذي أجاب سائله عن أحواله فقال: «يمكنك أن تحكم بهذا...»، مشيرا إلى التمائم المعلّقة في رقبته وذراعه. كان يقصد أنّه في شدّة المرض، بدليل أنّه لجأ إلى وسائل تافهة ورضي أن يلبس هذه الأشياء الغريبة. إنّي لا أزعم أنّني لن يبلغ بي السّخف يوما كي أضع حياتي وصحّتي تحت رحمة الأطبّاء: فقد أقع في مثل هذه الحماقة، ولا يمكن أن أضمن ما سيبقى لي من رباطة الجأش في المستقبل. لكن حتى لو حصل ذلك وسألني بعضهم عن أحوالي، فسأجيبه جواب بيركليس: «يمكنك أن تحكم بهذا... »، مشيرا إلى مقدار الأفيون الذي في قبضتي. سيكون ذلك علامة واضحة على شدّة مرضي الذي أفسد حُكمي تماما.

(من الباب الثاني، الفصل 37، عن *شبه الأبناء بآبائهم*
(*De la ressemblance des enfants aux pères*

10 – في عمل المؤرّخ

أحبّ المؤرّخين، أكانوا عاديين أم متفوّقين. فالذين يقومون بعملهم بكلّ بساطة لا يضيفون له شيئا من لدنهم بقدر ما يثابرون فقط على جمع ما يصلهم من المعلومات، فيسجّلونها بكلّ بنزاهة دون أن يختاروا من بينها أو ينتقوا، ويتركوننا نتبيّن مدى صدقها بأنفسنا؛ شأن فرواسار (Froissart)، إذ دأب على عمله بنزاهة تامّة، فلمّا نُبّه إلى خطإٍ اقترفه، لم يخش الاعتراف به وهمّ بتصويبه. ولقد أخبرنا بتعدّد الإشاعات التي كانت تدور، وتنوّع الروايات التي كانت تصله: إنّما هي مادّة التاريخ بالذات، عارية ومن دون شكل، وعلى كلّ واحد أن يستغلّها بحسب ذكائه.

المتفوّقون حقّا هم الذين يحسنون اختيار ما يستحقّ المعرفة، كما يستطيعون التمييز بين روايتين، أيّهما أقرب إلى الاحتمال. وانطلاقًا من السلوك الطبيعي للأمراء وأمزجتهم، يستنبطون نواياهم وينسبون إليهم الكلام المناسب للظرف. إنّهم يشكّلون آراءنا طبقا لآرائهم، وليس هذا في متناول الكثيرين.

أمّا الذين يكونون في منزلة بين المنزلتين، وهم الغالبيّة، فإنّهم يفسدون كلّ شيء. إنّهم يريدون مضغ العمل قبل أن يعرضوه علينا، ويسمحون لأنفسهم بالحكم على الأحداث وباستمالة التاريخ في اتّجاه آرائهم. ذلك لأنّهم كلّما مالوا بحكمهم في اتّجاه معيّن، كان لا بدّ لهم من تطويع روايتهم وفقا له. فتراهم بالتالي يختارون الأشياء التي تستحقّ الذكر، ويخفون في الغالب بعض الكلام أو بعض الأعمال الخاصّة التي قد تخبرنا بصورة أفضل. إنّهم يغضّون عن أشياء تبدو لهم كاذبة ولا تصدّق، والحال أنّهم لا يفهمونها، وعن أشياء أخرى أيضا، ربّما لكونهم يعجزون عن صوغها بلغة لاتينيّة أو فرنسيّة جيّدة. إنّنا لا نمنعهم من عرض بيانهم وأدلّتهم، ومن إبداء رأيهم الشخصي، لكن ليتركوا لنا المجال أيضا كي نحكم من بعدهم، دون أن يفسدوا حجّة أو يغيّبوها، ودون أن يقتطعوا شيئا من المادّة التي نريد أن نتسلّمها خالصة كاملة بكلّ قياساتها. {إنّ أفضل المؤرّخين هم أولئك الذين يكونون على بيّنة ممّا يذكرون، إمّا لكونهم شاركوا في الأحداث التي يصفون، أو لكونهم كانوا مقرّبين من الأشخاص الذين أداروا هذه الأحداث}.

(في الجزء الثاني، الفصل العاشر، في الكتب، *Des Livres*)

11 - عن القسوة

من بين الرذائل كلّها، القسوة أشدّها، وهي أشدّ ما أكره من تلقاء نفسي وكذلك بأمر عقلي. لكن يتواصل الحال عندي إلى حدّ الضعف، حتّى إنّني أستاء لرؤية دجاجة تُذبح، ولا أتحمّل سماع أنين أرنبة وقعت تحت أسنان كلابي، وذلك رغم غرامي بالصّيد...

إنّي أشفق جدًا على غيري إذا أصابته بليّة، وقد أرثي لحاله لدرجة البكاء معه، إذ لا شيء يُدمعني أكثر من دموعه، أكانت صادقة أم مفتعلة. وإنّي لا أشفق على الموتى بقدر ما أحسدهم، بينما أشفق كثيرا على الذين يحتضرون. إنّي لا أستاء من المتوحّشين الذين يشوُون أجسام الموتى ويأكلونها، بقدر ما أستاء من الذين يضطهدون الأحياء ويعذّبونهم. وحتّى عمليات الإعدام التي يحكم بها القضاة فإنّي لا أتحمّل رؤيتها، مهما كان تبريرها (...).

وفي اعتقادي الشخصي أنّ العدالة نفسها، كلّما حكمت بما هو أشدّ من الموت، كانت في منتهى القسوة؛ لا سيّما وأنّه من واجبنا أن نجعل الأرواح تعود إلى ربّها على ما هي عليه، وهذا محال إذا أربكناها وأيأسناها بتعذيبٍ لا يطاق (...).

إنّي أعيش في زمن كثرت فيه فظاعات هذه الرذيلة، بسبب الاضطرابات التي سبّبتها حروبنا الأهلية. ولعلّ ما نشهده اليوم لا يقلّ سوءا عمّا شهدته العصور القديمة. ومع هذا فإنّي لم أتعوّد على هذا الأمر، ولا أستطيع أن أصدّق قبل أن أعاين بنفسي أنّه توجد نفوس على درجة من التوحّش، قادرة على اقتراف جرائم لغاية المتعة، وعلى قطع أطراف إنسان بالساطور والانتشاء بإبداع طرق تعذيبٍ وقتلٍ جديدة، لا بسبب العداوة أو طمعًا في الربح، وإنّما فقط لغاية التمتّع بالمشهد البهيج الذي تقدّمه حركات وتأوّهات وصيحات إنسان يحتضر في عذاب أليم (...).

لقد زرعت الطبيعة في الإنسان ميولا لا إنسانية. فلا أحد يتمتّع بمشاهدة حيوانات تمرح وتتعانق، بينما يتمتّع الجميع بمشاهدتها تمزّق بعضها البعض (...).

علينا أن نحترم الحيوانات، بل من واجبنا أن نعاملها بإنسانيّة، لأنّها كائنات حيّة وتملك إحساسًا، وكذلك الأشجار ومختلف النباتات. وعلينا أن نعامل النّاس بعدل، وأن نعطف على بقيّة المخلوقات ونرفق بها متى كانت تحسّ بذلك، إذ تربطنا بها

علاقات معيّنة وواجبات متبادلة. ولا أنكر طبعي الصّبياني العطوف الذي يجعلني لا أنزعج من ترحيب كلبي واحتفائه بي، حتّى في أوقات غير مناسبة.

(من الباب الثاني، الفصل الحادي عشر، عن *القسوة* (*De la cruauté*

12 - في التعذيب

التعذيب اختراع خطير؛ ويبدو أنّه اختبار للقدرة على التحمّل أكثر منه اختبارا للحقيقة. إنّ من يستطيع مكابدته قد يخفي الحقيقة تمامًا كالذي لا يستطيع. إذ لماذا سيجعلني الألم أقول الحقّ بدل أن أكذب؟ وعلى العكس، إذا كان المتّهم بريئًا وقادرًا على تحمّل التعذيب، فلماذا لا يكون الجاني غير قادر هو أيضًا عندما يُعرض عليه في المقابل أن لا يُعدم؟ أعتقد أنّ أصل هذا الاختراع يعود إلى ما نتوقّعه من قدرة الضمير. ذلك لأنّ الضمير قد يُضعف الجاني، وقد ينضاف إلى التعذيب كي يجعله يقرّ بذنبه؛ وعلى العكس، قد يساعد البريء على تحمّل تعذيبه. لكنّ التعذيب، في الواقع، طريقة واهية وخطرة جدًا. إذ ماذا عسانا أن نقول وماذا عسانا أن نفعل كي ننجو من العذاب الأليم؟

«العذاب يرغم حتى الأبرياء على الكذب»

Publius Syrus[92]

وعلى ذلك فإنّ القاضي الذي لا يرغب في إعدام متّهم، خوفا من أن يكون بريئًا، ويحكم باستجوابه عن طريق التعذيب، إنّما هو في نهاية الأمر قد يكون حكم بموته بريئًا... ومعذَّبًا. فكم من النّاس اتّهموا أنفسهم وقدّموا اعترافات باطلة ! أذكر من بينهم فيلوتاس (Philotas) وظروف تعذيبه، في القضيّة التي رفعها ضدّه الإسكندر.

يزعم بعضهم أنّه أهون ما اخترعه ضعف الإنسان... بيد أنّه، في اعتقادي، اختراع لا إنسانيّ وعديم الفائدة. وتعتقد شعوب كثيرة، وهي في ذلك أقلّ «بربريّة» من الرّومان والإغريق الذين كانوا هكذا يصفونها، أنّه من الفظاعة والقسوة بمكان أن يقع تعذيب إنسان وتقطيع أوصاله رغم عدم ثبوت إدانته؛ إذ ماذا يستطيعه ضدّ جهل الحقيقة؟ ألستم تظلمونه، بداعي عدم قتله دون ثبوت جُرمه، عندما تكبّدونه أمرًا أفظع من الموت نفسه؟ وحتّى تتيقنوا من ذلك، انظروا إليه كيف يفضّل الموت وهو بريء على ألّا يتعرّض للتعذيب. إنّ شرّ التعذيب أعظم من شرّ الموت حتّى، بل إنّه لا يطاق، لدرجة أنّ المعذَّب يستبق إلى الإعدام، بل قد ينفّذه في نفسه.

لا أدري من أين بلغتني هذه الرواية، لكنّها تعكس تماما الضمير الذي تتحلّى به عدالتنا. وقفت امرأة قرويّة أمام جنرال في الجيش، عُرف بعدله، واتّهمت عسكريًا بأنّه

انتزع منها ما تبقّى من الخبز المنقوع الذي تطعم به صغارها، بعدما أتى الجيش على الأخضر واليابس. إلّا أنّها لم تكن تملك أدلّة... فنبّهها الجنرال إلى خطورة ما تقوله، لأنّها قد تحاسَب إذا ثبت أنّها تكذب. لكن أمام إصرارها، أمر بفتح بطن العسكريّ لمعرفة الحقيقة، فتبيّن أنّ المرأة كانت على حقّ. فهذا إنّه حُكم جدٌّ مفيد.

(من الجزء الثاني، الفصل الخامس، عن *الضمير*
De La Conscience)

13 - عن السّكر

وأمّا السّكر، فهو رذيلة بهيمية فاحشة. قد يوجد من الرذائل ما يكون للفكر فيها نصيب، بل لعلّ بعضها يملك شيئا من النبل، وبعضها الآخر يخالطه العلم، والحماسة، والشجاعة، والحذر، والمهارة، والرقّة: أمّا رذيلة السكر فهي مجرّد رذيلة جسديّة دنيويّة (...) ولئن كانت الرذائل الأخرى تُضعِف العقل، فإنّ السّكر يدمّره ويدمّر الجسم معه (...). إنّ أسوأ ما قد يحدث للمرء هو أن يغيب عن وعيه ويفقد السيطرة على نفسه. وإنّ الخمر، كمثل نقيع الشعير الذي يتخمّر في الوعاء ويدفع ما في القاع إلى السطح، ينشر الأسرار الدفينة لأولئك الذين يتناولونه بإفراط (...).

لا ريب أنّ العصور القديمة لم تشجب هذه الرذيلة؛ فالفلاسفة كتبوا عنها دون إيلائها أهمّية كبيرة، بل يوجد منهم، وحتى من بين الرواقيين، من نصح بالإفراط أحيانا في تناول الخمر كي تنشرح النّفس. وقد عِيب على **كاتون** شربه حتى الثمالة، رغم أنّه كان رقيبا شديدا وساهرا على أخلاق الآخرين.

إنّ طبعي وذوقي يأبيان هذه الرذيلة أكثر من عقلي. ذلك لأنّني، وإن كنتُ أقف مع القدامى في تقديرهم أنّها حقّا رذيلة خسيسة غبيّة، فإنّي أراها مع ذلك أقلّ فسادا وأخفّ ضررا من رذائل أخرى تستفزّ المجتمع. وإذا كنّا، كما يقال، لا نستطيع أن نتمتّع بشيء دون أن يكلّفنا ذلك بعض الخسارة، فإنّ هذه الرذيلة تكلّف ضميرنا أقلّ من غيرها، سيّما وأنّه يسهل إرضاؤها (...).

قد تدفعنا مساوئ الشيخوخة إلى طلب المساعدة والراحة، وقد تولّد فينا حقّا الرغبة في اللّجوء إلى هذه الوسيلة، لأنّها آخر الملذّات التي سلبتها منّا السِّنون (...).

يحرّم أفلاطون على الأطفال شرب الخمر قبل بلوغهم الثامنة عشرة، والسكر حتى الثمالة قبل بلوغ الأربعين. أمّا الذين تجاوزوا هذا السنّ، فلا ضير أن يتمتعوا بذلك وأن يضعوا ضيوفهم تحت تأثير **ديونيزوس**، ذلك الإله الذي يعيد إلى النّاس مرَحهم وإلى الشيوخ شبابهم، ويلطّف أهواء النّفس ويليّنها، مثلما يلين الحديد بفعل النّار.

وفي كتاب *القوانين*، يرى **أفلاطون** أنّ المجالس الخمرَية قد تُجنى منها فائدة، شريطة أن يوجد قائد فرقةٍ لتنظيمها ومنع كلّ انفلات: ذلك لأنّ السّكر طريقة ناجعة لاختبار طبيعة كلّ واحد، كما أنّها تمنح الشجاعة الكافية للأفراد الذين من سنّ معيّن كي يتعاطوا

متعة الرقص والموسيقى، إذ لا يملكون الجرأة للإقبال عليها في حالة الصّحو، مع أنّها شيء نافع: فالخمر قد يحثّ النّفس على الاعتدال، وهو نافع لصحّة البدن.

بيد أنّ **أفلاطون** يمتثل للقيود التي وضعها القرطاجيون، وهي أن يقع تجنّب الخمر في البعثات الحربية، وأن يمسك كلّ قاض أو رجل قانون عن تناوله عندما يكون بصدد أداء مهامّه وأثناء المداولة حول الشؤون العامة، وألّا يخصَّص له النهار كلّه على حساب مشاغل أخرى، ولا اللّيل كلّه بدل العناية بإنجاب الأطفال.

(من الباب الثاني، الفصل الثاني، عن *السّكر* *De l'ivrognerie*)

14 ـ عن الصّدق والكذب

وإن لم يقرأني أحدٌ، فهل أكون قد هدرتُ وقتي في تأمّلات أراها جدُّ ممتعة ومفيدة؟ لقد رسمتُ صورتي بإمعان النّظر في نفسي، وكان لا بدّ لي من نحت كياني وترتيبه إلى أن ثبتت هذه الصّورة وارتسمت. عندما رسمتُ نفسي للآخرين، صوّرتها بألوان أشدّ وضوحا من تلك التي كانت تصوّرني في الأوّل. إنّي لم أصنع كتابي، بل هو الذي صنعني.

إنّه كتاب من صُلب مؤلّفه: فهو لا همَّ له سواي، وهو جزء من حياتي، وليس له موضوع أو غاية أخرى غير ذاته، على خلاف الكتب الأخرى.

فهل أضعتُ وقتي في فحص ذاتي بعناية مستمرّة؟ إنّ أولئك الذين يراجعون أنفسهم بالعودة إلى كلامهم وأفكارهم، في لحظات عابرة، لا يتعمّقون فيها ولا يسبرون أغوارها مثل من يجعل من ذلك مبحثه ومهنته وشغله الشاغل، ماسكا سجلّا دائما، بكلّ ما أوتي من إيمان وقوّة. فاللّذات التي نتمتّع بها أكثر إنّما هي تلك التي تمكث بداخلنا وتتفادى أن تترك أثرا؛ إنّها تتفادى الظهور، سواء أمام الجمهور أو حتّى أمام فرد واحد لا غير.

كم من مرّة صرفني هذا العمل عن التفكير في أمور مملّة؟ هذا مع ضمّ كلّ التفاهات إلى صنف الأمور المملّة. لقد منحتنا الطبيعة القدرة على الانزواء مع أفكارنا، وهي تدعونا إلى ذلك كثيرا وتعلّمنا أنّنا مدينون بجزء من كياننا للمجتمع، ولكن أيضا بجزء أعظم لأنفسنا نحن بالذات. ومن أجل تهدئة مخيّلتي وجعلها تحلم ببعض المشاريع، وحتّى أجنّبها الهذيان والضياع في مهبّ الرّياح، كان يكفي أن أسجّل ما يعرض لها من أفكار دقيقة وأدوّنها. إنّي أمدّ أذني إلى أحلامي إذ لا بدّ لي من تسجيلها. كم من مرّة أزعجتني تصرّفات بعضهم، وصدّني العقل والكياسة عن نقدهم بطريقة مباشرة، ففعلتُ ذلك هنا وأرحتُ نفسي؛ هذا فضلا عن نيّتي المبيّتة، ألا وهي أن ألقّن درسًا للجمهور!

(من الجزء الثاني، الفصل الثامن عشر، عن *التكذيب*
(*Du Démentir*

15 - أن نكون ما نحن عليه

يكون بعض النّاس، كما قال أرسطو، على درجة من الغباوة حتى إنّهم يتظاهرون بالتقزّز من ملذّات الجسم. وأعرف منهم من يتظاهر بذلك بسبب الطموح. فلماذا، إذ ذاك لا يتخلّون حتّى عن التنفّس؟ ولماذا لا يقتصرون على مخزونهم ولا يرفضون أيضا النّور المجاني الذي لا يطلب منهم لا جهدا ولا اختراعا؟ (...) إنّي أكره أن يحلّق فكرنا بعيدا عندما نجلس إلى الطعام: فأنا لا أريده أن يتسمّر في الطعام، ولا أريده أن يتمرّغ فيه؛ أريده فقط أن يجلس إليه ويجدّ في الأكل، لا أن ينام هناك. كان أرستيب يدافع عن الجسم، كما لو كان لا يملك روحا؛ وكان زينون لا يعتني إلّا بالرّوح، كما لو كان لا يملك جسما؛ لقد أخطأ الإثنان. يُروى أنّ فلسفة فيثاغور كانت تقوم كلّها على التأمّل، وأنّ فلسفة سقراط كلّها عمل وأخلاق. أمّا أفلاطون فقد وجد الحلّ الوسط... لكن الحلّ الأعدل يوجد عند سقراط: وكان أفلاطون سقراطيّا أكثر منه فيثاغوريّا، وهذا يناسبه أكثر.

عندما أرقص، فأنا أرقص؛ وعندما أنام، فأنا أنام. وعندما أتجوّل وحيدا في حديقة غنّاء، وينشغل فكري بأمر ما، أعود به للتمتّع بالحديقة وحلاوة الوحدة فيها، أعود إلى نفسي. لقد أنعمتْ علينا الطبيعة بعطفها الأمومي وجعلت الأعمال التي تجرّنا إليها الحاجة مصدرا للّذة. وإنّها تدعونا إليها ليس بالعقل فقط، وإنّما بالرغبة أيضا. ولذا فمن السيّء أن نخالف قواعدها.

عندما يكون قيصر والإسكندر منشغلَيْن بأعمالهما، وأراهما مع ذلك يتمتّعان بالملذّات الإنسانية والجسدية، فإنّي لا أقول إنّهما تركا العنان لروحَيْهما، بل أقول على العكس إنّهما تصلّبا، إذ لا بدّ من الحزم والشجاعة لإكراه تلك المشاغل الشاقة والخطيرة على الارتخاء أمام عادات الحياة اليوميّة. ولعلّهما كانا حكيمَين حقّا إذ مثّلت هذه العادات عندهما طموحهما العادي، بينما بقيت الأمور الأخرى في نظرهما خارجة عن العادة.

يا للجنون ! إنّا نقول: «لقد أمضى حياته في الكسل»، «لم أقم بأيّ عمل اليوم». كيف؟ ألم تعيشوا؟ فهذا أفضل عمل قمتم به، بل إنّه ألمع أعمالكم. قد تقول: «لو طُلب منّي القيام بأعمال كبيرة، لأثبتّ جدارتي». لكن هل تأمّلتَ في حياتك على الأقلّ، وهل أمسكتَ بزمامها؟ لو فعلتَ لكنت أتيت بأكبر عمل !

لا تحتاج الطبيعة، كي تنشط وتبرز، إلى حدَث عظيم، وإنّما هي تظهر في كلّ طبقات المجتمع، بحجاب أو من دون حجاب. هل استطعتَ أن تنظّم سلوكك؟ لقد أنجزتَ أفضل ممّن ألّف كتابا. هل أخذتَ قسطا من الراحة؟ لقد فعلت أكثر ممّن استولى على مُدن ودُول. إنّ العمل المجيد هو أن يعيش المرء كما ينبغي أن يكون. وكلّ ما تبقّى، من سلطة ومال وجاه، إنّما هي زوائد حقيرة لا غير. قد أنبسطُ لرؤية جنرال في الجيش يقف تحت حِصن يستعدّ لمهاجمته، ولا يفوته مع ذلك أن يتمتّع بتناول غدائه ومحادثة أصدقائه. وكذلك أُعجب ببروتوس (Brutus) إذ كان، رغم مواجهته للحرّية الرومانية وللسماء والأرض، يختلس من دوريّاته اللّيلية بعض الوقت لقراءة بوليبيوس (Polybe) وتسجيل ملاحظاته في كنف الراحة والهدوء. إنّ صغار النّفوس هم الذين يُدفنون تحت وطأة مشاغلهم، ولا يعرفون كيف يتخلّصون منها، كيف يتخلّون عنها وكيف يعودون إليها.

إنّ رفعة النّفس لا تتمثّل في المضيّ قدما إلى الأمام والأعلى، بقدر ما تتمثّل في حُسن تدبير موقعنا والمكوث فيه؛ ويكون الكافي في نظرنا جِدُّ كثيرا، كما تظهر عظمتنا في تفضيل الأشياء المتوسطة على الأشياء الفائقة. لا شيء يكون أكثر جمالا وأحقّية من كوننا نحسن صنع *الإنسان* الذي ينبغي، كما لا شيء يفوق مشقّة الطريقة التي بها نحيا حياة جيّدة. إنّ أخطر مرض يصيبنا هو أن نحتقر أنفسنا وما نكون عليه.

يرغب الفلاسفة في الهروب من أنفسهم، أي من الإنسان. هذا هو الجنون بعينه: فبدلا من أن يتحوّلوا إلى ملائكة، يتحوّلون إلى وحوش؛ وبدلا من الارتفاع، ينخفضون.

إنّ الكلمة النبيلة التي نقشها الأثينيون ترحيبا بقدوم بومبي (Pompée) إنّما تعبّر عن رأيي: «*بقدر ما تعلم أنّك إنسان، فأنت إله*»[1].

الكمال المطلق، بل الكمال الإلهيّ، هو أن نُحسن التمتّع بذواتنا على الوجه الذي نكون عليه. وإن كنّا نبحث عن وسائل أخرى للوجود فالسبب هو أنّنا لم نحاول معرفة وسائلنا؛ وإنّا نخرج من ذواتنا لكوننا نجهل ما يحدث فيها. وبالتالي فمهما توكّأنا على العكاكيز البهلوانية، لا يزال يتعيّن علينا المشي بأرجلنا. ومهما تربّعنا على أعلى عرش في الدّنيا، فإنّنا لا نزال نجلس على مؤخّرتنا.

(الباب الثالث، الفصل 13، عن *التجربة* *De l'expérience*)

(1) عن بلوتارخوس، حياة بومبي
Plutarque, Vie de Pompée (106-48 av. J-C), XXVII, trad. Française de Bernard Latzarus, 1950.

16 - الآخَر

عندما أعتبر ما أبداه آلاف الرّجال والنّساء والأطفال من حماس لا يُقهر في ركوب الأخطار من أجل الدّفاع عن حرّيتهم والذبّ عن آلهتهم، وما تحلّوا به من حزم نبيل في تحمّل الشدائد وتفضيل الموت على الاستسلام لأولئك الذين خدعوهم بأبشع الطرق؛ وعندما أرى بعضهم قد اختاروا الموت جوعًا بعد أن وقعوا في الأسر، وألّا يتسلّموا الطعام من أيدي أعدائهم الذين هزموهم بغير شرف، يجوز لي أن أقول إنّه لو تمّت محاربتهم ندًّا لندٍّ، بنفس الأسلحة ونفس الخبرة ونفس العدد، لكانت هذه المحاربة محفوفة بنفس المخاطر، بل بمخاطر أعظم حتّى ممّا نعرفه في الحروب عموما.

إنّ ما يؤسَف له حقًا هو أنّ مثل هذا الفتح النبيل لم يقع في عهد الإسكندر أو غيره من اليونانيين والرّومانيين القدامى، وأنّ التحوّلات العظيمة التي شهدتها تلك الأمم والشعوب لم تكن من إنجاز أناس كانوا يرغبون في تهذيب طبعها المتوحّش وتلطيفه، بإنماء البذرات الطيّبة التي زرعتها فيها الطبيعة، وبدمج تقنيّات عالمنا الحاضر في فلاحتها وفي زينة بناياتها بقدر ما تطلبه الضرورة، وكذلك بالتأليف بين الفضائل اليونانية والرّومانية وفضائل تلك الشعوب الأصليّة.

لعلّ حالنا وحال الإنسانية قاطبة كان أفضل، لو كنّا قدوة أُولى لتلك الشعوب وجعلناها تنسج على منوالنا وتُعجب بفضائلنا وتحاكيها، ولو ربطنا بيننا وبينها أواصر الصّداقة والمحبّة! لعلّه كان الآن من السّهل أن نستفيد من أرواح يافعة جديدة، متعطّشة للمعرفة، حائزة على استعدادات طبيعية جميلة!

على العكس من ذلك، استغلَلْنا جهلهم وعدم خبرتهم، وعلّمناهم الخيانة والغدر والفسوق والجشع وكلّ أنواع التوحّش واللّا إنسانية، على منوال ما تتّسم به أعمالنا وأخلاقنا.

هل كلّفت مصالحنا التجارية يومًا ثمنًا باهظًا كهذا؟

كم من المدن دُكّت دكّا، كم من الشعوب أُبيدت بحدّ السّيف، كم من الاضطرابات أُحدثت في أجمل مناطق العالم وأغناها لفائدة تجارة المجوهرات والبهارات... يا خيبة المسعى!

لم يدفع الطموح النّاس أبدا، ولم تجرّهم العداوة أبدًا إلى الوقوف بعضهم ضدّ بعض ومعاداة بعضهم لبعض بمثل هذه الفظاعة الكارثية الرّهيبة.

(من الجزء الثالث، الفصل السادس، عن *العربات*
(*Des Coches*

17 – الآخَر (مكرَّر)

في أثناء سيرهم على طول السواحل بحثا عن المناجم، اقترب الإسبان من منطقة جميلة، خصبة ومكتظّة بالسكّان، وقدّموا للأهالي التصريحات المعتادة: «نحن أناس مسالمون، وصلنا إلى هنا بعد رحلة طويلة، أرسلنا ملك قشتالة، أعظم ملك في المعمورة، وقد منحه البابا، خليفة الله في الأرض، سلطة مطلقة على كامل أراضي الهند. فإن خضعتم لهذا الملك ودفعتم الجزية، أحسنّا معاملتكم؛ فنحن نطلب منكم ما يقيم أوَدنا من الطعام، وما يلزم من المال لقاء أدويتنا؛ ويجب أن تقبلوا الإيمان بإله واحد، وبصدق ديانتنا التي نحضّكم عليها». وأضافوا إلى هذا بعض التهديدات.

كان جوابهم على النّحو التّالي: «أمّا أنّكم شعب مسالم، فإنّ مظهركم لا يدلّ على ذلك، رغم أنّ الأمر جائز. وأمّا ملِككم، فإذا كانت له أشياء يطلبها، فهذا دليل على أنّه فقير ومحتاج؛ وإنّ من يوزّع الأراضي كما قُلتم إنّما هو بالتأكيد رجل محبّ للشّقاق، إذ يريد أن يعطي ما لا يملك وأن يشعل الحرب مع المالكين الأصليين. أمّا المؤونة، فقد نزوّدكم بها، وأمّا الذهب، فليس لدينا منه الكثير، لأنّنا لا نوليه أيّة أهمّية، فهو لا ينفع حياتنا التي نرغب فقط أن نقضّيها في البهجة والسعادة. وبشأن الإله الواحد، فهذه الفكرة قد تروق لنا، غير أنّنا لا نريد أن نتخلّى عن ديانة عادت علينا بالمنفعة منذ زمن طويل، فضلًا عن كوننا لم نتعوّد على أخذ النصيحة عدا من أصدقائنا ومعارفنا. أمّا تهديداتكم، فهي علامة على سوء التقدير والحكم، إذ تهدّدون. أناسا تجهلون كلّ شيء عن طبعهم وقدراتهم. وبالتّالي، عجّلوا بمغادرة أراضينا، لأنّنا لم نتعوّد أن نعطف على الأجانب المسلّحين؛ وإلّا أنزلنا بكم ما أنزلناه بغيركم...» وأشاروا إلى الرّؤوس التي عُلّقت في الدّوائر بعد التنكيل بأصحابها. هذه عيّنة من لعثمة أولئك الذين يُزعم أنّهم «أطفال قُصّر».

(من الجزء الثالث، الفصل السادس، عن *العربات* (*Des Coches*

18 - في مدح التنوّع

إنّ بدني وذوقي يطاوعان بسهولةٍ كلّ شيء؛ وإنّ التنوّع هو أكثر ما يعجبني في طرق عيش الشعوب المختلفة؛ لكلّ عادة أسبابها ودواعيها؛ وكلّ طعام يروق لي، أكان مسلوقا أم مشويّا، بالزبدة أم بالزيت، بالزيت النباتي أم بزيت الزيتون، ساخنًا أم باردًا، سواء قُدّم لي في صحن من القصدير أو الخشب أو الطّين. حتّى إنّني، بعد ما نال منّي الهرم، أصبحت ألوم نفسي على أريحيّتي، إذ ينبغي أن أعتدل في الأكل وأن أوجّه شهيّتي نحو الطعام المريء، رفقًا بمعدتي.

عندما زرتُ بلدانًا خارج فرنسا، كان يُطلب منّي، إرضاءً لي، إن كنتُ أرغب أن تقع خدمتي على الطريقة الفرنسية، فكنتُ لا أكترث بذلك وأهرولُ نحو الموائد المأهولة بأكثر عدد من الأجانب.

إنّي أخجل من رؤية أهالينا وقد تغلّبت عليهم تلك العادة القبيحة المتمثّلة في النّفور من التقاليد المغايرة لتقاليدهم. فحيثما ذهبوا، تراهم يتشبّثون بعاداتهم ويمقتون العادات الأجنبية؛ فإذا صادفوا بعض مواطنيهم في المهَجر، احتفلوا بذلك، واتّحدوا وتحالفوا في إدانة الأخلاق «المتوحّشة» التي اكتشفوها. لماذا لا تكون «متوحّشة»، والحال أنّها ليست فرنسيّة؟ بل إنّ ذمّها يكون، في رأيهم، دليل نباهتهم وذكائهم. إنّ معظمهم لا يسافرون بعيدا إلّا بنيّة العودة؛ يسافرون مختبئين منغلقين، في صمت حذر، لا يتواصلون كثيرا، يحمون أنفسهم من عدوى محيط مجهول.

يذكّرني ذلك بسلوك مماثل عاينته عند عدد من نبلائنا الشبّان. إنّهم لا يولون اهتماما إلّا بأمثالهم، وينظرون إلينا بازدراء أو شفقة، كما لو كنّا من عالم آخر. أزيلوا عنهم حكايات البلاط وأسراره، وسيصيبهم الإفلاس؛ سيصبحون في نظرنا على درجة من الشذوذ والرعونة، مثلما نحن في نظرهم. صدق من قال: إنّ «الرجل الصالح» هو الرجل المتفتّح.

أمّا أنا فإنّي، على العكس، أسافر لكَوني مللتُ طريقة عيشنا، وليس بحثًا عن الغاسكونيين في جزيرة صقليّة؛ فهؤلاء كثيرون في بلدنا. إنّي أرغب في مقابلة اليونانيين

والفُرس، فأقترب منهم وأفحصهم وأجيل فيهم النظر؛ وأعتقد أنّني لم أصادف عندهم سلوكًا لا يرتفع إلى مستوى سلوكنا.

(من الجزء الثالث، الفصل التاسع، عن الغرور *De La Vanité*)

19 - عن المستعمر وعن «المتوحش الطيب»

لقد اكتشف عالـَمُنا عالـَما آخر (...). إنّه عالم شابّ جديد، حتّى أنّه لا يزال يتعلّم حروف اللّغة الأولى. قبل خمسين سنة على أقصى تقدير، كان لا يعرف لا الحروف، ولا الأوزان، ولا المقاييس، ولا الثياب، ولا القمح ولا الكروم؛ كان لا يزال عاريا في حضن أمّه يعيش بفضلها (...).

إنّ أخشى ما أخشاه هو أنّنا عجّلنا انحطاطه وفساده بتلويثه وتدنيسه، وجعلناه يدفع ثمنًا باهظًا لقاء أفكارنا وتقنيّاتنا. كان لا يزال في مرحلة الطفولة، ومع ذلك لم ندرّبه ولم نطوّعه لقواعدنا بحُكم قيمتنا وقُوانا الطبيعية وحدها. لم نستعمره بعدلنا وطيبتنا، ولم نأسر لبّه بشهامتنا. لقد بيّنت المفاوضات التي أقمناها مع أهالي ذلك العالم ومعظم الإجابات التي قدّموها أنّهم ليسوا دوننا فيما يتعلّق بوضوح التفكير ووجاهته.

من بين عجائب أخرى كثيرة، فإنّ مدينتيْ كوزكو (Cuzco) ومكسيكو (Mexico) العظيمتين الرائعتين، وإنّ حدائق الملك حيث تصطفّ الأشجار والثمار والأعشاب بنظام واحد وحجم واحد، مرصّعةً بالذهب، وكذلك غرفة العجائب حيث جُمعت كلّ أنواع الحيوانات الموجودة في البحار وعلى اليابسة، وإنّ جمال المنتوجات المصنوعة من الذهب والرّيش والقطن، أو المصبوغة: إنّ كلّ هذا يثبت أيضا أنّهم لم يكونوا أقلّ منّا مهارة. أمّا عن التّقوى، وطاعة القوانين، وطيبة القلب، والكرم، والصراحة، فلعلّ من حظّنا أنّنا لا نملك ما يملكون: لأنّ تفوّقهم في هذا المجال هو ما أهلكهم، إذ باعوا أنفسهم وغدروها.

أمّا فيما يتعلّق بالجرأة والشجاعة، والحزم والمثابرة، والجلَد أمام الألم والجوع والموت، فإنّي لا أخشى أن أقارن بينهم وبين القدامى الذين بقيت مآثرهم راسخة في ذاكرتنا. فلو أخذنا في الاعتبار دهشتهم لحظة رؤيتهم غرباء ملتحين يفاجئونهم، يتكلّمون لغة أخرى ويدينون بدَيْن آخر، مختلفين عنهم في مظهرهم وعاداتهم، قادمين من عالم بعيد لم يعلموا بوجوده أبدا، راكبين على وحوش ضخمة مجهولة، إذ لم يسبق أن رأوا في حياتهم حصانا، بل لم يروا دابّة مروّضة على حمل إنسان أو بضاعة؛ ولو اعتبرنا أنّهم وجدوا أنفسهم أمام أشخاص يلبسون «جِلدًا» يابسًا لمّاعًا ويملكون أسلحة مُشعّة، والحال أنّهم يفتقرون إلى وسيلة يخترقون بها حديدنا، بل يجهلون حتّى كيف

يمكنهم ذلك، كما أنّهم مستعدّون أن يفرّطوا في ثرواتهم ومجوهراتهم في سبيل الفوز بمرآة ساطعة خارقة؛ ولو أضفنا إلى كلّ ذلك بنادقنا ومدفعيّاتنا المُبرقة المُرعدة، القادرة على إرباك قيصر نفسه إذ لا خبرة له بمثل هذه الأسلحة؛ ولو اعتبرنا أنّ كلّ ذلك قد حدث ضدّ شعوب عارية، ما عدا في الأقطار التي ابتكرت النسيج، شعوب لا تملك من الأسلحة سوى الأقواس والحجارة والعصيّ والدروع الخشبية، شعوب غُدرَ بها من جرّاء ودّها وصفاء نيّتها وحبّ اطّلاعها على الأشياء الغريبة المجهولة...؛ ولو اعتبرنا أخيرا الحيَل والخدع التي استُعملت لغدرهم وإخضاعهم، وتركنا جانبا كلّ ما ساعد الغزاة على التفوّق، لجرّدنا هؤلاء، في ذات الوقت وبفعل الواقع، ممّا ساعدهم على تحقيق عديد الانتصارات.

(من الجزء الثالث، الفصل السادس، عن *العربات*
(*Des Coches*

فهرس الأعلام

- أ -

- ب -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

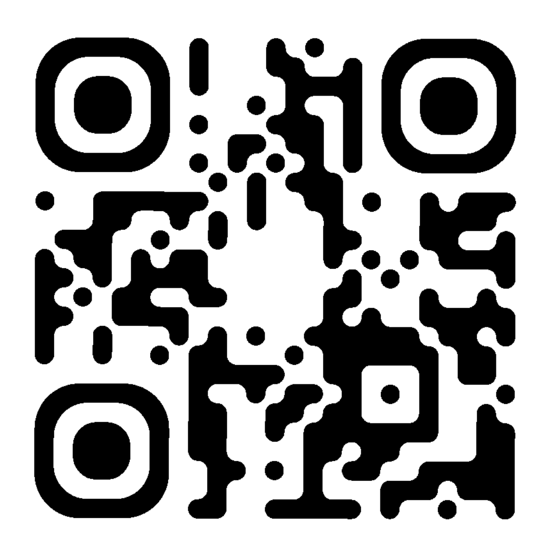
- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- ي -



الجزء الأول من كتاب مقالات تأليف ميشيل مونتاني، مع مختارات من الجزأين 2 و3

***

إنه كتاب حاضر في كل زمانٍ ومكان، هكذا قيل عنه دائماً وعلى مدى قرون.

سارة بيكويل –مؤلفة كتاب كيف تُعاش الحياة.

***

يفتتح مونتاني كتابه برسالة إلى القارئ تعبّر عن هدفه من كتابة هذه المقالات:

"أقدم لك هذا الكتاب بنيّة صادقة، حيث أنبّهك منذ البداية إلى أنّ الغاية من إعداده هي مجرّد غاية خاصة وشخصية، فأنا لم أضعه كي أساعدك ولا طلبًا للمجد.

... فلو كنت أرغب في نيل حظوة الناس، لزينت نفسي بأبهى الحلل، لكنّي أريد، على العكس، أن يعاينوا بساطتي وسلوكي العادي، دونما تحذلق ولا زيف، لكوني أرغب في رسم صورة ذاتي. من خلال هذا الكتاب ستبرز عيوبي ونقائصي التي سمحت بها لنفسي في حدود احترامي للجمهور".

ميشيل دي مونتاني، هو أحد أهم أعلام عصر النهضة. ففي العام 1572 تقاعد مونتاني واستقرَّ في عزبته بهدف الاسترخاء والقراءة والتأمل. وهناك كتب مقالاته التي استوحى مضامينها من الكتب التي قرأها ومن تجارب حياته أيضًا.

يقول مونتاني عن مقالاته إنها: " كتابٌ متّحدٌ مع مؤلفه"، موضحا بذلك قوة وسحر وجاذبية هذا العمل الذي قدّم لنا واحدًا من أكثر الأسماء جاذبية في الثقافة الأوروبية. مفكّر إنساني، متشكك، ملاحظٌ دقيقٌ لنفسه ولمن حوله. يعكس ثيمات الوجود الكبرى من خلال طيف تجليات وعيه الذاتي.

تظهر في كل سطر من كتاباته قيمةُ عن التسامح والاعتدال والاستقصاء الموضوعي، كتابات تبلغ حد أن تكون مانفيستو غير رسمي لعصر التنوير الذي كان هو رسوله.




ISBN 978-9938-941-51-7

